التمهيد في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفة

الجزء السادس

دار التعارف للمطبوعات

التمهيد
في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفة

الجزء السادس

دار التعارف للمطبوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

فهرس مواضيع الكتاب

الإعجاز العلمي

الباب الثاني

في الإعجاز العلمي

«قُل أنزَلَهُ الّذي يَعلَمُ السِّرَّ في السَّماواتِ وَالأرض»[١]

إشاراتٌ عابرة وإلماعاتٌ خاطفة

عن أسرار الطبيعة وغياهب الوجود

لاشكّ أنّ القرآن كتابُ حكمةٍ وهدايةٍ وتربيةٍ وإرشاد «يَتلو عَلَيهِم آياتِهِ ويُزَكّيهِم و يُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمة»[٢] «و يُحلُّ لَهُمُ الطيّباتِ و يُحرِّمُ عَلَيهِمُ الخبائث»[٣]. «ويُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِه»[٤]. «لِيَكونَ لِلعالَمينَ نَذيراً».[٥]

هذه هي رسالة القرآن رسالة الله في الأرض «أرسَلَ رَسولَهُ بِالهُدى وَدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدينِ كُلِّه».[٦]

إذاً فليست الشريعة دراسة طبيعة، ولم يكن القرآن كتاب علم بالذات سوى إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، وإلماعات خاطفة وسريعة إلى بعض أسرار الوجود، وإلى

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٦.
٢ ـ آل عمران ٣: ١٦٤، الجمعة ٦٢: ٢.
٣ ـ الأعراف ٧: ١٥٧.
٤ ـ المائدة ٥: ١٦.
٥ ـ الفرقان ٢٥: ١.
٦ ـ الفتح ٤٨: ٢٨؛ الصف ٦١: ٩.

طرف من كوامن أسباب الحياة. لكن إجمالاً وفي غموضٍ تامّ يعرفها العلماء الراسخون، إذ لم تصدر على سبيل القصد والبيان، وهي في نفس الوقت تنمّ عن خضمّ بحرٍ لا ينفد، وعن مخزون علمٍ لا يتناهى. «قُل لَو كانَ البَحرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبلَ أن تَنفَدَ كَلِماتُ ربِّي وَلو جِئنا بِمِثلِه مَدَداً»،[١] «وَأنّ اللهَ قَد أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلماً».[٢]

نعم، إنّها شذرات بدت من طيّ كلامه تعالى، ورشحات فاضت من عرض بيانه، كانت عظيمة وفخيمة، كلّما تقدّمت ركب الحضارة، وتألّق نجم العلم والمعرفة على آفاق الوجود، وإذا بالقرآن يسبق الإنسان بخطوات، و لايكاد يلحق أذياله في هذا المسير «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيء».[٣]

❊ ❊ ❊

وهذا نظير ما يُؤثَر عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام من كلمات جاءت في عرض كلامه، وهي تنمّ عن خضمّ بحر متلاطم أمواجه، بعيد أغواره، أو كما قال هو عليه السلام: ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير. فمن ذلك قوله في عجائب خلقة الإنسان: إعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم، ويتكلّم بلحم، و يسمع بعظم، ويتنفّس من خرم.[٤]

كان علم التشريح[٥] القديم يرى من طبلة الأُذن[٦] العضو الأساسي لآلة السمع، وذلك بِتَذَبذُبٍ يحصل فيه على أثر الموج الصوتي الوارد عليه، وعلى أثره يحصل تموّج في الهواء الراكد المحفوظ في حفرة الصماخ خلف هذا الغشاء، وهذا التموّج يؤثّر في العصب الدماغي المفروش على سطح الصماخ الباطني، وبذلك ينتقل الصوت إلى مركزه في المخّ ويحصل السماع.[٧]

---

١ ـ الكهف ١٨: ١٠٩.
٢ ـ الطلاق ٦٥: ١٢.
٣ ـ النحل ١٦: ٨٩.
٤ ـ نهج البلاغه، قصار كلماته رقم ٨، ص ٤٧٠.
٥ ـ علم وظائف الأعضاء، و قد شرحه ابن‌سينا في القانون في الطبّ، ج ١، ص ٢٤ فما بعد.
٦ ـ هو الغشاء الفاصل بين التجويفين الداخلي والظاهري للأُذن.
٧ ـ قال ابن سينا بصدد تشريح الأُذن: الأُذن عضو خُلِق للسمع وجعل له صدف معوجّ ليحبس جميع الصوت ويوجب ←

وبذلك تعرف أن لا شأن للعظام في أجهزة السمع في نظرة الأطبّاء القدامى.

ومن ثمّ حمل ابن أبي الحديد ذلك على مخاطبة العامّة بما يفهمونه من ظاهر الكلام، قال: هذا كلامٌ محمولٌ بعضه على ظاهره لما تدعو إليه الضرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه والعدول عمّا لا تقبله عقولهم ولا تعيه قلوبهم. قال: فأمّا السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق وإنّما هو بالقوّة المُودَعة في العصب المفروش في الصماخ كالغشاء. فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثقب الأُذن المنتهي إلى الصماخ ـ بعد تعويجات فيه ـ جعلت لتجري مجرى اليراعة المصوّتة، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصب الحامل للقوّة السامعة، حصل الإدراك. قال: وبالجملة، فلابدّ من عظم، لأنّ الحامل للّحم و العصب إنّما هو العظم.[1]

أمّا ابن ميثم فحمل كلامه عليه السلام على إرادة عظم الصدغ الحاوي على جهاز السمع، قال: وأراد بالعظم الذي يُسمع به العظم المسمّى بالحجري، و هو عظم صلب فيه مجرى الأُذن كثير التعاريج والعطفات، يمرّ كذلك إلى أن يلقى العصبة النابتة من الدماغ التي هي مجرى الروح الحامل للقوّة السامعة.[2]

أمّا التشريح الحديث[3] فيرى أنّ حاسّة السمع إنّما تقوم بسلسلة عظام متّصلة بطبلة

← طنينه، و ثقب يأخذ في العظم الحجري ملولب معوجّ ليكون تعويجه مطولاً لمسافة الهواء إلى داخل مع قصر تحته. و ثقب الأُذن يؤدّي إلى جوبة (حفرة) فيها هواء راكد وسطحها مفروش بليف العصب الدماغي. فإذا تأدّى الموج الصوتي إلى ما هناك أدركه السمع. والصماخ كالثقبة العنبيّة المشتملة على الهواء الراكد الذي يُسمع الصوت بتموّجه. القانون في الطبّ، ج ٢، ص ١٤٨-١٤٩ الفن الرابع في أحوال الأُذن. وقال عند تشريح العصب الدماغي: تنبت من الدماغ أزواج من العصب سبعة ... وأمّا الزوج الخامس فكلّ فرد منه ينشقّ بنصفين على هيأة المضاعف، ومنبته من جانبي الدماغ، والقسم الأول من كلّ زوج منه يعمد إلى الغشاء المستبطن للصماخ فيتفرّق فيه كلّه. وهذا القسم منبته بالحقيقة من الجزء المؤخّر من الدماغ وبه حسّ السمع. القانون، ج ١، ص ٥٤-٥٥.

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨ ص ١٠٣-١٠٤.

٢ ـ شرح ابن ميثم، ج ٧، ص ٣٠ باب المختار من حكمه.

٣ ـ الأُذن كما يفصّلها علماء التشريح مركّبة من ثلاثة أجزاء:

الأوّل: الأُذن الظاهرة، وهي المكوّنة من صفيحة غضروفية، وتسمّى «الصيوان» و من قناة تمتدّ داخل العظم الصدغي، على جانبيها عدّة ثقوب تتّصل بغدد تفرز دهناً ثخيناً أصفر يسمّى «الصملاخ» ضروريّ لصحّة الأُذن متى أدّى وظيفته ←

الاُذن كائنة خلفها،فينتقل الصوت بواسطتها إلى العصبالسمعي الذي تـنقل آثـاره إلى الدماغ.

وذلك أنّ ذرّات الوسط الناقل للتموّجات الصوتيه تهتزّ باهتزاز مصدر الصوت، فإذا صادف أن التقطت الاُذن بعض هذه التموّجات ومرّت في القناة السمعية ـو هو الجـزء الظاهر منها ـ فإنّ تأثيرها يصل إلى الطبلة الموجودة في نهاية القناة السمعية، فتهتزّ بتأثير

← خرج بنفسه ولَفَظَتْهُ الاُذن، فيرفعه الإنسان بإصبعه بسهولة.

الثاني: الاُذن المتوسّطة، تنفصل عن الاُذن الظاهرة بغشاء الطبلة، و هو غشاء شفّاف تحته تجويف ضيّق يتّصل بالفم الخلفي بواسطة قناة. وفي أقصى هذا التجويف فتحتان مسدودتان بغشاء مشدود، هما متّصلتان بالاُذن الباطنة. إحدى هاتين الفتحتين متّصل بها أربع عُظيمات تتحرّك بعضلات صغيرة، وتحدث توتّراً أو استرخاءً في الغشاء المرتكزة عليه.

الثالث: الاُذن الباطنة، هي الجزء الانتهائي، وهي مكوّنة من دهليز تنفتح فيه قنوات أشكالها كأنصاف الهلال، مملوءات بسائل من نوع السائل الذي يملأ ذلك الدهليز. وبجانب تلك القنوات عضو يشبه القوقعة مملوء بسـائل، ومـتّصل بصندوق الطبلة. وفي هذه الاُذن الباطنة تتوزّع أفرع العصب السمعي.

ولايخفى أنّ المتكلّم إنّما يحدث بكلامه ارتجاجاً في الهواء، على توقيع خاصّ، فتصل تلك الارتجاجات الهوائيّة إلى صيوان الاُذن، ومنه تدخل إلى القناة السمعيّة الظاهرة، ومنها إلى غشاء الطبلة الذي هو أسفل تلك القناة فترجّه فيرتجّ، فتتبعه العظيمات السمعيّة التي هي على الغشاء، فتحدث في ذلك الغشاء توتّراً، أو رخاوةً بواسطة عضلاتها، عـلى حسب شدّة الصوت و ضعفه. وفي نفس الوقت تحدث الارتجاجات عينها في الهواء الموجود في صندوق الطبلة، فينتقل منها إلى الاُذن الباطنة بواسطة الفتحتين اللتين ذكرناهما، و هنالك تتأثّر الأعصاب السمعيّة، و ينقل الصوت إلى المخّ فتدركه الروح وتفهمه. دائرة معارف القرن العشرين، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦.

والاُذن الوسطى تجويف مملوء بالهواء، في داخل العظم الصدغي، ويسمّى «صندوق الصماخ» وشكله كعدسة مقعّرة الطرفين، ارتفاعه ١/٥ سانتيمتر، وينفصل عن الاُذن الخارجية بواسطة غشاء الصماخ. وصندوق الصماخ يتّصل بحفر الأنف بواسطة تجويف مخروطيّ الشكل، و له فتحات دائرية الشكل، وبيضيّته تفصله عن الاُذن الداخلية.

وغشاء الصماخ غشاء رقيق، سعته التقريبية سانتيمتر مربع، ويشكّل في قعر الاُذن زاوية بدرجة(٤٥-٤٠) و يكون تحديبه إلى الداخل.

وهذا الغشاء متكوّن من ثلاثة أجزاء: سطحه الخارجي جلدة رقيقة، وسطحه الداخلي مادّة مخاطيّة، و في الوسط طبقة متشابكة من ألياف عصبية كثيرة.

وعلى السطح الداخلي للغشاء عظيمات على أشكال مدقّات أو مطرقات صغيرة، متّصلة به بواسطة عضلات . وهذه العظيمات واقعة بين غشاء الصماخ والفتحات البيضيّة الشكل في نهاية الاُذن.

وهذه العظيمات هي التي تنقل التذبذبات الصوتية من غشاء الصماخ إلى الفتحات البيضية، ومنها إلى ألياف العصب السمعي فإلى المخّ. لغت نامه ـ دهخدا، ج ١٢، ص ١٩٣٨٠.

الفرق بين الضغوط الواقعة على و جهيها الأمامي و الخلفي فتنتقل هذه التغيّرات بواسطة سلسلة العظام المتّصلة بها إلى السائل الذي تسبح فيه فروع العصب السمعي الذي تنقل آثاره إلى المخّ.

وبذا يكون الإنسان قد تمكّن ـ بنتيجة تعوّده سماع أصوات مختلف الآلات ـ من تعيين شدّة الصوت الذي وصل إلى سمعه و درجته و نوعه.[1]

❊ ❊ ❊

وأمّا حاسّة الإبصار فلا تختلف النظرة القديمة عن النظرة الحديثة، في أنّها قائمة بشحمة العين[2] وقد عبّر عنها ابن سينا في القانون بالرطوبة الجليدية، قال: و هي رطوبة صافية كالبرد و الجليد مستديرة ينقص تفرطحها من قدّامها...[3] فإن كان أراد بها نفس الشحمة التي جاءت في تعابير المتأخرين، وإلاّ فهو دليل آخر على إعجاز كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العالم بخبايا العلوم و أسرار الوجود.

❊ ❊ ❊

هذا، والمقال من إفادات والدي العلّامة المرحوم «الشيخ علي معرفة» نبّه عليه في كثير من خطاباته على حشود أهل الأدب و المعرفة من أبناء كربلاء المقدّسة قبل هجرتنا إلى النجف الأشرف التي وقعت في العقد الثامن من القرن الرابع عشر للهجرة. فرحمة الله عليه من والدٍ بارّ و مؤدّب كريم.

---

۱ ـ مبادئ العلوم العامّة، ص ۳٦۲.

۲ ـ قالوا: العين هي الجزء المسبّب لحاسّة الإبصار، وتتكوّن من شحمة على هيئة كرة تستطيع الحركة داخل كساء يتركب من جزءين، أحدهما معتم والآخر شفّاف، و يسمّى الأخير بالقرنيّة. و هو عبارة عن قرص كثير التحدّب يشبه زجاجة الساعة، يوجد خلفه قرص ملوّن مستدير يسمّى «القزحيّة» و في وسطه ثقب يسمّى «البؤبؤ». و تسدّ البؤبؤ من الداخل عدسة لامّة شفّافة وظيفتها جمع الأشعة الضوئية المارّة بالبؤبؤ على حاجز خلفها يسمّى «الشبكيّة» حيث ينتهي العصب البصري فيها بتفرّعات دقيقة جدّاً، و بواسطة هذا العصب تنتقل التأثيرات الضوئية إلى الدماغ. مبادئ العلوم، ص ۳۵۱-۳۵۲.

۳ ـ القانون في الطبّ، ج ۲، ص ۱۰۸. وتبعه على هذا التعبير سائر الأطبّاء القدامى الذين تأخّروا عنه، قبل أن تزدهر شُعَب العلوم في العصر الأخير.

وما هداني إلى هذا الطريق إلاّ عنايته بتربيتي هذه التربية الدينية الصالحة ـ إن شاء الله ـ و الخالصة لله تعالى، إعلاءً لكلمته و إحياءً لشريعته المقدّسة.

فليكن إنجازي لهذا المشروع القرآني الضخم (في محتواه و غايته) والمتواضع (في عمله) هديّة إلى روحه الطيّبة[١] جزاءً من الله عنّي و عن الإسلام خير جزاء الصالحين، و حشره مع أوليائه الأئمّة الميامين محمّد و آله الطاهرين عليهم صلوات ربّ العالمين.

وبعد، فإذا ما أضفنا إلى هذه الحقيقة المُذهلة، أنّها عُرضت على يد رجل اُمّي لا يكتب ولا يقرأ عن كتاب ولا درس عند اُستاذ، من اُمّةٍ عربية جاهلة، وفي بيئة بدوية متوغّلة في البداوة، في صحراء جرداء قاحلة، بعيدة عن حضارات الاُمم وثقافات العالم بمسافات شاسعة، فنحن إذاً أمام معجزة خارقة للعادة، لاشكّ فيها ولا ريب، و إنّما يكابر فيها من استغلق على نفسه مشارع البصيرة، وعاقب نفسه إذ حجب عنها إشعاع تلك الرحمة التي يشعّها هذا الكتابُ الكريم.

«إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفوراً».[٢] «فَإنَّها لاتَعْمى الأبْصارُ وَلكِن تَعْمى القُلوبُ الَّتي في الصُّدور».[٣] «وَما يُلَقّاها إلّا الَّذينَ صَبَروا وَما يُلَقّاها إلّا ذو حَظٍّ عَظيم».[٤]

❊ ❊ ❊

وليُعلم أنّنا في هذا العرض إنّما نحاول فهم جانب من الآيات الكونية، ربّما صعب دركها قبلئذٍ، وأمكن الاهتداء إليها في ضوء حقائق علمية راهنة، جهد المسطاع. وقد نخطئ الصواب، ويعود العتب علينا بالذات.

إنّنا لانحاول تطبيق آية قرآنية ذات حقيقة ثابتة على نظرية علمية غير ثابتة وهي قابلة للتعديل والتبديل، إنّما مبلغ جهدنا الكشف عن حقائق وأسرار كونية انطوت عليها لفيفٌ من آيات الذكر الحكيم، كشفاً في ضوء العلم الثابت يقيناً حسبما وصلت إليه

---

١ ـ توفي رحمه الله في ٢٢ صفر ١٣٧٩ عن عمر جاوز الستّين (٦٣) و دفن في كربلاء بجوار أبي الفضل العباس بن علي عليه السلام في الصحن الشريف على يمين الداخل من الباب الخلفي تحت الطاق.

٢ ـ الإنسان ٧٦: ٣.

٣ ـ الحجّ ٢٢: ٤٦.

٤ ـ فصّلت ٤١: ٣٥.

البشرية قطعياً، ممّا لا يحتمل تغييراً أو تعديلاً في سيره، نظير ما وصل إليه العلم من دورة المياه في الطبيعة، والجاذبية العامّة، ودرجات ضغوط الأجسام وما شابه.

فإنّ بقاء الآية على إبهامها أولى من محاولة تطبيقها على نظريّة علميّة غير بالغة مبلغ القطعية والكمال، وربّما كانت تحميلاً على الآية وتمحّلاً باهتاً، إن لم يكن قولاً على الله بغير علم.

هل القرآن مشتمل على جميع العلوم؟!

قلنا: إنّ الإشارات العلميّة التي جاءت في القرآن الكريم إنّما كانت رشحات فاضت من عرض بيانه الحكيم، لأنّها صدرت من منبع علم مكين «**قُل أَنْزَلَهُ الّذي يَعْلَمُ السِرَّ في السَّماواتِ وَالْأرض..**».[١] ولم تكن مقصودة بالذات، ولا جاء القرآن لإفادة بيانها إفادة بالذات، ذلك لأنّ القرآن كتاب هداية وإرشاد إلى معالم الأخلاق الكريمة، وليس كتاباً علميّاً ولا جاء لكشف أسرار الطبيعة في شيء.

غير أنّ هناك أوهاماً حيكت حول قضية الإعجاز العلمي للقرآن، فيما زعم البعض أنّ في القرآن بيان كلّ شيء، تجاوزاً عن حدود أحكام الشريعة، إلى سائر العلوم الطبيعية وغيرها ممّا عرفه البشر أو لم يعرفه بعد، فإنّها كلّها موجودة في القرآن، إمّا صريحةً أو بإشاراتٍ رمزيّة يعرفها الراسخون في العلم، حيث لا رطب ولا يابس إلّا في كتابٍ مبين.. مراداً به القرآن الكريم، حسبما زعم!

وذلك استناداً إلى قوله تعالى: «**ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِنْ شَيْء**»[٢] وقوله: «**وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْء**».[٣]

وإلى حديث عبدالله بن مسعود: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإنّ فيه خبر الأوّلين والآخرين. قال البيهقي: يعني أُصول العلم.[٤]

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٦.
٢ ـ الأنعام ٦: ٣٨.
٣ ـ النحل ١٦: ٨٩.
٤ ـ الإتقان للسيوطي، نوع ٦٥ في العلوم المستنبطة من القرآن، ج ٤، ص ٢٤.

وفي لفظ آخر: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبّر القرآن.[١]

و نقل السيوطي عن أبي‌بكر بن‌مجاهد (ت ٣٢٤) أنّه قال يوماً: ما شيء في العالم إلّا و هو في كتاب الله. فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال: في قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أن تَدْخُلوا بُيوتاً غَيْرَ مَسْكونةٍ فيها مَتاعٌ لَكُم»[٢] فهي الخانات.

وقال بعضهم: ما من شيء إلّا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهّمه الله، حتّى أنّ بعضهم استنبط عمر النبيّ ﷺ ثلاثاً و ستّين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين ـ وهي السورة ٦٣ حسب الترتيب الموجود ـ: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجَلُها»[٣] فإنّها رأس ثلاث و ستّين سورة. وعقّبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

و روي عن ابن عبّاس قوله: لو ضاع لي عقالُ بعيرٍ لوجدته في كتاب الله.[٤]

❊ ❊ ❊

قال ابن أبي‌الفضل المرسي[٥] في تفسيره: جمع القرآن علوم الأوّلين والآخرين، بحيث لم يُحط بها علماً حقيقةً إلّا المُتكلّم بها وهو الله تعالى، ثمّ رسول الله ﷺ. خلا ما استأثر الله به سبحانه وتعالى. ثمّ ورث ذلك عنه معظم الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة وابن عبّاس، حتّى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى. ثمّ ورث عنهم التابعون، ثمّ تقاصرت الهمم وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوّعوا علومه، وقامت كلّ طائفة بفنّ من فنونه. فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته وتعدادها وإلى أمثال ذلك، من غير تعرّض لمعانيه ولاتدبّر لما أُودع فيه، واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني، والمفسّرون بألفاظه، والأُصوليّون بما فيه من الأدلّة، وتأمّل طائفة معاني خطابه، وأحكمت طائفة

---

١ ـ إحياء علوم الدين للغزالي، باب ٤، كتاب آداب تلاوة القرآن، ج ١، ص ٢٩٦.

٢ ـ النور ٢٤: ٢٩.　　　٣ ـ المنافقون ٦٣: ١١.

٤ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٢٥-٢٦.

٥ ـ هو محمّد بن‌محمّد بن‌عبدالله بن أبي‌الفضل المرسي (ت ٦٥٥) كان إماماً في القراءة واللغة والنحو وله في التفسير والحديث والأدب تصانيف. معجم الأدباء، ج ٥، ص ٣٤٩، رقم ٨٧٥.

صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام. وتلمّحت طائفة ما فيه من قصص وأخبار لأُمم خالية، وتنبّه آخرون لما فيه من حِكمٍ وأمثالٍ ومواعظ... وإلى أمثال ذلك من إشارات ولطائف ودلالات.

قال: وقد احتوى القرآن على علوم أُخرى من علوم الأوائل، مثل الطبّ والهيأة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وسائر الحرف والصناعات.

قال: أمّا الطبّ فمداره على حفظ نظام الصحّة واستحكام القوّة، وذلك إنّما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيّات المتضادّة، وقد جُمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: «وَكان بَيْنَ ذلِكَ قَواماً».[١] وعرّفنا فيه بما يعيد نظام الصحّة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: «شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فيهِ شِفاءٌ لِلنّاس».[٢] ثمّ زاد على طبّ الأجسام بطبّ القلوب وشفاء الصدور.

وأمّا الهيأة ففي تضاعيف سوَره، من الآيات التي ذكرت ملكوت السماوات والأرض. وما بثّ في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأمّا الهندسة ففي قوله: «انْطَلِقوا إلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَب».[٣]

وأمّا الجبر والمقابلة فقد قيل: إنّ أوائل السوَر فيها ذكر مُدَد وأعوام وأيّام لتواريخ أُمم سالفة، وإنّ فيها تاريخ بقاء هذه الأُمّة، وتاريخ مدّة أيّام الدنيا، وما مضى ومابقي، مضروب بعضها في بعض.

وأمّا النجامة ففي قوله: «أو أثارَةٍ مِنْ عِلْم».[٤]

وفيه أُصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة في قوله: «وَطَفِقا يَخْصِفان»،[٥] والحدادة: «آتوني زُبَرَ الحَديد»[٦] «وَأَلَنّا لَهُ الحَديد»،[٧] والبناء في آيات،

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٦٧.
٢ ـ النحل ١٦: ٦٩.
٣ ـ المرسلات ٧٧: ٣٠.
٤ ـ الأحقاف ٤٦: ٤.
٥ ـ الأعراف ٧: ٢٢.
٦ ـ الكهف ١٨: ٩٦.
٧ ـ سبأ ٣٤: ١٠.

والنجارة: «وَاصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُننا»،[١] والغزل: «نَقَضَتْ غَزْلَها»،[٢] والنسج: «كَمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَتْ بَيتاً»،[٣] والفلاحة: «أفَرَأيتُم ما تَحْرُثون»،[٤] والصيد في آيات، والغوص: «كُلَّ بَنّاءٍ وَغَوّاصٍ»،[٥] «وَتَسْتَخرِجوا مِنْهُ حِلْيَة»،[٦] والصياغة: «وَاتَّخَذَ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً»،[٧] والزجاجة: «صَرحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَواريرِ»[٨] «المِصْباحُ في زُجاجَة».[٩] والفخارة: «فَأوقِد لي ياهامانُ عَلى الطِّين»،[١٠] والملاحة: «أمّا السَّفينَةُ...»،[١١] والكتابة: «عَلَّمَ بِالقَلَم»،[١٢] والخبز: «أحْمِلُ فَوْقَ رَأْسي خُبْزاً»،[١٣] والطبخ: «بِعِجْلٍ حَنيذ»،[١٤] والقصارة: «وَثِيابَكَ فَطَهِّر»،[١٥] والجزارة: «إلّا ما ذَكَّيتُم»،[١٦] والبيع والشراء في آيات، والصبغ: «صِبْغَةَ الله»،[١٧] «جُدَدٌ بيضٌ وَحُمر»،[١٨] والحجارة: «وَتَنْحِتونَ مِنَ الجِبالِ بُيوتاً»،[١٩] والكيالة والوزن في آيات، والرمي: «وَما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْت»[٢٠] «وَأعِدّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ».[٢١]

قال: وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع ماوقع ويقع في الكائنات ما يحقّق معنى قوله: «ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِنْ شَيء».[٢٢]

***

وقال أبوبكر المعافري المعروف بابن العربي الإشبيلي (ت ٥٤٤) في كتاب قانون التأويل: إنّ علوم القرآن (٧٧٤٥٠) علماً، على عدد كلم القرآن، مضروبةً في أربعة. إذ لكلّ كلمة ـ كما قال بعض السلف ـ ظهر وبطن وحدّ ومطّلع. وهذا مطلق دون اعتبار تركيب

---

١ ـ هود ١١: ٣٧.
٢ ـ النحل ١٦: ٩٢.
٣ ـ العنكبوت ٢٩: ٤١.
٤ ـ الواقعة ٥٦: ٦٣.
٥ ـ ص ٣٨: ٣٧.
٦ ـ النحل ١٦: ١٤.
٧ ـ الأعراف ٧: ١٤٨.
٨ ـ النمل ٢٧: ٤٤.
٩ ـ النور ٢٤: ٣٥.
١٠ ـ القصص ٢٨: ٣٨.
١١ ـ الكهف ١٨: ٧٩.
١٢ ـ العلق ٩٦: ٤.
١٣ ـ يوسف ١٢: ٣٦.
١٤ ـ هود ١١: ٦٩.
١٥ ـ المدّثّر ٧٤: ٤.
١٦ ـ المائدة ٥: ٣.
١٧ ـ البقرة ٢: ١٣٨.
١٨ ـ فاطر ٣٥: ٢٧.
١٩ ـ الشعراء ٢٦: ١٤٩.
٢٠ ـ الأنفال ٨: ١٧.
٢١ ـ الأنفال ٨: ٦٠.
٢٢ ـ الأنعام ٦: ٣٨. راجع: الإتقان، ج ٤، ص ٢٦-٣١.

وما بينها من روابط. وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلّا الله عزّ وجلّ.[١]

وقد ذكر السيوطي أنّ عدد كلمات القرآن (٧٧٩٣٤) أو (٧٧٤٣٧) أو (٧٧٢٧٧) وغير ذلك.[٢]

ويقول الإمام بدرالدين محمّد بن‌عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤): وفي القرآن علوم الأوّلين والآخرين، ومامن شيء إلّا ويمكن استخراجه منه لمن فهّمه الله تعالى، حتى أنّ بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستّين من قوله تعالى: «وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاءَ أجَلُها».[٣] فإنّها رأس ثلاث وستين سورة. وعقّبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

وقوله تعالى ـ مخبراً عن عيسى عليه السلام: «قالَ إنّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتابَ ـ إلى قوله: ـ أُبْعَثُ حَيّاً».[٤] ثلاث وثلاثون كلمة. وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

وقد استنبط الناس زلزلة عام اثنين وسبعمائة[٥] من قوله: «إذا زُلْزِلَتِ الأرض»[٦] فإنّ الألف باثنين والذال بسبعمائة.

وكذلك استنبط بعض أئمّة العرب فتح بيت المقدس وتخليصه من أيدي العدو في أوّل سورة الروم بحساب الجمل، وغير ذلك.[٧]

ويذكر قبل ذلك أحاديث وأقوال في حاجة المفسّر إلى الفهم والتبحّر في العلوم، ويورد حديث «أُنزل القرآن على سبعة أحرف، لكلّ آية ظهر وبطن». وقول ابن مسعود:

---

١ ـ بنقل الزركشي في البرهان، ج ١، ص ١٦ـ١٧، وراجع: الإتقان، ج ٤، ص ٣٢. وزاد بعض من تأخّر: إنّ في قوله تعالى: «وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمون»، (النحل ١٦: ٨) إشارة إلى صنع القطار والسيارة والطائرة وغير ذلك من أنواع الصناعات الحديثة. كما أنّ في قوله «رفيع الدرجات» (غافر ٤٠: ١٥) إشارة إلى درجات الدائرة لأنّ «رفيع» بحساب الجمل ٣٦٠ عدداً. راجع: رابطهٔ علم و دين لسرافرازى.

٢ ـ الإتقان، ج ١، ص١٩٧.

٣ ـ المنافقون ٦٣: ١١.

٤ ـ مريم ١٩: ٣٠ـ٣٣.

٥ ـ وصفها ابن‌تغري بردي في النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٠٧ بقوله: وفيها كان بمصر والقاهرة زلزلة عظيمة أخربت عدّة منائر ومبانٍ كثيرة من الجوامع والبيوت، حتى أقام الأمراء ومباشرو الأوقاف مدّة طويلة يرمون ويجدّدون ماتشعّث فيها من المدارس والجوامع حتى منارة الإسكندرية. راجع: البرهان، ج ٢، ص ١٨٢.

٦ ـ الزلزلة ٩٩: ١.

٧ ـ البرهان، ج ٢، ص ١٨١ـ١٨٢.

من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن أي لينقر ويفكّر في معانية.[١]

* * *

ولجلال‌الدين السيوطي (ت ٩١١) أيضاً رأي يشبه رأي الزركشي في اشتمال القرآن على أنواع العلوم، لكنّه يخصّ المعارف واُصول التشريع، ولعلّه منقول.[٢]

* * *

ولأبي‌حامد الغزالي (ت ٥٢٠) رأي خاصّ باشتمال القرآن على مايبعث على اكتساب المعالي، حيث فيه الإشارة إلى كثير من عوالم الطبيعة وأسرارها، ممّا لا يمكن فهمها فهماً دقيقاً إلّا بعد معرفة جملة من العلوم الطبيعية، الأمر الذي أدّى بالمسلمين إلى تحصيل أكثر المعارف والعلوم في هذا السبيل. وإليك من كلام الغزالي:

قال: العلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّوجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته. وهذه العلوم لانهاية لها. وفي‌القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمّق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن. ومجرّد ظاهر التفسير لايشير إلى ذلك، بل كلّ ما اُشكل فيه على النظّار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختصّ أهل الفهم بدركها. قال رسول الله ﷺ: اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبه. وقال عليّ كرّم الله وجهه: من فهم القرآن فسّر به جمل العلم. أشار به إلى أنّ القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلّها.

وبعد أن ذكر أحاديث اُخرقال: فهذه الاُمور تدلّ على أنّ في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتّسعاً بالغاً، وأنّ المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه.[٣]

هذا ما يقوله في كتاب الإحياء، ويزيده وضوحاً في كتاب جواهر القرآن، فنجده يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب علوم الطبيعة والرياضة والطبّ وغيرها من القرآن، فيذكر علم الطبّ والنجوم وهيأة العالم، وهيأة بدن الحيوان وتشريح أعضائه،

---

١ ـ المصدر، ص ١٥٣-١٥٦.

٢ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٣٣-٣٥.

٣ ـ إحياء علوم الدين، الباب الرابع من كتاب آداب التلاوة، ج ١، ص ٢٩٦-٢٩٧.

وعلم السحر والطلّسمات... وغير ذلك.

ثمّ يقول: ووراء ماعدّدته علوم أُخرى، يعلم تراجمها، ولايخلو العالم عمّن يعرفها.. وظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لايتمارى فيها أنّ في الإمكان والقوّة أصنافاً من العلوم بعدُ لم تخرج إلى الوجود.

ثمّ يقول: ثمّ هذه العلوم ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإنّ جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله، وهو بحر الأفعال الذي لاينفد، فمن أفعال الله تعالى مثلاً الشفاء والمرض، كما قال ـ حكايةً عن إبراهيم ـ: «وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفينِ»[1] وهذا الفعل الواحد لايعرفه إلّا من عرف الطبّ بكماله، إذ لامعنى للطبّ إلّا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله تعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان. قال تعالى: «الشَّمسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبان»[2] وقال: «وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالْحِساب».[3] وقال: «وَخَسِفَ القَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَر»[4] وقال: «...يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النَّهار في اللَّيل»،[5] وقال: «والشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليم».[6] ولايعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان، وخسوفهما، وولوج الليل في النهار وكيفية تكوّر أحدهما على الآخر، إلّا من عرف هيئات تركيب السماوات والأرض، وهو علم برأسه ولايعرف كمال معنى قوله: «يا أيُّها الإنْسانُ ماغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَريمِ. الَّذي خَلَقَك فَسَوّاكَ فَعَدَلَك. في أيِّ صورةٍ ماشاءَ رَكَّبَك»[7] إلّا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها، وحكمها ومنافعها. وقد أشار في القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأوّلين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأوّلين والآخرين.

وكذلك لايعرف معنى قوله: «سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِن روحي»[8] مالم يعلم التسوية،

---

١ ـ الشعراء ٢٦: ٨٠.
٢ ـ الرحمان ٥٥: ٥.
٣ ـ يونس ١٠: ٥.
٤ ـ القيامة ٧٥: ٨-٩.
٥ ـ الحجّ ٢٢: ٦١.
٦ ـ يس ٣٦: ٣٨.
٧ ـ الانفطار ٨٢: ٦-٨.
٨ ـ الحجر ١٥: ٢٩.

والنفخ والروح ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربّما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها.

قال: ولو ذهبتُ أُفصّل ماتدلّ عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلّا إلى مجامعها. فتفكّر في القرآن، والتمس غرائبه، لتصادف فيه مجامع علم الأوّلين والآخرين.[١]

هذا كلامه الظاهر في اشتمال القرآن على دقائق ولطائف لا يمكن الوقوف على حقيقتها إلّا بعد الحصول على علوم مرتبطة ومعارف متناسبة مع الذي جاء في القرآن.

وهو كلام صحيح، حيث إحدى الوسائل لمعرفة معاني كلام الله تعالى، هي العلوم والمعارف البشريّة العالية.

وهناك فرق بين الانبعاث نحو العلوم والمعارف، وبين الانتشاء واستخراج العلوم منه. فإنّ الصحيح هو الأول دون الأخير الذي ذهب إليه أمثال المرسي.

***

ولأبي إسحاق الشاطبي ـ الفقيه الأُصولي ـ (ت ٧٩٠) رأي معارض، ينكر على القائلين باشتمال القرآن على أنواع العلوم غير الشرعيّة، وحتى الإشارة إليها سوى ماكانت العرب تعرفه من علوم متعارفة، كعلم الأنواء وبعض التواريخ وما أشبه ممّا كان متداولاً لدى العرب وأشار إليه القرآن في عرض كلامه.

قال: إنّ العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتّصاف بمحاسن الشيَم، فصحّحت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبيّنت منافع ماينفع من ذلك، ومضارّ مايضرّ منه. ثمّ ذكر من العلوم الصحيحة التي اعتنت العرب بها علم النجوم ومايختصّ به من الاهتداء في البرّ والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلّق بهذا المعنى.

ثمّ قال: وهو معنى مقرّر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذي

---

١ ـ جواهر القرآن، ص ٣١-٣٤؛ راجع: التفسير والمفسّرون للذهبي، ج ٢، ص ٤٧٤-٤٧٧.

جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدوا بِها في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ»[١] وقوله: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدون»[٢] وقوله: «وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَديم. لَاالشَّمْسُ يَنْبَغي لَها أنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَااللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون»[٣] وقوله: «هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِساب»[٤] وقوله: «وَجَعَلْنا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَة»[٥] وقوله: «وَلَقَدْ زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابيحَ وَجَعَلْناها رُجوماً لِلشَّياطين»[٦] وقوله: «يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأهِلَّةِ قُل هِيَ مَواقيتُ لِلنّاسِ وَالحَجّ»[٧] وما أشبه ذلك من الآيات.

وذكر علم الأنواء، وأوقات نزول المطر، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد في ذلك من القرآن، مثل قوله تعالى: «هُوَ الَّذي يُريكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقال. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»[٨] وقوله: «أفَرَأيْتُمُ الْماءَ الَّذي تَشْرَبُون. أأنْتُم أنْزَلْتموهُ مِنَ الْمُزْنِ أمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُون»[٩] وقوله: «وَاللهُ الَّذي أرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها»[١٠] وغير ذلك من الآيات.

وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية ـ وفي القرآن منه كثير ـ قال تعالى: «تِلْكَ مِنْ أنْباءِالْغَيْبِ نُوحيها إلَيْكَ ماكُنْتَ تَعلَمُها أنتَ وَلاقَومُكَ مِن قَبلِ هذا»،[١١] وقال: «ذلِكَ مِنْ أنْباءِ الْغَيْبِ نوحيهِ إلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِم إذ يُلْقونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ».[١٢]

وذكر علم الطبّ ـ وكان للعرب منه شيء مبنيّ على التجارب ـ وجاء منه في القرآن وجه جامع شافٍ، قليل يستفاد منه الكثير، قال تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفوا».[١٣]

---

١ ـ الأنعام ٦: ٩٧.
٢ ـ النحل ١٦: ١٦.
٣ ـ يس ٣٦: ٣٩-٤٠.
٤ ـ يونس ١٠: ٥.
٥ ـ الإسراء ١٧: ١٢.
٦ ـ الملك ٦٧: ٥.
٧ ـ البقرة ٢: ١٨٩.
٨ ـ الرعد ١٣: ١٢-١٣.
٩ ـ الواقعة ٥٦: ٦٨-٦٩.
١٠ ـ فاطر ٣٥: ٩.
١١ ـ هود ١١: ٤٩.
١٢ ـ آل عمران ٣: ٤٤.
١٣ ـ الأعراف ٧: ٣١.

وذكر التفنّن في فنون البلاغة والخوض في وجوه الفصاحة والتصرّف في أساليب الكلام، وكان من أعظم منتحلات العرب، فجاءهم بما أعجزهم في القرآن، قال تعالى: «قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالجِنُّ عَلى أنْ يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[١]

وذكر ضرب الأمثال واستشهد بقوله تعالى: «وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ في هذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل».[٢]

ثمّ بعد هذا البيان ذكر أنّ القرآن إنّما تعرّض لما ألفه العرب من العلوم الصحيحة، وأهمل ماكان باطلاً، كالكهانة والزجر وخطّ الرمل والطيرة والعيافة ونحوها. أمّا وزيادةً على ذلك فلم يتعرّض لها القرآن، والقول بذلك تجاوز عن الحدّ، قال: إنّ كثيراً من الناس تجاوزوا الحدّ في الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كلّ علم يذكر للمتقدّمين والمتأخّرين من علوم الطبيعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات والمنطق وعلم الحروف وأشباهها.. وهذا إذا عرضناه على ما ذكرناه لم يصحّ.

قال: وربّما استندوا في دعواهم إلى قوله تعالى: «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيء»[٣] وقوله: «ما فَرَّطْنا في الْكِتابِ مِن شَيء»[٤] ونحوذلك.

قال: أمّا الآيات فالمراد بها عند المفسّرين مايتعلّق بحال التكليف والتعبّد. أو المراد بالكتاب في الآية الثانية اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها مايقتضي تضمّنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.[٥]

❊ ❊ ❊

قلت: ولعلّ وهن مستند ذاك الزعم ظاهر لايحتاج إلى بيان.

أمّا الآيات الكريمة التي استندوا إليها فهي على نمطَين:

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.
٢ ـ الروم ٣٠: ٥٨.
٣ ـ النحل ١٦: ٨٩.
٤ ـ الأنعام ٦: ٣٨.
٥ ـ الموافقات للشاطبي، ج ٢، ص ٦٩-٨٢. (راجع: التفسير والمفسّرون للذهبي، ج ٢، ص ٤٨٥-٤٩٠).

الأول: ماكان المقصود من الكتاب المذكور فيها هو القرآن، غير أنّ المقصود: تبيان كلّ أمر يمسّ شؤون الدين وأحكام الشريعة الغرّاء.

إذ قوله تعالى: «وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ»[1] يعني: تبياناً لكلّ شيء يمسّ أمر الشريعة. قال الطبرسي: ومعناه: ليبيّن كلّ شيء يحتاج إليه من أُمور الشرع. فإنّهُ ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر من أُمور دينهم إلّا وهو مبيّن في الكتاب، إمّا بالتنصيص عليه أو بالإحالة على مايوجب العلم من بيان النبي ﷺ والحجج القائمين مقامه أو إجماع الأُمّة. فيكون حكم الجميع في الحاصل مستفاداً من القرآن.[2]

فالحاصل: أنّ أُصول المعارف ومباني أحكام الشريعة كلّها مذكورة في القرآن. هذا لاشكّ فيه، ولابدّ أن يكون كذلك، لاأكثر ولاأقلّ.

وذلك، لأنّ القائل ـ الذي تعهّد هذا البيان ـ هو الشارع فلا بدّ أن يكون ممّا يمسّ جانب الشرع لاغير.. والروايات بهذا الشأن كثيرة.[3]

وهذا نظير ماإذا تعهّد طبيب حاذق بأنّه كتب رسالة جمع فيها مايحتاج إليه الناس وأطلق الكلام، فإنّ المنصرف من كلامه هذا والمستفاد منه ليس سوى الأُمور الراجعة إلى الصحّة والمرض والأدوية والأدواء لاغير، لأنّه هو المستفاد المنصرف إليه كلام مثل الطبيب.. وهكذا الفقيه البارع وغيره من ذوي الاختصاص إنّما تعود تعهّداتهم إلى جانب تخصّصاتهم، ولايتعدّاها في شيء.

وكذا قوله: «ما فَرَّطْنا في الْكِتابِ مِن شَيْءٍ»[4] لوكان المراد هو القرآن. أمّا لوكان المقصود هو اللوح المحفوظ ـ كماقيل ـ فشأنه خارج عن مورد البحث.[5]

والنمط الثاني من الآيات: ماكان المقصود من الكتاب المذكور فيها هو اللوح المحفوظ، كهذه الآية على قول، وكقوله تعالى: «وَلا رَطْبٍ وَلايابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبِينٍ»[6]

---

١ ـ النحل ١٦: ٨٩.
٢ ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٨٠.
٣ ـ راجع: الميزان للطباطبائي، ج ١٢، ص ٣٥٠.
٤ ـ الأنعام ٦: ٣٨.
٥ ـ مجمع البيان للطبرسي، ج ٤، ص ٢٩٨.
٦ ـ الأنعام ٦: ٥٩.

فإنّ المراد به هو اللوح المحفوظ، وهو كناية عن علمه تعالى الأزلي.

وأمّا حديث عبدالله بن مسعود: «من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبّر القرآن» فقد أراد علم الشرائع ومكارم الأخلاق، لأنّ ذلك هو ممكن الاستفادة من القرآن لمن أرادها.

نعم، كان استدلال أبي حامد الغزالي معقولاً: إنّ العلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّ وجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لانهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها...

إنّه يعني أنّ مايبدو في هذا الوجود من علوم وفنون ومعارف فإنّها تجلّيات لصفاته تعالى، وبما أنّ القرآن مهبط ظهور هذه التجلّيات فلابدّ أن تتجلّى من خلال كلماته وجمله وعباراته ما يشي بمبادئ تلك الظهورات. وإن كانت في صورة رشحات وخطفات عابرة. لأنّها صادرة من ذلك البحر الخضمّ المتلاطم.

فالذي نقول به ونعتقده، هو: أنّ قطعيّات العلوم والمعارف البشرية تجعل باستطاعتنا القدرة على فهم معاني القرآن، وأنّ في القرآن إشارات عابرة إلى أسرار الوجود، لايمكن فهم حقيقتها إلّا بعد معرفة جملة من العلوم والوقوف على كثير من أسرار الطبيعة الكامنة التي كشفها العلم وسيكشفها على استمرار، وهي خير وسيلة نافعة للحصول على فهم كتاب الله وكشف رموزها وإشاراتها الخافية.

نعم، ليست هذه الوسيلة ـ مهما كانت قطعيّة الآن ـ بحاسمة، مادام العلم في طريقه إلى التكامل ولم يبلغ الغاية، وإنّما هو مجرّد احتمال مبنيّ على العلم الحاضر، هذا فحسب.

هل وقع التحدّي بالجانب العلمي؟

هل وقع التحدّي بجانب إعجاز القرآن العلمي كما وقع بجوانب الإعجاز البياني من فصاحة وبيان ونظم وأُسلوب؟

لاشكّ أنّ الإعجاز قائم ـ في الجملة ـ بهذا الجانب كسائر الجوانب، أمّا التحدّي فقد

يقال باختصاصه بجانب البيان فحسب، إذ لم تكن إشارات القرآن العلمية معروفةً عند نزوله لأحد من الناس، وإنّما أثبتها العلم بعد ذلك بعدّة قرون أو سيثبتها عبر الأيّام. فإن كان ذلك دليلاً على إعجازه في مجال قادم فإنّه ليس دليلاً على وقوع التحدّي به في أوّل يومه.

هكذا يقول الدكتور أحمد أبو حجر: إنّ آيات التحدّي إنّما تُسجّل عجز العرب الأوائل عن معارضة القرآن. وبما أنّهم عجزوا وثبت عجزهم ـ وهم سادة البيان وأرباب الفصاحة ـ فالعرب اليوم أولى بالعجز. وبذلك قامت الحجّة بهذا الكتاب العزيز.[1]

قال ابن عطية: قامت الحجّة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنّة المعارضة، كما قامت الحجّة في معجزة موسى بالسحَرة، وفي معجزة عيسى بالأطباء.[2]

ويقول الدكتور صبحي صالح: ولاريب أنّ العرب المعاصرين للقرآن قد سُحِروا قبل كلّ شيء بأُسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا، حتى إذا فهموه أدركوا جماله ومسّ قلوبهم بتأثيره... وهذا مانجده عنصراً مستقلاًّ بنفسه كافياً لإثبات فكرة الإعجاز وخلود القرآن، بأُسلوبه الذي يَعلو ولايُعلى. أمّا مايتساوق مع هذا العنصر الجمالي الفنّي الرائع من الأغراض الدينيّة والعلمية ـ التي توسّع فيها بعضهم[3] ـ كاشتمال القرآن على العلوم الدينية والتشريعية، وتحقيقه مسائل كانت مجهولة للبشر، وعجز الزمان عن إبطال شيء منه، فهي أُمور لاسبيل إلى إنكارها، بل يقوم عليها من الأدلّة والبراهين مالايُحصى. غير أنّها أدخل في معاني الفلسفة القرآنية منها في بلاغة القرآن، وليست هي مادّة التحدّي لفصحاء العرب، وإنّما تحدّى القرآن العرب بأن يأتوا بمثل أُسلوبه، وأن يعبّروا بمثل تعبيره، وأن يبلغوا ذروته التي لاتُسامى في التصوير. فما إعجاز هذا الكتاب الكريم إلّا سحره، ولقد فعل سحره هذا فعله في القلوب في أوائل الوحي، قبل أن تنزل آياته

---

١ ـ التفسير العلمي للقرآن في الميزان، ص ١٣١. ٢ ـ مقدّمتان في علوم القرآن، ص ٢٧٩.

٣ ـ انظر: تفسير المنار، ج ١، ص ٢١٠-٢١٢، الوجه السابع من وجوه الإعجاز التي ذكرها بمنتهى الاختصار والإيجاز. وقدجرى على هذا الزرقاني في مناهل العرفان، ج ٢، ص ٣٥٣-٣٦١.

التشريعية ونبوءاته الغيبية ونظرته الكلّية الكبرى إلى الكون والحياة والإنسان.[١]

ويسترسل أبوحجر في كلامه: إذا كنّا لانجد تناقضاً بين الآيات الكونيّة المذكورة في القرآن وبين مايكتشفه العلم في حاضره ومستقبله ـ بل نجد توافقاً وانسجاماً ـ فليس ذلك دليلاً على إعجازه المرتبط بالتحدّي، بل هو دليل على أنّه منزل من عند الله تعالى.

وليس كلّ مانزل من عند الله معجزاً، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية نزلت من عند الله، ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن، ولم يقع بها التحدّي كما وقع بالقرآن!

وأيضاً فإنّ الآيات الكونية التنزيلية لاتشمل سوَر القرآن كلّها ولا آياته جميعها، وإنّما تقع فقط في بعض السوَر وفي بعض الآيات.. ومعلوم أنّ التحدّي وقع بأيّة سورة من سوَر القرآن، فكلّ سورة من سوَرها فيها إعجاز لايبلغه أحد ولن يصل إليه أحد.

قال: فلو كان القرآن معجزاً بسبب الإشارات العلمية المتفرّقة في ثنايا بعض آياته لكان كثير من السوَر التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز، ولم يقل بذلك أحد، لأنّ قليل القرآن وكثيره معجز.

وإذا ثبت أنّ قليل القرآن وكثيره معجز ثبت أنّ ما في القرآن من حقائق الأخبار ودقائق الشرائع وعجائب الأسرار ـ التي لم يعرفها البشر إلّا بعد القرون المتطاولة ـ كلّ ذلك بمعزل عن الذي طولب به العرب أن يعارضوه، بما حملهم على الاعتراف بأنّه كلام ربّ العالمين.[٢]

وأضاف: أنّ هذا الوجه من الإعجاز ـ على القول به ـ لن يوفّق إلى فهمه والإحاطة به إلّا من كان من أهل العلم الذي يدرك هذه الحقائق ويعيها ويؤمن بصدقها، فإن لم يكن من أُولئك حجب عنه هذا الوجه.

وأخيراً، فإنّ في هذا الوجه منزلقاً خطيراً، إذ أنّ بعض من يدّعي العلم قد يُحمّل آيات مِن القرآن في هذا السبيل ما لاتحتمل، وقد ينسبون إلى العلم ما هو منه براء، رغبة في

---

١ ـ مباحث في علوم القرآن، ص ٣٢٠-٣٢١.

٢ ـ انظر: الظاهرة القرآنية، تقديم محمود شاكر، ص ٢٢.

إثبات إعجاز جديد للقرآن الكريم.[١]

قال: هذه هي وجهة نظر القائلين بأنّ اشتمال القرآن على الحقائق العلمية لا يعدّ وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن، وإن كان يدلّ على أنّه منزل من عند الله.[٢]

❊ ❊ ❊

على أنّهم قد يتعقّبون آراء الفريق الأوّل (القائل باستمرار التحدّي والإعجاز الشامل) بالنقد، فيعلّقون على قولهم: «إنّ هذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب. حتّى أنّ المسلمين أنفسهم كانوا يتأوّلونها ويخرّجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كلّ عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريّات العلوم والفنون الباطلة...»[٣].. يعلّقون على هذا القول، بأنّ المسلمين الذين لم يعرفُوا أنّ قرآنهم جاء مؤيّداً لحقائق العلوم ـ التي لم يوفّق إليها العلماء إلّا بعد أربعة عشر قرناً ـ قد حَسُن إيمانهم بالقرآن، وحَسُن انتفاعهم بأحكامه وآياته، فنشروا نوره وأقاموا دولته ونفّذوا أوامره وانتهوا بنواهيه وتأدّبوا بآدابه. في حين أنّ الذين يعرضون الآن علمهم وذكاءهم وقدرتهم على استنباط ما يتّفق من آيات القرآن مع العلم الحديث هم أقلّ الأجيال المسلمة تأثّراً بهذا القرآن في شؤون دينهم ودنياهم.[٤]

وهكذا قال ابن سراقة: بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة وما إلى ذلك، ليعلم بذلك أهل الحساب أنّه ﷺ صادق في قوله، وأنّ القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممّن خالط الفلاسفة ولا تلقّى الحساب وأهل الهندسة...[٥]

❊ ❊ ❊

يبدو أنّ الذي دعا بالقائل بعدم الشمول واقتصار التحدّي على العرب الأوائل وفي جانب بيانه فقط هي نظرته القاصرة على آيات وقع التحدّي فيها موجّهاً إلى العرب

---

١ ـ انظر: الإسلام والإنسان المعاصر لفتحي رضوان (سلسلة اقرأ)، ٤٠٦ ص ٢٢٦.

٢ ـ التفسير العلمي للقرآن، ص ١٣٠-١٣٢.

٣ ـ راجع: تفسير المنار، ج ١، ص ٢١٢.

٤ ـ التفسير العلمي للقرآن، ص ١٣٣-١٣٤.

٥ ـ الاتقان للسيوطي، ج ٤، ص ٣١.

بالذات. ولاشكّ أن تحدّياً موجّهاً إلى العرب يومذاك لايعني سوى جانب البيان الذي فاق أساليب العرب وأعجزهم عن أن يأتوا بمثله.

غير أنّ تحدّي القرآن لم يقتصر على فترة من الزمان ولا على أُمّة من الناس دون من سواهم. فنراه وجّه نداءه الصارخ إلى البشريّة جمعاء في طول الزمان وعرضه، ولكلّ الأجيال ومختلف الأقوام، وما شأنه ذلك لايعقل اقتصاره على جانب الفصاحة والبيان، إذ ليس كلّ الناس عرباً ولاكلّ العرب فصحاء. فلابدّ أنّ في القرآن شيئاً هو الّذي تُحُدِّيَ به تحدّياً على وجه العموم، ومن ثمّ كان بمجموع الكتاب، لابسورة واحدة أو آية أو آيات بالذات.[1]

قال تعالى: «قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالجِنُّ عَلى أَنْ يَأتوا بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ لايَأْتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً».[2]

فهذا تحدّ عامّ وقع موجّهاً إلى كافّة الأنام، سواء من عاصر نزول القرآن أو سائر الأيّام.

❊ ❊ ❊

وبعد، فإليك بعض ما وصلت إليه أفهام البشريّة حسب ما وصلت إليه من العلوم الطبيعية المقطوع بها تقريباً، وكان ذلك دليلاً على معجزة القرآن الخارقة للعادة، في يوم كان سرّ هذه العلوم والآراء النظريّة، مكتوماً على البشرية يومذاك، وأصبح اليوم مكشوفاً، وسيكتشف حسب مرّ الأيّام.

---

١ ـ ذهب الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور إلى أنّ الإعجاز العلمي حاصل بمجموع القرآن، وهو إعجاز حاصل من القرآن، وغير واقع به التحدّي إلّا إشارة. التفسير العلمي، ص ١٣٣، هامش رقم ١.

٢ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.

الماءُ أصلُ الحياة

«وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»[١]

قال رسول الله ﷺ: كلُّ شيء خُلق من الماء.[٢]

تدلّنا النصوص الشرعية الصادرة عن منابع الوحي على أنّ الماء هو أوّل ما خلق الله من الجسمانيات، فقد روى الصدوق في كتاب التوحيد بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي (تابعيّ ثقة صدوق، ت ١٢٨) أنّ رجلاً من علماء أهل الشام جاء إلى أبي جعفر الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام وقدّم إليه أسئلة زعم أنّه قدّمها إلى سائر أصناف الناس فاختلفوا ولم يتبيّن وجهُ الصواب، فمن ذلك سؤاله عن بدء الخلقة، فكان فيما أجابه الإمام عليه السلام قوله: فأوّل شيء خَلَقَهُ مِن خَلقِهِ الشيءُ الذي جميعُ الأشياء منه، وهو الماءُ.[٣]

وهكذا رواه ثقَة الإسلام الكليني في روضة الكافي، قال عليه السلام: وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء الذي خُلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء، ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه.[٤]

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٣٠.

٢ ـ بحارالأنوار، كتاب السماء والعالم، ج ٥٤، ص ٢٠٨، حديث ١٧٠؛ وراجع: الدرّالمنثور، ج ٤، ص ٣١٧.

٣ ـ بحارالأنوار، ج ٥٤، ص ٦٧، حديث ٤٤، عن كتاب التوحيد، ص ٦٧، حديث ٢٠، باب التوحيد.

٤ ـ الكافي، ج ٨، ص ٩٤، حديث ٦٨؛ والبحار، ج ٥٦، ص ٩٦-٩٧، حديث ٨١.

وأيضاً بإسناده عن محمّد بن مسلم (الثقة الجليل) عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: كان كلُّ شيء ماءً، وكان عرشه على الماء.[١]

* * *

وفي قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ في سِتَّةِ أيّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ»[٢] دلالة على أنّ الماء وُجد قبل أن توجَد عوالمُ الكون من سماء وأرض، لأنّ العرش كناية عن عرش التدبير، وهو علمه تعالى بمصالح الوجود على الإطلاق. فإذ لم يكن سوى الماء فإنّ عرشه تعالى لم يكن مستوياً على شيء سوى الماء. فالآية كناية عن أنّه تعالى كان ولم يكن معه شيء، سوى أنّه خلق الماء قبل أن يخلق سائر الموجودات.

* * *

وفي القرآن الكريم أيضاً مواضع تشير إلى أنّ أصل الحياة من الماء، في نشأتها وتكوينها وظهورها في عالم الوجود. قال تعالى: «وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ»[٣] وقال: «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِن ماء».[٤] وقال في خصوص الإنسان بالذات: «وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً».[٥]

اختلف أهل التفسير في المراد من هذا الماء الذي هو نشأة الحياة.

قال الإمام الرازي: ذكروا في هذا الماء قولين: (أحدهما) أنّه الماء الذي خلق منه أُصول الحيوان، وهو الذي عناه بقوله: «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِن ماء». (والثاني) أنّ المراد النطفة، لقوله: «خُلِقَ مِن ماءٍ دافِق».[٦] «مِن ماءٍ مَهين».[٧]

وقال ـ في قوله تعالى: «واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِن ماء»: في ذلك وجوه: (الأول) وهو

---

١ ـ الكافي، ج ٨، ص ٩٥، حديث ٦٨، وص ١٥٣، حديث ١٤٢؛ والبحار، ج ٥٤، ص ٩٨، حديث ٨٢.
٢ ـ هود ١١: ٧.
٣ ـ الأنبياء ٢١: ٣٠.
٤ ـ النور ٢٤: ٤٥.
٥ ـ الفرقان ٢٥: ٥٤.
٦ ـ الطارق ٨٦: ٦.
٧ ـ المرسلات ٧٧: ٢٠. راجع: التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ١٠١.

أحسنها ـ ما قاله القفّال: إنّ قوله «من ماء» صلة «كلّ دابّة»، وليس من صلة «خَلقَ». والمعنى: أنّ كلّ دابّة متكوّنة من الماء ـ أي متولّدة من انعقاد النطفة ـ فهي مخلوقة لله تعالى. (الثاني) أنّ أصل جميع المخلوقات من الماء، لأنّ الماء هو الأصل الأول الذي خلقه الله، كما ورد في الحديث: أول ما خلق الله الماء. (الثالث) أنّها متولّدة من النطفة، أو لأنّها لاتعيش إلّا بالماء.[1]

❊ ❊ ❊

ولكنّ المحقّقين من أهل التفسير لم يزالوا على القول بأنّ المراد من هذا الماء هو الذي منه أصل جميع المخلوقات، فإنّ من الماء نشأت الحياة وبذرت بذرتها الأُولى، بشكل حيوان بسيط ذي خليّة واحدة (الأميبا)[2] وارتقت إلى حيوانات معقّدة الأعضاء ذوات الخلايا العديدة، فوق الملايين. أمّا كيف وجدت أول ما وجدت الحياة ـ في المياه: البحار والبحيرات والمستنقعات ـ فهذا ممّا لم يجد له العلم إجابة صحيحة صالحة للقبول على مسرح العلوم التجريبية المجرّدة.

ومن ثمّ فإنّ نظرية التطوّر في الحياة ـ على أنحائها وأشكالها ـ إنّما تبتدئ من عصر ما بعد الخليّة، أمّا عصر ما قبلها فمجهول، سوى أنّه أمرٌ تحقّق بإرادة الله المهيمن على مقدّرات هذا الكون، الأمر الذي لامحيص عن الإذعان به مادام التسلسل باطلاً وكان التولّد الذاتي مستحيلاً، وقدأبطله العلم على أساس التجربة أيضاً.

قال سيّدنا الأُستاذ الطباطبائي ﵀ ـ عند قوله تعالى: «وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ» ـ: والمراد أنّ للماء دخلاً تامّاً في وجود ذوي الحياة، كما قال «واللهُ خَلقَ كلّ دابّةٍ

---

١ ـ المصدر، ص ١٦.

٢ ـ قد بسط الأُستاذ الطنطاوي الكلام حول هذا الحيوان (ذي الخليّة الواحدة) في تفسيره الجواهر (ج ١٢، ص ٢٢٥-٢٢٦) عند قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً». الفرقان ٢٥: ٥٤.

ولشيخنا الأُستاذ محمّد تقي الفلسفي أيضاً مقال لطيف حول مسألة الحياة، بحث فيه على ضوء الآراء الحديثة عن الحياة ونشأتها وتطوّرها، على أُسلوبه الشيّق. فراجع: تفسيره لآية الكرسي، ص ٣٩-٩٨.

مِن ماء».قال: وفي ظلّ البحوث العلميّة الحديثة ظهرت صلة الحياة بالماء[١] معجزة قرآنيّة خالدة.

❊ ❊ ❊

قال سيّد قطب: وأمّا قوله تعالى: «وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيّ»فيقرّر حقيقة خطيرة يَعُدُّ العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً. ويُمجّدون «دارون» لاهتدائه إليها! وتقريره: أنّ الماء هو مهد الحياة الأوّل.

وهي حقيقة تثير الانتباه حقّاً، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لايثير العجب في نفوسنا، ولايزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن. فنحن نستمدّ الاعتقاد بصدقه المطلق، في كلّ ما يقرّره، من إيماننا بأنّه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له. وأقصى ما يقال هنا كذلك: إنّ نظرية النشُوء والارتقاء لدارون وجماعته لاتعارض مفهوم النصّ القرآني في هذه النقطة بالذات.

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كان القرآن الكريم يوجّه أنظار الكفّار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر أن لايؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود «أفَلا يُؤمِنون؟» وكلّ ماحولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبّر الحكيم.[٢]

وقال أيضاً ـ عند قوله تعالى: «وَاللهُ خَلَقَ كلَّ دابّةٍ مِن ماء» ـ: وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة ـ حقيقة أنّ كلّ دابّة خُلقت من ماء ـ قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعاً، وهو الماء. وقد تعني مايحاول العلم الحديث أن يثبته من أنّ الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلاً في الماء، ثمّ تنوّعت الأنواع، وتفرّعت الأجناس.

ولكنّنا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنيّة الثابتة، على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل. لانزيد على هذه الإشارة شيئاً، مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية، وهي أنّ الله خلق الأحياء كلّها من الماء، فهي ذات أصل واحد. ثمّ هي ـ كما ترى

---

١ ـ الميزان، ج ١٤، ص ٣٠٥.

٢ ـ في ظلال القرآن، المجلّد ٥، ص ٥٣١.

العين ـ متنوّعة الأشكال، منها الزواحف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين، ومنها الحيوان يدبّ على أربع، كلّ ذلك وفق سنّة الله ومشيئته، لا عن فلتة ولا مصادفة. فالنواميس والسُنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئةُ الله الطليقة «إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير».[١]

※ ※ ※

وبعد، فيجدر بنا الآن ـ ونحن بصدد فهم الآية على ضوء مكتشفات العلم ـ البحث عن نظرية العلّامة «تشارلز داروين».[٢] عن الحياة وعن تطوّرها عبر الوجود، على ماأشار إليه سيّد قطب مُمَجّداً لموقفه في هذا الاكتشاف!

وقد لخّص الأُستاذ إسماعيل مظهر مذهب النشوء والارتقاء على ماسلكه داروين في مقدّمة كتابه «أصل الأنواع». وكان تلخيصاً وافياً ومستوعباً كلّ جوانب هذا البحث، برواية العلماء الأحيائيين، مبتدئاً من أصل وجود هذه البسيطة (انفصالها عن سديم الشمس) فإلى وجود الحياة عليها وتطوّرها، والانتهاء بوجود أكمل المخلوقات (الإنسان) والعهدة على راويها، وإليك من تلك الخلاصة.

※ ※ ※

ينتشر في السماء غماماتٌ ضبابية مضيئة وقف الفلكيّون والكيميّون على سرّ العناصر التي تتألّف منها.

إنّها كتل مضيئة شديدة الحرارة، سمّاها العلماء «السُدُم» مفردها: سديم، والمعروف منها قرابة مليونين.

على أنّ الرأي يختلف في قوامها: أهي غازية أم جُزَيئات صلبة؟ أمّا المتّفق عليه بين العلماء فهو: أنّ النظم الشمسية جميعاً ناشئة عنها.

واختلف الرأي في الطريقة التي تألّف بها نظامنا الشمسي، ولكن أقربها إلى المعقول

---

١ ـ المصدر، المجلّد ٦، ص ١١١، قد ذكرت الآية في سبعة موارد.

٢ ـ توفّي سنة ١٨٨٢ م.

مذهب الأُستاذ «سيرجيمس جينز» الفلكي المعروف. ومحصّله: أنّ النظام الشمسي الذي تؤلّف الأرض جزءً منه إنّما كان في الأصل جزءً صغيراً جدّ الصغر من كتلة سديمية هائلة الحجم عظيمة الأبعاد، تهشّمت فتناثرت منها شموس كبيرة، وما شمسنا إلّا إحدى هذه الشموس. فلمّا اقترب منها نجمٌ ضالٌّ حدث جذبٌ مَدّيٌّ على جرم الشمس، فخرج منه ذراع انعقدت فيه كتل، كانت فيما بعد الأرض وأخواتها من السيّارات.

وإلى هنا أدّى علم الفلك رسالة التوضيح عن حقيقة النظام الذي نعيش فيه، ومن ثمّ أخذ علم الجيولوجية (علم طبقات الأرض) يؤدّي إلينا رسالة ثانية.

* * *

كانت الأرض عند انفصالها من سديم الشمس كتلة من المادّة وفيرة الحرارة، مضت تبرد ببطءٍ شديد حتى أخذت قوام الجماد. وقبل ذلك ـ أي عندما بدأت تأخذ القوامَ العجيني ـ كانت كتلة من المادّة المصهورة شديدة البياض، وبتناقص الحرارة تدرّجاً، نزلت إلى الحالة النارية أي أصبحت حرارتها حمراء اللون. والقسط الأوفر والأثقل وزناً من هذه الكتلة إنّما يؤلّف بطن الأرض، أمّا قشرتها فهي الجزء الأخفّ من الكتلة.. والجزء المركزي لايزال في حالة المَيعان، أمّا القشرة فتؤلّف الأديم الذي نسمّيه «التربة» أو «الثرى».

وفوق الأرض أيضاً ذلك الماء الذي نسمّيه البحار والبحيرات والأنهار.

وفي الدور الذي كانت فيه الأرض كتلة منصهرة غشّاها غلاف كثيف من الماء بخاريّ القوام، فلمّا بردت برد معها ذلك الغلافُ البخاري واستحال ماءً. كذلك تقلّصت الأرض عندما أخذت تبرد تدرّجاً، فتجعّد سطحُها، كجلد تفّاحة جفّت وانضمرت. وفي الأغوار المنخفضة تجمّع الماء وانتهى الأمر بأن أصبحت الأرض كرة من يابس وماء.

لقد اقتضى التطوّر ـ حتى بعد أن بلغت الأرضُ هذا المبلغ من التنشّؤ ـ أزماناً منطاولة، بل موغلة في التطاول، قبل أن يظهر على سطحها شيء من الكائنات الحيّة، (وفي الماء أخذت الحياة تتأصّل).

أمّا تفصيل الأدوار التي مضت فيها الأرض حتى أصبحت بيئة صالحة للحياة فمن اختصاص علم الجيولوجية. ومن ثمّ يبدأ علم الأحافير يؤدّي رسالة ثالثة.

❊ ❊ ❊

عندما بلغت الأرض من التطوّر مبلغاً يسمح بظهور الحياة دبّت فيها تلك النسمة العجيبة، ولقد تركت الكائنات الحيّة الأُولى آثارها منطبعة في الصخور أو في صوَر أُحفورية. ولقد سمّيت هذه الآثار بالأحافير (واحدتها: أُحفورة)، لأنّها تحتفر من الأرض.

خلّف الأحياءُ آثاراً في صورة أجزاء من نبات وأصداف وحشرات وأسماك وعظام وطبعات أقدام لطيور أو ذوات أربع، ومن مجموع هذه الآثار يؤلّف علم الأحافير مدوّنة العصور الخالية.

❊ ❊ ❊

حتى منتصف القرن الماضي كان المعتقد أنّ كلّ نوع من الأنواع الحيّة قد خلق مستقلاً، وأنّ خلق الإنسان كان النهاية التي توّجت أعمال الخلق، وينبني على هذا أنّ الأنواع ثابتة لاتتغيّر ولاتتطوّر.

في سنة ١٨٥٩ م أظهر «داروين» خطأ هذه العقيدة، وأنّ الأنواع المختلفة ـ نباتاً كانت أم حيواناً ومعها الإنسان ـ إنّما نشأت تدرّجاً من طريق الاحتفاظ بمختلف التحوّلات التي تنشأ في أفراد كلّ منها. أمّا هذا التحوّل فقد استغرق أحقاباً طويلة جهد الطول، وفقاً لما يقتضيه تأثير سنن طبيعية دائمة التأثير في طبائع الأحياء.

ولقد أبان «داروين» أنّ ما في مستطاع الإنسان أن يبتكر في السلالات الداجنة من صوَر مستحدثة بالانتخاب الاصطناعي، في مكنة الطبيعة أن تستحدث مثله بالانتخاب الطبيعي، وإن كان الانتخاب الطبيعي أبطأ أثراً في تحوّل الأحياء من الانتخاب الاصطناعي.

❊ ❊ ❊

سمّيت هذه النظريةُ «نظرية التطوّر». أمّا العوامل الطبيعية التي يؤدّي فعلُها إلى التطوّر

ونشوء الأنواع فخمسة عوامل:

١ ـ الوراثة: ومحصّلها أنّ الشبه يأتي بمشابهه، فالسنانير لاتلد كلاباً، بل سنانير، أي أنّ صغار كلّ نوع تشابه آباءها، ذلك في النبات كما في الحيوان.

٢ ـ التحوّل: أفراد كلّ نوع تتشابه ولاتتماثل، أي لاتكون نسخة مطابقة لأُصولها. فهي تشابه آباءها ولكن لاتماثلهم. ففي بطن من السنانير مثلاً لاتقع على اثنين متماثلين تماماً، وإن تشابه الجميع حتى في اللون فإنّها تختلف في الظلال التي يمتدّ فيها اللون.

٣ ـ التوالد: إنّ مايولد من النبات والحيوان أكثر ممّا يقدّر له البقاء. فالطبيعة تُسرف في الايجاد، كما تُسرف في الإفناء، ومن هنا ينشأ العامل الرابع وهو:

٤ ـ التناحر على البقاء: وهو عامل مطّرد التأثير غير منقطع الفعل، فكلّ نبات أو حيوان يبرز في الوجود ينبغي له أن يسعى إلى الرزق وأن يجالد في سبيل ذلك، وأن يجاهد غيره على ضرورات الحياة، وينشأ عن هذا:

٥ ـ بقاء الأصلح: فالأفراد التي تتزوّد من بنائها بقوّة أوفى أو حيلة أزكى أو تكون أكثر قدرة على مقاومة الأفاعيل الطبيعية تكون أكثر قابلية للبقاء، وأعقاب نسل فيه صفاتها التي مكّنت لها في الحياة.

وباستمرار فعل هذه العوامل الخمسة أمكن للأحياء أن تعمر رقعة الأرض جميعاً.

خلاصة المدارج التي سار فيها تطوّر الأحياء

طوال عهود من الزمان ـ موغلة في القدم ـ تنشّأت صنوف مختلفة من الأحياء، ومضت منطوّرة ضاربة في سبيل الارتقاء، كما فنت غيرُها وبادت لعجزها عن مسايرة مقتضيات التطوّر، كلّياً أو جزئيّاً، وما فنى وباد من الأحياء إلّا وقد احتلّ مكانه غيرُه من الكائنات، لأنّها أصلح للبقاء بقدرتها على تحصيل مؤهّلات الحياة أو مقاومة أفاعيل الطبيعة، كالحرّ والبرد والرطوبة والجفاف وغير ذلك. وهذه الصوَر المتفوّقة خلال بعض

الأزمان عادت فأخلت السبيل لغيرها من الصوَر الحيّة، لما أن نضب فيها معين القـدرة على التكيّف التي من شأنها أن توائم بين حاجات حياتها وبيئتها التي تعيش فيها.

أول ظهور الحياة على وجه الأرض

تلك كانت قصّة التطوّر التي رسمها علماء الطبيعة وأخيراً العلّامة «تشارلز داروين».

وأمّا ظهور الحياة فقد ظهرت أول ماظهرت في تلك الصورة الهلاميّة التي يسـمّيها علماء الطبيعة «الجبلة»أو «البروتو بلازم» وهي الذخيرة أو الأصل الذي تعود إليه كـلّ صوَر الأحياء من نبات وحيوان.

فأبسط صوَر الحياة حيٌّ، هو عبارة عن شـذرة صـغيرة مـن «البـروتو بـلازم» أو «الجبلة» تتضمّن جسماً مستديراً هو «النواة». وكلاهما من الصُغر بحيث لاتراه العين إلّا مستعينة بالمجهر «المكرسكوب». وهذه الشذرة المكوّنة من جبلة ونواة،هي مـا يسمّيه الأحيائيّون «الخليّة». وكلّ الأحياء ـ على إطلاق القول ـ إمّا أن تتألّف من خليّة واحدة أو من خلايا متعدّدة. والإنسان نفسه لايتعدّى أن يكون تأليفه من عدد لايحصى من الخلايا المختلفة. والحيوانات إمّا آحادية الخليّة، وتسمّى علميّاً: الأوالي (البرزويّات) تتألّف من خليّه واحدة.. أو كثيرة الخلايا، وعلميّاً (المتزويّات) تتألّف من أكثر من خليّة، أي من خلايا عديدة، وقديصحّ أن تكون الحيوانات كثيرة الخلايا قدنشأت من آحادية الخليّة.

أمّا كثيرات الخلايا فكانت لدى أول أمرها بسـيطة التـركيب، كـحيوان المـرجـان وقناديل البحر وشقائق البحر وما إلى ذلك.

عقيب ذلك ظهَر الحيوان الدوديّ الصورة (الديدان) أو الحيوانات الدودانيّة التي منها «الرخويّات» كالمحار والحلازين والحبارات من الأسماك، ثمّ «الشوكيّات» كنجوم البحر وقنافذ البحر وخيار البحر، ثمّ «القشريّات» كالسراطين والأربيان، ثمّ من بعد ذلك ظهرت «الحشرات».

من ثمّة ظهرت صوَر جديدة من الحيوان، هي عشائر ذوات صفات مستحدثة، دلّ

وجودها على وقوع انقلاب كبير في سير الحياة. فكلّ الحيوانات التي ذكرنا من قبل كانت رخوة القوام ليّنة الأجسام، معدومة العظام، ولو أنّ بعضاً منها كالسراطين والمحار وقنافذ البحر قد اختصّت بأصداف تقي ذواتها من العطب. أمّا الصوَر الجديدة فكان لها حبل متين يمتدّ طوال الجسم ويسمّى علميّاً «الرتمة».

وكان ظهور هذا الحبل أوّل مدرج من مدارج التطوّر نحو تكوين «القفار» أو «الصلب» المؤلّف من أجزاء عظمية، كلّ منها يسمّى «ققارة».

أمّا أوالي الحيوانات ذوات الرتمة ـ وقدنسمّيها علميّاً «الرتميّات» ـ فكانت سهمية الشكل ومن أهل الماء وأشهرها «الاطريف» وقديسمّى «السهيم» أو الحرب أيضاً. ومن «السهيم» نشأت الأسماك.

وقد بدأت بالصورة ذوات الهيكل الغضروفي وأترابها، ثمّ ظهرت الأسماك ذوات الهياكل العظيمة الصلبة، كالصمون والقدّ والفرخ، كما تفرّع من «الحريب» صورة أُخرى كالسباذج والجلكيّات، وهي من الأحياء التي لاترتمة لها، أي ليس لها حبل ظهري إلّا عندما تكون صغيرة وفي أول عهدها بالحياة.

أمّا الأحياء التي نشأت من بعد ذلك فجميعها من ذوات القفار، وبذلك انقسمت الأحياء قسمين عظيمين: اللافقريات (معدومات الفقار)، والفقاريات (ذوات الفقار).

ظهر بعد ذلك أسماك متطوّرة تستطيع أن تعيش في الطين اللازب، إذا ما غاض الماء في فصول الجفاف. وبدلاً من أن تتنفّس بخياشيمها كبقية الأسماك نشأ لها مع هذا التطوّر جهاز آخر هي عبارة عن رئات أوّلية، تحوّلت عن مثانة السبح (العوّامة) فتدرّعت بذلك في معركة الحياة بجهازين للتنفّس. ومن ثمّ سمّيت هذه الأسماك «ذوات التنفّسين».

ومن ذوات التنفّسين تنشّأت البرمائيات (الكائنات البرّية المائية) كالضفادع ومااليها. وهي التي تستطيع العيش في اليابسة، كما تستطيع العيش في الماء، ومن البرمائيات تنشّأت الزواحف كالعظايا والتماسيح والحيّات. ومن فرع من الزواحف تنشّأت الطيور.

ومن الزواحف أيضاً تنشّأت ذوات الثدي التي تغذّي صغارها بسائل هو اللبن. ولذا سمّاها بعضهم «اللبونات» وكانت أوالي الثدييات حيوانات بيوض، تضع بيضاً كالزواحف والطيور، فإذا نَقَفَ[١] البيض عن صغارها أرضعتها. ولايزال بعضها عائشاً حتى اليوم كالصلول والنفطير، وكلاهما يعيش في استراليا، وليس في غيرها من بقاع الأرض.

ومن الثدييات البيوض تنشّأت الجلبانيات (ذوات الكيس) كالكنغر وغيره. وتفرّع من الجلبانيات شعب متفرّقة من الأحياء، أهمّها ـ من وجهة النظر البشرية ـ ما يسمّى علميّاً «الصعابير» أو «اللّيامير». فإنّ من هذه الصعابير تنشّأت السعادين (ذوات الذيول) والقردة (فاقدات الذيول) والبشرانيّات.

❊ ❊ ❊

أمّا من أيّة من الشعب العديدة التي تحوّلت عن الصنابير قد تنشّأ الإنسان، فأمرٌ لايزال محوطاً بكثير من الشكّ عند العلماء. ولكن الراجح أنّ سلفاً من الأسلاف البشرية ـ المشابهة للبشر ـ قد تطوّرت عنه شعب جاء منها الغرلّي والشمزى والارطان والحين، ثمّ الإنسان.

ويظهر أيضاً أنّه من الصعابير جاء «السغل» وهو حيوان صغير من الرئيسات، في دماغه تلك البلديات التي على غرارها تشكّل الدماغ البشري. وممّا يذهب إليه بعض الأحيائيين أنّ «السغل» قد يكون الأصل الذي منه نشأ الإنسان.

ومن هنا نرى أنّه بالتطوّر قد وجدت جميع الكائنات الحيّة فخرج بعضها من بعض على طول الأحقاب الجيولوجية، وكان أصل الجميع ناشئاً من الماء الذي هو أصل الحياة. ومن الماء كلُّ شيءٍ حيّ.

❊ ❊ ❊

وممّا يزوّدنا به علم الفلك والجيولوجيا والأحافير، يقول العلماء: أنّ الزمن الذي انقضى منذ انفصال الأرض من السديم الأصلي حتى ظهور الإنسان يتراوح بين ثلاثة

---

١ ـ نَقَفَ الفرخُ البيضة: نقبها وخرج منها.

آلاف وخمسة عشر ألف مليون سنة، أي أنّ الفرق بين تقدير العلماء في قياس الزمن يبلغ اثني عشر ألف مليون سنة. وقديكون ذلك الزمان أطول ممّا يقدّر له العلماء. ولكن الملحوظ أنّهم إنّما يقدّرون أقلّ ما يمكن من الزمن لتتمّ فيه تلك العملية التطوّرية العظمى.

تلك قصّة الحياة ـ على ما رسمها «داروين» ـ ولكن مقتصرة على عصر ما بعد الخلية، التي هو أساس الحياة بكلّ صوَرها المادّية، وفي الإنسان في خصوص جانب جسده لاغير. ولم يعرض للبحث في عصر ماقبل الخلية ليعرف كيف نشأت الحياةُ في تلك الصورة البسيطة، ومن أين هبط ذلك السرّ الرهيب، سرّ الحياة الذي جعل من المادّة الجامدة كائنا حيّاً.

قال الدكتور إسماعيل مظهر: لم يكن مذهب «داروين» انتصاراً للمادّية الصرفة انتصاراً حاسماً قاطعاً، بل انتصاراً جزئياً، لم يتجاوز أنّه تفسير لبعض وجوه من خصيّات المادّة، تناول «داروين» منه ناحية المادّة الحيّة، أي المادّة بعد أن دبّت فيها الحياة. ولكن ما الحياة؟ ذلك هو سرّ الأسرار![1]

١ ـ أصل الأنواع، ص ٥٩.

كيف نشأت الحياة؟

ما أصل الحياة؟ وكيف نشأت في هذه الأرض؟ سؤال ورد على أذهان الباحثين في كلّ عصر من عصور التاريخ. وتجشّم كثير منهم مؤونة البحث فيه، فملأوا المجلّدات الضخام ابتغاء الوصول إلى معرفة ذلك السرّ الخفي، سرّ الحياة، ولكن لم يزيدوا على القول بأنّ «الحياة هي حياة» لاأكثر.

قالوا: أصل الحياة من التراب، وتدرّجوا إلى القول بأنّها نتيجة اختلاط العناصر، وأيّ العناصر تلك التي تبدع الحياة؟ «فاقد الشيء لايعطيه». لاجَرَمَ قالوا بالتولّد الذاتي ـ وأنّها نشأت بذاتها ـ ولم يثبتوه بتجربة، اللهمّ إلّا فروضاً ما أنزل الله بها من سلطان.[1]

لبث القائلون بالتولّد الذاتي على قولهم حيناً من الدهر حتى قام «روسيل وولاس» وهو من زعماء «النشوء والارتقاء»، ونقض عليهم ذلك الرأي، إذ قال بأنّ نواة الخليّة

١ ـ ولقد ظلّت الفكرة عن أصل الحياة ومنشأها الأول شغلت فراغاً واسعاً من العالم القديم، وكلّما تقدّم الزمان ازداد العالم توغّلاً في غياهب الجهل عن أصل هذه الحقيقة، حتى أراد «وليم طمسن» أن يخرج بالعالم من ظلمات الجهل، فقال: بأنّ الحياة هبطت إلى الأرض من السماء، حملتها النيازك والشهب ومن ثمّ تكاثرت فيها.

نعم، خرج بنا إذ ذاك من ظلمات جهل بسيط إلى حلكة جهل مركّب، لأن الحياة سواء أنشأت في السماء أم في الأرض فذلك لايوصلنا إلى معرفة أصلها ونشأتها. تلك شاكلة البحث في أصل الحياة، والمظنون قويّاً أنّ الفكر الإنساني سيقف عند هذا الحدّ من المبحث أجيالا وأجيالا.

الحيّة ليست شيئاً كيموياً عويص التركيب، ومن المستطاع تـركيبها ثـانية إذا حـلّلت، ولكنّها لاتكون نواة حيّة، إذ تكون قد فقدت بين التحليل والتركيب سرّاً هو سرّ الحياة، فما هو ذلك السرّ؟

لاجَرَمَ أنّ الإنسان سائر من طريق العلم إلى الاعتراف بالعجز، فكلّما كشف لنا عن سرّ من أسرار هذا الكون الفسيح ألفاه محوطاً بكثير من الأسرار الأُخر التي يعجز الفكر الإنساني أزماناً طوالاً دون معرفة كنهها. وستتدرّج الإنسانية في كشف المُغمضات حتى تنتهي إلى حدٍّ تتكاثف عنده ظُلمات تلك الأسرار، وإذ ذاك يقف الفكر معترفاً بالعجز.[١]

❊ ❊ ❊

و«التولّد الذاتي» رأي ظهر في أواسط القرن التاسع عشر نـتيجةً لسـلسلة بـحوث منظومة قام بها فحول من العلماء في القرن الثامن عشر، أو قرن «المادّية» كما يـقولون، قالوا: إنّ الانسان إذا استطاع أن يبرهن على التولّد الذاتي في الأجسام التي لاحياة فيها، تيسّر له أن يبرهن عليه في الأجسام الحيّة.

وقد يتبادر إلى الأذهان أن التولّد الذاتي لزام للنشوء والارتقاء، لولا أنّ الحقيقة على نقيض ذلك، فإنّ التطوّر لايبحث إلّا فيما بعد أصل الحياة من نشوء بعض الصور من بعض على مَرِّ الزمان، وبتأثير نواميس طبيعية، قدنعرف بعضها وقديغيب عنّا البعضُ الآخر. أمّا القول بالتولّد الذاتي فقد أتى من رأيٍ شاع في القرن الثامن عشر هو القول بقدم العـالم، الذي كانت من نتيجته إنكار «علّة أُولى واجبة الوجود بذاتها».

❊ ❊ ❊

القول بقدم العالم قول تدرّج الباحثون منه إلى إنكار علّة أُولى واجبة الوجود بذاتها. ولأجل أن يؤيّدوا مذهبهم أرادوا أن يطبّقوه على عالم الحـياة، فـقالوا بـالتولّد الذاتـي اعتباطاً ومن غير أن تمسّ إحدى المسألتين بالأُخرى. لأنّ إثبات التولّد الذاتي أو نفيه لايترتّب عليه مطلقاً القولُ بإنكار «علّة أُولى». لأنّنا لو فرضنا أنّ الحياة قد نشأت مـن

---

١ ـ أصل الأنواع، ص ٢٧.

اختلاط بعض العناصر الأوّلية مقرونة بمهيّئات أُخر، فذلك لايستوجب نفي تلك القـوّة المدبّرة التي استطاعت بوساطتها تلك العناصرُ مـن الدور فـي سـلسلة مـن التـغيّرات والتطوّرات، حتى بلغت حدّاً عنده انبثّت فيها الحياة. تلك السلسلة الدورية التي لا يمكن إيضاحُها بأيّة طريقة كيموية أو آليّة.

قالوا: إنّ القوّة المتحرّكة والقابلية الذاتية مبدءان طبيعيّان غير مـنفصلين، وإنّـهما والمادّة صنوان لايفترقان.

فإذا سألتهم ـ عن ماهيّة تلك القابلية وحقيقة ذلك الاستعداد، أو عن القوّة التي بثّتها في الطبيعة بنسب متكافئة لايعرضها خلل ولاينالها ضلال، كأنّ للطبيعة عيناً تنظر بها ـ حاروا في الجواب وأعادوا على سمعك كلامهم الأول بتحوير مـن الألفـاظ. سـوى أنّ الحقيقة تضطرّهم إلى القول بأنّ هناك قوّة مسيطرة ترجع إليها كلّ القوى، تلك هي العلّة الأُولى.[١]

❊ ❊ ❊

وللعلّامة الأُستاذ «أ. كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك مقال ضافٍ عن الحياة ونشأتها وعن أصل الإنسان، على ضوء الدراسات العلمية الحديثة، ترجـمه الأُستاذ محمود صالح الفلكي المصري. وقدّم له الدكتور أحمد زكي والشيخ الباقوري.

وبما أنّ الغاية من المقال هي البرهنة على تواؤم العلم مع الدين، وأن لاموضع في العلم ينبو عن الدين أبداً، وبذلك كان من المناسب القريب إثبات مقاله هنا تتميماً للفائدة، وتقريباً للأصل القائل، بأنّ العلم يدعو للإيمان، كما هو عنوان المقال بالذات، جاء فيه:

ما هي الحياة؟

الحياة باقية، وقد استمرَّت بعد العصور الأُولى والعصور الجيولوجية. وظهرت قارّات وغرقت أُخرى، وأنّ المحيطات العتيقة والبحار الضحلة لتزخر كلّها بالحياة، وأنّ الحياة

---

١ ـ المصدر، ص ٣٠.

لتسبر غورها وتتخلّل الأمواج المتلاطمة وتنفذ في رمال كلّ شاطىء.

وقد مضت الحياة قُدُماً حيث تراجع كلّ عصر من عصور الجليد، وقاومت كلّ تقدّم للمناطق الباردة، قوية مظفرة.وقد ارتفعت الجبال من الأرض ذات الغضون، وانشقّ السطح واهتزّ مع كلّ زلزال. وتفتّتت قمم الجبال الشاهقة خلال ملايين السنين، وبان أثر ذلك في طبقات بعضها فوق بعض، وغمر ماء البحار قارّات، وصار غرين (طمي) الأراضي القديمة يغطّي قاع كلّ محيط وكأنّه كفن.

ولكن استمرّت الحياة بعد ذلك كلّه!

والحياة تستخدم ذرّات الأرض، وتخلق عجائب جديدة طبقاً لقوانين الكون، ولكنّها في تقدّمها تخلّف وراءها كلّ صغيرة لمستها. وأنّ «صخور دوفر البيضاء» المكوّنة من الطباشير والجير والحجر الصوان لتقصّ علينا قصّة الحيوانات الرخوة والنباتات المائية والمخلوقات البحرية التي لاعدد لها في خلال الدهور. وأنّ الغابات الحيّة والفحم والزيت والغاز لتدلّنا على نشاط العالم القديم الذي تلقّت فيه الحياة طاقة الشمس، وأحالها الإنسان ناراً. وأنّ هذه التركة لتفوق في قيمتها كلّ ثروة أُخرى، لأنّها رفعت الإنسان عن مرتبة الحيوان ومن بين أتون بدايات القشرة الأرضية، حيث كانت كلّ مادة تستحيل جمرةً أو رماداً، استخدمت الحياة طاقة الشمس، ومزّقت ذرّات الماء المتّحدة، وفصلت الكربون البليد من الأُوكسيجين وحوّلته إلى ثاني أُوكسيد الكربون، وخزنت في الأرض وفوق سطحها الموارد الوحيدة للنار. ومن النار قام المثوى وجميع أدوات المدنية، وكلّ ذلك لأنّ الحياة تلقّفت وحفظت كلّ القوى التي أطلقتها الشمس.

وقد تغلّبت الحياة على الظروف المتغايرة للماء والأرض والهواء، ولاتزال ماضية في طريقها في شكل نبات وحيوان. ومن الأميبا[1] صاعداً إلى السمك والحشرات وذوات الثدي وطيور الجو، أو نازلاً إلى الجرثومة والميكروب والبكتريا، وكذا النباتات التي لاحصر لها، وسواء في شكل خليّة أو سمكة قرش أو عنكبوت أو ديناصور أو إنسان أو

---

١ ـ الأميبا: حيوان ميكروسكوبي ذو خليّة واحدة يتولّد بالانقسام الذاتي.

زرع، فإنّ الحياة تهيمن على العناصر، وترغمها على حلّ تركيباتها، والاتحاد من جديد على أساس صلات أُخرى.

والحياة تأتي بمخلوقات في صوَر شتّى من صوَر السلَف، وتمنح هذه الصوَر القدرة على تكرار أنفسها على مدى أجيال لاحدّ لها.

والحياة شديدة الخصب في توالدها، حتى أنّها تعول نفسها، وتطعم من فائضها، ومع ذلك تضبط جميع الكائنات الحيّة، لتمنع أيّ مخلوق من مخلوقاتها، من أن يطغى على العالم. فالجراد مثلاً لو بقي دون ضابط استطاع في بضع سنين أن يلتهم كلّ زرع أخضر، وعندئذٍ تنتهي حياة كلّ حيوان فوق الأرض.

والحياة مثالة، تشكّل الكائنات الحية. وهي فنّانة، تختطّ كلّ ورقة في كلّ شجرة، وتلوّن الأزهار والتفّاح والغابات، وريش عصافير الجنّة. وهي موسيقية، علّمت كلّ طير كيف يشدو بأغاني غرامه، وعلّمت الحشرات كيف ينادي بعضها بعضاً بموسيقى أصواتها المتعدّدة. وهذه الأصوات، سواء أكانت نقيق الضفدعة في الربيع، أم قوق الدجاجة بين صغارها، أم زئير الأسد في صولته، أم تبويق الفيل، تشمل كلّ «برج النغم»للأحاسيس، ولا يفوقها سوى صوت الإنسان في مرونته المدهشة.

والحياة قد جعلت الإنسان وحده سيّداً على تموّجات الصوت مجتمعة وزوّدته بمادّة إنتاجها: فالمزمار والبوق والقيثار، وكذا شعر الخيل، والشمع الذي يُمسح به قوس الكمان، ورجع الصدى من قيثارة الأوركسترا المصنوعة من الخشب، والصوت المنخفض المزدوج الذي هو كصوت الخنزير، وطرقة الجلد على الطبل، كلّ أُولاء مدينة بالفضل للحياة!.

والحياة مهندسة، فهي التي وضعت تصميم سيقان الجندب (النطيط) والبرغوث، والعضلات والروافع، والمفاصل، والقلب الذي يخفق دون كلل، ونظام الأعصاب الكهربية لكلّ حيوان، والدورة الدموية الكاملة لكلّ كائن حيّ. وهي تصمم الهندباء البرّية، ثمّ تزخرف بذورها في «شرابات» يحملها كلّ نسيم. والحياة تشكّل الأزهار، وترغم

الحشرات على أن تحمل اللقاح من عضو التذكير إلى عضو التأنيث.

والحياة كيموية، فهي التي تهب المذاق للفواكه والتوابل وتهب العطر للورد. والحياة تركّب مواد جديدة لم تجهزها الطبيعة بعد، لموازنة عمليّاتها والقضاء على الحياة المغيرة.

والحياة تهب الضوء البارد «للذباب المنير» ليعاونه على بثّ غرامه ليلاً. وكيميا الحياة فائقة، لأنّها لاتقنع باستخدام أشعّة الشمس لتحويل الماء وحامض الكربون إلى خشب وسكّر، بل إنّها إذ تفعل ذلك تطلق الأُوكسيجين كي تتنسّم الحيوانات نسيم الحياة.

والحياة مؤرّخة، فقد كتبت تاريخها صفحة صفحة، تاركة سجلّها في الصخور، وهو تاريخ كتبته بنفسها ولا ينتظر إلّا الترجمة.

والحياة تمنح مخلوقاتها الفرح لكونها حيّة، فالحمل يرتع ويقفز، وهو لا يدري لماذا.

والحياة تلوّن عيني الطفل وتمنحهما بريقاً، وتصبغ خدّيه، وتبعث بالضحك إلى شفتيه. أمّا المادّة فلا تبتسم أبداً.

والحياة تقي مخلوقاتها بوفرة الغذاء في البيض، وتعدّ كثيراً من صغارها للحياة الناشطة بعد الميلاد، أو أنّها تخزن الغذاء تأهّباً لصغارها بوحي أُمومة لاشعورية.

والحياة تنتج الحياة، إذ تعطي اللبن لسدّ الحاجات العاجلة، متوقّعة هذه الضرورة، ومتأهّبة لما يجيء من حوادث.

والحياة قد جاءت للعالم بحبّ الأُمّ لولدها، وجاءت للإنسان بالمثوى والأُسرة، وبحبّ الوطن الذي ينافح عنه حتى الموت.

والحياة تحمي نفسها، بالحيطة في استخدام الألوان لمساعدة مخلوقاتها أو إخفائهم، وبإعداد الساقَين للجري، ومنح الأسلحة للدفاع، من القرون والأشداق والمخالب، وكذا السمع والبصر والشم، والأجنحة للتحليق في الجوّ، وهكذا تزوّد الحياة والدفاع والهجوم وهي تهب قناعاً خفياً لبعض الحشرات التي لايحدث منها أيّ أذى، لكي تقيها كلّ هجوم.

أمّا المادّة فإنّها لم تفعل قطّ أكثر ممّا تمليه قوانينها. فالذرّات إنّما تطيع قواعد الأُلفة الكيموية وقوّة الجاذبية وتأثيرات درجة الحرارة والدوافع الكهربية.

والمادّة ليست مبتكرة، أمّا الحياة فإنّها تأتي إلى الوجود بـتصميمات وتكـوينات جديدة رائعة.

وبدون الحياة كان سطح الأرض يصير صحراء شاسعة مجدبة، وفضاء من ماء غير نافع.

وبدون الحياة تكون المادّة جامدة، ومتى تركتها الحياة عادت مجرّد مادّة، ولكن تبقى لها القدرة على مواصلة حياة مخلوقات أُخرى، وبذا تخلد الحياة فـي الكـائنات الحيّة.

وأمّا ما هي الحياة، فذلك مالم يدره إنسان بعد، فليس للحياة وزن ولاحجم.[١]

والحياة ذات قوّة، لأنّ الجذر النامي يقدر أن يشقّ صخرة. والحياة تنشيء شجرة عظيمة وتحفظها من الجاذبية مدّة ألف سنة أو تزيد. وهي ترفع أطنان الماء من الأرض كلّ يوم، وتنشيء ورق الشجر والفواكه، وأقدم كائن حيّ هو شجرة يرجع عهدها إلى خمسة آلاف سنة، وهي لاتعدو كونها لحظة في الأبدية. والحياة الفردية عابرة. والحـياة هـي المسؤولة عن كلّ حركة لكلّ كائن حيّ. وكلّ هذه الطاقة تقريباً تأتي عن طريق الشمس.

والحياة لاتقدر أن تستمرّ في المادّة التي تكون في حدود ضيّقة، بالغة الحـرارة أو البرودة، لأنّ هاتين تقضيان على ظروف المادّة التي تتوقّف عليها الحياة. فإنّ الحياة لم تظهر على هذه الأرض إلّا حين كانت الظروف موائمة لها، وستقطع نشاطها حين يحدث تغيير ملحوظ في تلك الظروف[٢] غير أنّ الظروف الحالية قد وجـدت واسـتمرّت مـنذ ثلاثمائة مليون سنة على الأقل.

والطبيعة لم تخلق الحياة، فإنّ الصخور التي حرقتها النار والبحار الخالية من الملح لم تتوافر فيها الشروط اللازمة. وهل احتضنت الحـياة هـذه الأرض والكـرات الأرضـية

---

١ ـ قال الله تعالى في كتابه الكريم: «وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي» الإسراء ١٧: ٨٥.

٢ ـ قال تعالى: «إذا السّماءُ انْفَطَرَتْ. وَإذا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإذا الْبِحارُ فُجِّرَتْ. وَإذا الْقُبورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ». الانفطار ٨٢: ١-٥.

الأُخرى في انتظار فرصة يزوّد فيها الكون بقوّة الإدراك؟ إنّ الجاذبية هي من خواصّ المادّة، والكهرباء أصبحنا نعتقد أنّها المادّة نفسها، وأشعّة الشمس والنجوم يمكن انحرافها بالجاذبية، ويبدو أنّها وثيقة الصلة بها.

وقد أخذ الإنسان يدرس حدود الذرّة ويقيس قوّتها المخزونة، غير أنّ الحياة نفسها خدّاعة، مثل الفضاء لماذا؟

والحياة منتظمة، على وتيرة واحدة، في بذل جهدها لإحياء المادّة، وهي لاتعرف فرحاً ولاحزناً، ولاتميز بين أحد وأحد. ومع هذا فالحياة هي الأساس، وهي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها فهم المادّة.

والحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور، وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنع الله ويبهرنا جماله، وإن كانت أعيننا لاتزال فوقها غشاوة.

إنّ الحياة ليست إلّا أداة تخدم مقاصد الخالق سبحانه، وعلى هذا فالحياة باقية كمشيئته تعالى.

كيف بدأت الحياة؟

في لغز بداية الحياة نقطة يجب أن يقف العلماء أمامها، لنقْص الحجج. أجل هناك قرائن كثيرة يمكن إقرارها علمياً. غير أنّ بداية الحياة بلغت من العجب، والنتائج المترتّبة عليها بلغت من التشعّب، بحيث إنّ أكثر العلماء البيولوجيين علماً لابدّ أن تتملّكه الدهشة. فهو بوصفه عالماً لايستطيع أن يؤمن بالمعجزات، ولكنّه بوصفه إنساناً ذكياً يجد ـ نتيجة لبحثه وبحوث غيره ـ أنّ معظم الكائنات الحيّة الآن تتطوّر من خليّة ميكروسكوبية فريدة، على أثر خروجها من طور الحياة تحت الميكروسكوب واقترابها من طور السدفة الذرّية. ويبدو أنّ تلك الخليّة قد وهبت القدرة على التكاثر، ومواءمة نفسها على أشكال عديدة من الحياة، وأنّها أُعدّت لكي تعيش في كلّ ركن وشقّ على ظهر الأرض. والعلم يقرّ بأنّ الواقع لايمكن أن يكون إلّا كذلك. ويعتقد البعض أنّ هذا مصادفة من المواد

الكيموية والماء والوقت. ويرى البعض الآخر النظام ماثلاً في كلّ جانب فسيح من الحياة؛ إذ تمضي قُدماً من منبعها إلى هدفها ـ سواء أكانت ستصبح حيواناً رخَواً أم إنساناً ـ دون أن تعبر الفجوة مرّةً أُخرى.

والآن لنعالج الموضوع بشعور من الإجلال، لاتحدّه الحدود الدقيقة التي تفرضها العقائد الدينية، أو الحقائق العلمية بشأن سبب الحياة ومصدرها، ولنصوّر لأنفسنا الوقائع المعترف بها. وبذا يمكننا أن نحكم، وأمامنا الموضوع كاملاً. وبهذه الطريقة يمكننا أن نعلم إن كنتُ أنا أو أنت مجرّد مجموعة عرضية من المادّة، تولّدت عن الكيمويات والماء والوقت، أولاً.

اُنظر إلى الشيء الهامّ الوحيد؛ إنّه أهمّ من الأرض نفسها ومن الكون كلّه وأهمّ من كلّ شيء آخر ـ ما عدا الخالق المدبّر الذي كان السبب في وجود ذلك الشيء ـ وأعني تلك النقطة من النطفة (البروتوبلازم)[1] التي لاتكاد تُرى، وهي شفّافة لزجة (كالجيلاتين) قادرة على الحركة، تستمدّ نشاطها من الشمس وهي بالفعل كفء لاستخدام ضوء الشمس في عزل ثاني أُوكسيد الكربون من الهواء، مرغمة الذرّات على الانفصال، قابضة على الهيدروجين من الماء، ومنتجة لهيدرونات الكربون، وبذا تعدّ غذاءها بنفسها من أحد المركّبات الكيموية العنيدة للغاية.

إنّ هذه الحلبة الفريدة ـ هذه النقطة الصغيرة الشفّافة التي تشبه الطلّ ـ تحتوي في نفسها على جرثومة الحياة، وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كلّ كائن حيّ، كبيراً كان أو صغيراً، وعلى مطابقة كلّ مخلوق لبيئته حيثما يمكن وجود الحياة، من قاع المحيط إلى السماء. وقد صاغ الزمن والبيئة شكل كلّ كائن حيّ بحيث يتّفق مع أنواع الظروف المتعدّدة. وعندما تكوّن هذه الكائنات الحيّة شخصيّتها الفردية فإنّها تكون قد ضحت ببعض مرونتها و قابليتها للتغيّر، وأصبحت مخصّصة وثابتة، وقد فقدت القدرة

---

١ ـ البروتوبلازم هي المادة الزلالية الحيّة التي تتكوّن منها خليّة الأجسام النباتية والحيوانية، وقد رأينا أن نترجمها بكلمة «النطفة».

على العودة إلى الوراء ولكنّها كسبت مزيداً من الموائمة مع الظروف التي وجدت فيها.

إنّ قوى هذه النقطة الصغيرة من النطفة (البروتوبلازم) و محتوياتها كانت و لا تزال أعظم من الزرع الذي تخضرّ به الأرض، وأعظم من كلّ الحيوانات التي تتنسّم نسيم الحياة لأنّها مصدر كلّ حياة، وبدونها كان لا يمكن وجود شيء حيّ.

والعلم يوافق على كلّما ذكرنا خطوةً خطوة، ولكنّه يتردّد في أن يتّخذ خطوة أخيرة، و يقول إنّ الإنسان قد خطر على هذه الأرض بوصفه طفلاً لمنبع الحياة الكوني، سيّداً بين الحيوانات، وذا تكوين مادّيّ معقّد التركيب للغاية، وصاحب عقل أعدّ عن قصد ليتلقّى لمحة من القدرة الإلهية التي نسمّيها بالروح.

وينبغي لنا أن نبدأ بالأرض كلّها على أنّها صحراء، وليس ثمّة من موادّ غير ما ترك حين بردت الأرض. و قد ارتفعت الأرض من المحيطات، وحدث في الصخور تأكّل لا يمكن وصفه فمزّقها إرباً و كوّن كثيراً من الصخور الثانوية والغرين والطحل. ولم يوجد سوى الموادّ غير العضوية في تركيبات كالبازلت و الجرانيت و تلك الصخور الأُخرى النارية و المتحوّلة، و الغرين الذي سبق رواسب الوجود الحيواني، أمّا الرواسب من أمثال حجر الكلس والمرجان والطباشير والحجر الصوان فإنّها لم تكن موجودة. وليس لدينا سوى موادّ قليلة لنعالجها، فلدينا الماء، و ربّما كان على درجة من الحرارة شديدة الثبات.

إنّ لغز ظهور الحياة على الأرض قد يحلّ وقد لا يحلّ بحدوثه الذاتي. وقد افترض البعض أنّ الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة انسلّت دون أن يصيبها تلف، وبعد أن بقيت زماناً غير محدود في الفضاء،استقرّت على الأرض، ولكن كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حيّة في درجة حرارة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإنّ الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان يقتلها. فإن كانت قد بقيت حيّة رغم ذلك فلابدّ أنّها وجدت لنفسها المكان الملائم، وربّما كان المحيط، حيث أدّى اتفاق مدهش في الظروف إلى توالدها و بداية الحياة على الأرض.

وفضلاً عن ذلك يعود بنا هذا الفرض خطوة أُخرى فيما نحن بصدده. لأنّنا يمكننا أن

نسأل: وكيف بدأت الحياة على أيّ كوكب من الكواكب ؟

إنّ المتّفق عليه عموماً هو أنّه لا البيئة وحدها، ولا المادّة مهما كانت موائمة للحياة، ولا أيّ اتفاق في الظروف الكيموية والطبيعية قد تخلقه المصادفة، يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود.

وبصرف النظر عن مسألة أصل الحياة التي هي بالطبع من الألغاز العلمية، قد افترض أنّ هنّة ضئيلة من الحياة، بلغت من الضآلة أنّها لاترى أو تلمح بالميكروسكوب، قد أضافت إليها ذرّات، وقلّت توازنها الوثيق، فانقسمت، وكرّرت الأجزاء المنفصلة هذه الدورة، وبذا اتّخذت أشكال الحياة، ولكن لم يزعم أحد أنّها اتّخذت الحياة نفسها.

إنّ «الأميبا» هي مخلوق ميكروسكوبي حيّ على درجة كبيرة من التطوّر، وهو مكوّن من ملايين لاحصر لها من الذرّات في تنظيم مرتّب. و«الأميبات» هي مخلوقات ذوات خليّة واحدة، قد لايزيد قطرها على جزء من مائة من البوصة، وتوجد في جميع مياه العالم. والأميبا تشعر بالجوع، وتبحث عن غذائها عن قصد وعمد. وأيّة درجة من كبر الحجم يجب أن يبلغها الحيوان حتّى نعترف بأنّ له رغبات وعزيمة؟ ولكنّ الحجم هو لاشيء في حسبان اللانهائية، لأنّ الذرّة لاتقلّ كمالاً عن نظام المجموعة الشمسية. وإذا اتّخذنا الأميبا مثلاً للإيضاح ـ دون أن نزعم أنّ هذا المخلوق الحيّ ذا الخليّة الواحدة هو المنبع الأصلي للحياة ـ فإنّه يمكن القول بأنّ مخلوقاً مّا نطفياً (بروتوبلازمياً) حيّاً ـ بعد أن ضاعف تكوينه الداخلي ـ قد انقسم وصار اثنين، ثمّ انقسم الاثنان وصارا أربعة، وهكذا إلى غير حدّ، كما تفعل الخلايا الآن في كلّ مخلوق حيّ. فكلّ خليّة تحتوي في نفسها ـ في تقسيمها الباكر ـ القدرة على إنتاج فرد كامل. والخلايا نفسها باقية إلّا إذا وقع لها حادث أو صادفها تغيّر في الظروف لاقبل لها به. وهي تكوّن الخلايا البسيطة في جميع المخلوقات، من حيوانات أو نباتات في الوقت الحاضر، وبذا تكون صوَراً طبق الأصل من أسلافها. ونحن بوصفنا كائنات بشرية،أُمما منتظمة من بلايين فوق بلايين من أمثال تلك الخلايا، وكلّ خليّة هي مواطن يؤدّي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة في ذكاء. وهذا يختلف

اختلافاً بيّناً عن الجزئية المادّية العاطلة من الحياة.[١]

ولكن في الاستطاعة أن نشير إلى شيء حدث منذ زمن بعيد، عند بدء الحياة على الأرض، وكان له شأنٌ عظيم، ذلك أنّ خليّة واحدة قد نمت عندها القدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس في حلّ مركّب كيموي، واصطناع غذاء لها ولأخواتها من الخلايا. ولا بدّ أنّ لدّات أُخريات لخليّة أصيلة أُخرى قد عاشت على الغذاء الذي أنتجته الخليّة الأُولى، وأصبحت حيواناً، في حين صارت الخليّة الأُولى نباتاً، والنباتات التي هي نسل هذه الخليّة هي التي تغذّي جميع الكائنات الحيّة الآن. فهل يمكننا أن نعتقد أنّ كون خلية قد أصبحت حيواناً وأُخرى قد أصبحت نباتاً إنّما حدث بطريق المصادفة؟ إنّ التوازن العجيب بين الزرع وحياة الحيوان إنّما استقرّ بهذا القسيم. وإذا عدنا إلى قصّة ثاني أُوكسيد الكربون وجدنا أنّ هذا التقسيم هو أساسيّ إطلاقاً بوصفه إحدى ضروريات الحياة نفسها. ولو كانت الحياة كلّها حيوانية لكانت الآن قداستنفدت الأُوكسيجين. ولو كانت الحياة كلّها نباتية لكانت قداستهلكت كلّ ثاني أُوكسيد الكربون. وفي كلتا الحالتين كانت تنتهي هذه الحياة وتلك.

وكما ذكرنا من قبل، من المفروض أنّه في التاريخ الباكر جدّاً للكرة الأرضية لم يكن بالهواء أُوكسيجين مطلق، إذ كان كلّ الأُوكسيجين مخزوناً في قشرة الأرض وفي الماء وثاني أُوكسيد الكربون. فإذا كان الأمر كذلك فإنّ كلّ الأُوكسيجين الذي لدينا الآن قدجاء من الزرع. وقد ثبت ذلك بشكل مقبول، لأنّ النباتات تستعمل ثاني أُوكسيد الكربون، وتطلق الأُوكسيجين. ولكن إذا كان هذا كلّه صحيحاً فإنّ الحيوانات التي لاغنى لها عن الأُوكسيجين لكي تعيش لابدّ قد جاءت إلى الوجود بعد زمن طويل من تطوّر النباتات في البحر والأرض، فهل كان ظهور الحياة على دفعتين؟ سنترك ذلك للمستقبل ليقرّره.

---

١ ـ قال الله تعالى في كتابه الكريم: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقينَ». المؤمنون ٢٣: ١٢-١٤.

ومن عجب أنّه في كلتا الحياتين الحيوانية والنباتية، منذ ظهور الكائنات البروتوبلازمية الأُولى، قد تطوّر الذكر والأُنثى بشكل جعل كلّ نوع يستمرّ بالاتّحاد المتكرّر مع الاحتفاظ بمميّزاته العامّة.

وليس هذا مجال البحث في تفاصيل الاضطرارات والنتائج الطبيعية والكيموية التي أدّت إلى التوزيع. ويكفي أن نجعل الأمر مفهوماً لأُولئك الذين ليس لهم معرفة خاصّة بالعلوم. ويمكن إيضاح الأمر على الوجه الآتي:

الظاهر أنّ مجموعات الخلايا كانت أدنى إلى البقاء حيّة حين كانت على صلات وثيقة معاً، وبذا بدأت تتّحد، ثنائية ورباعية ومئوية وألفية ثمّ مليونية. ثمّ دعيت كلّ خليّة لأن تؤدّي مهمّة وكّلت إليها. وتدريجاً ـ مع تكليفها تلك المهامّ المختلفة ـ أصبح في حيّز الإمكان أن يقوم المجموع بوجوه جديدة من النشاط، ففي الحيوانات صار الحمل (وهو عبارة عن تركيبات صغيرة تشبه الشعر). وصارت الزوائد والأقدام الكاذبة تساعد على جمع الطعام الذي تنشط خلايا أُخرى في هضمه. وبعض الأجزاء كانت مكوّنة من عدّة خلايا. فهناك مجموعة منها صنعت غطاءً وقائياً كثيفاً كقشر الشجرة، وأُخرى كانت مشغولة بنقل الغذاء من مكان إلى آخر في المخلوق الحيّ. وأخيراً نجدها مشغولةً بتكوين الخشب في الجذوع، أو بتكوين العظام أو الأصداف لتدعم جرمها المتجمّع النامي. وبعض الأصداف وضعت في الخارج، مثل أصداف اللزيق (سمك صدفي). وهذه الحيوانات الرخوة من النوع الذي يغلق على نفسه. وبعض العظام قد كوّنت بالداخل، فالإنسان يحتاج إلى سلسلة فقرية. وجميع الأشياء التي تعيش تبدأ من خليّة بسيطة، وهذه الخليّة ترغم كلّ نسلها على أن يؤدّي الخدمات وأن يتبع دون انحراف تصميم المخلوق الذي كان على الخليّة الأصلية مضاعفته، سواء أكان سلحفاةً أم أرنباً.

وقد يمكن السؤال عمّا إذا كان للخلايا فهمٌ وإدراك أم لا، وسواء اعتقدنا أنّ الطبيعة قد زوّدت الخلايا بالغريزة ـ مهما تكن هذه ـ أو بقوّة التفكير أم لم نعتقد ذلك فلا مناصَ لنا من الاعتراف بأنّ الخلايا ترغم على تغيير شكلها وطبيعتها كلّها لكي تتمشّى مع

احتياجات الكائن الذي هي جزء منه. وكلّ خليّة تنتج في أيّ مخلوق حيّ يجب أن تكيّف نفسها لتكون جزءً من اللحم، أو أن تضحّي نفسها كجزء من الجلد الذي لايلبث حتى يبلى. وعليها أن تضع ميناء الأسنان وأن تنتج السائل الشفّاف في العين، أو أن تدخل في تكوين الأنف أو الأُذن. ثمّ على كلّ خليّة أن تكيّف نفسها من حيث الشكل وكلّ خاصّية أُخرى لازمة لتأدية مهمّتها. ومن العسير أن نتصوّر أنّ خليّةً مّا هي ذات يد يمنى أو يسرى، ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءً من الأُذن اليمنى، بينما الأُخرى تصبح جزءً من الأُذن اليسرى. إنّ بعض البلّورات المتشابهة كيمويّاً تحوّل أشعّة الشمس نحو اليمين وبعضها الآخر نحو الشمال. ويبدو أنّ مثل هذا الميل موجود في الخلايا. ومتى وجدت في المكان الصحيح الذي تخصّه فإنّها تصحّ جزءً من الأُذن اليمنى أو الأُذن اليسرى. وأُذناك تواجه إحداهما الأُخرى في رأسك، وليستا في كوعيك كما هما عند الصرصور، وتقوّساتهما متضادّة، وحين تكمل تكوّن الأُذنان متماثلتين إلى حدّ يصعب عليك عنده أن تميّز بينهما.

إنّ مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنّها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب وفي المكان الصواب، والحقّ أنّها طائعة، والحياة تدفع إلى الأمام، بانية، مصلحة متوسّعة، وخالقة ما هو حديث وما هو أفضل، بنشاط لايفتر ولا مثيل له في الأشياء الجامدة. فهل هذا ناشيء عن إدراك؟ أم عن غريزة؟ أم أنّه أمر يحدث فحسب؟ يمكنك أن تجيب عن ذلك بنفسك.

بيدَ أنّك قد تقول الآن: إنّ كلّ ماورد بهذا الفصل لايفسّر لنا كيف بدأت الحياة، أي كيف جاءت إلى هذه الأرض، والكاتب لايعرف كيف، ولكنّه يؤمن بأنّها جاءت كتعبير عن القوّة الإلهية، وبأنّها ليست مادّية.

أصل الإنسان

هناك طرق عدّة للبحث في أصل الإنسان. وإنّ متابعة هذه الطرق ليحدث اضطراباً لكثيرين من ذوي الآراء الجامدة. فمن الآراء مايقول بأنّ الإنسان قد جاء عن طريق

عملية تطوّر من الشرارة الأصلية للحياة. وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه فكرة التطوّر كلّها. وهناك رأي آخر يقول بأنّ الله في حكمته قد أودع الحياة على الأرض، وخلق الإنسان كما هو أو كما كان، كاملاً. وثمّة رأي يقول بأنّ العناية الإلهية لاتتقف، ولكنّها أنتجت الحياة بكلّ أطوارها بسلسلة من الخلق. على أنّ هناك رأياً آخرَ يقول بأنّ الحياة التي انتهت إلى الإنسان كانت نتيجة سعيدة لمزيج حدث مصادفة من المواد الكيمويّة بما فيها الماء.

ويمكن القول بأنّه مع الإيمان بوجود الخالق، فإنّه قدشاءت إرادته أن يخلق من العناصر الأصلية للأرض شيئاً تكون له حياة، ويبلغ في النهاية إلى تطوّر في المخّ يسمح بإيداعه الذكاء. ويمكن القول بأنّ الله تعالى قد شاء أن يمنح هذا الذكاء سيادةً وسيطرةً على جميع الكائنات الحيّة الأُخرى وعلى كائنات أُخرى كثيرة عاطلة من الحياة.

وأيّاً ماتخترْ لنفسك من هذه الآراء فإنّ من الواضح أنّ الإنسان لم يوجد كإنسان منذ بدأت الحياة ولكنّه تطوّر فيما بعد إلى ما هو عليه الآن. وعلى أيّ حال لم يظهر كإنسان إلّا بعد أن عجزت كلّ أشكال الحياة للكائنات الأُخرى عن إيجاد جهاز بالغ التعقيد كالعقل البشري.

وإذا فرضنا أنّ الإنسان بدأ مع ظهور الحياة الأُولى فإنّ وجوده يرجع إلى ٤٠٠ مليون سنة أو أكثر. أمّا إذا قبلنا النظرية الثانية فإنّه يكون قد وجد بعد ذلك، أو في أيّ وقت نتيجة للمشيئة الإلهية. أما إذا قبلنا الفرض الثالث فإنّنا لايمكننا أن نحدّد تاريخاً لأول وجوده كإنسان إلّا بما يرجع بنا ملايين عدّة من السنين. وقدأمكن تتبّع تاريخ الإنسان كإنسان بالأدلّة الكافيه لإقناع العلماء لمدّة مليون سنة مضت، ولكن هذا حدّ أدنى متّفق عليه، أمّا قبل ذلك فإنّ تطوّره ـ مهما يكن الحيوان الذي تطوّر منه ـ يرجع إلى قدم لايصل إليه حسبان البشر.

ويوجد في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك حصان أثري ذو ثلاث أصابع، وهو حيوان صغير كان لاريب سريع العدو. ولاشكّ أنّه كان حصاناً، غير أنّ تطوّره

إلى الحصان الجليل الحالي الذي يجري على ما نسمّيه حافراً تطوّر من إصبع قد تطلب ملايين السنين. فإذا اتّخذنا من ذلك مَعلماً للطريق فلنقدّر إذاً الزمن الذي تطلّبه الإنسان حتى تطوّرت يداه وعيناه وذهنه، وبذا صار حيواناً طفيفاً ورفعه ذلك إلى كيانه الحالي.

والآن نعود فنقتبس التقلّبات التي مرّ بها هذا المخلوق الصغير الأعزل من وسائل الدفاع، وإن يكن حقّاً سريع الحركة فإنّه معرّض للخطر من كلّ مخلوق يأكل اللحم، ومن كلّ زاحف سامّ، ومن كلّ جسم يحدث المرض. وكان عليه أن يعني بصغاره زمناً طويلاً من عجزهم، فإنّ أطفال الإنسان تولد عديمة الحول والحيلة، وهي تأتي تباعاً وبذا قد يصبح عدّة أطفال عاجزين، في حاجة إلى الغذاء والوقاية في وقت واحد. وهذا يضاعف عجيبة بقاء الإنسان في خلال الدهور! فقد عاش خلال تغيّرات كالعصر الثلجي وفي كلّ طور آخر من أطوار الحياة المحرومة الوقاية. وهذا ينطبق طبعاً على جميع الحيوانات الأُخرى. وإنّه لمن معجزات العناية الإلهيّة أن استطاعت هذه المخلوقات أن تثبت أمام تلك الظروف. ومن جهة أُخرى فإنّ أنواعاً لاعدد لها كانت قد ولدت ثمّ انقطعت عن الوجود. وليست عظام «الديناصورات»[١] إلّا دليلاً واحداً يثبت به علماء الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) أنّه وجدت في الماضي حيوانات غريبة قدّر لها الفشل فعفا عليها النسيان. وكان ذلك أيضاً مثال ملايين من الحشرات والأسماك والطيور وأنواع أُخرى عديدة من مخلوقات شتّى. ولعلّ «الحَمام المسافر»[٢] كان في وقتٍ مّا أكثر عدداً من البشر، ولكن آخر واحدة منه ماتت في عهدنا، وانقرضت سلالته الفاخرة كما انقرض «البطريق» العظيم و«الدودو».[٣]

وتجد علماء الآثار في إظهارهم لتطوّر الإنسان، يتّخذون من سعة المخّ في جمجمته مفتاحاً لتقدّمه. وقد حلّت أجناس ولاتزال تحلّ محلّ أُخرى، ويبدو أنّ الجنس الأبيض

---

١ ـ الديناصورات جمع ديناصور، وهو الحيوان الهائل الذي وجد مدفوناً تحت أطباق الثلوج وانقرض من الحياة منذ زمن طويل.

٢ ـ نوع من الحمام كان موطنه أمريكا الشمالية، وكان ذا رأس صغير ومنقار قصير وذيل طويل وجناحين طويلين مدبّبين.

٣ ـ الدودو طائر منقرض من فصيلة الحَمام.

هو في الذروة في الوقت الحاضر. أفيأتي الزمن بالإنسان الممتاز «السوبرمان» الذي ينسل ذرّية من نوعه تملأ الأرض على رحبها؟

إنّ العظام في جمجمة الطفل يفرّقها غضروف يتيح لمخّه مزيداً من النموّ، وقد يستمرّ ذلك في طور الشباب إذا كان ثمّة حاجة إلى مثل هذا التوسّع. ولكنّ الواقع أنّنا نصبح ذوي أدمغة صلبة في وقت باكر... ويحسن بنا أن لانغلق عقولنا دون الحقيقة قبل الأوان.[١]

لا خالق إلّا الله

هل باستطاعة الإنسان أن يخلق خلقاً: شجراً أو حيواناً أو إنساناً يُشبهه تماماً، متّخذاً من إحدى خلاياه ليتكوّن إنساناً سويّاً نظير ما يتولّد بانعقاد النطف في الأرحام؟

سؤال أُثير في هذا الأخير: إنّهم عمدوا إلى بعض خلايا الحيوان ليربّوها في أجهزة تشبه الرحم أو في الرحم ذاته ولكن لاعن طريق التزاوج.. فهل هذا بإمكان الإنسان؟ وإذا كان ممكناً، فهل لايتنافى مع مسألة التوحيد في الخلق؟!

قلت: أمّا الإمكان فلا مردّ له، بعد أن تمكّن العلم التجريبي من صنع أحجار كريمة على غرار أُصولها الطبيعيّة. وذلك بعد أن عثروا على ذات العناصر المكوّنة لذلك الكائن، وتوفير شرائطه الطبيعيّة، مقتبساً من الطبيعة ذاتها. فمثل هذا التكوين نشأ عن تقليد الطبيعة، وليس إبداعاً في الصنع، بما يعطي هذه الكلمة من مُفاد.

وهكذا عمل الإنسان في تكثير أنواع الأشجار، لا عن طريقة زرع البذور فحسب، بل عن طريقة غرس الأقلام[٢] أو بالتطعيم[٣] أيضاً. الأمر الذي عرفته البشرية منذ أحقاب.

فإذ لم يكن ذلك متنافياً مع مسألة التوحيد الأفعالي. فكذلك ما لو استطاع الإنسان أن يوجد إنساناً نظيره، متّخذاً من إحدى خلاياه وتنميتها في ظروف مساعدة ليصبح

---

١ ـ العلم يدعو للإيمان، ص ٨٣-١١٠.

٢ ـ باتّخاذ فروع الأغصان وغرسها، فتنمو وتزدهر على غرار الشجرة الأصل.

٣ ـ هو: وصل بُرعم أو فرع صغير مأخوذ من نبات، بساق نبات آخر. فإذا نجحت هذه الطريقة يصبح المطعوم غُصناً يغذّيه النُسغ (شيرج رقيق أبيض يجري في أنسجة الأشجار ويترشّح منها إذا قطعت) الجاري في نسيج الجزء المطعّم.

إنساناً على شاكلته. وما هو إلّا اقتباس من نفس الطبيعة وليس إبداعاً بتمام معنى الكلمة.

وهذا نظير مازعمه بعض أهل الجدل ـ هو ابن أبي العوجاء ـ أنّ باستطاعته أن يخلق الديدان والحشرات، بتمهيد أرضيّته، فتوجد بفعله ـ كما زعم ـ. قال للإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام: أليس تزعم أنّ الله خالق كلّ شيء؟ قال: بلى! فقال: أنا أيضاً أخلق. قال له الإمام: وكيف تخلق؟ قال: أحدث، فما ألبث حتّى يصير دوابّاً. فأكون أنا الّذي خلقتها!

فقال الإمام: أليس خالق الشيء يعرف أعداد مخلوقه وأوصافه؟ قال: بلى، قال: فتعرف الذكر منها من الأُنثى وتعرف كم عمرها؟ فسكت.[1]

نعم، ليس كلّ من يمهّد أرضيّة حدوث شيء بخالق، بعد أن كان عمله مجرّد توفير شرائط حدوث شيء وظروفه المؤاتية له، وفقاً لمنهج الطبيعة، التي سنّها الله تعالى في الخلق والإيجاد.. فلا يوجد شيء إلّا بإذنه وتحت إرادته تعالى، ووفقاً للنظام العام الذي سنّه الله تعالى لحدوث الأشياء. إذ لا مؤثّر في الوجود إلّا الله ولا خالق إلّا الله.

قال تعالى: «أفَرَأيتُم ما تَحرُثون، أأنتُم تَزرَعونَهُ أم نَحنُ الزّارِعون»[2]. و قال: «أفَرَأيتُم ما تُمنونَ، أأنتُم تَخلُقونَهُ أم نَحنُ الخالِقون»[3]. نعم «نَحنُ خَلَقناكُم فَلَولا تُصَدِّقون»[4].

فكلّ موجود، وحتى الذي يحدث على يد غيره تعالى، فإنّما هو مصنوع لله، لا شريك له في الخلق والإبداع.

وأمّا قوله تعالى: «يا أيّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعوا لَهُ: إنّ الذينَ تَدعونَ مِن دونِ الله لَن يَخلُقوا ذُباباً ولوِ اجْتَمعوا له»[5]، فالمراد: خلق إبداع لا خلق تقليد واقتباساً من سنن الله في الطبيعة.

---

١ ـ نقلاً بتصرّف وتلخيص ـ بحار الأنوار، ج ٣، ص ٥٠، رقم ٢٤ عن كتاب التوحيد للصدوق.

٢ ـ الواقعة ٥٦: ٦٤.

٣ ـ الواقعة ٥٦: ٥٨و٥٩.

٤ ـ الواقعة ٥٦: ٥٧.

٥ ـ الحج ٢٢: ٧٣.

منشأ تكوين الجنين

«فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ ماءٍ
دافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ».[1]

الدفق: الدفع بشدّة، والدافق هنا بمعنى المدفوق، وقدشاع هذا الاستعمال عند العرب ولاسيّما عند أهل الحجاز. قال الفرّاء: أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم أن يجعلوا المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب نعت، كقول العرب: هذا سرٌّ كاتم، وهمٌّ ناصب، وليلٌ نائم، وعيشةٌ راضية. قال: وأعان على ذلك أنّها توافق رؤوس الآيات التي هي معهنّ.[2]

والصُلب: العمود الفقري الممتدّ من الكاهل حتّى العجب.

والترائب: جمع تريب وتريبة، أُطلق على عظام متساوية الأطراف ومترادفة التركيب في هيكل الإنسان العظمي، منها الضلوع الكائنة بين الثديين، ومنها العظم الناتىء بين الحاجبين فوق العينين، ومنها العظم المنحني المتساوي الطرفين الكائن بين أُصول الفخذين فوق العانة كما نقل عن الضحّاك ـ فيما رواه ابن كثير ـ قال: الترائب بين الثديين والرِجلين والعينين.[3]

---

١ ـ الطارق ٨٦: ٥-٧.

٢ ـ معاني القرآن، ج ٣، ص ٢٥٥.

٣ ـ تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٤٩٨.

وأصله من «ترب» بمعنى تساوي الشيئين، وهو أصل في اللغة، كما قال أحمد بن فارس.[١]

ومنه الأتراب ـ جمع الترب ـ بمعنى الخدن، ومنه التريب أي الصدر عند تساوي رؤوس عظامه، ومنه التربات وهي الأنامل لتساوي أطرافها، والواحدة تربة.

قوله: «يَخرُجُ مِن بينِ الصُلبِ والتَرائِب» أي صُلب الرجل وترائبه. لأنّ الولد إنّما يتكوّن من ماء الرجل، أي نطفته لاغير. كما قال تعالى: «خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطْفَة»[٢] والنطفة ماء الرجل ومنيّه يُنزله بشهوة ودفق. صرّح بذلك أهل اللغة. والأصل: سلالة الماء وزلاله. والأكثر استعماله في النزر منه، وبذلك خصّ إطلاقه على منيّ الرجل. قال الراغب: النطفة الماء الصافي، ويعبّر عن ماء الرجل. وفي قوله تعالى: «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى».[٣] وقوله: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى. مِن نُطْفَةٍ إذا تُمْنى»[٤] تصريحٌ بأنّه مخلوقٌ من ماء الرجل يُنزله في رحم المرأة. والآيات بهذا الشأن كثيرة.[٥]

وقوله: «إنّا خَلَقْنَا الإنسانَ مِن نُطفَةٍ أمشاج»[٦] أي أخلاط من عناصر شتّى.

قال الإمام الرازي: لاشكّ أنّ أعظم الأعضاء معونةً في توليد المني هو الدماغ، وللدماغ خليفة وهي النخاع، وهو في الصلب، وله شُعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن، وهو التريبة، فلهذا السبب خصّ الله تعالى هذين العضوين بالذكر.[٧]

وسندكر أقوال الحكماء المتقدّمين تعقيباً على كلام الأطبّاء المحدَثين، مشفوعة بروايات تُساند هذا القول بصراحة.

دور الصلب والترائب في إفراز المني

النُطفة تتكوّن عند الرجل في أنابيب الخصية، ثمّ بعد كمال تكوينها ونضجها تنتقل

---

١ ـ معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٣٤٦.

٢ ـ النحل ١٦: ٤.

٣ ـ القيامة ٧٥: ٣٧.

٤ ـ النجم ٥٣: ٤٥-٤٦.

٥ ـ راجع: الكهف ١٨: ٣٧، والحجّ ٢٢: ٥، والمؤمنون ٢٣: ١٣-١٤، وفاطر ٣٥: ١١، ويس ٣٦: ٧٧، وغافر ٤٠: ٦٧، والإنسان ٧٦: ٢، وعبس ٨٠: ١٩.

٦ ـ الإنسان ٧٦: ٢.

٧ ـ التفسير الكبير، ج ٣١، ص ١٢٩-١٣٠.

بالحبل المنوي، إلى الحويصلين المنويين، ومنهما إلى القناتين الدافقتين، فالإحليل، فإلى خارج الجسم.

والصُلب ـ حسب علم التشريح ـ يشمل: العمود الفقري الظهري، والعمود الفقري القطني، وعظم العجز. ويشتمل من الناحية العصبيّة على المركز التناسلي الآمر بالانتعاظ ودفق المني وتهيئة مستلزمات العمل الجنسي. كما أنّ الجهاز التناسلي تعصبه ضفائر عصبيّة عديدة ناشئة من الصُلب، منها الضفيرة الشمسية، والضفيرة الخثلية، والضفيرة الحويضية. وتشتبك في هذه الضفائر الجملتان الودّية ونظيرة الودّية، المسؤولتان عن انقباض الأوعية وتوسّعها، وعن الانتعاظ والاسترخاء ومايتعلّق بتمام العمل الجنسي.

أمّا الترائب فقد عرفت أنّ من معانيها ما يتّفق مع الحقيقة العلمية، وهي عظام أُصول الأرجل أو العظام الكائنة ما بين الرجلين، كما ذكره ابن كثير نقلاً عن الضحّاك.

وأصبح تفسير الآية ـ على ضوء هذا التوضيح، كما ذكره الدكتور كنعان الجابي، في كتابه «موجز علم النسج» ـ: إنّ الماء الدافق الذي هو ماء الرجل (أي المني) يخرج من بين صُلب الرجل وترائبه (أي أُصول أرجله). وذلك لأنّ معظم الأمكنة والممرّات التي يخرج منها السائل المنوي تقع من الناحية التشريحية بين الصُلب والترائب. فالحويصلان المنويّان ـ وهما الغدّتان المفرزتان ـ يشكل إفرازهما قسماً من السائل المنوي، ويقعان خلف غدّة الموثة (البروستات) وإفرازهما ذو لون غنيّ بالفركتوز. كما أنّ لهما دوراً إيجابياً في عملية قذف السائل المنوي على شكل دفقات بسبب تقلّص العضلات الموجودة بهما.[١]

وقال الدكتور حسن هويدى: إنّ في تعبير الآية الكريمة دلالة على تعاون الصُلب والترائب في هذا الإفراز وإخراج السائل المنوي، كعاملين لإخراج المني من مستقرّه ليؤدّي وظيفته. وذلك لأنّه يخرج من بين صُلب الرجل ـ كمركز عصبي تناسلي آمر ـ وترائبه ـ كمناطق للضفائر العصبية ـ المأمورة بالتنفيذ. حيث يتمّ بهذا التناسق بين الآمر والمأمور خروج المني إلى القناتين الدافقتين. وهذا ثابت من الناحية العلمية، وموضح

---

١ ـ مع الطبّ في القرآن الكريم: ص ٣٣.

لدور الجملة العصبية، ولابدّ من تعاون الجانبين لتدفّق المني، فإن تعطّل أحدهما توقّف العمل الجنسي الغريزي.[١]

تكوين الولد من نطفة الرجل وبييضة المرأة

يتألّف جهاز الرجل التناسلي من غدّتين يغلفهما كيس جلدي مرن يسمّى بالصفن، الذي يتدلّى بين الفخذين، وتحوي كلّ خصية آلافاً مؤلّفة من أنابيب متناهية في الصغر ملتفّة حول بعضها، وتسمّى بالأنابيب المنويّة.

ومثل الخصية كمثل مصنع يخرج نطف الرجل وبذوره، فمتى أينعت النطف وتمّ تكوّنها سارت في أنابيب دقيقة تنقلها إلى مستودع يحتضنها ويحنو عليها ليجعلها صالحة للتلقيح عند الطلب. وتتسابق النطف المكدّسة في المستودعين إلى الخروج من سجنها (الحويصلات المنويّة) عند تفجّر البركان الجنسي، فتسير في الإحليل، تدفعها تقلّصلات عضلية تقذف بها خارجاً لتؤدّي رسالتها في حفظ النوع.

أمّا المرأة فيتألّف جهازها التناسلي من مبيضين يسكن كلّ منهما الجهة المناسبة من أسفل حوض المرأة، ويقوم بوظيفة طبخ وإنضاج البييضة. وتحرّر المرأة بييضةً واحدةً في كلّ شهر، يقوم بإطلاقها أحد المبيضين بالتناوب، فيتلقّفها أُنبوب مجوّف (النفير) يحتضن البييضة ويساعدها في مسيرها، فتجتاز تلك المسافة ثمّ تستقرّ داخل النفير دون نهاية الثلث الأوّل منه من طرف الرحم في موضع يسمّى «البوق» وتنتظر خطيبها (الحيوان المنوي) الذي يأتيها من نطفة الرجل.

ولكي يتمّ الإخصاب ويتكوّن الجنين يجب اجتماع عُنْصُرَي الإلقاح: الحيوان المنوي المذكّر المسمّى «النطفة» والبييضة المؤنّثة. وإنّ الحمل يتمّ لقاءً بين البييضة، وهي عنصر منفعل غير مؤثّر يصنعه جسد المرأة، وبين الحيوان المنوي، وهو عنصر فاعل يصنعه جسد الرجل. وهذا اللقاء يؤلّف المُضغة البشرية.

---

١ ـ مجلّة حضارة الإسلام، العدد الأول سنة عشرين.

والسائل المنوي ـ الذي يقذفه جهاز التناسلي للرجل ـ يكون عادةً ثلاثة سنتيمترات مكعّبة تحوي (.../.../٢٥٠) مائتين وخمسين مليون من الحيوان المنوي تقريباً، يستطيع كلّ واحد منها أن يكوّن جنيناً إذا ما أُتيحت له بييضة مؤنّثة حيّة ناضجة، ليدخل فيها فيلقّحها وتغدو معها حجيرة كاملة تامّة التكوين.

وتختلف المرأة عن الرجل في أنّها لاتبيض سوى بييضة واحدة في الشهر، وليس لها سلطان في تحريرها وإرسالها للتلقيح، لأنّ مبيض المرأة يمارس عمله مستقلاًّ عن إرادتها، وذلك في دورة قمرية تقريباً تتراوح عادةً بين ٢٧و٢٨ يوماً، وهي دورة شهريّة طمثية حقيقية، تبتدىء بظهور دم الحيض وتنتهي بانتهاء أيّام البيض (النقاء) وظهور دم حيض ثانٍ. كلّ ذلك خارج عن إرادة المرأة، الأمر الذي لايمكن تقديمه أو تأخيره عن وقته المحدّد الطبيعي أو اختصاره أو الزيادة عليه.

وعندما تنضج البييضة وتتحرّر من مكانها ينجذب النفير إليها ليتلقّفها، ثمّ تأخذ حجيراتها الفارشة بالاهتزاز لسوق البييضة نحو الرحم، ومتى وصلت هذه البييضة إلى نهاية الثلث الأول من النفير (البوق) تنتظر لقاء الحيوان المنوي الآتي من قبل إفراغ نطفة الرجل في الرحم عن طريق المهبل، فتستقبله وتحضنه، وبذلك يتكوّن أول خليّة من خلايا الجنين.

وتنتهي المقارنة الجنسية بين الذكر والأُنثى بقذف الحيوانات المنويّة في داخل المهبل، حيث تتسابق هذه الحيوانات إلى غايتها، كأنّها في مباراة للجري. وغايتها هي حصول اللقاء مع البييضة حيث كانت في حالة انتظار، فالحيوان المنوي الذي سبق الآخرين إنّما يحاول الدخول في البييضة فتتقبّله البييضة، وترسل لاستقباله وجذبه نتوءً في واجهته (استطالة في سطحها المواجه للحيوان المنوي الآتي إليها) كي تحتضنه.

ويتكوّن الجنين نتيجةً لاتحاد جسدَي الرجل والمرأة، أو على الأصحّ نتيجةً لامتزاج نطفة الرجل مع بييضة المرأة، وتغدو هذه البييضة بعد التلقيح (دخول الحيوان المنوي فيها) ناضجة مكتملة بعناصر النموّ والتطوّر وتكوين الجنين. والحيوان المنوي بيضويّ الشكل ذو ذنب، سريع الحركة لايهدأ ولايسكن، ويبقى حيّاً مدّة ثلاث أيّام إذا

كان الجَوّ الحراري ملائماً.

فالسائل المنوي يتدفّق من عضو الرجل داخل مهبل المرأة، ويتمّ امتصاصه من قِبَل رحمها. أما البييضة فتربض في النفير بانتظار الزائر المفضّل. وكلّما كان تدفّق المني عميقاً كانت المسافة قصيرة لحصول اللقاح بين عنصري تكوين الجنين.

❊ ❊ ❊

يقول علماء الاختبارات الدقيقة في هذا المجال: إنّ النطفة تقضي بين ٨ـ ١٢ ساعة لقطع المسافة من المهبل إلى النفير حيث تلاقي البييضة فيه.

وقد تأكّد لكثير من العلماء أنّ الحيوان المنوي يسير بذبذبات الذنب بسرعة ٢ـ٣ مليمترات في الدقيقة الواحدة، لذلك يحتاج في سيره إلى مقدار خمس ساعات لقطع مسافة العشرين سنتيمتراً التي تفصل عنق الرحم عن منطقة اللقاء (حيث مستقرّ البييضة).

وإنّ حياة الحيوان المنوي داخل جهاز المرأة التناسلي لايتعدّى ٤٨ ساعة (يومين) إذا كان الوسط الذي يعيش فيه ملائماً وكانت خصيتا الرجل سالمتين قادرتين على إنتاج نطف قويّة قويمة.

وقد عرفت أنّ بييضة المرأة لا تلبث أكثر من ثلاثة أيّام، فهي لا تعمر ولا تبقى حيّة طويلاً إلّا إذا أنقذها حيوان منوي من نطفة الرجل، يساعدها على إتمام مصيرها والمضيّ بها لأداء رسالتها.[1]

❊ ❊ ❊

وللشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره بيانٌ على أساس تكوين الجنين من الماءين: نطفة الرجل وبييضة المرأة، يخرجان من بين صلبيهما وترائبيهما معاً، وله في ذلك استفتاء من أحد مراجع الطبّ الحديث بالقاهرة، قال:

إنّ الولد يتكوّن من منيّ مدفوق من الرجل، فيه جرثومة حيّة دقيقة لاترى إلّا بالآلة المُعظّمة (الميكرسكوب) ولا تزال تجري حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم

---

١ ـ الدكتور صبري القبّاني في كتابه أطفال تحت الطلب، ص ٢٥-٥٠.

المرأة وهي البويضة، ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكوّنتا جرثومة الجنين.

قال: وقد استفتيت في نظرية الحمل وكيفيّة تكوين الجنين النطاسي البارع عبدالحميد العرابي بيك وكيل مستشفى الملك سابقاً، فأجابني حفظه الله بما يأتي:

كيفية حصول الحمل ونموّ الجنين في الرحم

قال الله تعالى: «**فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق. خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلبِ وَالتَّرائِبِ**»[١] وقال أيضاً: «**ونُقِرُّ في الأرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجلٍ مُسَمّى**».[٢]

اعلم أخي وفّقك الله إنّ في هاتين الآيتين وما شاكلهما من الآيات سرّاً من أسرار التنزيل ووجهاً من وجوه إعجازه، إذ فيهما معرفة حقائق علمية تأخّر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرناً.

بيان هذا: إنّ صُلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هي عظام صدره، ويكاد معناها يقتصر على حافّة الجدار الصدري السفلي.

وإذا رجعنا إلى علم الأجنّة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسّر لنا هذه الآيات التي حيّرت الألباب، وذهب المفسّرون مذاهب شتّى على قدَر ما أتى كلّ واحد منهم من علم، وإن كان بعيداً عن الفهم الصحيح والرأي السديد.

ذاك أنّه في الأُسبوع السادس والسابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ فيه ما يسمّى «جسم وولف وقناته» على كلّ جانب من جانبي العمود الفقري، ومن جزءٍ من هذا تنشأ الكِلَى وبعض الجهاز البولي، ومن جزءٍ آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة. فكلّ من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكِلَى ويقع بين الصُلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع.

وممّا يفسّر لنا صحّة هذه النظرية أنّ الخصية والمبيض يعتمدان في نموّهما على الشريان الذي يمدّهما بالدم، وهو يتفرّع من الشريان «الأورطي» في مكان يقابل مستوى

١ ـ الطارق ٨٦: ٥-٧.
٢ ـ الحجّ ٢٢: ٥.

الكِلَى الذي يقع بين الصُلب والترائب، ويعتمدان على الأعصاب التي تمدّ كلاًّ منهما وتتّصل بالضفيرة الأورطية، ثمّ بالعصب الصدري العاشر، وهو يخرج من النخاع بين الضلع العاشر والحادي عشر، وكلّ هذه الأشياء تأخذ موضعها في الجسم فيما بين الصُلب والترائب.

فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني وفي ضبط شؤونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كلّه على مكان في الجسم يقع بين الصُلب والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم.

هذا، وكلّ من الخصية والمبيض بعد كمال نموّه يأخذ بالهبوط إلى مكانه المعروف، فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن، ويهبط المبيض حتّى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم.

وقد يحدث في بعض الأحيان أن لا تتمّ عملية الهبوط هذه، فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصفن، فتحتاج إلى عملية جراحية حتّى تصل إلى وضعها في الموضع الطبيعي.

هذا، والإنسان يبدأ حياته جنيناً، والجنين يتكوّن من تلقيح بويضة تخرج من المبيض متدفّقةً نحو بوق الرحم بالحيوان المنوي الذي تفرزه خصية الرجل، ويكون التلقيح في الغالب في داخل أحد البوقين أو فيهما معاً، ثمّ تسير البويضة في طريقها إلى الرحم حتّى تستقرّ في قرار مكين إلى أجلٍ مسمّى.

هذا إذا صادفها أحد الحيوانات المنويّة. أمّا إذا أخطأها التلقيح فتكون ضمن الإفرازات الرحمية التي تُطرَد في خارج الجسم.

وممّا يلاحظ أنّ إفراز البويضات عند المرأة هو عملية فسيولوجية شهرية لا علاقة لها بالاجتماع الجنسي، غير أنّ هذا الاجتماع ضروريّ لعملية التلقيح بالحيوان المنوي الذي يسبح في ماء الرجل.

وممّا سبق تعلم أنّ الماء الدافق يكون من كلٍّ من الرجل والمرأة، أمّا ماء الرجل فيتكوّن من الحيوانات المنويّة وسوائل أُخرى تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات

المنويّة. وهذه السوائل كلّها جعلت مُباءةً ومستقرّاً للحيوان المنوي الذي بدونه لا يتمّ التلقيح.

وهكذا الحال في البويضات التي يفرزها مبيض المرأة، فإنّها بعد أن تكون في المبيض على شكل حويصلة صغيرة تسمّى حويصلة (جراف) تنمو وتبلغ أشدّها في نحو شهر حتّى تتقرّب من المبيض ثمّ تنفجر كما تنفجر الفقاعة وتندفع منها البويضات مع السائل الذي خرج من الفقاعة إلى البوق حيث يقابلها حيوان منوي يقوم بعملية التلقيح. وكلا الماءين (ماء الرجل وماء المرأة) دافق، أي ينصبّ مندفعاً، وهذا هو الحاصل فعلاً.

ومن هذا يتبيّن بوضوح أنّ الإنسان خُلِقَ ونشأ من الماء الدافق (ماء الرجل، وأهمّ ما فيه الحيوان المنوي، وماء المرأة وأهمّ ما فيه البويضة) الذي ينصبّ مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض، ومنشأهما وغذاؤهما وأعصابهما كلّها بين الصُلب والترائب.

وقد ثبت في علم الأجنّة أنّ البويضة ذات الخليّة الواحدة تصير علقةً ذات خلايا عدّة، ثمّ تصير العلقة مضغةً ذات خلايا أكثر عدداً، ثمّ تصير المضغة جنيناً صغيراً وزّعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كلّ طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة في أول الأمر، فإذا تمّ نموّها كوّنت جسم الإنسان.[1]

الذكورة والأنوثة في ماء الرجل

قال تعالى: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. مِنْ نُطْفَةٍ إذا تُمنىٰ».[2]

البييضة الملقّحة التي يتكوّن منها الجنين تحتوي على ٢٢ زوجاً من صبغيات جسمية يتكوّن منها بنية جسم الجنين، وزوج واحد من صبغيات جنسية هي التي تعيّن جنس الجنين أذكر هو أم أُنثى وهذا التعيين يأتيه من نطفة الرجل: كروموزوم (س) أو كروموزوم (ي).

وقد استطاع الطبّ الحديث اليوم من تمييز نوعين متساويين من النطف عند كلّ

---

١ ـ تفسير المراغي، ج ٣٠، ص ١١٢-١١٥.
٢ ـ النجم ٥٣: ٤٥-٤٦.

رجل، يحتوي أوّلهما على صبغيات تسمّى (كروموزوم ـ س) ويحتوي ثانيهما على (كروموزوم ـ ي). وعند اندفاق هذه النطف في الرحم يزاحم بعضها بعضاً تسابقاً وتدفّقاً، بحثاً عن البييضة وجرياً وراءها. فإن كانت النطفة الملقّحة من النوع الأول أي (كروموزوم ـ س) سوي خلق الجنين ذكراً، وإن كانت النطفة الملقّحة من النوع الثاني أي (كروموزوم ـ ي) سوي خلق الجنين أُنثى.

وقد أثبتت التجارب الطبّية ودلّت الاختبارات العلمية المجراة على آلاف الأزواج أنّ الصبغيّات الكامنة في النطف تتناقل الأوصاف والأخلاق والألوان العائلية بطريق الوراثة، على ما هو معروف.[١]

وعلى أيّة حال فإنّ نطاف الرجل هي المسؤولة عن تحديد الجنس، لأنّها تحمل الأشكال المتغايرة من صبغيات جنس الجنين. وهذا ما ذكره القرآن بصراحة.[٢]

نظرة الأطباء القدامى

قال الشيخ أبوعلي المعروف بابن سينا في كتاب «القانون» عند تشريح أعضاء التناسل: قد خلق الأُنثيان عضوان رئيسيان يتولّد فيهما المني من الرطوبة المتحلّبة إليهما في العروق كأنّها فضل من الغذاء الرابع في البدن كلّه، وهو أنضج الدم وألطفه، فيتخضخض فيهما بالروح في المجاري التي تأتي البيضتين من العروق النابضة والساكنة المتشعّبة من عرقٍ نابض وعرقٍ ساكن هما الأصلان. ثمّ ينصبّ عنهما في أوعية المني إلى الإحليل وينزرق في مجامع النساء ـ وهو الجماع الطبيعي ـ إلى الرحم. ويتلقّاه فم الرحم بالانفتاح والجذب البالغ، إذا توافى الدفقان معاً.

والمجرى الذي تأتي فيه العروق إلى الأُنثيين هو في الصفاق الأعظم الذي هو على العانة. وأمّا الغشاء التي يغشّي الشرايين والأوردة الواردة إلى الأُنثيين فمنشأهُ من الصفاق الأعظم ـ كما علمت ـ وبذلك يتّصل أيضاً بغشاء النخاع، وينحدر على ما ينحدر من

---

١ ـ أطفال تحت الطلب، ص ١٦٧.

٢ ـ مع الطبّ في القرآن الكريم، ص ٢٧.

العروق والعلائق في بربخي الأربية إلى الأُنثيين.

وأمّا القضيب فإنّه عضو آلي يتكوّن من أعضاء مفردة رباطية وعصبية وعروقية ولحمية، ومبدأ منبته جسم ينبت من عظم العانة، رباطيّ كثير التجاويف واسعها، وتجري تحت هذا الجرم شرايين كثيرة واسعة فوق ما يليق بقدر هذا العضو، وتأتيه أعصاب من فقار العجز.

وسبب المني هو أنّ المني فضلة الهضم الرابع الذي يكون عند توزّع الغذاء في الأعضاء راشحة عن العروق.

وعند جالينوس والأطبّاء أنّ للذكر والأُنثى جميعاً زرعاً يقال عليه اسم المني فيهما، لا باشتراك الاسم بل بالتواطؤ[1] وفي كلّ واحد من الزرعين قوّة التصوير والتصوّر معاً، لكن زرع الذكر أقوى في القوّة التي منها مبدأ التصوير ـ بإذن الله تعالى ـ وزرع الأُنثى أكثر في القوّة التي عنها مبدأ التصوّر. وأنّ منيّ الذكر يندفق في قرن الرحم فيبلعه فم الرحم بجذب شديد، وأنّ منيّ الأُنثى يندفق من داخل رحمها من أوعية وعروق إلى موضع الحبل.

وأمّا العلماء الحكماء فمحصول مذهبهم أنّ منيّ الذكر فيه مبدأ التصوير، وأنّ مني الأُنثى فيه مبدأ التصوّر. وأنّ اسم المني إذا قيل عليهما كان باشتراك الإسم، إلّا أن يحتمل معنى جامع ويسمّى له الشيء منيّاً، وأمّا في المعنى الذي يسمّى به دفق الرجل منيّاً فليس دفق الأُنثى منيّاً، وبالحقيقة فإنّ منيّ الرجل حارٌّ نضيج ثخين، ومنيّ المرأة من جنس دم الطمث نضيج يسير أو استحال قليلاً ولم يبعد عن الدموية بعد منيّ الرجل، فلذلك يسمّيه الفيلسوف المتقدّم طمثاً.

ويقولون: إنّ منيّ الذكر إذا خالط فعل بقوّته ولم يكن لجرميّته كبير مدخل في تقويم جرميّة بدن المولود، فإنّ ذلك من منيّ الأُنثى ومن دم الطمث، بل أكثر غنائه في جرميّة

---

١ ـ مقصوده من الاشتراك: أنّ ماء الرجل وماء المرأة شيئان متباينان لا رابط بينهما في الماهية والحقيقة، ومن ثمّ فإطلاق اسم المنّي عليهما من الاشتراك اللفظي، الموضوع لكلّ واحد من المعنيين وضعاً على حدة.

وأمّا التواطؤ فهو الاشتراك المعنوي، وأنّهما في أصل الحقيقة شيء واحد اختلفا في بعض الجهات لا في الماهية.

لكن الأكثر على أنّهما شيئان، وأنّ اسم النطفة أو المنّي إنّما يطلق على ماء الرجل بالحقيقة، وعلى ماء المرأة بالمجاز والمناسبة لاغير.

روح المولود، وإنّما هو كالأنفحة الفاعلة في اللبن، وأمّا منيّ الأنثى فهو الأُسّ لجرميّة بدن المولود.

وقال أبقراط: إنّ جمهور مادّة المني هو من الدماغ، وإنّه ينزل في العرقين اللذين خلف الأُذنين، ولذلك يقطع فصدهما النسل ويورث العقر.[١]

ولم يعرف جالينوس هل يورث قطع هذين العرقين العقر أم لا؟

وأنا أرى أنّ المني ليس يجب أن يكون من الدماغ وحده، وإن كانت خميرته من الدماغ، وصحّ ما يقوله أبقراط من أمر العرقين، بل يجب أن يكون له من كلّ عضو رئيس عين، وأن تكون الأعضاء الأُخرى ترشّح أيضاً إلى هذه الأُصول، وبذلك يكون الشبه.[٢]

قال القرشي ـ شارح كتاب القانون ـ في شرح عبارة الشيخ الأخيرة:

إنّما يكون تولّد المني من الرطوبة المبثوثة على الأعضاء كالطلّ، وهي تتبخّر حتّى تتصعّد إلى الدماغ، وهناك تفارقها الحرارة المتبخّرة فتبرد وتتكاثف وتعود إلى قوامها، ثمّ من هناك ينزل إلى العروق التي خلف الأُذنين وينفذ إلى النخاع في عروق هناك، لئلّا يتغيّر عن التعدّل الذي أفاده الدماغ، فلا يتبخّر بالحرارة كرّة أُخرى. فإذا نزلت من هناك حتّى وصلت إلى قرب الأُنثيين صادف هناك عروقاً واصلة من الكليتين إلى الأُنثيين، وتلك العروق مملوءة من الدم، فتتسخّن في الكليتين وتعدل، فيحيله ذلك النازل من الدماغ إلى مشابهه بعض الاستحالة، ثمّ ينفذ بعد ذلك إلى الأُنثيين، ويكمل فيهما تعدّله وبياضه ونضجه، ومنهما يندفع إلى أوعيته.[٣]

ونقل المجلسي ﷺ عن الحكيم «أرسطو» وجماعة من الحكماء: أنّه ليس للمرأة منيّ ـ بهذا الوصف المعروف ـ وإنّما تنفصل من مبيضها رطوبة شبيهة بالمنيّ، وقد يطلق عليها اسم المنيّ مجازاً بالتشبيه (وهو ماء أصفر رقيق أشبه بدم الاستحاضة القليلة). قالوا: وإذا

---

١ ـ قال القمّي ـ في تفسير قوله تعالى: «لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» الحاقّة ٦٩: ٤٨ ـ: عرق في الظهر يكون منه الولد. التفسير، ج ٢، ص ٣٨٤.

٢ ـ القانون في الطبّ، المقالة الأُولى من الفن العشرين، ج ٢، ص ٥٣٢-٥٣٤.

٣ ـ بنقل العلّامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٣٩٠ من كتاب السماء والعالم.

امتزج منيّ الرجل بتلك الرطوبة تتولّد منه مادّة الجنين. ومنيّ الرجل هو العاقد الفاعل، ورطوبة المرأة هي المنعقدة والمنفعلة.[١]

وهذا الذي ذكره حُكماء القديم والحديث هو الذي دلّت عليه الآيات وصريح الروايات، ولنذكر نماذج منها:

❊ ❊ ❊

قال تعالى: «أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُون. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُون»[٢] فالذي يُخلَق هو الذي يُمنى كما في قوله: «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى»[٣] وهذا إلى جنب قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُون. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُون»[٤] يدلّ بوضوح على أنّ الرجل هو باذر نطفة الجنين التي يتكوّن منها، وإنّما المرأة أرض صالحة لهذا الإنبات والإيلاد. كما قال: «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ».[٥] نعم يجب أن لا يُنسى مالمواد الأرض الصالحة وأملاحها الحظّ الأوفى في تنمية الزرع وإنبات النبات. وهكذا المرأة لها الحظّ الأوفر في تنمية الجنين وتربيته ليكون ولداً سوياً. نظير ما لبيض الدجاج في صفاره وبياضه من تموين فرخها وتكوينه الأوّلي، لكنّه لا يعدو تغذية نطفة الديك الداخلة في البيضة والتي تشكّل هي المبدأ الأوّل لتكوين الفرخ.

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: أمّا العظام والعصب والعروق فمن الرجل، وأمّا اللحم والدم والشعر فمن المرأة.[٦]

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ للرحم أربعة سُبُل، في أيّ سبيل سلك فيه ماء الرجل كان منه الولد. وفي رواية أُخرى: إنّ الله خلق للرحم أربعة أوعية...[٧]

وجاء في باب الديات: وجعل منيّ الرجل إلى أن يكون جنيناً خمسة أجزاء، وذلك

---

١ ـ المصدر، ص ٣٦٨.

٢ ـ الواقعة ٥٦: ٥٨-٥٩.

٣ ـ القيامة ٧٥: ٣٧.

٤ ـ الواقعة ٥٦: ٦٣-٦٤.

٥ ـ البقرة ٢: ٢٢٣.

٦ ـ بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٣٣٦، حديث ٩ و ص ٣٣٨، ح ١٥ عن علي عليه السلام.

٧ ـ الكافي، ج ٦، ص ١٦ و ١٧، حديث ١ و ٢، باب أكثر ما تلد المرأة.

أنّ الله خلق الإنسان من سلالة وهي النطفة، فهذا جزء. ثمّ علقة، فهو جزءان. ثمّ مضغة فهو ثلاثة. ثمّ عظماً، فهو أربعة. ثمّ يكسى لحماً، فحينئذ تمّ جنيناً، فكملت له خمسة أجزاء.[١]

* * *

قال تعالى: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِين»[٢] جاء في تأويلها عن الإمام الباقر عليه السلام قال: في أصلاب النبيّين. وفي رواية أُخرى عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام: في أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام.[٣]

وتقول مخاطباً للإمام الحسين عليه السلام ـ في زيارته عند ضريحه بمشهد كربلاء ـ: أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة...[٤]

وعن ابن‌عباس قال: ما زال النبيّ صلى الله عليه وآله يتقلّب في أصلاب الأنبياء حتّى ولدته أُمّه.

قال: وسألته صلى الله عليه وآله فقلت: بأبي أنت وأُمّي أين كنت و آدم في الجنّة؟ فتبسّم حتّى بدت نواجده. ثمّ قال: إنّي كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح، وقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم. لم يلتق أبواي قطّ على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفّىً مهذّباً لا تنشعّب شعبتان إلّا كنت في خيرهما.[٥]

وقد ورد بطرق متظافرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله: كنت أنا وعليّ على يمين العرش نسبّح الله قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلمّا خُلق آدم جعلنا في صلبه، ثمّ نقلنا من صلب إلى صلب في أصلاب الطاهرين وأرحام المطهّرات، حتّى انتهينا إلى صلب عبدالمطّلب فقسّمنا قسمين، فجعل في عبدالله نصفاً وفي أبي‌طالب نصفاً، وجعل النبوّة والرسالة فيّ، وجعل الوصية والقضيّة في عليّ.[٦]

* * *

---

١ ـ بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٣٥٤، حديث ٣٧.
٢ ـ الشعراء ٢٦: ٢١٩.
٣ ـ الصافي في تفسير القرآن، للفيض الكاشاني، ج ٢، ص ٢٢٨، في تفسير آية ٢١٩ من سورة الشعراء.
٤ ـ زيارة وارث، وهي السابعة من زياراته المطلقة.
٥ ـ الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٩٨.
٦ ـ عن أمالي المفيد وغيره بروايات كثيرة أوردها المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٣١.

وفي الكافي بسند صحيح عن الامام الباقر عليه السلام قال: إنّ الله عزّوجلّ إذا أراد أن يخلق النطفة التي أخذ عليها الميثاق في صلب آدم أو ما يبدو له فيه ويجعلها في الرحم حرّك الرجل للجماع، وأوحى إلى الرحم أن افتحي بابك حتّى يلج فيك خلقي وقضائي النافذ وقدري، فتفتح الرحم بابها فتصل النطفة إلى الرحم، فتردّد فيه أربعين يوماً ثمّ تصير علقة ـ إلى أن قال: ـ ثمّ يبعث الله ملَكين... فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء.[١]

وفي رواية أُخرى أيضاً صحيحة الإسناد عنه عليه السلام: إذا وقعت النطفة في الرحم استقرّت فيها أربعين يوماً.[٢]

وعنه أيضاً ـ وقد سئل عن قوله تعالى: «**مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**»[٣] ـ قال: المخلّقة هم الذرّ الذين خلقهم الله في صلب آدم عليه السلام، وأخذ عليهم الميثاق ثمّ أجراهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء.[٤]

وفي رواية الصدوق بإسناده عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا وقع الولد في جوف أُمّه... إلى الوقت المقدّر لولادته.[٥]

وفي البصائر: تقطر قطرة من تحت العرش فتقع على ثمرة أو بقلة، فيأكلها الإمام الذي يخلق منه نطفة الإمام بعده، فيخلق الله من تلك القطرة نطفة في الصلب، ثمّ يصير إلى الرحم فيمكث فيها أربعين ليلة.[٦]

***

والمتلخّص من مجموع ما ذكرنا من كلمات أعلام التحقيق مشفوعة بظهور الآيات وصريح الروايات، هو: أنّ النطفة في حقيقتها من ماء الرجل وهو منيّه. وهي تشتمل على حيوانات منويّة دقيقة هي أصل مبدأ الإنسان ذكراً أو أُنثى، ولا شأن لبييضة المرأة عند

---

١ ـ الكافي، ج ٦، ص ١٣، حديث ٤.

٢ ـ المصدر، ص ١٦، حديث ٧؛ والبحار، ج ٥٧، ص ٣٥٦ و ٣٥٧، حديث ٤٠ و ٤١.

٣ ـ الحجّ ٢٢: ٥.

٤ ـ الكافي، ج ٦، ص ١٢، حديث ١.

٥ ـ بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٣٥٨، حديث ٤٧.

٦ ـ المصدر، ص ٣٥٢، حديث ٣٦.

تلقيحها بنطفة الرجل سوى تنمية هذه النطفة وتغذيتها وتموينها بما يؤول إلى لحم وشعر، أمّا العظم والعصب والعروق ـ وهي مادّة الإنسان الأصلية ـ فهي من ماء الرجل لا غير.

إنّ حياة ما في نطفة الرجل هي حياة حيوانية، وأمّا حياةُ بُييضة المرأة فهي حياة نباتية، سرعان ماتذبل وتتعفّن فتفسد إذا لم ينقذها الحيوان المنوي الكائن في نطفة الرجل، والهائم في طلب البييضة ليدخل فيها، عندما ينطلق في الرحم لغرض تلقيحها وإخصابها. «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ».[1] وفي الحديث: اختاروا لنطفكم.[2]

وليس للمرأة منيّ كمنيّ الرجل، وإنّما هو ماء أصفر رقيق هو أشبه بالمستحال من الدم، قد تنزله بشهوة ويحصل لها فتور عنده، وهي تبيض في كلّ شهر بييضة هي معدّة لتغذية نطفة الرجل وتنميتها إذا دخلت فيها. وأمّا إطلاق النطفة ـ في بعض الكلمات ـ على مائها فبأصل إطلاق الكلمة في معناها اللغوي: سلالة الماء وزلاله. وقد عرفت من كلام الحكماء أنّ إطلاق المنيّ على مائها إمّا بالاشتراك اللفظي ـ أي معنى آخر سوى ما أُريد من المنيّ عند إطلاقه على ماء الرجل ـ أو تشبيه ومجاز، وبذلك يجمع بين مختلف الروايات.

❊ ❊ ❊

وللأُستاذ عبدالكريم عبدالله نيازي في «أطوار الجنين» و «أمراض الوراثة» مقالان عرضهما على آيات من القرآن الحكيم. نوردهما نصّاً، والعهدة عليه:

القرآن الكريم وأطوار الجنين

يتحدّث القرآن الكريم عن أطوار النموّ الإنساني في مواضع متعدّدة... ويجعلها دليلاً قاطعاً على إعادة الله الخلق كما بدأكم تعودون!!

ولقد تحدّثت الكثير من الآيات الكريمة عن هذه الأطوار مجملة ومفصّلة:

«ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً».[3] قال ابن‌عبّاس وقتادة وعكرمة

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٢٣.

٢ ـ وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٩، حديث ٦.

٣ ـ نوح ٧١: ١٣-١٤.

والسدّي وابن زيد: معناه من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة... إلى آخر أطوار الإنسان.

«يا أَيُّهَا النّاسُ إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ في الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَي لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً».[١]

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ. ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحماً ثُمَّ أنشأناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقينَ».[٢]

«الَّذي أحسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلقَ الْإنْسانِ مِنْ طينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهينٍ. ثُمّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ».[٣]

«يا أَيُّهَا الْإنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَريم. الَّذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ. في أيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ».[٤]

من هذه الآيات الكريمة نستطيع أن نحدّد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي:

١ ـ نطفة.

٢ ـ علقة.

٣ ـ مضغة مخلّقة وغير مخلّقة.

٤ ـ عظام.

٥ ـ لحم يكسو العظام.

٦ ـ التسوية والتصوير «خلق آخر» والتعديل.

٧ ـ نفخ الروح.

وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه ردّ على من قال إنّ العزل هو الموؤدة

---

١ ـ الحجّ ٢٢: ٥.

٢ ـ المؤمنون ٢٣: ١٢-١٤.

٣ ـ السجدة ٣٢: ٧-٩.

٤ ـ الانفطار ٨٢: ٦-٨.

الصغرى قائلاً: لاتكون موؤدة حتّى تمرّ على الأطوار السبع: تكون سلالة من طين، ثمّ تكون نطفة، ثمّ تكون علقة، ثمّ تكون مضغة، ثمّ تكون عظاماً، ثمّ تكون لحماً، ثمّ تكون خلقاً آخر، فقال عمر: صدقت أطال الله بقاءك.

وكما عرفنا فإنّ أوّل هذه الأطوار هو طور النطفة، والنطفة تطلق على ثلاثة أشياء هي:

١ ـ نطفة الذكر، وهي الحيوانات المنوية.

٢ ـ نطفة الأُنثى، وهي البويضة.

٣ ـ النطفة الأمشاج، وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، أي البويضة الملقّحة، والنطفة الأمشاج هي بداية مرحلة خلق الإنسان، حيث يلقّح الحيوان المنوي البويضة في الثلث الوحشي من قناة الرحم «**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً**».[١]

فإذا ما لقّحت البويضة وصارت بويضة ملقّحة ابتدأت انقسامات متعدّدة، وتعرف هذه المرحلة بمرحلة الانقسام والانشقاق. وتتحوّل البويضة الملقّحة «النطفة الأمشاج» إلى ما يشبه التوتة فتسمّى عندئذٍ التوتة. ثمّ تنتقل بعد ذلك فتصير مثل الكرة المجوّفة وتدعى عندئذٍ الكرة الجرثومية. ويبقى قطر النطفة الأمشاج حتّى بعد أن تصبح كرة جرثومية لايزيد عن ربع ملّيمتر!!

وتستغرق هذه المرحلة أُسبوعاً كاملاً حتّى تعلّق هذه النطفة الأمشاج التي تحوّلت إلى كرة جرثومية لها خلايا آكلة وقاضمة تعلّق بواسطتها وبواسطة حملات دقيقة بجدار الرحم... وتتحوّل عندئذٍ إلى المرحلة التي تليها وهي العلقة.

وفي اليوم الرابع عشر والجنين في مرحلة العلقة لايزيد حجمه عن نقطة وفي اليوم الثامن عشر لايزيد حجمه عن حرف كتابي ٥ وفي اليوم الرابع والعشرين وقد بدأ مرحلة المضغة يكون حجمه أقلّ من حبّة القمح أو الأرز. وفي الأُسبوع الرابع وهو في قمّة مرحلة المضغة لايزيد حجمه عن حبّة القمح. وفي الأُسبوع السادس والنصف في أوج تكوين

---

١ ـ الإنسان ٧٦: ٢.

الأعضاء لايزيد حجمه عن حبّة فاصوليا بل أقلّ من ذلك. وفي الأُسبوع السابع والنصف وقد تكاملت الأعضاء تقريباً لايزيد حجمه عن حبّة الفاصوليا أو الفول. وفي الأُسبوع التاسع بعد انتهاء فترة الحميل ودخوله إلى مرحلة الجنين لايزيد حجم الجنين عن ثلاثة سنتيمترات، أي ما يزيد قليلاً عن البوصة. وفي الأُسبوع الحادي عشر يكـون الشكـل الإنساني مميّزاً لدرجة لايمكن أن يخطئها أحد، وتبدأ في هذه الفترة الأعضاء التناسلية الخارجية في التمايز. وفي الأُسبوع الخامس عشر تستطيع الأُمّ أن تحسّ حركة وليدها بكلّ وضوح، وتكون الأعضاء التناسلية الخارجية واضحة جدّاً.

العلقة

هي الطور الثاني الذي تنتقل إليه النطفة، ويبدأ العلوق منذ اليوم السابع (منذ التلقيح) عندما تلتصق الكرة الجرثومية بجدار الرحم، وتمدّ الخلايا الخارجـية الآكـلة مـعاليق صغيرة متعدّدة لتلتقي بمثيلاتها الموجودة على الخلايا الطلائية في غشاء الرحم، حتّى تتمكّن من الولوج إلى داخل الغشاء، وتبدأ عندئذٍ تعلّقها بواسطة الخلايا المخلاوية الآكلة التي تتحوّل إلى الحملات المشيمية... وهي تمثّل تعلّق الكرة الجرثومية بجدار الرحم!

ثمّ إنّ الكرة الجرثومية تنقسم إلى كتلة خلايا خارجية آكلة وظيفتها العلوق بجدار الرحم و امتصاص الغذاء منه «وهي تشكّل ٩٠ بالمائةمن مجموع خلايا الكرةالجرثومية» وكتلة خلايا داخلية «تشكّل ١٠ بالمائة من مجموع الكرة الجرثومية» و هـذه الكـتلة الداخلية يخلق الّله منها الجنين، ويتعلّق الجنين بواسطة معلاق يربطه بالغشاء المشيمي «الكوريون».

فهناك إذاً جملة تعلقات في هذه المرحلة، تعلّق أوّلي بواسطة الحملات الدقيقة، ثمّ تعلّق ثاني بواسطةالخلايا الآكلة، ثمّ تعلّق ثالث بواسطة الحملات المشيمية، ثمّ تعلّق رابع يربط بين الجنين الحقيقي و بين الغشاء المشيمي بواسطة المعلاق.

ولاشكّ أنّ أهمّ ما يميّز هذه المرحلة هو هذا التعلّق. و أنّ وصف العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتجمّد «المتخثّر» هو أدقّ وصف لهذه المرحلة.

وتستغرق هذه المرحلة أُسبوعين تقريباً، ينمو خلالها القرص الجنيني إلى لوح كمّثريّ الشكل ذي ثلاث طبقات متمايزة:

أ ـ الطبقة الخارجية «الأكتودرم».

ب ـ الطبقة المتوسطة «الميزودرم».

ج ـ الطبقة الداخلية «الأنتودرم».

و في نهاية هذه المرحلة تتكثّف الطبقة المتوسّطة القريبة من محور الجنين لتشكّل الكتل البدنية، ويبدأ ظهور أو كتلة بدنية في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح، وعندئذٍ تكون العلقة قد تحوّلت إلى مضغة.[١]

وفي هذه المرحلة نجد أنّ الكرة الجرثومية التي كانت قبيل العلوق لاتزيد عن نصف ملّيمتر قد أصبحت بعد العلوق بأُسبوع واحد فقط ملّيمتراً ونصفاً. وفي نهاية الأُسبوع الثالث منذ التلقيح يصبح طول اللوح الجنينى ـ من الآن فصاعداً لايحسب إلّا طول الجنين الحقيقي فقط ـ ملّيمترين ونصف.

والطور الثالث حسب التقسيم القرآني هو طور المضغة «الهيكل الغضروفي المعدّ للتحوّل إلى العظام».

الأُسبوع الرابع

ويبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللوح جهة الرأس. ثمّ يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخّرة الجنين، ويبدأ ظهورها في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح. ثمّ تستمرّ في الظهور واحدة على كلّ جانب من محور الجنين حتى تبلغ ٤٢ إلى ٤٥ زوجاً من الكتل البدنية.

و هذه الكتل البدنية ليست إلاّ تكثّفاً لطبقة الميزودرم المتوسّطة بجانب محور و ميازيب في الطبقة الخارجية «الأكتودرم» وبروز نتوء في الطبقة المتوسّطة «الميزودرم» و

١ ـ كتلة غضروفيّة تشبه ممضوغة العَلَك في الفم.

تتكوّن بذلك خمسة أزواج من الأقواس البلعومية في المنطقة العليا من الجنين تحت قمّة الرأس مباشرة.

ويكون وصف المضغة أو القطعة من اللحم التي مضغتها الأسنان ولاكتها ثمّ قذفتها هو أصدق وصف و أدقّه لهذه المرحلة.

فقد كان التعبير القرآني: أنّ النطفة تتحوّل إلى عَلَقة: كرة جرثوميّة لها خلايا آكلة وقاضمة تعلّق بجدار الرحم وتتغذّى بدم المرأة. وهي في شكلها دودة صغيرة تشبه دودة العلقة التي تمتصّ الدم.

ثمّ إنّ هذه العلقة تتحوّل إلى كتلة غضروفيّة تشبه العلك في الفم، وتكون منشأً لتكوين العظام، ثمّ تكوين العضلات (اللحم) بعد بضعة أيّام لتكسو العظامَ، أي تغطّيها وتلتحم معها.[١]

مرحلة العظام و اللحم

و هي مرحلة تستغرق الأُسبوع الخامس و السادس و السابع،و تتحوّل الكتل البدنية إلى جزءين:

١ ـ جزء أمامي وإنسي، ويسمّى القطعة الهيكلية وهي تكوّن عظام الفقرات، كما أنّ

---

١ ـ جاء وصف المضغة ـ وهي كتلة غضروفية ـ بالمخلَّقة وغير المخلَّقة (الحج ٢٢: ٥) أي حالة بين بين، لا هي في نعومة العلقة ولا في صلابة العظم، بل لها حالة مرونة قابلة للانعطاف كما في الغضروف، لكنّها آخذة في الصلابة لتتكوّن عظماً وتشكّلاً تامّاً.

والمخلَّقة هي المستوية التامّة، يقال: خَلَّقَ العُودَ أي سوّاه... فالمضغة، لا هي متشكّلة تماماً ـ كما في الهيكل العظمي ـ ولا غير متشكّلة رأساً، إذ فيها بعض التشكيل وهي في بدء مراحل التكوين.

قال ابن عباس: تامّة الخلق وغير تامّة. وهكذا ذكر قتادة. وقال مجاهد: مصوّرة وغير مصوّرة وهي ما كان سقطاً لا تخطيط فيه ولا تصوير. راجع: مجمع البيان، ج ٧، ص ٧١.

والأظهر ما فسّرناه، لأنّ الظاهر: أنّ مجموع الوصفين معاً جاء وصفاً للمضغة، أي هي في حالتها الغضروفيّة لا متشكّلة تماماً ولا غير متشكّلة رأساً، بل فيها بعض التشكيل ولكنّه غير تامّ، لتأخذ في التمام بعد صيرورتها عظاماً.

أمّا التفسير الآخر فيجعل من المضغة قسمين، بعض آخذ في النموّ والتشكّل، وبعض آئل إلى الفساد والسقط. غير أنّ الواو، ظاهرة في الجمع لا التقسيم.

انسياب خلاياه في المنطقة العنقية «٤ـ٨» يشكّل عظام الأطراف العليا، وانسياب خلاياه في المنطقة القطنية «١ـ٥» والعجزية «١ـ٤» يشكّل عظام الأطراف السفلى. كما تشكّل الأربع كتل البدنية الواقعة في منطقة الرأس «الجزء الموخّري القاعدي» من الجـمجمة. وتتكونّ الأضلاع من نتوءات من العمود الفقري في المنطقة الصدرية «١ـ١٢».

و بذلك يتشكّل معظم الجهاز الهيكلي من هذه الكتل البدنية. أمّا عـظام الوجـه و الفكّين و عظام الأُذن الوسطى «المطرقة و السندان و الركاب» فإنّها جميعاً تشكّل من القوس البلعومي الأول، و يتكوّن العظم اللامي من القوس البلعومي الثاني!!

ولا يبقى إلاّ قحفة الجمجمة التي تتكوّن مـن الخـلايا المـيزودرمية «المـتوسّطة» المتكثّفة في قمّة الرأس، والتي تتحوّل مباشرةً من غشاء إلى عظم دون أن تـتحوّل إلى غضاريف، كما هو معهود في أغلب عظام الجسد.

٢ ـ جزء خلفي وظهري ويسمّى المقطع العضلي الآدمي الذي سرعان مـا يـنقسم بدوره إلى قسمين:

أ ـ آدمي، وهو يشكّل أدمة الجلد وما تحت الجلد من أنسجة.

ب ـ عضلي، وهو يشكّل معظم عضلات الجسم، وخاصّة تلك الموجودة في الجذع. كما ينساب هذا القطّاع العضلي في المنطقة العنقية «٤ـ٨» لتكـون عـضلات الطـرف العلوي، وفي المنطقة القطنية والعجزية لتكون عضلات الأطراف السفلية. ولا يزال هناك من علماء الأجنّة من يقول: إنّ عضلات الأطراف تتكوّن في موضعها، ويكـون تكـوّن العظام سابقاً ولو ببضعة أيّام لتكون العضلات، وتأتي العضلات بعد ذلك لتكسو العظام.

ويقول الدكتور «لانجمان» في كتاب علم الأجنّة الإنساني: وفي الأُسبوع السادس تكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية والسفلية قد ظهرت بوضوح وإن كان الطرف العلوي يسبق الطرف السفلي ببضعة أيّام. وأوّل علامة على وجود عضلات الأطراف تظهر في الأُسبوع السابع.

وعندما يتحدّث «لانجمان» عن الفقرات والعمود الفقري يقول: وبعد أن تتحرّك خلايا

القطع الهيكلية إلى الجهة الإنسية مكوّنة العمود الفقري تعرف الخلايا المتبقّية من الكتلة البديلة باسم المقطع الآدمي والمقطع العضلي.و نتيجةً لتكوّن جسم الفقرة من قطعتين هيكليّتين متجاورتين فإنّ ذلك الالتحام يؤدّي إلى تحرّك القطع العظلية لتغطيتها.

ومعنى ذلك أنّ العظام تسبق العضلات، ثمّ تكسو العضلات العظام، وصدق اللّه العظيم حيث يقول: «فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَونَا العِظامَ لَحماً».[١]

قال سيد قطب: وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقّة إلّا أخيراً بعد تقدّم علم الأجنّة التشريحي. ذلك أنّ خلايا العظام غير خلايا اللحم (العضلات). وقد ثبت أنّ خلايا العظام هي التي تتكوّن أوّلاً في الجنين، ولا تشاهَد خليّة واحدة من خلايا اللحم إلّا بعد ظهور خلايا العظام وتمام الهيكل العظمي للجنين، وهي الحقيقة التي يسجّلها النصّ القرآني.[٢]

ثمّ أنشأناه خلقاً آخر

وهو طور التصوير والتسوية والتعديل، ثمّ النفخ في الروح. والآيات الدالّه على التصوير كثيرة:

منها قوله تعالى: «هُوَ الَّذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ».[٣]

«وَلَقَد خَلَقْناكُم ثُمّ صَوَّرْناكُم».[٤]

«وَصَوَّرَكُم فَأحسَنَ صُورَكُم وإلَيهِ المَصيرُ».[٥]

«يا أيُّها الإنسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَريمِ . الّذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَك . في أيِّ صُورَةٍ ما شاءَ ركَّبَكَ»[٦] ومن أسماء الله الحسنى المصوِّر «هُوَ اللهُ الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأسماءُ الحُسنى».[٧]

---

١ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.

٢ ـ في ظلال القرآن، ج ١٨، ص ١٦-١٧.

٣ ـ آل عمران ٣: ٦.

٤ ـ الأعراف ٧: ١١.

٥ ـ التغابن ٦٤: ٣.

٦ ـ الانفطار ٨٢: ٦-٨.

٧ ـ الحشر ٥٩: ٢٤.

وأمّا التسوية فهي تتمّ مع التصوير وقبله وبعده، وهي تشمل جميع الأعضاء. فالأطراف مثلاً عند أوّل ظهورها تبدأ كبُرعُم صغير مكوّن من تكثّف لخلايا الميزودرم «الطبقة المتوسّطة» مغطّىً بغطاء من الطبقة الخارجية الأكتودرم. ثمّ تتكوّن في الطبقة المكثّفة من الميزودرم خلايا غضروفية، وترسب النسيج الغضروفي في موضع النسيج الغشائي. ثمّ ماتلبث الخلايا العظمية أن تظهر فتقوم بتفتيت النسيج الغضروفي كما تتكوّن خلايا آكلة فتأكل الغضاريف وخلاياها، وتضع الغضاريف عظاماً تكون مراكز للتمعظم وينتشر منها التمعظم في أجزاء الهيكل الغضروفي.

إنّ عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرّة في الجنين بشكل مثير، إذ كلّ يوم بل كلّ ساعة تشهد جديداً. هذه أُنبوبة القلب المستطيلة تتحوّل إلى شكل حرف كتابي S. ثمّ تتكوّن الغرف المتتالية: الأُذين العام، والبطين العام، وبصلة القلب، والجيب الوريدي. ثمّ يُعاد التركيب ليدخل الجيب الوريدي في الأُذين الأيمن، وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر، ومن بصلة القلب أيضاً تنشأ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي.

ومن له أدنى إلمام بعلم الأجنّة وعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء يعرف كيف أنّ أجهزة الجسم المختلفة تُهدم ويعاد بناؤها باستمرار. وتتجلّى هذه التسوية والتعديل في أجلى صورها في الجنين، ثمّ تقلّ نسبياً بعد الولادة، ثمّ تقلّ كذلك بعد البلوغ، ولكنّها لاتتوقّف حتّى في الشيخوخة.

وهناك جهاز واحد فقط لايشمله التغيير والتبديل المستمرّ، ألا وهو الجهاز العصبي. فالجهاز العصبي: الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب لاتتغيّر بعد الولادة من حيث الهدم والبناء.. ولكنّها تتغيّر من حيث اتّصالات الخلايا العصبية ببعضها. أمّا قبل الولادة في الجنين ـ وخاصّة في الشهر الثاني من الحمل ـ فإنّ التغيير يكون فيها على أشدّه. ففي كلّ لحظة هناك تغيير في الشكل أو في الوظيفة أو في إزالة مجموعة من الخلايا قد أدّت وظيفتها.. أو في بناء مجموعة أُخرى.

إنّ مايحدث في الجنين شبيه إلى حدٍ مّا بما يحدث عند بناء عمارة، فهناك السقالات

والأعمدة التي تقام ثمّ تهدم وتزال بعد أداء وظيفتها، وهناك بناء الأساس أولاً، ثمّ بناء الأعمدة والجدران، ثمّ بعد ذلك تأتي مرحلة الأبواب والنوافذ، ثمّ تأتي بعد ذلك مرحلة التبليط والتزيين والتحسين «الديكور» ولايمكن أن تقوم مرحلة التبليط قبل بناء الأعمدة والجدران، ولايمكن وضع الموزاييك والتحسينات قبل إقامة الأبواب والنوافذ. وهكذا كلّ مرحلة تدلف إلى المرحلة التي بعدها.

وكذلك في بناء جسم الإنسان، كلّ مرحلة تدلف إلى المرحلة التي بعدها وما استخدم من أدوات في المرحلة السابقة ولم يعد له حاجة فلابدّ من إزالته حتّى لايعوق الطريق.

وهذه باختصار هي التسوية والتعديل... وهي مرحلة مستمرّة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنيناً، إلى أن يصبح شيخاً هرماً، ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ماتكون في الجنين.

ولايمكن أن تتمّ التسوية والتعديل إلّا بعد وضع الأُسس، والأُسس لجميع الأعضاء توضع في الفترة ما بين الأُسبوع الرابع والثامن، ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشدّ ماتكون قابلية للتغيير، ولذا فإنّ تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعّة أو الحُمَّيات مثل الحصبة الألمانية تكون في أوجّ تأثيرها على الجنين في هذه الفترة.

ولذا ينبغي أن تجتنب الحامل التعرّض لتأثيرات الأدوية والعقاقير والأشعّة والأمراض المعدية مثل الحصبة الألمانية طوال فترة الحمل بصورة عامّة، وفي هذه الفترة الحرجة «الأُسبوع الرابع حتّى الأُسبوع الثامن» على وجه الخصوص.

هذا هو ملخّص للتقسيم القرآني لنموّ الجنين الإنساني:

١ ـ نطفة «الأُسبوع الأول منذ التلقيح».

٢ ـ علقة «الأُسبوع الثاني والثالث».

٣ ـ مضغة «الأُسبوع الرابع».

٤ ـ العظام والعضلات «الأُسبوع الخامس والسادس والسابع».

٥ ـ التصوير «الأُسبوع الخامس والسادس والسابع».

٦ ـ التسوية والتعديل.

٧ ـ نفخ الروح.

أمّا تقسيم جهابذة علم الأجنّة فيتّفق فيما يأتي:

مرحلة البويضة الملقّحة «النطفة الأمشاج» ويختلفون بعد ذلك، فمنهم من يجعل من الأُسبوع الثاني حتّى الأُسبوع الثامن مرحلة واحدة، هي مرحلة الحميل، ويقسّم بعد ذلك ما يحدث في مرحلة الحميل إلى:

أ ـ الانغراز «العلقة».

ب ـ الجنين ذو الطبقتين.

ج ـ مرحلة الجنين ذي الثلاث طبقات.

د ـ الكتل البدنية.

هـ ـ تكوّن الأعضاء.

ومنهم من يقسّم هذه المرحلة إلى ثلاثة أقسام فقط هي:

أ ـ مرحلة العلوق، وتستمرّ حتّى تظهر أغشية الجنين والدورة الدموية. وتتمايز طبقات اللوح الجنيني إلى ثلاث طبقات، وتدّعى أحياناً هذه المرحة ما قبل الكتل البدنية... وهذا التقسيم ينطبق تماماً على مرحلة العلقة، لأنّها تبدأ بعد العلوق مباشرةً، وتنتهي بظهور الكتل البدنية «أي المضغة» ومدّة هذه المرحلة أُسبوعان فقط «أي منذ نهاية الأُسبوع الأول للتلقيح وحتّى نهاية الأُسبوع الثالث للتلقيح».

ب ـ مرحلة الكتل البدنية الغضروفيّة، ولا يختلف علماء علم الأجنّة في هذه المرحلة، وهي تبدأ من اليوم العشرين أو الواحد والعشرين وتنتهي باليوم الثلاثين، وهذه المرحلة حسب التعريف القرآني هي مرحلة المضغة.

ج ـ مرحلة تكوّن الأعضاء، وتبدأ من الأُسبوع الرابع وتنتهي في الأُسبوع الثامن، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات لقابليّتها الشديدة للتأثّر بعوامل البيئة في هذه الفترة.

وفي هذه المرحلة نرى التقسيم القرآني يربط بين المضغة (الحالة الغضروفية) التي تتحوّل إلى عظام فيكسوها اللحم «فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا الْعِظامَ لَحْماً».[١] كما يربط التقسيم القرآني التصوير والتسوية والتعديل بما يحدث بعد المضغة «ثُمَّ أنْشَأناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الْخالِقين».[٢]

وتشرحها الأحاديث النبوية الشريفة: إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملَكاً فصوّرها...وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها... ثمّ قال: يا ربّ ذكر أم أُنثى؟ فيقضي ربّك مايشاء ويكتبه الملَك. أخرجه مسلم.

ففي نهاية الأُسبوع السادس تكون النطفة قد بلغت أوجّ نشاطها في تكوين هذه الأعضاء، وهي قمّة المرحلة الحرجة الممتدّة من الأُسبوع الرابع وحتّى الأُسبوع الثامن، فيوجّهها التوجيه الذي أُمر به، ونحن نعلم أنّ المبيض والخصية لايمكن التعرّف عليهما قبل دخول الملَك، فإذا دخل الملَك أمكن في الأُسبوع السابع والثامن التعرّف على الغدّة التناسلية أخصية هي أم مبيض.

وفي حديث آخر رواه مسلم أيضاً: أنّ النطفة إذا استقرّت في الرحم أربعين ليلة ثمّ يتسوّر عليها الملَك فيقول: يا ربّ ذكر أم أُنثى؟ وفي رواية «لبضع وأربعين ليلة» وفي رواية أُخرى «لخمس وأربعين ليلة».

وفي الصحيحين عن أنس رضيالله تعالى عنه: «وكّل الله بالرحم ملَكاً يقول: أي ربّ نطفة، أي ربّ علقة، أي ربّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال: يا ربّ أذكر أم أُنثى؟ أشقيّ أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أُمّه».

وهكذا نرى من مجموع الآيات والأحاديث أنَّ قمّة تكوين الأعضاء وتحديد الذكورة والأُنوثة أعلى مستوى الغدد التناسلية إنّما يكون في الأربعين، وهذه هي الفترة التي تسمّى فترة تكوين الأعضاء، وهي تبدأ من الأُسبوع الرابع وتنتهي في الأُسبوع الثامن، وتكون في أوجّ نشاطها في الأُسبوع السادس.

---

١ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.
٢ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.

الأُسبوع الخامس إلى الأُسبوع الثامن

وفي هذه الفترة يستطيل الحميل من ٥ ملّيمترات إلى ٢٣ ملّيمتراً، وتظهر عليه علامات خارجية كثيرة واضحة، وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة. وأول مظاهر هذه الفترة:

١ ـ اعتدال ملحوظ في تقوّس الجسم عامّة.

٢ ـ بدء تكوين الوجه.

٣ ـ ظهور واضح لبدء العينين والأُذنين والأنف.

٤ ـ بدء ظهور أزرار الطرفين العلويّين فالطرفين السفليّين وربما تقسيمهما.

٥ ـ صغر نسبي في الذيل.

٦ ـ استطالة العنق البدني ليكون الحبل السرّي.

٧ ـ انبعاج واضح للكبد والقلب يرى على سطح الجسم.

٨ ـ تحديد منطقة العنق وظهور الأقواس البلعومية على جانبيها.

٩ ـ أعضاء التناسل الظاهرة «الغدد التناسلية» وإن كانت غير الجنس يمكن تمييزها في نهاية هذه الفترة.

وفي نهاية الأُسبوع الثامن تكاد تكون الأعضاء الداخلية كلّها اتّخذت موضعها...وإن بدت تشكّل أوّلي. وتعتبر في نهاية الأُسبوع الثامن اكتمال دورة الحميل وبدء دورة الجنين، فإذا ماانتهت مرحلة تكوين الأعضاء فإنّ مرحلة الحميل تكون قد انتهت... وبدأت مرحلة أُخرى تعرف لدى علماء علم الأجنّة بمرحلة الجنين...وهي تبدأ من بداية الشهر الثالث وتنتهي بالولادة.

ولايكون في هذه المرحلة إلّا تخليق يسير، وأبرز سمة في هذه المرحلة هي ظاهرة النموّ المتّصل السريع، وتستمرّ هذه المرحلة حتّى تنتهي بآلام الطلق والولادة!.

وممّا تقدّم يبدو أنّ التقسيم القرآني لمراحل نموّ الجنين الإنساني أدقّ من وصف علم الأجنّة...وإن كان التقسيم القرآني يتّفق مع كثير من هذه التقسيمات ـ كالنطفة

والمضغة والعظام واللحم ـ ولا يركّز بعض علماء علم الأجنّة على مرحلة العلقة كما يركّز عليها التقسيم القرآني... وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل. أمّا نفخ الروح فهو لا يزال في طيّ الغيب الذي لا يعلمه: «إِلّا اللهُ وَالرّاسِخُونَ في العِلمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا».[1]

وسنعرض بإيجاز لما يحدث في فترة الجنين، أي منذ الشهر الثالث إلى الولادة:

الشهر الثالث: «الشهر القمري يحسب ٢٨ يوماً».

□ تبدو العنق ظاهرة.

□ يلتصق الجفنان.

□ تتّخذ الأطراف شكلاً قريباً من شكلها عند الولادة.

□ بداية ظهور الأظافر في أطراف الأصابع.

□ يتميّز غشاء المذرق إلى جزءيه: البولي التناسلي والشرجي بوضوح.

□ تبدو أجزاء القلب بوضوح ويكون له غشاء التكوّر.

□ تتميّز أجسام الفقرات وتظهر بعض مراكز التمعظم.

□ ينمو الطحال والغدّتان فوق الكليتين «الغدّتان الكظريتان».

□ يبلغ طول الجنين من الرأس إلى العقب ٩٠ ملّيمتراً.

الشهر الرابع:

□ يظهر على الرأس ثمّ الجسم وبر «أي شعر خفيف».

□ ويكتمل تكوين المشيمة.

□ تتميّز أعضاءالتناسل الظاهرة فيبدو القضيب في الغلام والشفران والفرج فيالبنت.

□ تتراجع الأمعاء التي كانت بمنطقة الحبل السرّي إلى تجويف البطن.

الشهر الخامس:

□ يغطّي الزغب الرأس والجسم بأكمله، وتحسّ الأمّ أول حركات الجنين وذلك في

---

١ ـ آل عمران ٣: ٧.

بداية هذا الشهر.

□ تدخل الأمعاء بأكملها من منطقة السرّة إلى تجويف البطن.

□ يبدأ ظهور الشعر لفروة الرأس والحاجبين.

□ ينمو القلب والكبد.

□ يبدأ الرحم والمهبل نموّهما.

الشهر السادس:

□ يزداد السائل الأمنيوس «الرهل» وهو كيس السلى زيادة كبيرة.

□ تظهر طبقة دهنية تغطّي بشرة الجنين.

□ ينمو الجنين في هذا الشهر أكثر من أيّ فترة أُخرى، إذ يصل طول الرأس العقبي ٣٥٠ ملّيمتراً ووزنه كيلو غراماً كاملاً.

الشهر السابع:

□ يصل السائل الأمنيوس إلى غايته ويبلغ لتراً ونصف لتر، ثمّ يقلّ في الأشهر التالية.

□ يمتلئ الجسم بازدياد الطبقة الدهنية تحت الجلد.

□ نموّ كبير للجهاز العصبي والهضمي وتكتمل أجزاؤهما.

الشهر الثامن:

□ تتّخذ السرّة موضعها المحدّد في المولود.

□ يظهر الجسم مليئاً، ويزول الوبر «الزغب».

□ يغزر شعر فروة الرأس.

□ يغطّي جسم الجنين بطبقة دهنية متجبّنة.

□ تصل الأظافر إلى أطراف الأصابع.

الشهر التاسع:

□ يزداد النموّ واستدارة الجسم وامتلاؤه، وينفتح الجفنان، وتنزل الخصيتان إلى كيس الصفن خارج الجسم.

الشهر العاشر:

□ يكتمل النموّ ـ وخاصة في الرئتين ـ وتنمو الجيوب الهوائية.

وإذا ذكرنا عشرة أشهر للجنين فالمقصود عشرة أشهر قمرية بالحساب هو ٢٨ يوماً فقط، فتكون الجملة ٢٨٠ يوماً، ويبدأ حسابها منذ بداية آخر حيضة حاضتها المرأة الحامل، وبذلك يكون العمر الحقيقي للجنين هو ٢٨٠ ـ ١٤=٢٦٦ يوماً فقط، وهذا هو العمر التقديري للجنين منذ لحظة التلقيح وبما أنّ الحساب منذ لحظة التلقيح ـ أو حتى من الاتّصال الجنسي الذي حصل بعده الحمل ـ عسير جدّاً، فإنّ الحساب في الغالب لا يكون منذ بداية آخر حيضة حاضتها الأُمّ.

القرآن الكريم وأمراض الوراثة

لعلّ القرآن الكريم كان أول من أشار إلى انتقال الأمراض الوراثية إلى الأبناء وإلى الجنين، فكان أول دليل وأول برهان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، في حين كان العلم ما يزال يحبو، ولم يتمّ اكتشاف ذلك إلّا حديثاً وبعد تجارب طويلة.

قال الله تعالى: «**فَأَتَتْ بِهِ قَومَها تَحمِلُهُ قالُوا يا مَريَمُ لَقَد جِئْتِ شَيئاً فَرِيّاً . يا أُختَ هارُونَ ما كانَ أبُوكِ امْرَءَ سَوْءٍ وَما كانَت أُمُّكِ بَغِيّاً**».[1] هنا قد تعجّب قوم مريم كيف تأتي أمراً فريّاً وأبوها لم يكن امرءَ سوء وأُمُّها لم تكن بغيّاً!! فبيّن الله تعالى في هذه الآية أنّه حتّى الأخلاق تنتقل بالوراثة، وأنّ الأب إن كان غير حميد والأُمّ إن كانت فاسدة نقلا إلى ذرّيتهما سوء الأخلاق بالتوريث.

قال الله تعالى: «**وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكافِرينَ دَيّاراً. إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إلّا فاجِراً كَفّاراً**»[2] ومعنى ذلك أنّ الخلَف يأخذ من السلَف صفاتهم بالوراثة، فهؤلاء الكفّار الفجّار لا يلدون إلّا أمثالهم، ولا جَرَم أنّ الولد على سرِّ أبيه، ولا تلد الحيّة إلّا حيّة.

---

١ ـ مريم ١٩: ٢٧-٢٨.

٢ ـ نوح ٧١: ٢٦-٢٧.

قال الله سبحانه وتعالى: «قالُوا إن يَسرِق فَقَد سَرَقَ أخٌ لَهُ مِن قَبلُ».[١] أي إن سرق فذلك شيء وراثيّ فيه، سبق أن سرق أخ له من قبل. فالسرقة وراثة في هذا الفرع، وهذا بطبيعة الحال على حسب اعتقادهم، وإن كان لا يطابق الواقع فيما يتعلّق بسيّدنا يوسف عليه السلام.

هذا وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ما يؤيّد تأثير المرأة في توريث أخلاقها لأنسالها، فيقول صلى الله عليه وآله في الحديث الشريف: «تزوَّجوا من الحجر الصالح فإنّ العِرقَ دسّاس». ويقول في حديث آخر: «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء». فنرى في هذين الحديثين الشريفين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد وضع أُسس علم الوراثة، فحذّر من زواج المرأة إن لم تكن من الحجر الصالح، أو لم تكن من الأكفاء، لأنَّ العِرقَ دسّاس ينقل إلى النسل ما فيها من خير وما فيها من شر.

وحقّاً إن تكن المرأة سيّئة الخُلق ورثت بويضتها نطفة الرجل فيخرج الجنين كأُمّه سيّئ الخُلق، وإن تكن غير كفء بأن تكون ضعيفة العقل أو ذات بله فتنقل بويضتها وراثة البله والجنون وغير ذلك من الأمراض إلى نسلها.

ولذلك أمر الرسول صلى الله عليه وآله باختيار المرأة ذات الدين والخلق، فقال صلى الله عليه وآله في حديث آخر: تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك، فإنّ النسل سيرث منها خلقها فيكون ملَكاً رحيماً إن صلحت، وشيطاناً رجيماً إن فسدت، وهي مرآة أبنائها، وهم صورة مصغّرة منها، وفضّل الرسول صلى الله عليه وآله دينها وخُلُقها. وهذه وجهة نظر الدين في الوراثة من الأبوين، وسنرى بعد ذلك رأي الطبّ في ذلك.

الطبّ والوراثة

يقول الطبّ: إنّ الجنين يعتمد في خلقته وتكوينه على نوع الحيوان المنوي في الرجل ونوع البويضة في المرأة، فيخرج الولد يشبه الأبوين جسماً وعقلاً، فإن اختلف

---

١ ـ يوسف ١٢: ٧٧.

عنهما كان موضع غرابة وشذوذ، وهذه قاعدة.

وقانون «ماندل» يقول بأنّ هناك وحدات تمثّل صفات خاصّة موجودة في الحيوان المنوي وفي البويضة، وهذه الوحدات تنتقل بعضها أو كلّها إلى النسل، وعندما تتّحد وحدات الأبوين المختلفة مع بعضها باتّحاد الحيوان المنوي والبويضة تتغلّب وحدة على الأُخرى، أو بمعنى آخر قد تطغى إحدى خواصّ الوحدات من إحداهما على الأُخرى في الذرّية. ولنضرب لذلك مثلاً يسهل علينا فهم هذه النظرية.

إذا توالد خنزيران برّيان ـ وقد اختير الخنزيران لسهولة عمل التجارب عليهما في المعامل ـ أحدهما «الذكر أو الأُنثى» أبيض اللون، والثاني أسود، كان أوّل نسل منهما أسود اللون كأحد الأبوين، وذلك لأنّ اللون الأسود يطغي ويمسح اللون الأبيض، وليس معنى ذلك أن يذهب اللون الأبيض إلى غير رجعة، فإنّ هذا النسل سوف ينتج إذا تناسل نسلاً بعضه أسود وبعضه أبيض، وقد وجد أنّ ثلاثة أرباع النسل في هذه الحالة أسود كأحد الأجداد السود، والربع أبيض كالجدّ الأبيض.

ومن هذا المثال السابق ندرك كيف يطغى اللون الأسود في الإرث التناسلي، فكذلك الخُلق الفاسد يطغى على الخُلق الحسن، كما طغى اللون القاتم الأسود على الأبيض. فإن كان أحد الأبوين شرّير الخُلق نشأ النسل أكثر ميلاً إلى الفساد وجرى ذلك في أنسال متعاقبة، ينشأ بعضهم إن لم يكن كلّهم وقد التوت طُرُقهم وسقطت مروءاتهم وضلّت عقولهم.

وهناك أمثلة من واقع الحياة وسجلّ الأطباع، ولنبدأ بذكر إرث الجنين من الأب.

بدأت أُسرة بأكملها ـ وهي أُسرة «جيوكسي» في نيويورك ـ برجل كانت مهنته صيد السمك، وكان شرّيراً فاسد الأخلاق، نزّاعاً إلى الشرّ ميّالا إلى الاستهتار، كما كان كسولاً في عمله خاملاً في مهنته، وقد ولد في سنة ١٧٢٠ م ورُزق بخمس بنات فتزوّجن فأتين في سنة أنسال متعاقبة بحوالي ١٢٠٠ شخص بما فيهم مائتان ضُمّوا إلى هذه الأُسرة برابطة الزواج، وقد عرف تاريخ ٥٤٠ منهم تمام المعرفة، وعرف عن ٥٠٠ آخرين جزء

من تاريخهم، فكانوا بين أشخاص التزموا مهنة التسوّل وعاشوا في ملاجئ الإحسان وبين رجال ونساء فاسدين، وأكثر من نصف النساء عاهرات، وبعضهم حذق أساليب الإجرام، وتفنّن في الاحتيال والنهب والسرقة والقتل.

ولم يعثر في سجلّ هذه الأُسرة من بداية تاريخها على واحد قد تعلّم في مدرسة أو تخرّج في جامعة، ولكن وجد فيها عشرون شخصاً قد تعلّموا صناعات مختلفة، ولكن أين تعلّموها؟ لقد تعلّموها بين جدران السجون، وسبب هذا النسل الفاسد كلّه ليس إلّا رجلاً واحداً فاسداً، قد لقّحت نطفته الفاسدة المرأة، فنقلت إلى بويضتها الفساد فورث البنات والبنين الشرّ.

هذا مثل طبّي أوردَته كتبُ الطبّ، وأثبتت كيف نشأ النسل فاسداً كأبيه، وقد سبقه القرآن الكريم فقال: «**فأتَت بِهِ قَومَها تَحمِلُهُ قالُوا يا مَريَمُ لَقَد جِئتِ شَيئاً فَرِيّاً. يا أُختَ هارُونَ ما كانَ أبُوكِ امرَءَ سَوءٍ وَما كانَت أُمُّكِ بَغِيّاً**».[1]

إنّ إدمان الخمور هو مرض عائلات بأسرها، وإنّ عدواه لتنتقل إلى الذرّية بالتوريث ثمّ بالتقليد، فإنّ مرض الخمور أسوأ مرض للذرّية يقتدونه. ثمّ إنّ المخ يتأثّر بالخمور، فيصبح مدمنها ضعيف العقل لا يبرم أمراً ولا يعي شيئاً.فالخمور تسمّم خلايا الجسم، ولاسيّما المجموعة العصبية منه، وتؤثّر في الحيوانات المنوية فتفسد «بروتوبلازمها» وتشوهّه، فينشأ النسل كذلك مريضاً ضعيف المخّ.

وليس فساد النطفة من الخمر مقصوراً على أنسال نسل ضعيف المخّ أو فاسد الأخلاق، بل إنّها تسبّب أمراضاً أُخرى في ذرّيات مدمن الخمور. وما أمراض الفساد الباهي والشهوة الضالّة كمرض «الساديزم» و«الماسوشيزم» إلّا نتيجة ذلك.

وهذه الأمراض الوراثية هي علامة نقص في المخّ وضعف في الإرادة ونزوع إلى الجريمة. وما هذا النزوع للجريمة إلّا مرض عقلي، فكما أنّه لا يوجد فاصل حقيقي بين حدّي العقل والجنون فكذلك لا يوجد فاصل حقيقي بين حدّي الجريمة والجنون. فإنّه

---

١ ـ مريم ١٩: ٢٧ـ٢٨.

لتوجد أنواع من الجرائم غريزية في الإنسان لا يمكن أن تميّز من السفه أو انحلال المخّ أو الجنون، حتّى أنّه من الصعب تقرير علاج أصحاب هذه الجرائم، هل يكون بين جدران السجون؟ أو فوق أسّرة المستشفيات؟

إرث الجنين التناسلي من الأمّ

١ ـ أثبت الطبّ أنّ للبويضة تأثيراً كبيراً في تكوين الجنين، فالبويضة السقيمة تنتج طفلاً مشوّه الخلقة. وقد ذكر الدكتور «هيجار» حالة سيّدة استؤصل لها أحد المبيضين اللذين يفرزان البويضات، وذلك لوجود مرض خبيث فيه، ثمّ بعد ذلك حملت، ثمّ وضعت طفلاً مشوّه الخلقة، فعجب لذلك حيث قد أُزيل المبيض، فأعاد الفحص ووجد أنّ المبيض الثاني مصاب بورم خبيث، و قد نشأ الطفل مشوّهاً لمرض هذا المبيض الثاني.

ويذكر الدكتور «مارشان» أنّ تأثير التركيب يتّضح أثره، و يبدو تأثيره في البويضة من المبيض، لأنّه ينقل كلّ خواصّ الأمّ إلى البويضة أثناء نموّها في الرحم.

٢ ـ و بويضة المرأة الفاسدة تنتج نسلاً فاسداً، فيصف «بويلمان» حالة أُسرة بدأت بفتاتين أنسلتهما امرأة شرّيرة سكّيرة، وأعقبتا في خمسة أو ستة أنسال ٨٣٤ شخصاً، عرف تاريخ ٧٠٩ منهم، وكانوا بين أولاد لقطاء وأطفال عاشوا في الملاجئ وأشخاص اتخذوا التسوّل مهنةً لهم، وبين نساء عاهرات ورجال أشرار ولصوص وقتلة.

٣ ـ وهذا مثل آخر عن بويضة المرأة ضعيفة العقل ذكره الدكتور «هنري جودارد» عن أُسرة بدأت برجل إنجليزي طيّب العنصر قد تزوّج من فتاة ضعيفة العقل بلهاء، فرزقهما اللّه ولداً أبله. ثمّ تزوّج هذا بامرأة سليمة، فأنجبا خمسة أطفال ضعاف المخّ و اثنين سليمين.

ثمّ تتبّع تاريخ هؤلاء فكانوا إمّا مرضى بأمراض عقلية نتيجة انحراف جهازهم التناسلي أو مدمني خمور أو مصابين بالصرع أو مجرمين أو ضعاف عقول، و لم يوجد فيهم بحالة اعتيادية إلاّ عدد قليل جدّاً. و هناك أمراض تنتقل في النطفة و في البويضة

للنسل كمرض الزهري، فإن كان أحد الأبوين أو كلاهما مريضاً بالزهري انتقل هذا المرض إلى نسلهما في أجيال متعاقبة.

و هكذا كان رسولنا الكريمﷺ أول من أشار إلى انتقال الأمراض بالوراثة: تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء.

إنّ الطّب الحديث قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ هناك بعض الأمراض تنتقل إلى الطفل بالوراثة، لأنّ الحالة الصحيّة للأبوين والسيرة الطبّية للعائلة لهما تأثير على الجنين و على صحتّه و على و ضعه الصحّي.

ولقد بدأ العالم الغربي يأخذ بمبدأ الفحص قبل الزواج لضمان أن يولد الأطفال و هم سالمون على قدر الإمكان من الأمراض الوراثية.

أمّا عن الأمراض الوراثية فلا يمكن حصرها وتعدادها، ولكنّنا نؤكّد ما أكّده العلم الحديث من أنّ الجنين يحمل صفات الوالدين و صفات العائلة، وأنّ وضعه الصحّي يتأثّر بهذه الصفات... والأمراض الوراثية في معظمها هي الأمراض التي لا يمكن معالجتها بالوسائل الطبّية المتعارف عليها مثل: الهيموفيليا «صعوبة تخثّر الدم».

وفي بعض الأحيان هناك من ينحدر مريضاً من أبٍ سليم. والجواب على ذلك: أنّ السبب هو في مرض الأجداد السابقين ـ كما رأينا فيما سبق الخنزير البرّي الأبيض ـ قد ينشأ في ثالث دور من التناسل من أبوين أسودين، راجعاً إلى لون جدّه الأبيض الأول.

فالأب والأُمّ والأجداد ينقشون صفاتهم في الأولاد، و يورثونهم ما فيهم من صفات، حتّى ليرى المولود كأنّه نسخة طبعت مرّة أُخرى من صحيفة لوح موجود، وقد نرى عائلات قد انتشر في أفرادها جميعاً شمم الأنوف، و عائلات غيرها قد تفشّى بينهم فطس الأُنوف، ونرى طول القامة وضخامتها في أفراد، وقصرها وضئالتها في أفراد آخرين، ونرى عائلات قد انتقل فيها ـ نسلاً بعد نسل ـ مرض البول السكّري، وإلى عائلات غيرها قد انتقل فيها الميل إلى الانتحار حتّى أنّ أفرادها ليتشابهون في طريقة الانتحار.

وقد رأينا أنّ بني إسرائيل قد توارثوا حبّ جمع المال ينتقل فيهم جيلاً بعد جيل، و شاهدنا العرب الرُحَّل و قد كرهوا سكنى المدن و عرفوا بحبّ الخيام، يتوارث الأبناء منهم ذلك عن الآباء. وهذه أدلّة على أنّ الوراثة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأنّ هذه الوراثة جسمانية وعقلية ونفسية.

فكما تتجلّى في الجسم في خلقته وقامته وصورته وحركاته تتجلّى في العقل نموّه أو ضعفه و صحّته أو مرضه، وذكائه أو بلاهته، و تتجلّى كذلك في النفس في صفاتها و سجاياها وغرائزها وطباعها.

هذا و قد رأينا أنّ النطفة هي العامل في ذلك و الناقل لما في الأب إلى نسله، و حيث إنّ الدين الإسلامي قد ألمّ من قبل بتأثير الوراثة. فقد عبَّر القرآن الكريم عن النطفة بأنّها أمشاج...«**ألا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ**».[1]

وكلّما تعمّقنا في الدراسة ظهرت لنا حقيقة قوله تعالى: «**ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شَيءٍ**»[2] و«**ثُمّ جَعَلناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ**».[3]

والقرار المكين هو رحم المرأة، و حقّاً إنّه لقرار مكين، إذ تربطه ألياف قوية في موضعه، وتثبته أربطة متينة، ويحمله حوض من عظام متينة، ففوقه الحجبتان، وعلى جانبيه الحرقفتان، وعظام العجز والعصعص من خلف له ساندان، ثمّ إنّه ليغطّى من أعلى بالمثانة ومن أسفل بالمستقيم!!

ثمّ نتأمّل كيف بُني جداره، وقوي إزاره، وتتالت عضلاته، وتكاثرت انحناءاته، وتجوّف داخله؟ ثمّ كيف تقسّم هيكله إلى جزء أقلّ حجماً من الأول، وهو عنق الرحم؟

ثمّ نتأمّل كيف تكوّن وتركّب من ثلاث طبقات: طبقة بريتونية، وطبقة اُخرى عضلية، وغشاء مخاطي؟ ثمّ كيف تكوّنت الطبقة العضلية أيضاً من ثلاث طبقات: فالاُولى سطحية ضفيرية الشكل، والثانية غائرة سميكة مكوّنة من ألياف حلقية، والثالثة موجودة بين

---

١ ـ الملك ٦٧: ١٤. ٢ ـ الأنعام ٦: ٣٨.

٣ ـ المؤمنون ٢٣: ١٣.

هاتين الطبقتين وتتكوّن من ألياف طويلة؟

هذا هو الرحم ـ بيت الجنين ومعقله ـ لم يغفل الخالق العظيم أن يحصن بابه كما حصن حيطانه، حتّى يكون قراراً مكيناً وبيتاً كاملاً أميناً، فكيف حصن بابه؟

باب الرحم هو عنقه الذي يخرج منه دم الطمث في غير وقت، فماذا يحدث لهذا العنق بعد أن يحدث الحمل؟ يسدّ تجويفه بكتلة مخاطية صلبة تصير للعنق باباً، كما تغلق السدادة عنق الزجاجة، وتنشأ هذه السدادة من ازدياد أفراز الغدد العنقية، وليست هذه السدادة طبقة واحدة، بل هي ثلاث طبقات بعضها فوق بعض. أو بمعنى آخر: هذا الباب يتكوّن من ثلاثة أسوار خلف سور وقايةً من الجراثيم وضماناً من عدم تخطّيها.

أمّا السور الأوّل فقد وجد بالفحص أنّه يحوي جراثيم. أمّا السور العنقي الأوسط فهو خطّ الدفاع الهامّ، حيث يحتوي على كرات بيضاء تفتك بما يصل إليها من جراثيم. أمّا السور الثالث ـ وهو الأقرب إلى الجنين ـ فهو لذلك خالٍ من الجراثيم بعد خطوط الدفاع الأُولى.

وقد ثبت طبّياً أنّ جميع الجراثيم لا تستطيع اختراق خطّ الدفاع الأوسط ما عدا جرثومة السيلان، والسيلان مرض معدٍ ينتقل بالزنا، وكأنّ الله تعالى لم يشأ بذلك أن يحمي نسل الزاني. ويؤكّد ذلك عدم استقرار الأجنّة في أرحام المصابات بمرض الزهري ـ وهو أيضاً من أمراض الزنا ـ وإن كان ينتقل بالتوريث التناسلي إلى الأبرياء والبريئات، فكم من امرأة صارت بالزهري سقاطاً.

هذا وإنّ الجنين نفسه وهو في الرحم قد لفّ في ثلاثة أكسية، كساء من فوق كساء، وبينه وبين الأكسية ماء وقايةً للجنين يمنع عنه تأثير الصدمات ويحفظ فيه حرارة جسمه. قال تعالى: «**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ فَأَنّىٰ تُصْرَفُونَ**».[1]

هذا هو الرحم وقد تثبّت بالأربطة القوية، وتحصّن بالعظام وتوثّق منه بنيانه

---

١ ـ الزمر ٣٩: ٦.

وتحصّنت أبوابه وجدرانه، سور خلف سور، وسياج بعده سياج، ليكون للجنين قراراً، وفيه يتدرّج أطواراً، ويحميه تسعة أشهر طوالاً.

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً

ولكي نفهم كيف تصير النطفة علقة في هذه الآية الكريمة لابدّ من أن نشرح بإيجاز شيئاً من متعلّقات الرحم، وأنّهما البوقان والمبيضان وأربطتهما.

البوق: قناة تصل تجويف الرحم بتجويف البريتون، وهو معدّ لنقل البويضة، ولمرور الحيوانات المنوية.

المبيض: هو عضو بيضاويّ الشكل موضوع على جانب الرحم، وهو الذي ينتج البيوضات للتناسل، ويفرز إفرازات تؤثّر على نظام النموّ لسائر الجسم. يقول الله تعالى: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً»[1] وهنا فليتأمّل الإنسان كلمة العطف «ثمّ». فلم يقل سبحانه: خلقنا النطفة علقة، لأنّ هنا دوراً يحدث، وفترة تمضي قبل أن تتحوّل النطفة إلى علقة!!

فإنّ النطفة لتصير علقة يجب أن يعيش منها حيوان واحد يمكنه أن يصل إلى بويضة المرأة في البوق، فإن لم يلتق بها حتّى الطرف الوحشي للبوق فلا يحصل حمل، فإنّ البويضة إذا تجاوزت هذا الطرف أُحيطت بمادّة زلالية تعوق بل تمنع دخول الحيوان المنوي فيها.

ثمّ إنّ هذه النطفة كثيراً مّا تموت في طريقها، فإن وصل أحدها إلى البويضة حصل الحمل، وإلّا فالنطفة تمنى، ثمّ تموت وتذوي، فلا يحصل الحمل. وهذا هو السبب في تأخّر الحمل عند بعض السيّدات، فقد تكون النطفة ضعيفة فلا تستطيع الوصول إلى البويضة فتموت في طريقها ولا تبلغ هدفها، أو قد تكون هذه الحيوانات المنوية غير تامّة النموّ، وقد يكون خالياً منها المنيّ، كما هو الحال في منيّ بعض الناس، حيث يكون ذلك خلقة فيهم، أو يكون قد أصابهم مرض الخصيتين، فيخرج المنيّ خالياً من الحيوانات

---

١ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.

المنوية. وفي حالة خلوّ المنيّ من الحيوانات المنوية لايحدث حمل أبداً. وإذا التقى الحيوان المنويّ بالبويضة في البوق فهناك طور يمرّ قبل حدوث الحمل أو قبل تحويل النطفة إلى علقة.

كيف يحصل التلقيح؟

إذا سرى الحيوان المنوي في داخل الرحم جذب بجاذبية خاصّة إلى بويضة المرأة، فيلتقيان في البوق، ثمّ يخترق رأسه البويضة وينفصل ذيله خارجاً ويختفي، ثمّ تدخل البويضة الملقّحة إلى الرحم مدفوعة بانقباض البوق ومساعدة أهداب البشرة المغطّية للطبقة المخاطية. وعند دخول البويضة الملقّحة إلى الرحم تأخذ طريقها في الغشاء المخاطي، ثمّ تعلّق فيه وتنغرس في داخله، ثمّ يسدّ مكان دخولها، فإذا نظرنا إلى هذه البويضة الملقّحة في مكانها رأينا جسماً متعلّقاً في داخل الغشاء المخاطي للرحم. وهذا دور العلقة، ففي اللغة: أعلق ظفره بالشيء: أنشبه، فكذلك البويضة الملقّحة قد تعلّقت في داخل الغشاء المخاطي للرحم واستمسكت فيه.

تفسير آخر لدور العلقة

قال الله تعالى: «اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَق. خَلَقَ الْإنْسانَ مِنْ عَلَق».[١] إثباتاً لوجود الحياة فيها، ولا سيّما أنّ الحيوان المنوي بعد أن يتّحد بالبويضة يتطاول باستطالة حتّى يصبح شكله كالعلقة تماماً، وهو في ذلك الوقت لايمكن أن يرى بالعين المجرّدة ولا يميّز إلّا بالمجهر، فمن يستطيع أن ينبئ عن ذلك إلّا ربّ العالمين؟! ومن يستطيع أن يصون هذه العلقة ـ وهي لا تُرى إلّا بالمجهر حديثاً ـ غير الخلّاق العظيم؟!

وهكذا يثبت المولى عزّوجلّ كيف تنقل خواصّ الأب والأُمّ إلى الجنين، وكيف أنّ خواصّ الوراثة تنتقل عبر الحيوان المَنَويّ للذكر وبويضة الأُنثى، ولماذا حرّم الزنا في

---

١ ـ العلق ٩٦: ١ و ٢.

الإسلام حفاظاً على النسل ومنعاً من انتقال الأمراض.

والسائل المنوي للذكر عبارة عن سائل رخوي أصفر له رائحة خاصّة تنشأ من اختلاطه بإفرازات تأتي من الحويصلات المَنَوية وغدد كوبر ومن غدّة البروستاتا وغدد مجرى البول، ولا سيّما باختلاطه بإفراز غدّة البروستاتا. والكمّية التي تخرج في الدفعة الواحدة تتراوح بين غرام وعشر غرامات، وهذا السائل يحتوي على الحيوانات المنوية وبعض خلايا بشرية وكريّات بيضاء، وبه موادّ زلالية ودهنية وبعض الأملاح. ويخرج من الدفعة الواحدة من هذه الحيوانات المنوية أكثر من ٢٢٠ مليوناً، ويحتاج حدوث الحمل إلى حيوان منوي واحد لا أكثر.

والحيوان المنوي لا يُرى بالعين المجرّدة، إذ يبلغ طوله ٥٥ ميكروناً، والميكرون واحد من ألف من الملّيمتر، ويتكوّن الحيوان المنوي من رأس وعنق وجسم وذيل.

يقول الله تعالى في سورة الإنسان: «**هَلْ أتى عَلَى الْإنْسانِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً. إنّا خَلَقْنَا الْإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً**»[١] ولقد فسّر المعتدلون النطفة الأمشاج بأنّها اختلاط من منيّ الرجل وماء المرأة الممتزجين المختلطين، وفي اللغة العربية: مشج الشيء أي خلطه.

والنطفة المقصود بها الحيوان المنوي، أي أنّها خاصّة بالرجل، ويقول عليه الصلاة والسلام: «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الأكفاء»!!

إنّ الحيوان المنوي يتّحد بالبويضة، وينقل إليها صفات الذكر، فينشأ الجنين يشبه أباه، ويرث منه أمراضه. ولقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ نواة الحيوان المنوي ونواة البويضة هما الحاملان لخواصّ الوراثة، وذلك بانقسامهما إلى وحدات تسمّى «كروموزومات» وهي التي تنقل الإرث التناسلي.

فسبحان الله العظيم، إنّ العلم كلّما تقدّم وظهرت لنا نظرياته الحديثة ازداد إيماننا بالله عزّوجلّ وازداد إيماننا بالدين الإسلامي الحنيف والقرآن الكريم، وسبحان الله القائل: «ما

---

١ ـ الإنسان ٧٦: ١ و ٢.

فَرَّطْنا في الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ».[١]

إنّ جوانب عطاء القرآن الكريم ـ كتاب الله الخالد ـ للناس كثيرة ومتعدّدة، لا يحيط بها إنسان مهما استبحر في العلم وظنّ أنّه بلغ من المعرفة ذروتها، فكلّما بلغ الإنسان شأواً من المعرفة وجد القرآن الكريم أبعد مدى، لأنّه كلام الله الذي أحاط بكلّ شيء علماً. يقول تعالى: «وَلَو أنّما في الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله»...[٢] ويقول تعالى: «وَما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَليلاً».[٣]

وكلّما تقدّم العلم وأعطت الأفكار أحسن ما وصلت إليه بحوثها للحياة والأحياء وجد الباحثون ما يحثّهم على الجدّ والتشمير إلى المزيد من الهدي إليه، وحصلوا عليه من مثل قوله تعالى: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ سَيُريكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها»[٤] ويقول تعالى: «سَنُريهِمْ آياتِنا في الْآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيد».[٥]

والقرآن الكريم يحدو قافلة الذين يسبرون أغوار الكائنات، ويحاولون الإفادة من كلّ ما خلق الله في أرضه وسمائه، من حيوان ونبات، وجماد وأفلاك، وظواهر كونية، وفي بحار ومحيطات، وأجواز فضاء، تميط الأيّام عنها لثاماً وراء لثام، فيبدو العجب العجاب الذي نقول ويقول غيرنا أمامه: «هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ».[٦] أجل ماذا خلقَ الّذين من دونه؟ وآيات الله وكلماته ما تزال تتحدّى العُتاة. «إنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ»[٧] وماذا علم هؤلاء وهؤلاء؟ «وَلا يُحيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلّا بِما شاء».[٨]

---

١ ـ الأنعام ٦: ٣٨.
٢ ـ لقمان ٣١: ٢٧.
٣ ـ الإسراء ١٧: ٨٥.
٤ ـ النمل ٢٧: ٩٣.
٥ ـ فصّلت ٤١: ٥٣.
٦ ـ لقمان ٣١: ١١.
٧ ـ الحجّ ٢٢: ٧٣.
٨ ـ البقرة ٢: ٢٥٥. راجع: القرآن الكريم معجزة وتشريع، ص ١٨٥-٢١٣.

«وَيَعلَمُ ما في الأرحام»!

هنا سؤال قد يختلج ببال البعض: هل كان العلم بحمل الأُنثى ونوعيّته ذكوراً وإناثاً، خاصّاً به تعالى، ولا سيّما بعد تواجد الأجهزة الحديثة لمعرفة ذلك بسهولة؟

لكن السؤال إنّما يتوجّه إلى مَنْ فسّر الآية بصورة جزئيّة وأنّ الأُنثى الكذائيّة هل حملت أم لا، وما هو حملها: أُنثى أم ذكر؟ الأمر الذي يمكن معرفته بالأجهزة الحديثة!

غير أنّ الآية لاتعني ذلك! وهي واردة بشأن علمه تعالى الأزلي المحيط بما تحمل كلّ أُنثى من إنسان أو حيوان، البرّي منه والبحري، من دبّابات وزواحف وحشرات وكذا الطيور والوحوش على الإطلاق، بل ولعلّه يشمل أصناف النبات والأصداف والمرجان وكلّ موجودٍ في التكوين وكان يتوالد عن طريق تزاوج الذكر مع الأُنثى.

فالله تبارك وتعالى يعلم ذلك كلّه أزلاً لكلّ زمان وبصورة شاملة لكلّ الأناثي في عالم الوجود، الأمر الذي يختصّ العلم به والإحاطة به بمن يعلم غيب السماوات والأرض لا أحد سواه.

قال تعالى: «**اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنثى وَما تَغيضُ الأرحامُ وَما تَزْدادُ، وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدار، عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الكَبيرُ المُتَعالُ**».[1]

إنّه تعالى يعلم علماً سابقاً أزلاً: ماذا تحمل كلّ أُنثى ـ عدداً وجنساً ووصفاً ـ ويعلم أيضاً ماذا تغيضه الأرحام أي تفسده كما يغيض الوادي بالماء إذا ابتلعه، فيجعله ينقص.[2] كما يعلم مايزداد وينمو ويكثر. وكلّ شيء ـ كلّ موجود على الإطلاق ـ عنده بمقدار، هو عند الله منضبط في نظام يلائمه، خاضع لتقديره تعالى وتدبيره الحكيم.

ومن ثمّ عقّبه بقوله: «**عالم الغيب والشّهادة الكبير المتعال**» أي المستور والمشهود عنده سواء، حيث إحاطة علمه الأزلي القديم.

والآيات من هذا القبيل كثيرة تؤكّد على إحاطة علمه تعالى الشاملة، كما في قوله تعالى: «**وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما في البَرِّ وَالبَحْرِ، وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ**

---

١ ـ الرعد ١٣: ٨-٩.

٢ ـ غاض الماء: غار، نضب.

إلّا يَعْلَمُها، وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرْضِ، وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبين»[١] والكتاب المبين كناية عن علمه تعالى الأزلي القديم... فكلّ شيء ـ بشخصه وشأنه ـ مسطورٌ في ذلك الكتاب أزلاً، معلوم لديه تعالى قديماً.

* * *

وقال تعالى: «إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ ما في الْأرْحامِ. وَما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً، وَما تَدْري نَفْسٌ بِأيِّ أرْضٍ تَموتُ. إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبير».[٢]

أُمور خمسة جاءت في الآية، كان شأنها الاختصاص به تعالى:

١ ـ العلم بالساعة، متى تقوم القيامة.

٢ ـ هو الذي ينزّل الغيث، بأسباب مهّدها في نظام الطبيعة.

٣ ـ يعلم ما في الأرحام، في أعدادها وأجناسها وأوصافها، عبر الدهور ومدى الأحقاب.

٤ ـ لاتعلم نفس ماذا تكسب غداً. بل الله يعلمه أزلاً.

٥ ـ ما تدري نفس بأيّ أرض تموت. بل الله يعلمه قديماً.

وقال تعالى: «وَنُقِرُّ في الأرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمّى...».[٣]

وقال: «هُوَ الَّذي يُصَوِّرُكُمْ في الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاء...».[٤]

كان قرار الجنين في الرحم وكذا تصوير هندامه وترشيح صفاته، وفق عوامل طبيعيّة، كان الله قد مهّدها وقدّرها وكانت رهن إرادته تعالى، حيث يفعل ما يشاء وفق حكمته وعلمه بمصالح الأمور.

---

١ ـ الأنعام ٦: ٥٩.

٢ ـ لقمان ٣١: ٣٤.

٣ ـ الحج ٢٢: ٥.

٤ ـ آل عمران ٣: ٦.

الرجع والصدع

وأثرهما الهائل في تكييف الحياة

«وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ»[١]

الفضاء المحيط بالأرض له خاصّية ارتجاعية، بسبب حالتها الانحنائية الحاصلة لها بفعل الجاذبة الأرضية. وهذا الوضع الدائري للسماء هو الذي أكسبها هذه الخاصّية الارتجاعية، فترجع كلّ ما يصعد إليها بشدّة ودفق.

وقد فهم المفسّرون الأوائل: أنّها ترجع البخار الصاعد إليها مطراً.

والآن فقد علمنا أنّ الأمواج اللاسلكية والتلفزيونية ترتدّ هي الأُخرى من السماء إذا أُرسلت إليها، بسبب انعكاسها على الطبقات العليا الآيونية. ولهذا نستطيع أن نلتقط ما تذيعه المذاييع البعيدة بعد انعكاسها ونستمع إليها ونشاهدها، ولولا ذلك لضاعت وتشتّتت ولم نعثر عليها. فالسماء أشبه بمرآة عاكسة ترجع ما يبثّ إليها، فهي السماء ذاتُ الرجع.

وهي أيضاً تعكس الأشعّة الحرارية تحت الحمراء فترجعها إلى الأرض لتدفئها.

* * *

---

١ ـ الطارق ٨٦: ١١-١٢.

والأرض تنصدع ليخرج منها النبات ونافورات الغاز الطبيعي والبترول وينابيع المياه الكبريتية ونفث البراكين، وتنصدع مع كلّ هزّة زلزالية.

إنّا مرّةً بعد أُخرى نجد أنفسنا أمام ألفاظ دقيقة، جامعة في معانيها، ومختارة بدقّة، ومصفوفة بإحكام.

وإنّها علمٌ إلهيّ نافذ إلى أعماق الطبيعة، وليست علماً بشرياً مقصوراً على مظاهر الكون دون الوصول إلى أسرارها الكامنة.

فنحن أمام دقّةٍ وإعجاز وعلمٍ شامل.

❊ ❊ ❊

ومعنى آخر لعلّه أدقّ وأنسب لما بين صدع الأرض ورجع السماء من رابطة طبيعية، وهو أن يكون المراد ـ والله العالم ـ تراجع السماء في دورة الفلك السنوية، بسبب انحراف محور الأرض في دورتها حول الشمس قليلاً عن العمود على مستوى فلكها (مدارها) ويكون انحرافه بزاوية قدرها (٥/٢٣ درجة) ولذلك تأثير على تغيّر مناخ الأرض بنتيجة دورانها حول الشمس، ويؤدّي إلى ما نسمّيه بتبدّل الفصول الأربعة، فتتصدّع الأرض ـ أي تنفلق ـ لتخرج نباتها كلّما تراجعت السماء من فصل إلى فصل، من شتاء إلى ربيع فإلى صيف وإلى خريف. وهكذا بسبب هذا التراجع السماوي وتبدّل الفصول تتفجّر عيون الأرض وتتدفّق مياهها فتفيض بغزارة الأمطار، أو تغور وتنضب وتجدب الأرض إذا أمسكت السماء قطرها.

هكذا يرتبط اختلاف مناخ الأرض باختلاف حركات السماء ربطاً وثيقاً، «صُنْعَ اللهِ الّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ».[1] «إنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَر».[2]

❊ ❊ ❊

ومعنى ثالث أعمق وأخفى هي: رجعة الاعتدالين في دورة تستغرق ٢٦ ألف سنة، ومن جرّائها يطرأ على الأرض كلّ ١٣ ألف سنة تغيير عظيم في المناخ وفي سطح القشرة

---

١ ـ النمل ٢٧: ٨٨.
٢ ـ القمر ٥٤: ٤٩.

الأرضية من صدوع وشقوق وفوالق وجيوب، بسبب ما يحصل من تغيير في باطن الأرض من هذا التحوّل.

فقد دلّت البحوث الفلكية على أنّ القطب الشمالي الأرضي لا يتّجه اتّجاهاً ثابتاً إلى نقطة في السماء (النجمة القطبية) بل له دورة حول دائرة متصوّرة في السماء قطرها الظاهري ١٨ متراً، وتستغرق هذه الدورة ٢٦ ألف سنة.

فإذا تصوّرنا مدّ المحور الأرضي عن القطب الشمالي إلى الفضاء فالخطّ الوهمي هذا ينحرف عن النجمة القطبية اليوم درجةً ونصفاً، فإذا أخذ هذا الخطّ بالاقتراب من النجمة القطبية حتّى إذا ما بلغ الانحراف عنها بنصف درجة أخذ بالابتعاد عنها، وهكذا يبتعد ويقترب منها في دائرة تستغرق دورتها ستّاً وعشرين ألف سنة. وتسمّى هذه الظاهرة الفلكية عندهم برجعة الاعتدالين، مطابقة لما جاء في تعبير القرآن «وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ»!

وسبب هذه الدورة أو الرجعة تأثير جاذبتي الشمس والقمر، على القسم المنبعج من سطح الأرض (منطقة خطّ الاستواء الدائري)، كلّ منهما يحاول إرجاع الأرض إلى مستوى مداره.

فتأخذ نقطة الاعتدال (وهي نقطة الملتقى بين مدار الأرض والدائرة الاستوائية المائلة عن المدار) بالرجوع من جرّاء ذلك.

ورجعة الاعتدالين هذه لها أثر عظيم على حياة سكّان الأرض، إذ أنّ من جرّائها يطرأ على الأرض كلّ ثلاثة عشر ألف سنة تغيير عظيم في المناخ، فنصف الكرة الشمالي يحلّ الصيف فيه الآن، والأرض أبعد ماتكون عن الشمس في دورتها حولها، ولذلك كان الصيف معتدلاً. وبالعكس في النصف الجنوبي الذي يكون الصيف فيها شديد الحرّ لقرب الشمس منها. والشتاء في النصف الشمالي الآن معتدلٌ أيضاً لقرب الشمس منه. والعكس في النصف الجنوبي.

لكن بعد ١٣ ألف سنة يتحوّل المناخان، ويكون اتّجاه الأرض عكس اتّجاهها اليوم، فالصيف في النصف الشمالي شديد الحرّ وهو معتدل في النصف الجنوبي، والشتاء على

العكس، كلّ ذلك بسبب تبديل المناخ الحاصل بارتجاع نقطة الاعتدالين.

وأمّا الصدع فهو ينشأ من هذا الرجع أيضاً، إذ أنّ دلائل العلم الحديث برهنت على أنّ الزلازل الأرضية تكون صدوعاً وشقوقاً وفوالق في القشرة، بعوامل طبيعية أهمّها رجعة الاعتدالين ـ أي عدم ثبات القطب الشمالي ـ ولاتزال الزلازل تنتاب الأرض كلّ يوم عشرات المرّات منها العنيفة وأكثرها الخفيفة، تسجّلها مقاييس الزلازل من حيث لا يشعر الإنسان بها. وهذه الزلازل كثيراً مّا تُحدِث شقوقاً وصدوعاً في قشرة الأرض كما هو معروف.

قال رشيد رشدي (مدرّس الجغرافية في المدارس العالية ببغداد): انظر إلى هذا الانسجام والاتّساق، والإعجاز في تعبير الرجع والصدع، والربط الوثيق الطبيعي بينهما، فلو حاول كلّ عباقرة البيان ونوابغ علوم الطبيعة ليأتوا بكلمتين تخلفان هاتين اللفظتين بمعناهما المتّسع الشامل لما قدروا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.[١]

١ ـ بصائر جغرافية لرشيد رشدي البغدادي، ص ٢٧٠.

الفضاء يتمدّد

توسّعاً مطّرداً مع تضاعف الزمان

«وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإنّا لَمُوسِعُون».[١]

يقال: آد يأيد أيداً، وزان: باع يبيع بيعاً، بمعنى اشتدّ وقوي وصلب. أي بنينا السماء بقوّة وإحكام. والإيساع: الإكثار من الذهاب بالشيء في الجهات.[٢]

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى حقيقة كونية ظلّت خافية ثلاثة عشر قرناً، حتى ظهرت معالمها في القرن الرابع عشر للهجرة (أوائل القرن العشرين للميلاد) حيث عثر العلم على ظاهرة التوسّع في عالم النجوم.

إنّ فسحة الفضاء لاتزال تتمدّد وتتوسّع اطّراداً مع توالي الأحقاب، وإنّ مجموعة المجرّات غير العديدة تزداد تلوّياً وانفلاتاً عن بعضها، كأنّها في حركاتها اللولبية أو الحلزونية آخذة بالفرار من مراكز دوائرها ـ إن صحّ هذا التعبير ـ وبذلك تتوسّع دائرة الوجود المتكوّن من هذه الأنجم المتكدّسة في ضلوع المجرّات.

هذا مضافاً إلى ما تتولّد من كواكب على إثر انفجارات هائلة في كرات عظيمة كادت تشكّل مجموعات شمسية في أحضان المجرّات.

---

١ ـ الذاريات ٥١: ٤٧.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٠.

عن ابن عبّاس في تفسير الآية: قادرون على خلق ماهو أعظم منها، أي سماوات هي أعظم ممّا ترون فوق رؤوسكم بأعين مجرّدة.

لكنّ الآية نصّت على فعليّة هذا الاتّساع ولايزال، وليس مجرّد القدرة عليه فحسب.[1]

وأوّل من تنبّه لمطّاطية السماء هو العالم الفلكي «آبه جرج لومتر» البلجيكي المتولّد سنة ١٨٩٤م، وذلك عام ١٩٢٧م. كان أُستاذاً بجامعة «لوون» أبدى نظرته هذه ردّاً على نظرة «اينشتاين» (ت ١٩٥٥م) الماديّة المحضة للكون، كانت تفرض من شكل العالم اسطوانياً محدوداً من جوانبه الأربعة: اليمين واليسار والخلف والأمام. أمّا الفوق والتحت فلانهائيان. هكذا كان «اينشتاين» يفرض شكل العالم.

أمّا «لومتر» فقد ردّ على هذه الفرضية التي تجعل من الكون مادّة هامدة لا حراك فيها. وكذا من فرضية (ويليام دوسيتر» (ت ١٩٣٤م) القائلة بأنّ الكون حركة بلامادّة.

قال لومتر: هاتان النظرتان لاتترجّح إحداهما على الأُخرى، بل المترجّح في النظر أنّ هذا الكون يتشكّل من مادّة وحركة، ومن ثمّ فإنّ له أمداً ونهاية، وإنّه يشبه أن يكون ككرة قديمة يتنفّخ فيزداد توسّعاً وتضخّماً، وينبسط شيئاً فشيئاً عبر الأحقاب.

ونُشرت فرضيته هذه في مجلّة علمية سنوية في «بروكسل» ولكنّها سرعان ماتنوسيت ولم يعرها أحد باهتمام. غير أنّ الأرصاد الأمريكية في نفس الوقت كانت تعمل في الكشف عن هذه الحقيقة لترى فرضية «لومتر» من عالم الكون بعين شهود.

كان «وستوملون سليفر» مدير المرصد الأمريكي عام ١٩١٢م قد أثبت أنّ أطيافاً جمّة من سحابيات حلزونية تتغيّر من جهاتها، وكأنّها بفضل القوّة الطاردة آخذة بالفرار والابتعاد من عالمنا الشمسي.

وحقيقة الفرار هذه لفتت من نظر الأُستاذ «هوبل أُودون پاول» فقام بجمع أطياف السحابيات الحلزونية، والتي كانت جميعاً تؤيّد نظرية «سليفر»، فعمّم «هوبل» النظرية

---

١ ـ لظهور الوصف (المشتق) في فعلية النسبة، لاشأنيّتها.

وأعلن أنّ السحابيات الحلزونية آخذة بالفرار جميعاً بعضها من بعض، وسرعة هذا الفرار تتناسب مع الفواصل بينها، وبذلك احتارت أنظار العلماء بالنسبة إلى أجرام السماء.

وفي هذا الأثناء عثر الأُستاذ «ادينكتون» على مقال الأُستاذ «لومتر» الآنف. فجعل يطالعه بنهم وحرص شديد، معترفاً بصدق الحقيقة التي اكتشفها «لومتر» من ذي قبل. واتّضحت لديه ظاهرة التمدّد في عالم الكون. وكان ذلك تحوّلاً في فرضية عالم النجوم. ومن ثمّ قام «ادينكتون» عام ١٩٣١م بتنظيم نظرة «التوسّع الكوني» وتقديمها إلى جامعة لندن كحقيقة ثابتة من عالم الوجود.

وخلاصة النظرة: أنّ عالم المجرّات ـ وهي تفوق الملايين ـ قد تحوّلت من حالتها الهامدة التي كان يفرضها «اينشتاين» في شكلها المنحني إلى صورة كرة دائرية تتضخّم وتتوسّع شيئاً فشيئاً، وسرعة هذا التوسّع تبلغ في شعاع مطّرد مع ضعف الزمان. ففي مدّة ملياردي عام (عمر الأرض) ازداد هذا الشعاع بضعف. وهي سرعة هائلة يطّرد معها توسّع الكون وانبساط هذا الفضاء الرحيب.[1]

قال الأُستاذ رشيد رشدي: والكون برحبه الفسيح آخذٌ في التوسّع، كما برهن عليه التحقيق العلمي الحديث. ودلّت عليه الآية الكريمة: «وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأيدٍ وَإنّا لَمُوسِعُونَ» ولام التأكيد هنا لاتحتاج إلى توضيح في الدلالة على حتمية هذه التوسعة وعلى استمرارها في الأكوان والعوالم السماوية، فيالها من معجزة قرآنية.[2]

وقال سيّدنا الطباطبائي ﷺ: ومن المحتمل أن يكون «مُوسعون» من «أوسع في النفقة» أي كثّرها، فيكون المراد: توسعة خلق السماء، كما تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم.[3]

❊ ❊ ❊

هذا، ولكن غالبية المفسّرين حملوا التوسعة هنا على الغنى والسعة في الرزق، كما

---

١ ـ راجع: تاريخ العلوم، ص ٨٦١-٨٦٨.

٢ ـ بصائر جغرافية، ص ٣٠٠-٣٠١.

٣ ـ الميزان، ج ١٨، ص ٤١٣-٤١٤.

في قوله تعالى: «يُغنِ اللهُ كُلاًّ مِن سَعَتِه»[١] وبقرينة قوله قبل ذلك: «وَفي السَّماءِ رِزْقُكُم وَما تُوعَدُون».[٢] وقوله بعد ذلك: «إنّ اللهَ هُوَ الرَزّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتين».[٣]

نعم هو معنى مجازي للتوسعة، أخذاً من التوسعة في المكان للتوسعة في الحال. قال الراغب: السعة تقال في الأمكنة وفي الحال وفي الفعل، كالقدرة والجود ونحو ذلك. ففي المكان نحو قوله: «إنّ أرضي واسِعَة».[٤] وفي الحال قوله تعالى: «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه».[٥] وقوله: «عَلَى المُوسِعِ قَدَرُه»[٦] والوسع من القدرة مايفضل عن قدر المكلّف. والوسع الجدة والطاقة... وأوسع فلان: إذا كان له الغنى وصار ذا سعة.

هكذا روي عن الحسن في تفسير الآية، قال: وإنّا لموسعون الرزق على الخلق بالمطر.[٧]

غير أنّ هذا المعنى المجازي للسعة يتوقّف على مجاز آخر في كلمة «أيد» مجازاً من القدرة إلى النعمة، كما ذكره سيّدنا الطباطبائي، وهو مجاز شائع أيضاً.

وسياق الآية عرض لمظاهر قدرته تعالى في الخلق والتدبير «يَزيدُ فِي الخَلْقِ مايَشاء»[٨] ومن ثمّ جاء تعقيبها بقوله: «فَفِرُّوا إلَى اللهِ إنّي لَكُمْ مِنهُ نَذيرٌ مُبين».[٩]

---

١ ـ النساء ٤: ١٣٠.
٢ ـ الذاريات ٥١: ٢٢.
٣ ـ الذاريات ٥١: ٥٨.
٤ ـ العنكبوت ٢٩: ٥٦.
٥ ـ الطلاق ٦٥: ٧.
٦ ـ البقرة ٢: ٢٣٦.
٧ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٠.
٨ ـ فاطر ٣٥: ١.
٩ ـ الذاريات ٥١: ٥٠.

تخلخل الهواء في أطباق السماء

وعندها تتضايق الأنفاس

«وَمَن يُرِد أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يصَّعَّدُ فِي السَّماء».[١]

التصعّد: محاولة أمر شاقّ بتكلّف وتحرّج. يقال: تصعّده الأمرُ وتصاعده أي شقّ عليه وصعب.

وقد ذكر المفسّرون في معنى الآية وفي وجه هذا التشبيه الغريب: أنّ من يرد الله خذلانه يتركه وشأنه، ومن ثَمَّ يمنعه من فيض ألطافه. فيقسو قلبه وينبو عن قبول الحقّ وعن الاهتداء إلى جادّة الصواب. فعنده يجد قلبه مطموساً مغلقاً عليه أبواب الرحمة ومنافذ النور، فيجد نفسه في تضايق من الحياة ويتحرّج عليه العيش. فحالة هكذا إنسان متعوس، تشبه حالة من يحاول أمراً ممتنعاً عليه فيتكلّفه من غير جدوى، كمحاولة الصعود إلى أطباق السماء. ونتيجته ضيق النفس وكربة الصدر والرهق المُضني لاغير.

وهذا التفسير كان يصحّ لو كان التعبير «كأنّما يصّعّد إلى السماء» لكن التعبير «كأنّما يصّعّد في السماء».

---

١ ـ الأنعام ٦: ١٢٥.

ولفظة «التصعّد» تعطي معنىً آخر هو: تضايق النفس وكربة الصدر والتحرّج، يقال: تصعّد نَفَسُه أي صَعُب عليه إخراجه. كما يطلق «الصَعُود» و«الصَعَد» على العقبة الكؤودة، ويستعاران لكلّ أمر شاقّ متناهٍ في المشقّة. قال تعالى: «ومَن يُعرِض عَن ذِكرِ رَبِّهِ يَسلُكهُ عَذاباً صَعَداً». [١] أي شاقّاً أليماً للغاية. وقال: «سَأُرهِقُهُ صَعُوداً» [٢] قال الراغب: أي عَقَبة شاقّة.

إذاً فمعنى «كأنّما يصّعّدُ في السماء»: يكابد الأمرّين وتتضايق عليه الحياة، كمن يتضايق صدره ويتحرّج عليه التنفّس في جوّ خانق، لا يصل الهواء الكافي إلى رئتيه، وهذا كمن يحاول العيشة في جوّ السماء المتخلخل الهواء.

وتوضيحاً لهذا الجانب من تفسير الآية وبيان وجه الشبه لابدّ أن نمهّد مقدّمة:

كان المعتقد قديماً أنّ الهواء لاوزن له، حتّى سنة ١٦٤٣م، التي قد تمّ فيها اختراع آلة المرواز (بارومتر) على يد «تروشللي»، وبواسطتها عرف وزن الهواء. فتبيّن عند ذاك أنّ الهواء مكوّن من مجموعة من الغازات، لكلّ منها وزن معيّن. ويعرف وزن الهواء فوق أي نقطة معيّنة بالضغط الجوّي، ويمكن قياسه بواسطة البارومتر. وقد عرف الآن أنّ هذا الضغط عند مستوى البحر يعادل ثقل عمود من الزئبق ارتفاعه حوالي ٧٦ سم مكعب. وهذا يساوي من الثقل زهاء ألف غرام على كلّ سانتيمتر مربّع.

وقدّر متوسّط ضغط الهواء على إنسان عند سطح البحر مايعادل ١٤ طنّاً، أي ١٤ مليون غرام، لكنّه على ارتفاع ٥ كيلو مترات من سطح البحر، يقلّ هذا الوزن إلى ٧ ملايين غرام، فكلّما ارتفعنا عن سطح البحر، ينقص الضغط، خصوصاً في طبقات عليا من الهواء، حيث تقلّ كثافة الهواء فيخفّ وزنه بنسبة هائلة.

والواقع أنّ نصف الغاز الهوائي ـ أي كثافة الغلاف الهوائي، سواء من حيث الوزن أم من حيث الضغط ـ يقع بين سطح البحر وارتفاع ٦ آلاف متر. كما أنّ ثلاثة أرباعه تقع تحت مستوى ١٢٠ ألف متر.

---

١ ـ الجنّ ٧٢: ١٧.

٢ ـ المدّثر ٧٤: ١٧.

أمّا إذا ارتفعنا إلى مستوى ٨٠ ألف متر فلا يبقى فوق ذلك أكثر من (١/ ٢٠٠٠٠) من الوزن الكلّي للهواء.

وبالجملة إنّ الهواء يخفّ ضغطه كلّما ارتفعنا، فعلى ارتفاع ثلاثة أميال ونصف يكون الضغط نصف الضغط على سطح البحر، وعلى ارتفاع سبعة أميال يكون الربع، وعلى ارتفاع عشرة أميال يكون الثمن، ثمّ هو لا يطّرد.

ويرجع نقص الضغط بالارتفاع إلى أُمور أهمّها:

١ ـ قلّة ارتفاع العمود الهوائي.

٢ ـ فسحة الفضاء في الطبقات العليا، ممّا يوجب تخلخلاً في الهواء.

٣ ـ ابتعادها عن قوّة جذب الأرض، التي كانت توجب ضغط الهواء في الطبقات السفلى الملاصقة للأرض خصوصاً.

٤ ـ توفّر الغازات الخفيفة في الطبقة العليا بدل توفّر الغازات الثقيلة في الطبقة السفلى. وعوامل أُخرى لامجال لشرحها.[١]

❊ ❊ ❊

وبعد، فإنّ الهواء يضغط على أجسامنا من جميع الجوانب، سوى أنّنا لانشعر بتأثيره ولابثقله، وذلك لأنّ الدم الذي يجري في عروقنا يولّد ضغطاً على الجدران الداخلية للأوعية الدموية. وهذا الضغط الداخلي يوازن ضغط الهواء الواقع على أجسامنا فلانشعر به. ولكن الناس الذين يتسلّقون الجبال العالية يحسّون بضيق في التنفّس بسبب اختلال التوازن بين ضغط الهواء الخارجي وضغط الدم.

وفي سنة ١٨٦٢م حاول شخصان انكليزيان الصعود بمنطاد إلى أقصى ارتفاع ممكن، فبلغا إلى حدّ سبعة أميال، ولكنّهما عانيا مصاعب جمّة، فتعذّر تنفّسهما وأخذا ينزفان دماً من آذانهما وعيونهما وأنفيهما وحنجرتيهما، ولم يستطع العلماء في بادئ الأمر تشخيص السبب، حتى عرفوا فيما بعد أنّ الهواء يقلّ ضغطاً كلّما ارتفع، فهو في الطبقات

---

١ ـ راجع التفصيل في كتاب: بصائر جغرافية، ص ٢٠٥-٢٠٨.

العليا أقلّ ضغطاً منه في الطبقات السفلى.[١]

وحيث إنّ الجلد الذي يغطّي الأعضاء المذكورة (الأُذن والعين والأنف والحنجرة) رقيق جدّاً (وهو من نوع الأغشية الرقيقة) تعذّر عليه مقاومة ضغط الدم عندما يقلّ ضغط الهواء الخارجي فيتدفّق الدم من خلاله ويحصل النزيف. ويصعب التنفّس بسبب هذا الضغط الداخلي.

وبذلك يتعسّر تنفّس الإنسان ويتضايق صدره ويكاد يختنق كلّما أخذ في الارتفاع عن سطح البحر متوغّلاً في الفضاء.

وذلك بسبب قلّة الهواء وتخلخله الموجب لانخفاض الضغط الخارجي على الجسم، ممّا يؤدّي لنقص معدّل مرور الهواء عبر الأسناخ الرئوية إلى الدم. كما يؤدّي انخفاض الضغط لتمدّد غازات المعدة والأمعاء التي تدفع الحجاب الحاجز للأعلى، فيضغط على الرئتين ويعيق تمدّدها. وكلّ ذلك يؤدّي لصعوبة في التنفّس، وضيق يزداد حرجاً كلّما صعد الإنسان عالياً، حتى أنّه قد يحصل نزوف من الأنف أو الفم يؤدّي أيضاً للوفاة.

وعامل آخر: انخفاض نسبة الأُوكسجين في الارتفاعات العالية، فهي تعادل ٢١٪ تقريباً من الهواء فوق سطح الأرض، وتنعدم نهائياً في علوّ ٦٧ ميلاً. ويبلغ توتّر الأُوكسجين في الأسناخ الرئوية عند سطح البحر ١٠٠ ملم. ولايزيد عن ٢٥ ملم في ارتفاع ٨ آلاف متر، حيث يفقد الإنسان وعيه بعد (٢-٣) دقائق ثمّ يموت.[٢]

❊ ❊ ❊

فسبحانه من عظيم، في تعبيره هذا الدقيق: «**وَمَن يُرِد أن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً كأنّما يَصَّعَّدُ في السّماء**»[٣] فهو كمن يحسّ بحرج في تنفّسه، وتتضايق عليه الحياة بسبب ارتفاعه في طبقات عليا من الفضاء، وليس تشبيهاً بمن يحاول الصعود إلى السماء فيضيق صدره بسبب العجز. هكذا يكشف العلم عن أسرار هذا الكتاب المبين «**كِتابٌ أَنزَلناهُ اِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ اُولو الأَلباب**».[٤]

---

١ ـ مبادئ العلوم العامة، ص ٥٧.

٢ ـ مع الطبّ في القرآن الكريم، ص ٢١.

٣ ـ الأنعام ٦: ١٢٥.

٤ ـ ص ٣٨: ٢٩.

الغلاف الهوائي حجابٌ حاجز

«وَجَعَلنَا السَّماءَ سَقفاً مَحفُوظاً وَهُم عَن آياتِها مُعرِضُون».[١]

يحيط بالأرض غلافٌ هوائيّ سميك قد يبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٥٠ كيلومتراً.

والهواء يتكوّن من غاز النتروجين بنسبة (٧٨/٠٣) و الأُوكسجين (٢٠/٩٩) وثاني أُوكسيد الكاربون (٠/٠٤) و بخار الماء وغازات أُخرى (٠/٩٤).

وهذا الغلاف الهوائي بهذا السمك وبهذه النِسَب من تركيبه الغازي يكوّن تُرساً واقياً للأرض من قذائف السماء، وهي تترى على الأرض من كلّ جوانبها في عدد هائل (بالملايين يومياً).

وذلك أنّ الفضاء ملؤها الأحجار المتناثرة، على أثر تحطّم كواكب مندثرة، فتتكوّن منها مجموعات حجرية كثيرة مبعثرة دائرة حول الشمس. فإذا ما اقتربت الأرض في دورانها حول الشمس من إحدى هذه المجموعات (وكم لها من اقتراب منها يومياً) انجذبت إليها كميّات كبيرة من تلك الأحجار بفعل جاذبيّتها (جاذبيّة الأرض) فتنهال عليها وفرة من أحجار، منها الصغيرة ومنها الكبيرة، وتبلغ سرعة سقوطها مابين (٥٠ و ٦٠) كيلومتراً في الثانية أو تزيد، وهي سرعة هائلة. فإذا دخلت الجوّ الأرضي احترت

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٣٢.

فاتّقدت وهي تخترق الهواء، فرسمت وراءها خطّاً من نور لا يلبث أن ينمحي.

لكنّها لاحتكاكها بأجزاء الهواء أثناء اختراقها الجوّ الأرضي، وبتأثير غاز الأُوكسجين وغاز الأزوت تحترق فور مرورها خلال الطبقات الجوّيه العالية، فتتحوّل إلى ذرّات رمادية تبقى عالقة في الهواء، مكوّنةً الغبار الكوني.

وهذه هي التي دُعيت بالشُهُب كأنّها شعلة متوهّجة انقضّت من السماء، ولا تلبث أن تخفى و تذهب هباءً منثوراً.

ومنها مايكون كبيراً جدّاً فينفجر عند انقضاضه، فيُسمَع له دويّ كبير، وتتساقط بعض أجزائه دون احتراقها على سطح الأرض، وتكون مادّتها من النيكل والحديد.[١]

فانظر إلى آثار رحمة الله، كيف يكون الجوّ الهوائي ترساً منيعاً يقي الأرض يوميّاً من ملايين القذائف السماوية التي تذوب قبل وصولها إلى سطح الأرض، فلولا الغلاف الغازي للأرض، لتعذّرت الحياة على سطحها. فقد أصبح الهواء بمجموعه ـ وخاصّة منه الأُزوت ـ وقاءً عامّاً للأرض من هذه الرجوم. ولولا هذه الخاصّيّة والميزة لهذه الغازات لتعسّرت الحياة، كما في القمر الذي لاهواء له أو هو متخلخل جدّاً، ولذلك كان سطح القمر معروضاً كلّ يوم لقصف متلاحق لاينفكّ عنه، لعدم وجود هواء في جوّه يقيه شرّ هذه البليّة!.

«سُبْحانَ الَّذي سَخَّرَ لَنا هٰذا وَما كُنّا لَهُ مُقرِنين».[٢]

---

١ ـ قد تكون القذيفة ضخمة بحيث تبلغ بضعة أطنان (كلّ طنّ ألف كيلو غرام) أو أكثر. فلا يمكن لغاز الأزوت وغيره من الغازات من تحطيمها، فتصل إلى الأرض كحجر سماوي، مدمّرة مخرّبة. وقد عثروا على بعضها في أنحاء الأرض وخاصّة في المناطق غير المأهولة. أليس ذا عجيباً؟! بصائر جغرافية، ص ١١٣ و ٢٩٠.

وتُحفظ في إحدى المتاحف كتلة من الحديد والنيكل زنتها ٦٠ طنّاً من النيازك الواقعة من السماء. مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي، ص ١٦٥.

٢ ـ الزخرف ٤٣: ١٣.

ماسكة الفضاء

(الجاذبيّة العامّة)

«وَالسَّماءِ ذاتِ الحُبُك».[١]

سئل الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن هذه الآية فقال: هي محبوكة إلى الأرض، وشبّك بين أصابعه، فقيل له: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونَها»؟[٢] قال عليه السلام: ثَمَّ عَمَدٌ، ولكن لاترونها.[٣]

والحبك: الشدّ الوثيق. وثوب محبوك و حبيك: متين النسج جيّد الصنع.

وتشبيك الأصابع: تداخل بعضها في البعض، ولعلّه كناية عن الوشائج الوثيقة المترابطة المتشابكة مع بعضها والماسكة بأجرام الفضاء، فلا تتبعثر ولاتتهاوى، وحفظاً على التوازن القائم بين أجزاء الكون. وماهي إلّا قانون الجاذبية العامّة، تفاعلت مع القوّة الطاردة فأمسكت بعرى السماوات والأرض أن تزولا. وهكذا توازَنَ النظامُ وأمكنت الحياة على الأرض.

والعَمَد: هي الطاقات والقوى الحاكمة على نظام الكون، إنّها موجودة قد كشفها العلم

---

١ ـ الذاريات ٥١: ٧.
٢ ـ الرعد ١٣: ٢.
٣ ـ تفسير القمّي، ج ٢، ص ٣٢٨.

ولمس آثارها وعثر على حصائلها التي هي الحياةُ والبقاء.

فقد عثر العلم على أنّ الأجسام على نسب كتلها تتجاذب مع بعضها. وهي التي جعلت الشمس تمسك بالأرض فتدور حولها. وهي التي جعلت الشمس تمسك بعطارد والزهرة وجعلتهما يدوران حولها، كلاًّ في مداره. وهي التي أمسكت بالمرّيخ والمشتري وزحل وجعلتها جميعاً حول الشمس تدور. وهكذا سائر الكواكب في سائر المنظومات. وسائر المنظومات في سائر المجرّات، بل وجميع المجرّات في عرض الفضاء اللامتناهي، هي التي عملت في إمساكهنّ دون التفرّق والاندثار «وَمِن آياتِهِ أن تَقَومَ السَّماءُ والأرضُ بأمرِهِ».[١] «إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ والأَرضَ أَنْ تَزُولا».[٢]

هذه هي الجاذبية، قد جهل العلم بحقيقتها وعن نشأتها، سوى أنّه عرفها بحدودها وميزاتها وبعض آثارها. هذا فحسب، أمّا كيف حصلت وبمَ حصلت وما سببها وسرّها الكامن وراء ظاهرها؟! فهذا شيء مجهول، وسيبقى مجهولاً إلى الأبد، شأن سائر مكتشفات العلم التي بقيت خافية السرّ في طيّ الوجود.

ففي أواخر القرن السابع عشر للميلاد قام إسحاق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) بتجارب، وعلى أثرها عثر على تجاذب عام بين الأجسام، قائم بنسبة كتلها طرديّاً، وبنسبة مربّع المسافة بينها عكسيّاً، وعرف بقانون «الجاذبية العامّة».[٣]

وقانون الجاذبية، عبارة عن جذب كلّ كتلة لكلّ كتلة أُخرى[٤] بقوّة تزداد بازدياد كتلتيهما، وتقلّ بنسبة مربّع المسافة بينهما.

ومعنى ذلك أنّه لو زادت المسافة إلى الضعف وكانت الكتلة ثابتة لنقصت القوّة الجاذبة إلى الربع. وإذا زادت المسافة ثلاث مرّات لنقصت الجاذبة بينهما إلى $\frac{1}{9}$ ماكانت

---

١ ـ الروم ٣٠: ٢٥.　　٢ ـ فاطر ٣٥: ٤١.

٣ ـ مبادئ العلوم، ص ٨.

٤ ـ تعرّف كتلة كلّ جسم بأنّها كميّة المادّة المحتوية في ذلك الجسم. والكتلة هي التي تعيّن مقدار الوزن. وقد اصطلح على اتّخاذ الغرام وحدة علمية للمقارنة بين الكتل. والغرام: كتلة سنتمتر مكعّب من الماء المقطّر. مبادئ العلوم، ص ٦-٧.

عليه. أما إذا كانت المسافة ثابتة فإنّ زيادة الكتلتين من شأنها أن تزيد القوّة الجاذبة زيادة مطّردة.

❊❊❊

وهل الجاذبية بنفسها قدرة فاعلة أم وراءها سرّ أخفى؟

قال إسحاق نيوتن: ولايمكن أن يتصوّر المرء أنّ المادّة الهامدة بدون تأثير من خارج المادّة هي العاملة بذاتها.. وأرجو أن لا ينسب ذلك إليّ... أنّ القول بالجاذبية المادّية، وأنّها من خواصّ المادّة الجامدة، وأنّ لكلّ جسم أن يؤثّر على جسم آخر، وبينهما الفراغ التام، قول لايستقيم، ولايصحّ أن يقول به من كانت عقليته عقلية علمية، بل الجاذبية لابدّ أن يكون لها سبب وسيط يعمل وفقاً لقوانين أُخرى لانعلمها، وهل ذاك الوسيط مادّي أو أمر متعالٍ عن المادّة؟ فهذا ما أتركه إلى فهم القارئ وتقديره.[1]

هذا ما يقوله مكتشف قانون الجاذبية، ينبّؤك عن خفاء سرّها، ولكنّه مع ذلك فإنّ هذا القانون، رغم الجهل بحقيقته فإنّه ذو أهميّة كبرى في معرفة السرّ العلمي لحفظ التوازن العامّ بين أجزاء الكون، ولولاه لتبعثرت هباءً وانتشرت منثوراً في الفضاء.

وبذلك أيضاً يعلّل قانون الثقل والوزن، ولولاه لطارت الأجسام المستقرّة على الأرض أو المحيطة بها إلى أبعاد السماء، ولما استقرّت المحيطات والبحار في مستقرّها، ولما بقي هواء محيط بالأرض، ولانعدمت الحياة على سطح الأرض بانعدام الهواء، وهكذا لم يبق سحاب معلّقاً في جوّ السماء، ولما أمطرت السماء على الأرض وجفّت المياه.

❊❊❊

أمّا القوّة المركزية الطاردة فهي: أنّ كلّ جسم يدور حول مركز فإنّه يكتسب بذلك قوّة تدفعه في الابتعاد عن المركز وهي أيضاً بنسبة مربّع السرعة كلّما كانت الحركة الدورية أسرع فإنّ قوّة الطرد تزداد، وبالعكس تقلّ مع انخفاض السرعة. فلو كانت سرعة الدوران بمقياس ١٠ كيلومترات في الساعة فإنّ قوّة الدفع الطاردة تكون حينذاك بمقياس

---

١ ـ بصائر جغرافية، ص ٢٧٢-٢٧٣.

١٠ × ١٠ = ١٠٠ كيلومتر في الساعة.[١]

ولكن يجب أن لايتناسى المسافة بين النقطة المركزية والجسم الدائر، وكذا كتلته، فإنّ ذلك كلّه ذو تأثير على مبلغ قوّة الطرد.

قال الدكتور أحمد زكي: إنّ من المهمّ أن نعرف شيئاً عن علاقة هذه القوّة من حيث مقدارها بالدوران من حيث سرعته و من حيث عدد لفّات الشيء الدائر، لهذا نقول: هب أنّ كرة من حديد وزنها ٧ أرطال تدور حول محور، وهي مرتبطة بالمحور بحبل طوله ٣ أقدام، وهب أنّ الكرة تلفّ لفّتين في الثانية حول هذا المحور، إذاً فالقوّة المركزية الطاردة التي بها تشدّ الكرة المحور (وهي تساوي القوّة الجاذبة التي يجذب بها المحور الكرة) تساوي بالتقريب: $\frac{1}{4}$١ × كتلة الحديد × طول الحبل (أي نصف قطر الدوران) × (عـدد اللفّات في الثانية)^{2} = $\frac{1}{4}$١ × ٧ × ٣ × ٢^{2} = ١٠٥ من الأرطال.

ومعنى هذا أنّه كلّما زادت سرعة اللفّ في الثانية زادت القوّة، وكلّما قلّت تلك قلّت هذه.[٢]

❊ ❊ ❊

ويستطرد الأُستاذ رشيد رشدي قائلاً: إنّ القوّة الجاذبية للأرض تأخذ بالتناقص كلّما اتّجهنا نحو خطّ الاستواء، حيث تزداد سرعة الأرض المحورية التي تؤدّي إلى زيـادة القوّة الطاردة، وهذا النقص عند خطّ الاستواء يكون بنسبة ١/٢٨٩ ولمّا كان العدد ٢٨٩ مربّع العدد ١٧ والقوّة الطاردة تزداد بنسبة مربّع السرعة، فلو بلغت سرعة الأرض حول نفسها ١٧ مرّة عمّا عليها الآن لازدادت القوّة الطاردة ٢٨٩ مرّة عمّا هـي عـليها الآن، ولتساوت القوّة الطاردة مع القوّة الجاذبة للأرض، وحينذاك لآل ثقل الأجسام عند خطّ الاستواء إلى صفر، أي فلن يبقى عندئذٍ تأثير مّا للجاذبية الأرضية، ولاختلّ النظام الراهن على وجه الأرض حيث تستحيل الحياة عليها.[٣]

---

١ ـ المصدر، ص ٢٧٥.

٢ ـ مع الله في السماء، ص ٧٠-٧١.

٣ ـ بصائر جغرافية، ص ٢٧٥.

إنّ محور الأرض الذي يصل بين قطبيها أصغر من محورها الذي عند خطّ الاستواء. الأوّل طوله ٧٩٠٠ ميلاً، والثاني طوله ٧٩٢٦ ميلاً، أي يزيد على الأول بـ(٢٦) ميلاً، ولذلك برزت الأرض قليلاً عند بطنها (خطّ الاستواء) وتفرطحت عند قطبيها.

والسبب في ذلك يعود إلى حركة الأرض المحورية، فتفعل فيها القوّة المركزية الطاردة التي تفعل في كلّ جسم دائر. والأرض اليوم جامدة ولكنّها بالأمس كانت أكثر ليونة، فلم تكن تقاوم تغييرات تحصل في شكلها، كما هي تقاوم اليوم.

إنّ دورة الأرض المحورية لاتؤثّر في جميع سطحها تأثيراً سواءً. إنّها عند خطّ الاستواء أكثر بُعداً من المركز عن خطّ العرض ٣٠ عن عرضها ٦٠ عن عرضها ٩٠، أي عند القطب، لأنّ القطب لايكاد يدور. ومن أجل هذا اشتدّ بروز الأرض قديماً، وهي ليّنة عند خطّ الاستواء، وأخذ يقلّ تدرّجاً، ذهاباً إلى القطبين. وبمقدار مّا خرجت الأرض ببطنها، دخلت عند الرأس والقدم.

لتفرطح الأرض ودورانها حول محورها، وأيضاً تفاعل القوّتين الجاذبة والطاردة، نتائج كثيرة وخطيرة.

منها: أنّ الأشياء توزن عند القطبين أكبر ممّا توزن عند خطّ الاستواء. وبلفظ علمي: الكتلة الواحدة إذا نقلناها من خطّ الاستواء إلى القطب فهي تزداد ثقلاً كلّما سرنا في هذا الطريق، لأنّ الثقل أو الوزن ما هو إلّا قوّة جذب الأرض بجرمها العظيم، ما على سطحها من أشياء.

وقوّة الجاذبية تتناسب تناسباً عكسياً مع مربّع المسافة بين الشيئين المتجاذبين وجاذبية الأرض متركّزة في مركزها، وتنقص كلّما بعُدت الأشياء عن هذا المركز. والكتلة عند القطب أقرب إلى مركز الأرض منها وهي عند خطّ الاستواء.

وعامل آخر يؤثّر في اختلاف هذا الوزن وفي قوّة هذا الانجذاب، ذلك قوّة الأرض المركزية الطاردة تحاول أن تطرد ما على الأرض بفعل دورانها تحاول أن تقذف بها بعيداً. وأثر هذه القوّة الطاردة على الأشياء على عكس القوّة الجاذبة. ومن ثمّ فإنّ الطاردة

تضعف من الجاذبة وتنقص منها، والقوّة الطاردة فاعلة أكثر فعلها عند الاستواء، ومعدومة عند القطبين، لأنّهما لايدوران حول المركز.

فهذا العامل الجديد يخفّ بالأوزان عند خطّ الاستواء، وهو لايؤثّر عند القطبين. فتفرطح الأرض ودورانها يفعلان في الأجسام على سطح الأرض، ويفعلان معاً: يزيدان الشدّ معاً، أو ينقصان منه معاً. وهذا الاختلاف يكون بنسبة ١/٢٨٩، أي أنّ جسماً مّا نزنه عند القطب (نقيس مقدار شدّ الأرض له)فنجد أنّ وزنه ٢٩٠ رطلاً ـ مثلاً ـ ثمّ نعيد وزنه عند الاستواء فنجد أنّ وزنه نقص رطلاً، أي صار ٢٨٩ رطلاً. ولايكون ذلك بالميزان ذي الكفّتين طبعاً، لأنّه في هذه الحالة تخفّ السنجة كما يخفّ الشيء الموزون، أو تزيد كما يزيد، وإنّما يكون الوزن بقياس مقدار الشدّ، فكان يستخدم ميزان ذو زنبورك، أو نحوذلك.

***

ومن نتائج زيادة جاذبية الأرض عند القطبين: أنّ الأشياء تنزلق على سطحها إلى حيث الجاذبية أكبر، فكان من المنتظر أن يسير ماء البحار والمحيطات إلى القطبين انزلاقاً وانحداراً.

ولكن الأرض كرة تدور حول محورها فيكسبها دورانها هذا قوّة مركزية طاردة، يكون اتّجاهها عمودياً على المحور، وهي تعمل في عكس اتّجاه جاذبية الأرض، فهي تميل إلى دفع تلك المياه من القطبين إلى خطّ الاستواء.

وبذلك تعادلت القوّتان: قوّة الجاذبية وقوّة الدفع، وبذلك توزّعت المياه على سطح الأرض توزّعاً نعرفه عادلاً.

قال الدكتور أحمد زكي: وهذا تقدير لولاه لتغيّر وجه الأرض. فمن ياترى قدّره، وقدّر هذه الدرجة الدقيقة من الضبط والربط؟![1]

فسبحان من «خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرهُ تَقديراً».[2] «إنّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقناهُ بِقَدَر».[3]

---

١ ـ مع الله في السماء، ص ٧١-٧٥.
٢ ـ الفرقان ٢٥: ٢.
٣ ـ القمر ٥٤: ٤٩.

الرتق والفتق

في السماوات والأرض

«أَوَلَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَروا أنَّ السَّماواتِ والأَرضَ كانَتا رَتقاً فَفَتَقْناهُما».[١]

«ثُمَّ استَوى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلأَرضِ ائْتِيا طَوعاً أو كَرهاً قالَتا أتَينا طائِعين. فَقَضاهُنَّ سَبعَ سَماوات».[٢]

اختلف أهل التفسير في المراد من الرتق والفتق في الآية على قولين:

الأوّل: أنّ السماء كانت رتقاً مسدوداً نوافذُها لاتُمطر، والأرض ملتحماً مسارِبُها لاتُنبت، ففتقناهما: «فَفَتَحنا أبوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنهَمِر»[٣] «ثُمَّ شَقَقنَا الأرضَ شَقّاً. فَأَنْبَتْنا فيها حَبّاً».[٤]

قال البيضاوي: وعليه فالمراد بالسماوات هي سماء الدنيا، وجمعها باعتبار الآفاق. أو لعلّ للسماوات بأسرها مدخلاً في الإمطار.[٥] وكلاهما خلاف التحقيق والتعبير أيضاً.

قال الطبرسي: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.[٦]

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٣٠.

٢ ـ فصّلت ٤١: ١١ و ١٢.

٣ ـ القمر ٥٤: ١١.

٤ ـ عبس ٨٠: ٢٦-٢٧.

٥ ـ أنوار التنزيل، ج ٤، ص ٣٩.

٦ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٤٥.

أمّا الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام فهي التي يرويها الكليني في الروضة بـإسناد مجهول[١] عن رجل شامي جاء إلى الإمام فسأله عن الآية، فقال له الإمام: فلعلّك تزعم أنّهما كانتا رتقاً ملتزقتين ففتقت إحداهما عن الأُخرى؟ قال: نعم. قال: استغفر ربّك، فإنّ قول الله جلّ وعزّ: «كانتا رتقاً» يقول: كانت السماء رتقاً لاتنزل المطر، وكانت الأرض رتقاً لاتنبت الحبّ، فلمّا خلق الله تبارك وتعالى الخلق... فتق السماء بـالمطر والأرض بنبات الحبّ...[٢]

وأيضاً عن أبي‌الربيع ـ وهو أيضاً مجهول ـ قال: حججنا مع أبي جعفر عليه‌السلام في العامّ الذي حجّ فيها هشام‌بن عبدالملك، وكان معه نافع مولى عمر بن‌الخطّاب... فجاء نافع إلى الإمام وسأله عن هذه الآية، فقال:... وكانت السماوات رتقاً لاتمطر شيئاً، وكانت الأرض رتقاً لاتنبت شيئاً، فلمّا أن تاب الله على آدم أمر السماء فتفطّرت بالغمام ثمّ أمرها فأرخت عزاليها (هي فم المزادة)، ثمّ أمر الأرض فأنبتت الأشجار وأثمرت الثمار وتفتّقت بالأنهار، فكان ذلك رتقها وهذا فتقها.[٣]

وأمّا الرواية عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام فهي نفس الرواية الثانية، رواها القمّي ـ والإسناد إليه مقطوع ـ وأبدَل من نافع بالأبرش الكلبي، فجاء إلى أبي عبدالله عليه‌السلام وسأله عن الآية فقال: هو كما وصف نفسه ـ إلى أن قال: ـ وكانتا مرتوقتين ليس لهما أبواب، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات.[٤]

قال المجلسيّ العظيم: وهذا خلاف ما أُثر عن مولانا أمير المؤمنين عليه‌السلام: أنّ المـراد بالفتق جعل الفُرَج بين كلّ من السماوات والأرض[٥] وسنتعرّض له إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

الثاني ـ وهو المعروف قديماً وحديثاً ـ: أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً أي ذاتي

---

١ ـ لوقوع محمّدبن داود في الطريق.

٢ ـ الكافي، ج ٨، ص ٩٥، رقم ٦٧.

٣ ـ المصدر، ص ١٢٠، رقم ٩٣ وفي نسخ الروضة «وتفهّقت» بدل «وتفتّقت» ولعلّ ما أُثبتناه هو الصحيح.

٤ ـ تفسير القمّي، ج ٢، ص ٧٠.

٥ ـ مرآة العقول، ج ٢٥، ص ٢٣٢ ط حديثة وج ٤، ص ٢٩٤ ط قديمة.

رتق وهو الضمّ والالتحام، أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقة متّحدة، ففتقناهما بالتنويع والتمييز.

قال الرازي: كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين، ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقرّ الأرض. وهو قول قتادة وسعيدبن جبير، ورواية عكرمة عن ابن عبّاس.

ولأبي مسلم الإصفهاني رأي أسدّ، قال: يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار، كقوله تعالى «فاطِرِ السَّماواتِ وَالأرض»...[1] فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق، وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق.[2]

وفي كثير من الآيات إشارة إلى هذا المعنى، منها ما جاء بلفظ «فَطَر»[3] أو «فاطر»[4] فإنّ الفطر وإن كان المراد به الخلق والإبداع لكنّه بعناية فصله إلى الوجود الخاص، بحدوده وأبعاده، بعد أن كان مندكّاً في الوجود الكلّي الشامل، لاميز فيه ولاتحديد.

وهذا كما يفصّل الخيّاط البزّة الواحدة إلى قمصان وأثواب. وكما يفعل الفخّار بالطينة أشكالاً من الآنية والجرار. فالكلّ مندمج في الأصل الواحد، وإنّما يخرجها إلى الوجود فاعلُ الصوَر والأشكال.

* * *

وهذا المعنى هو الذي جاء في كلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال ـ في خلق العالم ـ: ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشقّ الأرجاء، وسكائك الهواء ـ إلى أن قال في خلق الملائكة: ـ ثمّ فتق مابين السماوات العُلىٰ، فملأهنّ أطواراً من ملائكته.[5]

وقال ـ في عجيب صنعة الكون ـ: ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها.[6]

وهذا هو الذي أشارت إليه الآية الكريمة في سورة فصّلت: «ثُمَّ استَوىٰ إِلَى السَّماءِ

---

١ ـ الأنعام ٦: ١٤؛ ويوسف ١٢: ١٠٢؛ وإبراهيم ١٤: ١٠؛ وفاطر ٣٥: ١؛ والزمر ٣٩: ٤٦؛ والشورى ٤٢: ١١.

٢ ـ التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٦٢-١٦٣.

٣ ـ الأنعام ٦: ٧٩؛ والأنبياء ٢١: ٥٦.

٤ ـ في ستّ آيات: الأنعام ٦: ١٤، ويوسف ١٢: ١٠١، وإبراهيم ١٤: ١٠، وفاطر ٣٥: ١، والزمر ٣٩: ٤٦، والشورى ٤٢: ١١.

٥ ـ أُولى خطبة من نهج البلاغة، ص ٤٠-٤١. والسكائك: جمع سكاكة ـ بالضمّ ـ وهي الهواء الملاقي لعنان السماء.

٦ ـ الخطبة رقم ٢١١، ص ٣٢٨.

وَهِيَ دُخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كَرْهاً قالَتا أتَينا طائعين. فقضاهنّ سَبعَ سماوات». [١]

فالدخان ـ وهي المادّة الأُولى لخلق السماوات ـ هو الأصل؛ ومنه تفرّعت السماوات العُلى وخرجت إلى الوجود. وقوله «ائتيا» كناية عن الأمر بالتكوين. «إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكون». [٢]

قوله: «فَقَضاهُنّ سَبعَ سماوات» يدلّ على سبق مادّتهنّ على وجودهنّ، فأفاض عليهنّ الصوَر المائزة بينهنّ.

ويدلّ عليه أيضاً قوله في سورة النازعات: «رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها». [٣] فقد سواهنّ برفع سمكهنّ، كنايةً عن تمدّد جوانبها لتأخذ شكلها الخاص.

❊ ❊ ❊

ولعلّك تقول: هلّا كان قوله تعالى: «وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيّ» عقيب قوله «..كانَتا رَتقاً فَفَتَقْناهُما..» [٤] قرينة راجحة لإرادة المعنى الأول من الآية؟

قلت: مظاهر أربعة من مظاهر الكون جاءت هنا من سورة الأنبياء (الآيات رقم ٣٠-٣٣) مترادفة مع بعضها البعض، تلك آيات عظمته تعالى في الخلق وجليل قدرته في التدبير، كلّ ظاهرة آية برأسها مستقلّة في حقيقتها وفي تكوينها وفي دلالتها على عظمة الكون.

أولاً: رتق السماوات والأرض وفتقهما.

ثانياً: كون الماء منشأ الحياة كلّها.

ثالثاً: جعل الرواسي في الأرض لتحول دون ميدانها.

رابعاً: الغلاف الهوائي جُنّة واقية للأرض عن الخراب وزوال الحياة عن سطحها.

وكلّ واحدة منها آية تدلّ على أنّه واحد، وهم عن آياتها معرضون. وعليه فكما أنّ

---

١ ـ فصّلت ٤١: ١١-١٢.
٢ ـ يس ٣٦: ٨٢.
٣ ـ النازعات ٧٩: ٢٨.
٤ ـ الأنبياء ٢١: ٣٠.

جعل الجبال أوتاداً لامساس له بمسألة الفتق والرتق كذلك جعل الماء منشأ الحياة كلّها، سوى أنّ الجميع آيات ربّ العالمين.

وقد بحثنا عن الآيات الثلاث الأُخرى كلاًّ في مجاله.

❊ ❊ ❊

ونظرة تفرّع الموجودات من أصل واحد فتقاً بعد رتق نظرة قديمة، حدّث بها التوراة في أصل التكوين أيضاً. قال الإمام الرازي ـ في تأويل قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا» ـ: كانت اليهود والنصارى ومن يليهم من المشركين عالمين بذلك، فإنّه جاء في التوراة: إنّ الله تعالى خلق جوهرة، ثمّ نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً، ثمّ خلق السماوات والأرض منها وفتق بينها.[1]

قال الأُستاذ الطنطاوي: لم تظهر هذه العلوم ـ عن أصل السماوات والأرض بهذه الصورة التي كشفت النقاب عن قسم وفير من إعجاز القرآن العلمي ـ إلّا على يد من كفروا بدين الإسلام، والمسلمون لايعلمون إلّا من الفرنجة، فنحن نكتب ذلك عنهم، فصدق الله وجاءت المعجزات القرآنية تترى في عصر العلم.[2]

وقد رجّح سيّدنا الطباطبائي هذا المعنى وقرّبه، قال: لانزال نشاهد انفصال المركّبات الأرضية والجويّة بعضها من بعض، وانفصال أنواع النبات من الأرض، والحيوان من الحيوان، والإنسان من الإنسان. وظهور المنفصل بالانفصال في صوَر جديدة لها آثار وخواصّ جديدة، بعد ما كان متّصلاً بأصله الذي انفصل عنه، غير مميّز الوجود ولاظاهر الأثر ولابارز الحكم، فقد كانت هذه الفعليّات كامنة الوجود في القوّة، مودعة الذوات في المادّة، رتقاً من غير فتق، حتّى فتقت بعد الرتق، وظهرت بفعليّة ذواتها وآثارها.

والسماوات بأجرامها والأرض بجرمها حالهما حال سائر أنواع الموجودات التي لمسنا كينونات وجوداتها بروزاً وانهداماً، والمادة نفس المادّة، والأحكام والقوانين

---

١ ـ التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ١٦٢. وهذه العبارة محذوفة من أول التوراة الحاضرة، وإنّما تبتدئ بما بعد خلق السماوات والأرض. والآية المذكورة ٣٠ من سورة الأنبياء.

٢ ـ تفسير الجواهر، ج ١٠، ص ١٩٩

السائدة على عالم الوجود سفلاً وعلوّاً لاتختلف ولاتتخلّف. فتكرّر المواليد في المتناول المشهود يدلّنا على وقوع مثلها في الأجواء المتباعدة. وأنّ الجميع كانت يوماً رتقاً منضمّة بعضها إلى بعض، ولم يكن ميّز بين السماء والأرض، ففتقها الله بتدبير وإحكام، ليظهر ما بكلٍّ من فعلية وآثار.

وقد قرّبت الأبحاث العلمية الحديثة هذه النظرة، حيث أوضحت أنّ الأجرام الواقعة تحت الحسّ مؤلّفة من عناصر معدودة مشتركة، ولكلّ منها بقاء محدود وعمر مؤجّل وإن اختلفت بالطول والقصر.

هذا وأمّا إرادة الإمطار والإنبات من الرتق بعد الفتق، فهذا يخصّص البرهان على ذاته المقدّسة بهاتين الظاهرتين فحسب، بخلاف البرهان على التقريب الأول.[١]

❊ ❊ ❊

وتقول النظرة الحديثة: إنّ الكون في أصله سَديم، جَمعُه سُدُم.[٢] والسديم يُشبه سحابة من غاز وغبار، وأصحّ تعبير عنه ما جاء في القرآن: الدُخان. وقد يقع في أوسط السديم نجوم تشعّ فيه فتنيره، وتعرف هذه بالسُدُم النيّرة. ومن السُدم «المعتم» ذلك أنّها تتألّف من غبار رقيق دقيق، صغرت حبّاته حتّى بلغت قدر موجات الضوء.

والسديم يغلب فيه الغاز فيكون نيّراً، ويغلب فيه الغبار فيكون مُعتماً.

والسُدُم من نيّرة ومعتمة، ليس الذي بها من غاز وغبار إلّا ما تبقّى من خلق النجوم. إنّ نظرية الخلق تقول: إنّ المجرّة كانت من غاز وغبار. ومن هذين تكوّنت النجوم بالتكثّف، وبقيت لها بقية. ومن هذه البقية كانت السُدُم المعتمة التي نرى مئات منها في المجرّة، نراها سوداء لأنّها حجبت ما وراءها من نجوم مضيئة.

---

١ ـ الميزان، ج ١٤، ص ٣٠٣-٣٠٤.

٢ ـ والسديم: أصله الضَّباب أو الرقيق منه، واستعير للمادّة الغازية الغبارية التي تكوّنت منها الأجرام السماوية. ويطلق عليها اسم «الأثير» وهو لفظ معرّب من أصل يوناني، يدلّ في مصطلح العلم القديم على مادّة الأجرام السماوية. وقد كان المعتقد أنّها مادّة لطيفة للغاية لاتكوّن ولاتفسد. وسُمّي بالعنصر الخامس، تمييزاً له من العناصر الأربعة الخاضعة للكون والفساد. راجع: «المصطلحات العلمية والفنية» ملحق لسان العرب، ج ١، ص ٣٤٦.

قال الدكتور أحمد زكي: ونظر العلماء في: كيف تكوّنت مجموعتنا الشمسية؟ وخرجوا بنظريات عدّة.

ومن أقدم هذه النظريات نظرية الفيلسوف الألماني «عمانويل كنت» عام ١٧٥٥م. قال: إنّ المجموعة الشمسية كانت سديماً، كانت ضباباً من غازات وعناصر، بعضها الثقيل وبعضها الخفيف. وينتج عمّا بينها من اختلاف أن تنحدر العناصر الأثقل إلى أواسط السديم، ويعارض ذلك رغبة الغازات في التمدّد. وينتج عن هذا دوران جانبي، فيأخذ السديم يدور دوران الرحى. وفي القلب تتولّد الشمس، ومن حولها من مادّة السديم تتولّد الكواكب.

نظرية لها أخطاء علمية ظاهرة، يضيق المقام عن إيرادها.

ويأتي العالم الفرنسي «لابلاس» بنظريته عام ١٧٩٦م، وهو يبنيّها على نظرية «كنت» ويقول: إنّ أصل المجموعة الشمسية سديم، ولكنّه نشأ وهو يدور كالرحى. وهو لم يتعرّض لـ: كيف أنّ هذا السديم يدور؟ وينكمش السديم الدائر. ومعنى هذا سرعة تحدث في دورانه. فبهذا يقضي علم الحركة. ثمّ هو يزداد سرعةً ودوراناً، حتى تتكوّن قوّة طاردة تطرد أجزاء منه عن مركز الدوران، فتطير عن السديم أجزاء، تظلّ دائرة، فهذه هي الكواكب.

نظرية بها إغراء وبها إقناع ظاهران، ولكنّها لاتصمد للنقد ولاتصمد للحساب، إنّها إن شاقت وصفاً وصمدت وصفاً وكيفاً لم تصمد تقديراً ولم تصمد كمّاً.

وينتهي العلماء إلى أنّ الصعوبة في هذه النظريات وأمثالها أنّها تحاول إنتاج الحركة الدوّارة من السديم نفسه، فتخرج النتائج غير مرضية، وتخرج لاتتّفق وحال الكواكب الجارية. وجب إذاً أن يهدف العلماء إلى نظرية تأتي فيها قوّة الدوران من الخارج.

فزعموا أنّ نجماً يقترب من نجم، وكلاهما مائع، فكلاهما من غاز. ويجذب النجمان أحدهما الآخر، فتخرج من النجم الواحد انبعاجات يتحكّم في حركتها النجم الثاني وهو يمرّ. والانبعاجة يتغيّر موضعها من النجم الأول الذي هي منه تبعاً لموضع النجم الثاني

العابر. فلو أنّ هذا النجم اقترب اقتراباً كافياً من النجم الأول لسلخ منه هذه الانبعاجة التي تدور مع دورانه. وهي إذا انسلخت فإمّا أن تلحق بهذا النجم الثاني الذي هو لاشكّ أعظم النجمين. أو يكون هذا النجم الثاني قد فات سريعاً، ففقد فعله في القطعة المنسلخة، فتغلب عليها وفعلت فيها جاذبية النجم الأول فأخذت تدور حوله، ثمّ هي تتقطّع قطعاً هي الكواكب.

ونظرية أُخرى تقول: إنّ النجم إذا اقترب من نجم اصطدم به اصطداماً، فتقطع أحدهما، وبردت القِطَع ودارت فكانت النجوم.

وغير هذه النظرية ثالثة فرابعة، وكلّها تنبئ على اقتراب نجم من نجم.

فإن صحّت هذه النظريات، فكم من مجموعة شمسية تحتمل أن تكون من جرّاء هذا؟

عدد غير كبير لاشكّ في هذا. والسبب في هذه القلّة هو قلّة احتمال اقتراب نجم من نجم. ذلك لأنّ النجوم متباعدة في الفضاء تباعداً كبيراً. إنّ أقرب نجم للشمس يبعد عنها ٢٥مليون مليون ميل. إنّ الفضاء الكوني شيء هائل، ودرجة الاحتمال يحسبها الحاسبون، وحسبها «السيرجيمس جينز» فوجد أنّ إصدام نجم معيّن بنجم آخر يحتمل مرّة واحدة في كلّ ٦٠٠/٠٠٠ مليون مليون عام، واحتمال اقتراب نجم معيّن من نجم آخر يزيد على ذلك قليلاً.

ومن جانب آخر تتراءى لنا نظرية في تكوّن هذا الكون كلّه، بشموسه ونجومه. إنّ هذه النظرية تقول: إنّ الكون كلّه كان ذرّة واحدة هائلة ثمّ انفجرت، ومن انفجارها تكوّنت النجوم، والنجوم أخذت تتباعد، والكون لايزال يتّسع إلى اليوم وتتباعد نجومه.

فإن صحّ ذلك فالنجوم كانت في زمنٍ مّا قريباً بعضُها من بعض. فاحتمال تصادمها وتقاربها كان عند ذلك احتمالٌ كبير. وإذاً فاحتمال تكوّن المجموعات الشمسية احتمال كبير.[1]

---

١ ـ مع الله في السماء، ص ١٩١ وص ٢١٢-٢١٥. وراجع: مباني نجوم، ص ٢٩٠.

يقول الطنطاوي: هذه الآية من المعجزات، لأنّ هذا العلم لم يُعرف عند العرب ولا عند الأُمم المعاصرين لهم، وإنّما عرف في عصرنا الحاضر. فعليَّ أن أُعلن وأقول لهم: إنّ هذه معجزة واضحة في القرآن، فإنّ الله قد استدلّ بحسن صنعه وإتقانه على تفرّده بالقدرة والحكمة، إذ جعل الحرارة سبباً في حركات تلك العوالم التي كانت ناراً محترقة، ثمّ بواسطة هذه الدورات أزماناً برد ظاهر الشمس فانفصلت منه الأرض وغيرها من السيارات، وأرضنا منها، وكان هذا الحساب المدهش في سيرها والخلق البديع على ظهرها وإتقان كلّ شيء عليها. هكذا كان ذكره في القرآن مع جهل المسلمين وغير المسلمين من فُرس وروم وأُمم أُخرى بهذه النظرية التي لم تكن إلّا حديثاً معجزة مدهشة، فإنّ أهل أُوروبا وهم الكافرون بنبيّنا محمّدﷺ عرفوا هذا الرأي، عرفوا ذلك بعقولهم، فالعقل البشري مستعدّ لمعرفة هذا من اتّباع الأسباب ومن درس العجائب في هذا الكون.[1]

* * *

هذا، وقد استسلم الشيخ الطنطاوي للنظرة الحديثة عن أصل الخلقة، وحاول التوفيق بينها وبين النصّ القرآني محاولة ظاهرها البتّ والقطع من الأمر.

لكنّا نقول ـ كما يقول سيّد قطب وقد أسلفنا شطراً من كلامه في صدر هذا الحقل ـ: ونحن لانحاول أن نحمل النصّ القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تُقبل اليوم وقد تُرفض غداً، لذلك لانحاول أن نوفّق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمّى علمية، وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة، كتمدّد المعادن بالحرارة وتحوّل الماء بخاراً وتجمّده بالبرودة، ونحو ذلك، وهي شيء آخر غير النظريات العلمية.

إنّ القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علماً تجريبياً كذلك، إنّما هو منهج للحياة كلّها، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده، دون أن يدخل في

---

١ ـ تفسير الجواهر، ج ١٠، ص ١٩٨.

جزئيات وتفصيليات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه في حدوده المضروبة.

نعم، قد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقرّرها هنا: «أَنَّ السَّماواتِ وَالأَرْضَ كانَتا رَتقاً فَفَتَقْناهُما».[١] ونحن نستيقين هذه الحقيقة لمجرّد ورودها في القرآن، وإن كنّا لانعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض. ونتقبّل النظريات الفلكية التي لاتخالف هذه الحقيقة المجملة التي قرّرها القرآن، ولكنّا لانجري بالنصّ القرآني وراء أيّة نظرية فلكية، ولانطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة. وقصارى مايقال: إنّ النظريات الفلكية القائمة اليوم لاتعارض المفهوم الإجمالي لهذا النصّ القرآني، السابق عليها بأجيال.[٢]

❊ ❊ ❊

وجاء في كتاب «مباني علم النجوم»: إنّ النجوم والكواكب السيّارة العظام إنّما وجدت على أثر تكاثف الغازات والغبارات الموجودة في الفضاء، وذلك بسبب التجاذب بين ذرّاتها. ولمّا كانت القوّة الجاذبة إنّما تنبعث من مراكز الأجسام وبذلك يحصل الانجذاب إليها، ومن ثمّ فإنّ الموجودات السماوية (المتحصّلة من تكاثف الغاز والغبار) تتقلّص وتنكمش نحو مراكزها، وبذلك تتكوّن كريّة الشكل بطبعها، إلّا إذا كانت المادّة المتكاثفة في حالة الدوران حول المركز، ففي هذه الحالة يحصل نوع تفرطح في طرفي محورها (القطبين) كما هو المشاهد في كرة الأرض وكذا في المشتري، المفرطحتين في جانبي قطبيهما قليلاً.[٣]

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٣٠.

٢ ـ في ظلال القرآن، المجلّد ٥، ص ٥٣٠ وراجع أيضاً المجلّد ٧ منه ص ٢٢٤-٢٣٠.

٣ ـ مباني نجوم تأليف الأساتذة: استروو، ليندز، پيلانز. ترجمة الدكتور زمرّديان والدكتور حاجبي. من نشرة جامعة طهران رقم ١٧٠٥ الطبعة الثانية لسنة ١٣٦٤هـ ش، ص ٩ فما بعد.

ترغيب بليغ على الحركة العلميّة ـ الحضاريّة

ونبذ دواعي الكسل والخمول

«فَاسْتَبِقوا الخَيْراتِ»[١]

هنا سؤال لابدّ من التنبّه له، وهو: أنّ الآية[٢] في ظاهر تعبيرها، خطاب مع مشركي العرب، وهم يومذاك لايعرفون شيئاً عن مسائل التكوين ولا عن مبدأ هذا الكون الفسيح، فكيف جاز مجابهتهم بمثل هذا الاستنكار اللّاذع: «أَوَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَروا...؟!».. في حين أنّ استنكاراً هكذا إلى من كان من شأنه النظر، لكنّه تقاعس ولم ينظر، لا الذي لايعرف شيئاً على الإطلاق!

غير أنّ مثل هكذا توبيخ أو استنكار إنّما توجّه نحو ذاك التكاسل الفاضح والتقاعس عن القيام والحركة مع ركب الحضارة وعن مواكبة سائر الأُمم المتحضّرة السائرة إلى الأمام، والتي ازدهرت بها الحياة ولا تزال تزخر بها. ما عدا تلك الرقعة من الأرض حينذاك. «قالوا... فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا هاهُنا قاعِدون».[٣] هكذا كان منطق الجزيرة المتوغّلة في الجهل والخمود.

---

١ ـ البقرة ٢: ١٤٨.

٢ ـ التي تصدّرت المقال وكانت تشنيعاً على الذين تكاسلوا عن التدبّر في ظاهرة الرتق والفتق (الأنبياء ٢١: ٣٠).

٣ ـ المائدة ٥: ٢٤.

جاء القرآن ليأخذ بأيديهم ويُشيلهم إلى حيث مستوى الحضارة الراقية وليكونوا روّاد الأُمم في الاتّجاه نحو معالم السعادة في الحياة.

فلم يكن ذاك التوبيخ إلّا تمهيداً لتواجد هذه النهضة المباركة: «وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ اُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ عَلَى النّاس».[١]

«قُلْ إنَّما أعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ: أنْ تَقوموا لله مَثْنىٰ وَفُرادىٰ، ثُمَّ تَتَفَكَّروا...».[٢]

حثّ على القيام، جُماعيّاً وفرادىٰ. ليأخذوا في التفكير والتدبّر في معالم الحياة، سعياً وراء الوصول إلى مكارمها والنيل من فضائلها وفواضلها.

«فَلْيَنْظُرِ الْإنْسانُ إلى طَعامِهِ...».[٣]

«فَلْيَنْظُرِ الْإنْسانُ مِمَّ خُلِق...».[٤]

«أوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكوتِ السَّماواتِ وَالْأرْض...».[٥]

«أفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنّاها...».[٦]

❊ ❊ ❊

«قُلْ سيروا في الأرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...».[٧]

وهذا حثّ على الرحلة في طلب العلم ـ وكم للعلماء رحلات في اكتساب العلوم والمعارف ـ فيتزوّدوا ـ في مسيرتهم في مختلف صفحات الأرض ـ الكثير من المعارف، فيزدادوا علماً ومعرفة بأسرار الخليقة وحقائق الملكوت. «وَيَتَفَكَّرونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ...».[٨]

«أفَلَم يَسيروا في الْأرْضِ فَتَكونَ لَهُمْ قُلوبٌ يَعْقِلونَ بِها...».[٩]

«أوَلَمْ يَسيروا في الْأرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كانوا أشَدَّ مِنْهُمْ

---

١ ـ البقرة ٢: ١٤٣.
٢ ـ سبأ ٣٤: ٤٦.
٣ ـ عبس ٨٠: ٢٤.
٤ ـ الطارق ٨٦: ٥.
٥ ـ الأعراف ٧: ١٨٥.
٦ ـ ق ٥٠: ٦.
٧ ـ العنكبوت ٢٩: ٢٠.
٨ ـ آل عمران ٣: ١٩١.
٩ ـ الحج ٢٢: ٤٦.

قُوَّةً وَأثاروا الْأَرْضَ وَعَمَروها أَكْثَرَ مِمّا عَمَروها...».[١] «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ...».[٢] «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفيل...».[٣]

وهذا تنديد بتأخّرهم عن سائر الأُمم في تشييد الحضارة الإنسانيّة العليا.

* * *

وهكذا جاء التنديد بتقاعسهم عن النهضة العلميّة الحركيّة وراء الوقوف على أسرار الخليقة ومعرفة أسباب الوجود.

قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى...».[٤]

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ الله الّذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً...».[٥]

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها...».[٦]

«أَفَلا يَرَوْنَ أَنّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها، أَفَهُمُ الْغالِبون...».[٧]

والأرض هنا، هي المعمورة منها. ونقصها: خرابها: بنفاد أهلها ولا سيّما بموت العلماء. كما في الحديث.

وهذا بدء تذكيرهم بالتفكّر في ملكوت السّماوات والأرض. وشيئاً فشيئاً أخذ في الصعود على مدارج التفكير درجة درجة حتّى بلوغ قمّة المعرفة والكمال:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...».[٨]

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ وَمَنْ في الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...».[٩]

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صافّات...».[١٠]

---

١ ـ الروم ٣٠: ٩.
٢ ـ الفجر ٨٩: ٦.
٣ ـ الفيل ١٠٥: ١.
٤ ـ الأحقاف ٤٦: ٣٣.
٥ ـ فصّلت ٤١: ١٥.
٦ ـ الرعد ١٣: ٤١.
٧ ـ الأنبياء ٢١: ٤٤.
٨ ـ إبراهيم ١٤: ١٩.
٩ ـ الحج ٢٢: ١٨.
١٠ ـ النور ٢٤: ٤١.

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً...».[١]
«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَيولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ...».[٢]
«أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً...».[٣]

❊ ❊ ❊

وهنا يرتقي صُعُداً إلى معرفة الدقائق من أسرار الوجود:
«أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً...».[٤]
وآيتنا المبحوث عنها من هذا القبيل: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَروا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما...».[٥]

إذ كما أنّ العرب لو كانوا بقوا على حالتهم الأُولى (الأُمّيّة المحضة) لما كان باستطاعتهم معرفة أطباق السماء. وهكذا جانب تفكيك أطباقها وتفصيل أجوائها. لو انتقضوا من غفوتهم ونبذوا الجهل والخمول، لاستطاعوا الحصول على معرفة الأسرار وخبايا طبائع الأشياء. إن علواً أو سفلاً.

❊ ❊ ❊

وهذا على ملامة المشركين: أنّهم لايؤتون الزكاة في حين أنّ الزكاة فرض على المسلمين بعد الايمان. لكنّهم لقعودهم عن اعتناق الإسلام، أوجبوا لأنفسهم الحرمان عن بركات فرائض الإسلام.
قال تعالى: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكينَ الَّذينَ لايُؤْتونَ الزَّكاةَ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرونَ».[٦]
ويل لهم، قد جلبوا لأنفسهم خسارة الحرمان عن الربح العظيم.
فيالها من خسارة كانوا هم السبب في جلبها مغبّة تكاسلهم وتقاعدهم عن اللحوق بركب السعداء الفائزين.

---

١ ـ النور ٢٤: ٤٣.
٢ ـ لقمان ٣١: ٢٩.
٣ ـ الفرقان ٢٥: ٤٥.
٤ ـ نوح ٧١: ١٥.
٥ ـ الأنبياء ٢١: ٣٠.
٦ ـ فصّلت ٤١: ٦-٧.

السُحب

تكوينها، تنويعها

«ويُنشِئُ السَّحابَ الثِّقال».[١]

مصطلحات علمية وُضعت وفق تعابير القرآن

قال الدكتور محمّد جمال‌الدين الفندي: ذكر القرآن أنّ الرياح ـ ومنها الهواء الصاعد ـ هي التي تثير السحاب وتكوّنه. والقرآن حسب علمنا أول كتاب يقرّر تلك الحقيقة.[٢]

أمّا تكوين السُحب، فإنّها تتكوّن بتبريد الهواء تحت درجة الندى، فتقلّ قدرته على حمل بخار الماء، ويتحوّل هذا الأخير إلى نقط من الماء أو إلى بلّورات من الثلج، تبعاً لدرجة الحرارة السائدة.

ويتمّ تبريد الهواء في الطبيعة بعدّة طرق:

١ ـ التبريد الذاتي، أي تبريد الهواء بمجرّد انتشاره وتقليل الضغط الواقع عليه، ويحدث ذلك عندما يصعد الهواء إلى طبقات عُليا من الجوّ يقلّ فيها الضغط، فينتشر ويبرد وتقلّ قدرته على حمل بخار الماء. ويتكاثف هذا الأخير إلى نقطة من الماء، أو إلى بلّورة

---

١ ـ الرعد ١٣: ١٢.

٢ ـ الله والكون، ص ١٧٣.

من الثلج.

وتلعب هذه العملية أهمّ دور في تكوين السُحب ونزول الأمطار. إذ معدّل التبريد في الهواء الصاعد هو درجة سنتجراد لكلّ ١٠٠مترٍ إذا لم يحدث التكاثف ٦٥٪ درجة إذا حدث التكاثف.

٢ ـ التبريد بالإشعاع الحراري أثناء الليل، وهو يولّد الضباب والشابورة وبعض السحب الطبقية أو البساطية المنخفضة.

٣ ـ التبريد بالمزج، يعني خلط هواء ساخن رطب بآخر بارد جافّ، بحيث تكون درجة حرارة الخليط تحت نقطة الندى. فيتمّ التكاثف على هيأة ضباب، كما هو الحال عند اختلاط كتل هواء تيّار الخليج الدافئ في شمال المحيط الأطلسي، ممّا جعل البحّارة يطلقون عليه اسم «بحر الظُلمات» وتَصوّروه مأوى الأشباح ومثوى الأرواح.

التقسيم الطبيعي للسُحب

السحب إمّا أن تنمو رأسيّاً وتشمخ كالجبال، وعندئذٍ تسمّى «ركامية». وإمّا أن تنمو أُفقياً وتمتدّ كالبساط، وعندئذٍ تسمّى «بساطية» أو«طبقية».

ويفرّق القرآن بين النوعين، فيسمّى النوع الأوّل ركامياً، والثاني بساطياً. فممّا جاءت الإشارة فيه إلى النوع الأول قوله تعالى: «**أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَينَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِه وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِن جِبالٍ فيها مِن بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَن يَشاءُ وَيَصرِفُهُ عَمَّن يَشاء**».[1]

وجاءت الإشارة إلى النوع الثاني في قوله تعالى: «**اللهُ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ فَتُثيرُ سَحاباً فَيَبسُطُهُ في السَّماءِ كَيفَ يَشاء**».[2]

والسحاب الممطر لايعدو النوعين. والعرب تسمّي السحاب الممطر باسم «المزن».

---

١ ـ النور ٢٤: ٤٣.

٢ ـ الروم ٣٠: ٤٨.

ولذلك فمن الوجهة العلمية هناك المزن الركامي والمزن البساطي (الطبقي). قال تـعالى: «أفَرأيتُمُ المْاءَ الَّذي تَشرَبُون. أأنْتُمْ أنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزنِ أم نَحْنُ المُنزِلُون».[١]

السُحب الركامية

والسُحب الركامية هي النوع الأهمّ من السُحب، لأنّها قد تمتدّ عمودياً (رأسياً) عبر (١٥) أو (٢٠) كيلومتراً، فتصل إلى طبقات من الجوّ باردة جـدّاً تـنخفض فـيها درجـة الحرارة إلى (٦٠) أو (٧٠) درجة مئوية تحت الصفر.

وبذلك يتكوّن «البَرَد» في أعالي تلك السحب. والمعروف علمياً أنّ نموّ البرد فـي أعالي السُحب الركامية يعطي انفصال شحنات أو طاقات كهربائية سالبة، وأنّـه عـندما يتساقط داخل السحابة ويصل في قاعدتها إلى طبقات مرتفعة الحرارة فوق الصفر يذوب ذلك البَرَد أو يتميّع ويعطي انفصال شحنات كهربائية موجبة. وعندما لايقوى الهواء على عزل الشحنة السالبة العليا عن الشحنة الموجبة في أسفل يحدث التفريغ الكهربائي على هيأة برق. وينجم عن النسخين الشديد المفاجئ الذي يحدثه البرق أن يتمدّد الهواء فجأةً ويتمزّق مُحدثاً الرعد. وما جلجلة الرعد إلّا عملية طبيعية بسبب سلسلة الانـعكاسات التي تحدث من قواعد السُحب لصوت الرعد الأصلي.

وقد يحدث في بعض العواصف أن يتكرّر حدوث البرق داخل السحابة ٤٠ مرّة في الدقيقة الواحدة. أمّا إذا حدث التفريغ الكهربائي بين السحابة وأيّ جسم مرتفع على سطح الأرض فإنّه يسمّى «صاعقة».

وتحدث عواصف الرعد في كافّة أرجاء الأرض ما عدا المـناطق القـطبية، حـيث ضئالة حجم الهواء بالنسبة إلى خطّ الاستواء.

وقد وجد بالحساب أنّ عدد عواصف الرعد التي تحدث في جوّ الأرض في يـوم

---

١ ـ الواقعة ٥٦: ٦٨-٦٩.

واحد يبلغ أكثر من ٤٠ ألفاً، أي بمتوسّط قدره ١٨٠٠ عاصفة في الساعة. وتستهلك العاصفة في المتوسط نحو (٢/٢) مليون كيلووات ساعة.[١]

التبخّر والإشباع والتكاثف

عوامل ثلاثة لنزول المطر

«أَلَمَ تَرَ أنّ الله يُزجي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلَهُ رُكاماً فَتَرى الوَدْقَ يَخرُجُ مِنْ خِلالِه».[٢]

لحصول المطر عوامل ثلاثة لاغيرها، إذا توفّرت لابدّ من نزول المطر، وإذا نقص عامل منها فلا إمكان لحصوله، وتلك العوامل هي:

١ ـ التبخّر، وهو عملية تحوّل ذرّات الماء إلى البخار، ليؤدّي إلى تكوين سحاب.

٢ ـ وصول الهواء المتحمّل للبخار إلى درجة الإشباع المختلف حسب المناخ.

٣ ـ التكاثف، وهو ضدّ عملية التبخّر، ليتحوّل البخار إلى ذرّات الماء.

وهذا الترتيب على التعاقب ممّا لامحيص عنه لتكوين المطر ونزوله، وهو من بديهيّات العلم المقطوع به والمفروغ عنه بلا ريب. وإليك شرح هذه العوامل باختصار:

(أولاً) التبخّر، وهو عملية تحوّل ذرّات الماء إلى البخار، وانتقاله إلى الهواء، وذلك بتأثير حرارة الشمس على السطوح المائية المتوسّعة، كالمحيطات والبحار والبحيرات والمستنقعات والأنهار، بل وحتّى السطوح الثلجية والجليدية، بل وحتّى على أوراق الأشجار والنباتات وخاصّة الغابات.

(ثانياً) الإشباع، وهو استمرار التبخّر حتى يبلغ حدّاً معيّناً، ويسمّى بدرجة التشبّع، وتختلف حسب اختلاف المناخ. فكلّما اختلفت درجة الحرارة اختلفت درجة التشبّع اللازمة لتكوين الأمطار. فالهواء الحارّ في درجة التشبّع يحوي مقداراً من البخار أعظم ممّا يمكن أن يحويه الهواء البارد. فكميّة الرطوبة التي تكفي للتشبّع في درجة ١٥م مثلاً

---

١ ـ الله والكون، ص ١٦١-١٤٦.

٢ ـ النور ٢٤: ٤٣.

لاتكفي للتشبّع في درجة ٢٠م. وإذا كان الهواء متشبّعاً قيل: إنّ نسبة رطوبته ١٠٠٪.

وبعبارة أوضح: إنّه حيثما وجد الماء والهواء فإنّه يحدث تبادلٌ بين جُزيئات أحدهما مع الآخر، فتمرّ جزيئات الماء عن طريق التبخّر إلى الهواء، كما تمرّ جزيئات الهواء إلى الماء. ولذلك يوجد دائماً مقدار من بخار الماء في الهواء، كما يوجد مقدار من الهواء في الماء.

وإذا كان مقدار البخار الذي هو الهواء قليلاً فإنّ الجزيئات البخارية التي تتصاعد من الماء تكون أكثر من جزيئات الهواء التي تمرّ إلى الماء، وعلى ذلك فإنّ عـملية التـبخّر تستمرّ. ولكن إذا كان مقدار ما في الهواء من البخار كثيراً فإنّ تبادل الجزيئات بين الماء والهواء يكون متساوياً، وفي هذه الحالة يقال: إنّ الهواء متشبّع بالبخار المائي، أو إنّه في درجة الإشباع، أي لا يستطيع أن يحمل أكثر ممّا هو معلّق به من البخار.

فدرجة الإشباع تتوقّف على التساوي والتعادل في تبادل جزيئات الماء والهـواء والتآلف بينهما.

ومن ناحية أُخرى ـ ذات أهمّية كبرى ـ أنّ درجة التشبّع تـتوقّف عـلى ظـاهرتين طبيعيّتين اُخريين، لابدّ منهما في وصول الهواء إلى حالة الإشباع الكافي:

الظاهرة الأُولى: هي التساوي في الضغط، فلبخار الماء المتصاعد ضغط كما لبخار الهواء المتشبّع ضغط، فإذا تساوى الضغطان فالتبخّر والتكاثف يتعادلان، وفي هذه الحالة يقال: إنّ الهواء مشبّع بالبخار الكافي. والمطر نتيجة لازمة لهذا التعادل.

والظاهرة الثانية: هي اتّحاد الكهربائيّتين، فإنّ السُحب ذوات تكهربٍ، وكلّ سحاب يحمل نوعاً من نوعي الكهرباء السالبة والموجبة، فإذا ما تقارنت السُحب واختلف نوع الكهرباء فيها تجاذبت، وإلّا تنافرت، شأن الكهرباء عموماً يتجاذب نوعان منه ويتنافران من النوع الواحد.

واجتماع السُحب وتأليف بعضها مع بعض إنّما هو بفعل الرياح، تثير السُحب مـن

مكان إلى مكان، فإذا جمعت الرياح بين نوعين من الكهربائية ذوات الموجبة وذوات السالبة فعند ذلك تتجاذب بعضها إلى بعض وتتقارب وتتآلف، وبذلك يحصل اللقاح الناتج للإمطار. «وَأرسَلنا الرّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنين».[١]

ياترى من ذا كان يعرف هذه الظاهرة الطبيعية يومذاك؟! أن تقوم الرياح الباردة فتثير سحاباً، وهي تدفع السحب المكهربة إلى لقاء بعضها مع بعض، وتلقى بالسحابة السالبة التكهرب بين أذرع سحابة أُخرى موجبة التكهرب، وبذلك يحدث عملية اللقاح. الناتجة للبرق والرعد ونزول المطر الغزير، فيخصب الأرض ويمهّدها للإنبات، وهي عملية أُخرى للّقاح في التربة الصالحة، بين الماء والأرض.[٢]

(ثالثاً) التكاثف، وهو عكس عملية التبخّر، ليتحوّل بخار الماء من الحالة الغازية إلى حالة السيلان، فتنقلب ذرّات البخار إلى قطرات مائية دقيقة، إذا كانت درجة الحرارة فوق الصفر المئوي، أو حالة جليدية بَرَداً أو ثلجاً، إذا كانت درجة الحرارة تحت الصفر، الأمر الذي يعجز الهواء عن حمله، فتتساقط القطرات مطراً.

وهذا التكاثف إنّما يحدث إذا ما تصاعد الهواء المتشبّع ببخار الماء في طبقات جوّية ذات الضغط الأعظم، فبأثر الضغط العالي يتمدّد الهواء ويفقد جزءً كبيراً من حرارته، وبذلك يبرد وتنخفض درجة حرارته، درجةً واحدةً مئويّةً كلّما ارتفع ١٧٠ متراً.

غير أنّ هذه النسبة تطّرد حتّى ارتفاع ٥ كيلومترات عن سطح البحر. وبعده تتغيّر هذه

---

١ ـ الحجر ١٥: ٢٢.

٢ ـ فيكون تلقيح من نوع ثالث هذه المرّة. تلقيح بالمعنى الحرفي للآية الكريمة.

فنحن أمام كلمة صادقة مجازاً كما حمله المفسّرون القدامى، وصادقة حرفياً كما أثبته العلم متأخّراً. وعلى أيّ صورة قلّبتها فهي تصدق معك، وهي بعدُ كلمة جديدة وغريبة، وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح!

وهي بعدُ من الناحية الجمالية الإيقاعية ذروة، وفي النطق بها عذبة: «وأرسلنا الرياح لواقح» تنطقها وتلوكها في فمك، فتستوقف السمع وتطرب الأذن.

وكلّ هذا! العلم التفصيلي في تكهرب السحاب وانتقال حبوب اللقاح لم يكن معلوماً أيّام نزول الآية، فتدبّر.

النسبة، فتأخذ بالنقص باعتبار درجة واحدة مئويّة لكلّ ١٠٠ متراً ارتفاعاً. وتستمرّ هذه النسبة إلى ارتفاع ١٢كيلومتراً حيث توجد طبقة هوائية ثابتة الحرارة، تبلغ درجة حرارتها ٥٥ درجة مئويّة تحت الصفر.

والسُحب تنعقد على ارتفاعات لاتزيد على ٦أو ٧كيلومترات عن سطح البحر في الأغلب.

وعملية التبريد هذه بالتمدّد هي إحدى العوامل الفعّالة في إحداث التكاثف.

وكذلك يبرد الهواء بشعّ حرارته كلّما لامَس جسماً بارداً في الجوّ أو على سطح الأرض مثل الثلج والجليد، أو إذا تقابل مع هواء أبرد. والشعّ ذو أثر فعّال في تبريد الهواء وتكاثفه، وخاصّة إذا هبّت الرياح من جهة حارّة إلى جهة باردة.

وفي الحقيقة ليس الهواء هو الذي يبرد بهذه الطريقة، ولكنّه «الهباء» الكثير المنتشر في الهواء، فيتّخذ البخار لنفسه مراكز من هذا الهباء، يلتفّ حولها، ويتكوّن حول كلّ مركز قطرة، فإذا اشتدّت برودة الجوّ الملبّد بالسحب استمرّ التكاثف، فتنضمّ قطرات السحب المائية إلى بعضها، فيعجز الهواء عن حملها، فتتساقط أمطاراً على سطح الأرض بفعل جاذبيّتها.

❊ ❊ ❊

فقد تبيّن أنّ المطر لايحصل إلّا إذا توفّرت الشرائط الثلاثة متعاقبة: التبخّر فالتشبّع فالتكاثُف.

وهذا هو الذي دلّت عليه الآية الكريمة المنوَّه عنها في صدر المقال، فقد جاءت بوصف موجز مدهش، ومحيّر للعقول.

❊ عبّرت أولاً بقوله تعالى: **«يُزجي سحاباً»** إشارة إلى عملية التبخير وتكوين السُحب. والإزجاء هو عملية إثارة السُحب وانتشالها بصورة أبخرة من البخار. **«اللهُ الذي يُرسِلُ الرياحَ فتُثيرُ سَحاباً...»**[1] لأنّ الرياح بهبوبها على سطح البحار هي

---

١ ـ الروم ٣٠: ٤٨.

التي تسبّب التبخير والتدافع بها لتتصاعد وتتكاثف وتتكوّن سحباً.

* ثمّ عبّرت عن عملية التشبّع بقوله تعالى: «ثُمَّ يؤلِّف بَينَهُ» لأنّ درجة الإشباع الكافي إنّما تتوقّف على حصول التعادل وتساوي تبادل الجزَيئات بين الماء والهواء.

وما هذا إلّا التآلف والتعاضد بين تلك الجُزَيئات.

ومن ناحية أُخرى، لايحصل التشبّع إلّا بالتعادل والتآلف بين ضغطي بخار الماء وبخار الهواء. أو الاتّحاد بين نوعي الكهربائية كما سبق بيانه.

وعليه فإنّ أصدق تعبير عن هذه الظاهرة هو وصف التأليف، الذي جاء وصفه في العلم بالتشبّع.

* ثمّ جاءت بقوله تعالى: «ثُمَّ يَجعلُه رُكاماً». وهذا أبلغ تعبير عن عملية التكاثف الذي حقّقه العلم، إذ لاتفسير للركام سوى التكاثف وتراكم بعض الشيء على البعض مع ضغطٍ. يُقال: تراكَم الشيء أي اجتمع بعضه مع بعض بكثرة وازدحام. والركام: المتراكم بعضه فوق بعض بضغط.

وبعد، فإذا ما تحقّقت الشرائط الثلاثة فعند ذلك: «فترى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِلالِه» الودق: المطر.

* وقد فصل تعالى بين العمليات الثلاث بـ«ثُمَّ» لأنّ كلّ عملية إنّما تحصل بتعاقب مع فترة. أمّا النتيجة ـ وهو الإمطار ـ فجاءت بالفاء: تعاقباً بلاتأخير، وهو الفور في حصول نتيجة عملية الإمطار.

فياله من دقيق تعبير، وسبحانه من عليم خبير!

الماء الأُجاج

«لَو نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً».

هل في سنن الكون أن يتحوّل ماء المطر ـ الذي هو أنقى المياه وأعذبها ـ إلى ماء أُجاج لايستساغ شربه ولايطيب طعمه؟

الآية قبلها تنصّ على أنّ الماء الذي يشربه الناس والدوابّ ـ وحتّى الذي يسقى به الزرع والنبات ـ هو الماء النازل من السماء: «أفَرَأيتُمُ المْاءَ الّذي تَشرَبُون. أأنْتمْ أنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزنِ[1] أم نَحنُ المُنزِلُونَ. لَو نَشاءُ جَعَلناهُ أُجاجاً فَلولا تَشكُرُون».[2]

❊ ❊ ❊

إنّك تعرف أنّ الأرض ربعها يابس وثلاثة أرباعها ماء، هذا الماء كلّه مالحٌ أُجاج. لكنّ الله تعالى بفضله ورحمته يقطر للإنسان والحيوان والنبات من هذا الماء الأُجاج ماءً عذباً فراتاً سائغاً للشاربين. أمّا جهاز التقطير فليس كمثله جهاز. البحار كلّها في ذلك دست[3] لايسخن من تحت، كما يفعل الإنسان في تقطيراته التافهة، ولكن يسخن من فوق بنار تفوق حجم الأرض بآلاف المرّات. فإذا ما تبخّر الماء بحرارة الشمس تكثف في مكثف ناهيك من مكثف الجوّ المحيط كلّه والجبال. والرياح مستمرّة دائبة في حمل هذا البخار المتكاثف ونقلها إلى حيث يشاء الله. فإذا أمطرت السماء وسالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الخصب والنماء إلى الأقطار تبخّر بعض الماء وامتصّت الأرض منه بعضاً وصار باقيه إلى البحر الذي كان منه مصعده. لكن ليس شيء من الماء بضائع! فما تمتصّه الأرض تنفجّر به بعدُ عيوناً، ويتبخّر من الماء العذب أو يصير إلى البحر فهو في حرز حريز من الضياع، إذ مآله أن يصير مرّة أُخرى ماء يحيى به الناس والأنعام، وتحيى به الأرض بعد موتها. فالماء بين البحر والجوّ واليابسة في دورة مقدّرة متّصلة، لاانقطاع فيها ولاتنتهي أبداً، إلّا أن يشاء الله، هو ربّ كلّ شيء.

هكذا يتحوّل الماء من أصلٍ مالحٍ أُجاج إلى مقطّرٍ عذبٍ فرات، في جهاز تقطّر كهذا الجهاز العظيم في جوّ السماء.

❊ ❊ ❊

---

١ ـ المزن: السحاب المشبّع بالماء.
٢ ـ الواقعة ٥٦: ٦٨ـ٧٠.
٣ ـ كلمة عامّية بمعنى المرجل: القدر، وهو كلّ ما يغلى فيه الماء.

وبعد، فهل هناك مايحول دون هذا التحوّل في الماء فينزل من السماء أُجاجاً لايستساغ شربه ولا يطيب طعمه؟

أجاب العلماء: نعم، إنّ في الجوّ من العوامل ما يمكنها الحؤول دون هذا التحوّل والانقلاب، لولا رحمته تعالى بالعباد، وقد جعل حواجز دون هذا الحؤول.

جاء في كتاب «سنن الله الكونية» للعلّامة محمّد أحمد الغمراوي:[1]

إنّ عذوبة الماء الذي يسقيهم الله إيّاه من السحاب هي بمحض رحمته تعالى. إنّ الماء طبعاً عذب بطبيعته، وماء المطر معروف أنّه أنقى المياه، لكن طبيعة تكوّنه من السحاب تعرضه لأن ينقلب أُجاجاً لاينتفع به الإنسان.

وذلك لأنّ الهواء خليط من عناصر عدّة تختلف نسبة وجودها مع البعض، وأهمّ تلك العناصر هو النتروجين (الآزوت)، ونسبة وجوده في الهواء تعادل (٧٨/٢١) بالمائة. ثمّ الأُوكسجين، ونسبة وجوده (٢٠/٩٦). والأُرجون (٧٩٪). وثاني أُوكسيد الكاربون (٤٪).

وعناصر الهواء موجودة فيه بصورة اختلاط ميكانيكي، وليست ممزوجة امتزاجاً كيماوياً. ومعنى ذلك أنّها لاتتفاعل مع بعضها، وأنّ كلاًّ منها محتفظ بكيانه مستقلاًّ كأن لاوجود للعناصر الأُخرى.

وفي هذا من الحكمة البالغة والنعمة السابغة ما لايكاد يخفى، إذ لولا ذلك لاكتسب الهواء مميّزات وخواصّاً كيماوية أُخرى تختلف عن مميّزاته الحالية، فلم تكن تصلح للحياة بشكلها المعروف، وتنوّعاتها التي نشاهدها على سطح الكرة.

خذ مثلاً أنّ غاز الآزوت لايتّحد مع غيره اتّحاداً كيماوياً إلّا بصعوبة وبشرائط ملائمة خاصّة، فيتّحد في مثل هذه الظروف مع غاز الأُوكسجين، مكوّناً ما يسمّونه بحامض الآزوتيك أو النتريك، وهو ما يعرف عند القدماء بماء الفضّة، وهو أقوى

---

١ ـ نقلاً عن كتاب بصائر جغرافية، ص ٢٢٠.

الحوامض وأضرّها على حياة الإنسان بالذات. فلو كان الغازان يمتزجـان مـع بـعضهما امتزاجاً كيماوياً بسهولة ويُسر وبلاواسطة أعمال كيماوية، لانقلب الجوّ جهنّم سعيراً. لأنّه بذلك كان الغازان يستحيلان في الجوّ حامضاً فتّاكاً، ولأمطرت السماء ماء الفضّة بدلاً من الماء العذب الفرات، وما هو إلّا شواظ من نار ولهيب جهنّم لايبقي ولا يـذر، فسـبحانه وتعالى من رؤوف رحيم.

«قُل بِفَضلِ اللهِ وَبِرَحمَتِهِ فَبِذلِكَ فَليَفرحُوا».[١]

❊ ❊ ❊

وإذ قد عرفت أنّ أربعة أخماس الهواء هو الآزوت (النتروجين) وهذا الغاز لايكاد يتّحد في العادة بشيء ولابالأُوكسجين الذي يكاد يتّحد بكلّ شيء لكـن الكـيماويين وجدوا أنّهم يستطيعون بالكهربائية أن يحوّلوا الآزوت غير الفعّال إلى آزوت فعّال يتّحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية. كما وجدوا أنّهم يستطيعون أن يحملوا الآزوت على الاتّحاد بالأُوكسجين بإمرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما. ومن هذا الاتّحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت، قابل للذوبان في الماء، وإذا ذاب فيه اتّحد به وكوّن حمضين آزوتيين، أحدهما: حمض الآزوتيك (أو ماء النار) كما كان يسمّيه القدماء. وإليه يصير الحمض الثاني. وقليلٌ من حمض الآزوتيك في الماء كافٍ لإفساد طعمه.

وأظنّك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماءً أُجاجاً من غير خرق لنواميس الطبيعة ولاتبديل لسنّة الله التي جرت في الخلق، فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكوّن به المطر، وكلّ الذي يلزم أن يتعدّل التفريق الكهربائي أو يتكرّر في الهواء تكراراً يتكوّن به مقدار كافٍ من الأكاسيد الآزوتية يذوب في ماء السـحاب ويحوّله حمضياً لايستسيغه الناس.

وهذا هو موضعٌ منّ الله على الناس، إنّه يكيّف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر.

---

١ ـ يونس ١٠: ٥٨.

ولا يؤجّ بها الماء.

إنّ شيئاً من ذينك الحمضين لابدّ أن ينزل في ماء العواصف، وهذا ضروريّ لحياة النبات، لكن الله برحمته وحكمته قدّر تكوينه بحيث لايتأذّى به إنسان ولاحيوان. ولو شاء الله لكثّره في ماء المطر فأفسده على الناس.

وسواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإنّ قوله تعالى: «**لو نشاءُ جَعَلناهُ أُجاجاً**» إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التي يتكوّن بها المطر. يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة، ومن يعرف أنّ الطريق الكهربائي هو أحد الطُرق العلمية التي يمكن بها تحويل الآزوت الجوّي إلى حمضي. فسبحان الذي أتقن صنع كلّ شيء وأحكمه إحكاماً.

«والجِبالَ أوتاداً»[١]

«وجَعَلنا في الأَرضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِهِمْ».[٢]

عبّر القرآن الكريم عن الجبال بالأوتاد، وأبان عن وجه الحكمة فيها وهي محافظة الأرض دون أن تضطرب بأهلها. فكيف هذا الإيتاد؟ وكيف ذاك المَيَدان الذي حال دونه وجودُ الجبال؟

ولفهم هذا الجانب من السؤال لابدّ من النظر في تعابير القرآن أوّلاً، ثمّ ما تعرّضه معطياتُ العلم الحديث.

جاء التعبير بالرواسي عن الجبال في تسع آيات،[٣] وكانت العاشرة قوله تعالى: «وَالجِبالَ أرساها».[٤]

والوتد: المسمار وكلّ ما رزّ في الحائط أو الأرض من خشب ونحوه ليمسك به الشيء كالخباء وشبهه.

قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: وأرّزها فيها أوتاداً.[٥] أي أثبت الجبال في الأرض ثبوت الأوتاد، رسوخاً وإحكاماً.

---

١ ـ النبأ ٧٨: ٧.
٢ ـ الأنبياء ٢١: ٣١.
٣ ـ الرعد ١٣: ٣، النمل ٢٧: ٦١، الحجر ١٥: ١٩، ق ٥٠: ٧، النحل ١٦: ١٥، لقمان ٣١: ١٠، الأنبياء ٢١: ٣١، فصّلت ٤١: ١٠، المرسلات ٧٧: ٢٧.
٤ ـ النازعات ٧٩: ٣٢.
٥ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢١١، ص ٣٢٨.

قال عليه السلام: ووتّد بالصخور مَيَدان أرضه.[١] أي ثبّتها فيها لتحول دون اضطرابها.

والمَيَد والمَيَدان: الحركة والاضطراب ضدّ السكون والهدوء.

وفي خطبة أُخرى أوضح هذا المعنى بتفصيل أكثر، قال:

وجَبَلَ جلاميدها، ونشوز متونها وأطوادها، فأرساها في مراسيها، وألزمها قراراتها. فمضت رؤوسها في الهواء، ورست أُصولها في الماء. فأنهد جبالها عن سهولها، وأساخ قواعدها في متون أقطارها، ومواضع أنصابها. فأشهق قلالها، وأطال أنشازها. وجعلها للأرض عماداً، وأرّزها فيها أوتاداً. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بحِملها، أو تزول عن مواضعها. فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها.[٢]

وإليك شرح الغريب من ألفاظ الخطبة:

جلاميد: جمع جُلمُود، وهو الصخر الصلب. وجبل الشيء بمعنى خلقه وفطره، ومنه الجِبِلّة بمعنى الفطرة وأصل الخلقة.

وأنهد الشيء: رفع به وعظّمه. ومنه النهد بمعنى الثدي. يقال: نهد الثديُ أي كعب وانتبر وأشرف.

والأنصاب: جمع نَصب هي مواضع نصب الجبال.

وساخ في الشيء: غاص فيه ورسب. وساخ بالشيء: انخسف به. والموجان: الهياج.

* * *

وأمّا ما يستفاد من هذا الكلام الذهبي فشيء كثير، نشير إلى ما يخصّ المقام من دلائل جلائل:

قوله عليه السلام: «ورست أُصولها» أي رسخت أُصول الجبال في أعماق الأرض حيث المياه الجوفية. ولعلّه إشارة إلى جذور الجبال متّصلةً بعضها ببعض، المعبّر عنها بسلاسل جبلية محيطة بالأرض.

قوله: «فأنهد جبالها عن سهولها» كأنّه إشارة إلى مبدأ حُدُوث الجبال على سطح الأرض، بعد أن كان مستوياً، فتجعّد على أثر برودة القشرة، فكانت نتوءات وانخفاضات،

---

١ ـ المصدر، الخطبة الأُولى، ص ٣٩.

٢ ـ المصدر، الخطبة رقم ٢١١، ص ٣٢٨.

وبذلك انقسم وجه الأرض إلى مرتفعات شامخات وهضبات، وإلى وديان وسهول.

قوله: «وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها» أصرح في الدلالة على السلاسل الجبلية المكتنفة بالأرض من جميع أقطارها.

قوله: «وجعلها للأرض عماداً، وأرّزها فيها أوتاداً» لأنّها هي التي حالت دون تفتّتها ودون اضطراب قشرتها، ودون خروجها عن مداراتها.

تلك ثلاث خلال، جاءت في وصف الإمام عليه السلام، لبيان حكمة نتوء الجبال وتسلسلها الماسكة بأكناف الأرض، وإليك شرح هذا الجانب:

قال عليه السلام: «فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها..» تلك ثلاث فوائد وحكم جاءت في كلامه:

(أولاً) هدأت ـ رغم حركتها الانتظامية ـ من المَيَدان والاضطراب، فهي تتحرّك بهدوء واتّزان، لاترتعش ولاتميد ولاتضطرب.

(ثانياً) هدأت واطمأنّت واستحكمت قشرتها وصَلُبت، فلا تسيخ ولاتنخسف ولاتتشقّق قشرتها، وإلّا لأصبحت قشرة الأرض كلّها براكين وفوهات ونافورات بالموادّ المنصهرة والجلاميد المذابة.

(ثالثاً) هدأت وانتظمت في حركاتها الوضعية والانتقالية على أنحائها وأنواعها، والتي بها انتهجت الحياة عليها منهجها الرتيب، فلاتميل عن مواضعها في دوائرها الدائرة فيها بانتظام.

هذه ثلاث حِكم بيّنها الإمام عليه السلام أثراً لوجود سلاسل الجبال في الأرض، الأمر الذي يدعمه العلمُ باكتشافاته وبحوثه وتجاربه.

وتوضيحاً لهذا الجانب نقول: إنّ هذا الأثر العظيم للجبال ـ في إمكان الحياة على وجه الأرض ـ إنّما يعلّله جانب صخرية السلسلة الجبلية المنبثّة في القشرة الأرضية الصلبة، والمتشابكة بعضها مع بعض كأطواق محيطة بأكناف الأرض.

ومن ثمّ فالذي يُلفت إليه كلامُ الإمام عليه السلام في أُولى خطبة نهج البلاغة هو تبديل التعبير بالجبال إلى التعبير بالصخور، قال: «ووتّد بالصخور مَيَدان أرضه»، تفسيراً لقوله

تعالى: «وجَعَلنا في الأرضِ رَواسِيَ أن تَميدَ بِهِم»[١] وهو جانب ذو أهمّية كبيرة، حيث الأمر مرتبط بصخرية السلاسل الجبلية دون سائر جوانبها، الأمر الذي يستلفت الأنظار.

وإليك بعض الكلام عن سلسلة الصخور الجبلية، ودورها في توازن الأرض وانتظام حركتها.

❊ ❊ ❊

إنّ لسلسلة الصخور الجبلية ـ رافعة وخافضة ـ دورَها الخطير في توازن الأرض وتماسك أجزائها، وهكذا ثبات قشرتها وصلابتها دون تلوّيها واضطرابها، رغم توهّج باطنها والتهاب لظاها.

ومن دَرَسَ علوم الطبيعة يعلم أنّ الأرض مطوّقة بأطواق من السلاسل الجبلية التي جعلت الأرض أشدّ تماسكاً. وقد يعرف حكمةُ وجهَةِ امتدادها وكيفية اتّصالها مع بعضها، بحيث تكوّنت منها أطواق جبلية طوّقت الأرض تطويقاً على نظام بديع متقن ممّا يستلفت الأنظار، فإذا نظرنا إلى خارطة عالمية طبيعية فيها التضاريس الأرضية ظاهرة ظهوراً جلياً نرى السلاسل الجبلية تمتدّ في كلّ قارّةعلى طولها بصورة عمومية لاعلى عرضها، فتكون بمثابة عمود فقري لكلّ منها، وحتّى لاحظنا أشباه الجزائر في كلّ قارّة فلابدّ أن نرى السلاسل ممتدّة على أطول قسم منها، وكذلك الجزائر الجبلية، مهما كانت صغيرة أو كبيرة، امتدّت فيها السلاسل على طولها أيضاً.

وقد ثبت بصورة قطعية، وذلك عن طريق سبر قاعات البحار والمحيطات. أنّ الغالب من الجزائر ومرتفعاتها ماهي إلّا امتداداً للسلاسل الجبلية وجزءً منها، حيث انغمر قسمٌ بماء البحر وبقي القسم الآخر كجزائر ظاهرةً على سطح الماء.

فالقارّات كلّها تتّصل بعضها ببعض بسلاسل جبلية عن طريق البرّ أو البحر.

وممّا يستلفت الأنظار أيضاً وجود طوق من السلاسل تحت البحر قليلاً قرب الساحل الشمالي للقارّات الثلاث الشمالية، يطوّق المحيط المتجمّد القطبي الشمالي

---

١ ـ الأنبياء ٢١: ٣١.

تطويقاً، وقد ظهرت منه كثير من الجزر التي تحفّ بهذا الساحل.

ويقابل ذلك من الجهة المضادّة من الأرض طوق آخر من السلاسل يطوّق القارّة القطبية المتجمّدة الجنوبية، وترتبط بالطوقين المذكورين ارتباطاً وثيقاً أطواق أُخر لسلاسل جبلية ممتدّة في القارّات وفي المحيطات من الشمال إلى الجنوب، كأنّها إطارات تشابكت بعضها ببعض، فاستمسكت بعرى الأرض دون التفتّت والانبثاث وتفرّق ذرّاتها هباءً في الفضاء.[1]

❊❊❊

ومن جانب آخر كانت الأرض ذات لهب في باطنها، إنّها نارٌ موقدة ذات تغيّض وزفير، تكاد تميّز من الغيظ، وتحاول تحطيم القشرة المحيطة بها لولا صلابتها وسمكها الثخين. وما هذه الزلازل ونافورات البراكين إلّا جانباً ضئيلاً من تلك الثورة والفورة النارية والمتوهّجة في باطن الأرض.

إنّ صلابة القشرة الأرضية العليا ـ التي بردت منذ أحقاب من الزمان ـ هي التي كفحت من جماح باطنها المتوقّد، ولولا صلابتها وضخامة سمكها لتلوّت واضطربت اضطراب الأرشية، ولكانت الزلازل والهزّات الأرضية مستمرّة على أشدّها، ولعمّت وجه الأرض كلّها. هذا إلى جانب أخطار خسف الأرض بأهلها وتشقّق أكنافها، لولا أنّ الله تعالى أمسكها بفضله وأسكنها برحمته. **«إنّ اَللّهَ يُمسِكُ السَّماواتِ والأَرضَ أن تَزُولا»**.[2]

هكذا قال سيّدنا الأُستاذ الطباطبائي ﷺ عند قوله تعالى: **«وجَعلنا في الأرضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِهِم»**: فيه دلالة على أنّ للجبال ارتباطاً بالزلازل، ولولاها لاضطربت الأرض بقشرتها.[3]

قال سيّد قطب: الآية تقرّر أنّ هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض، فلا تميد بهم ولاتضطرب. وحفظ التوازن يتحقّق في صور شتّى، فقد يكون توازناً بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة. وقد

---

١ ـ بصائر جغرافية، ص ١٠٠-١٠٤.

٢ ـ فاطر ٣٥: ٤١.

٣ ـ الميزان، ج ١٤، ص ٣٠٥.

يكون بروز الجبال في موضع معادلاً لانخفاض الأرض في موضع آخر. وعلى أيّة حال فهذا النصّ يثبت للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها. فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتمّ بها هذا التوازن، فذلك مجالها الأصيل.[١]

***

وقال الأُستاذ الطنطاوي: مرّت على الأرض أدوار ستّة مقسّمة إلى ٢٦ طبقة، والدور الأوّل منها كان عبارة عن الزمن الذي كُوّن فيه على الكرة الأرضية النارية قشرةٌ صوانية[٢] صلبة، ومعلوم أنّ الأرض كانت ناراً ملتهبة فبردت قشرتها وصارت صوانية، وهي الغلاف الحقيقي لتلك الكرة النارية، ولاتزال الأرض تخرج لنا من أنفاسها المتضايقة ونارها المتّقدة في جوفها كلّ وقت ناراً بالبراكين. فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفّس بها الأرض لتخرج بعض النار من باطنها، ثمّ يخرب ذلك البركان وينفتح بركان أُخر. وهذه البراكين تخرج ناراً ومواداً ذائبة تدلّنا على أصل أرضنا، وما كانت عليه قبل الدهر.

فهذه القشرة الصلبة[٣] لولاها لتفجّرت ينابيع النار من سائر أطرافها كما كانت بعدما انفصلت من الشمس كثيرة الثورات والفوران. وهذه القشرة الصوانية البعيدة المغلّفة للكرة النارية هي التي نبتت منها هذه الجبال التي نراها فوق أرضنا، كما يقوله علماء طبقات الأرض.

فمن هنا ظهر أنّ هذه الجبال جعلت لحفظها من أن تميل، لأنّ الطبقة الصوانية هي الحافظة لكرة النار التي تحتها، والكرة الصوانية هذه نبتت لها أسنان طالت وامتدّت حتى ارتفعت فوق الأرض، فلو زالت هذه الجبال لبقي ماتحتها مفتوحاً، وإذ ذاك تثور البراكين آلافاً مؤلّفة وتضطرب الأرض اضطراباً عظيماً وتزلزل زلزالاً شديداً، لأنّ البراكين وثورانها زلزلة.

---

١ ـ في ظلال القرآن، المجلّد ٥، ص ٥٣١.

٢ ـ ضرب من الحجارة فيه صلابة يتطاير منه الشرر عند قدحه بالزند، استعمله الإنسان في عصر ما قبل التاريخ في صناعة أدواته البسيطة وفي آلات الصيد، وهو حجر صلد من المرو يوجد في شكل عروق بطبقات الحجر الجيري من الأرض.

٣ ـ وقدّر سمك القشرة الصلبة الأرضية العليا بمئات الأميال. مبادئ العلوم، ص ٤٣.

ثمّ إنّ هذه الجبال قطعة من القشرة، غاية الأمر أنّها ارتفعت، فما هي إذاً إلّا حافظة للكرة النارية التي لو تركت لشأنها لاضطربت في أقرب من لمح البصر، فأهلكت الحرث والنسل.

هذه هي المعجزة الأُخرى للقرآن العظيم، لأنّ السابقين كانوا يؤمنون به فقط. فظهور ذلك ـ اليوم ـ من المعجزات القرآنية. ولقد أجمع العلماء قديماً وحديثاً أنّ الجبال على الأرض لاقيمة لها بالنسبة للكرة الأرضية،[١] فلو فرضنا أنّ الكرة الأرضية كرة قطرها ذراع لم يكن أرفع الجبال فوقها إلّا كنحو نصف سبع شعيرة فوقها.[٢] ولو أنّ الأرض كرة قطرها مترٌ واحد لم تزد الجبال عليها مليمتراً واحداً ونصفه[٣] فقط. فما هذا الجزء اليسير بالنسبة لتلك الكرة العظيمة حتّى يمنع ميلها وسقوطها!

نعم، كان الناس يؤمنون بظاهره، وقد ظهرت هذه النبوءة فعلاً في العلم الحديث، ولم تظهر إلّا على يد من كفروا بدين الإسلام، والمسلمون لايعلمون إلّا من الفرنجة، ونحن نكتب ذلك عنهم، فمنهم وإليهم.[٤]

فصدق الله وجاءت المعجزات العلمية في القرآن تترى كلّما تقدّم العلم وازدهرت حقائق العلوم وتجلّت أسرار هذا الكون. ولم يعرف تفسير القرآن على وجه علميّ برهانيّ إلّا في هذا العصر، وستنكشف حقائق أُخر في مستقبل الأيّام، فلله درّه من معجزة خالدة خلود الزمان.

❊ ❊ ❊

وتمخّض البحث بالنتائج الثلاث التالية:

١ ـ إنّ للجبال (أي الصخور الجبلية المكتنفة بالأرض) أثراً مباشراً في توازن الأرض

---

١ ـ يبلغ أعلى قلل جبال الأرض هملايا ٨٧٠٠ متراً. بينما قطر الأرض يبلغ ١٢٧٥٠ كيلو متراً. والنسبة بينهما تعادل ١/١٤٥٠ تقريباً، وهي نسبة ضئيلة جدّاً. راجع: مباني جغرافياي إنساني لجواد صفي نژاد، ص ١٧.

٢ ـ الذي ذكره شارح الچغمينيّة أنّه نسبة سبع عرض شعيرة إلى كرة قطرها ذراع وهو أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ستّة شعيرات. قال: ويلزم أن يكون كنسبة الواحد إلى ألف وثمانية. شرح چغميني، ص ١٢-١٣.

٣ ـ ولعلّ هنا سهواً، والصحيح أنّ النسبة مليمتر واحد على كرة قطرها متر ونصف تقريباً.

٤ ـ تفسير الجواهر، ج ١٠، ص ١٩٨-١٩٩.

دون أن تضطرب، فتحيد عن مداراتها المنتظمة المؤثّرة في تنظيم الحياة عليها.

وقد أشار إليه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في كلامه الآنف: «أو تزول عن مواضعها».

٢ ـ وهكذا حالت صلابة القشرة وضخامة سمكها ـ وهي صخور جبلية ـ دون زلزالها واهتزاز قشرتها، على أثر توهّج باطنها، لو كانت القشرة هزيلة أو ذات لين.

وإلى ذلك أشار الإمام عليه السلام بقوله: «من أن تميدَ بأهلها».

٣ ـ كما أنّ لتطويق الأرض بالسلاسل الجبلية والصخور الصلبة المحيطة بأكناف الأرض عاملاً في تماسك أشلائها وحافظاً عن تشقّقها أو تعاقب الانخسافات عليها.

وإليه أشار عليه السلام بقوله: «أو تسيخ بحملها».

«فسبحان من أمسكها بعد موجان»!

مسيرة الأرض والجبال

«وَتَرى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنعَ اللهِ الّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ».[1]

الجمود: نقيض السيلان، ويقال للثلج: جمد، بهذا الاعتبار. ويقال: جمدت العين إذا هدأت ولم يجر دمعها. ويقال للأرض وللسنة: جماد، إذا أصابهما جدب، لاكلاء ولاخصب ولامطر.

قال الفيروزآبادي: يقال: ناقة جماد إذا كانت بطيئة في سيرها شبه الواقفة.

ومن ذلك كلّه يعرف أنّ هذه اللفظة تستعمل في موارد، كان من طبعها السير والحركة فوقفت وقوف عارض. وصحّ إطلاق الجماد على الجبال باعتبار هُمودها في رأي العين، ومن ثَمَّ قال المفسّرون: جامدة أي واقفة لاحراك فيها. ويؤيّده التقابل بمرور السحاب أي حركتها في جوّ السماء.

فقوله تعالى: «وهي تَمُرّ مرّ السَّحاب» أي تسير في مسيرتها الحثيثة كمسيرة السُحب في الفضاء. روي ذلك عن ابن عبّاس.[2]

---

١ ـ النمل ٢٧: ٨٨.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٦.

وليست حركة الجبال في مسير الفضاء سوى حركة الأرض الانتقالية في دورتها السنوية حول الشمس، أو حركتها الوضعية حول نفسها. وعلى كلا المعنيين فيدلّ ذلك على حركة الأرض دون وقوفها وهدوئها. وهذا بالرغم من الرأي السائد ذلك الحين القائل بسكون الأرض وكونها في مركز الأفلاك الدائرة حولها.

وجاءت دلالة الآية على حركة الأرض دلالة تبعيّة، من قِبَل نسبتها إلى مجموعة الجبال، فالجبال بمجموعتها تسير سيرها الحثيث، الأمر الذي لايكون إلّا بحركة كتلة الأرض كلّها.

❊ ❊ ❊

أمّا وما هذه الحركة وما هذه المسيرة الأرضية؟

١ ـ قال أكثر المفسّرين: إنّها تسيير الجبال نحو الفناء، إحدى علائم قيام الساعة نظير قوله تعالى: «وَيَومَ نُسَيِّرُ الجِبالَ وَتَرَى الأرضَ بارِزَةً وَحَشَرناهُم فَلَمْ نُغادِر مِنْهُمْ أَحَداً»[١] وقوله: «يَومَ تَمُورُ السَّماءُ مَوراً. وَتَسيرُ الجِبالُ سَيراً».[٢] وقوله: «وَسُيِّرَتِ الجِبالُ فَكانَت سَراباً».[٣] إلى غيرهنّ من آيات كثيرة بنفس المضمون.[٤]

قال الإمام الرازي: إعلم أنّ هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة، وهي تسيير الجبال.[٥]

وقال سيّدنا الطباطبائي ﵀: بما أنّ الآية واقعة في سياق آيات القيامة، ومحفوفة بها فهي تصف بعض مشاهد ذلك اليوم الرهيب، ومن جملتها تسيير الجبال. وقوله: «وَتَرى الجِبال» تمثيل لتلك الواقعة، نظير قوله: «وَتَرَى النّاسَ سُكارىٰ»[٦] أي تلك حالتها المشهودة في ذلك اليوم العصيب لو كنت شاهدها.[٧]

لكن لحن الآية ذاتها تأبى هذا الحمل، ولاسيّما مع تذييلها بقوله: «صُنعَ اللهِ الّذي أتقَنَ كُلّ شَيء». الأمر الذي يدلّ على أنّها بصدد بيان مظهر من مظاهر قدرته تعالى ولطيف

---

١ ـ الكهف ١٨: ٤٧.
٢ ـ الطور ٥٢: ٩-١٠.
٣ ـ النبأ ٧٨: ٢٠.
٤ ـ مريم ١٩: ٩٠، الواقعة ٥٦: ٥، الحاقّة ٦٩: ١٤، المعارج ٧٠: ٩، المزّمّل ٧٣: ١٤، المرسلات ٧٧: ١٠.
٥ ـ التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٢٢٠.
٦ ـ الحجّ ٢٢: ٢.
٧ ـ الميزان، ج ١٥.

صنعه. وقضية السياق موهونة ـ بعد ملاحظة ماقدّمنا في الجزء الأول ـ من أنّ ترتيب الثبت الحاضر لايدلّ على نزولها تباعاً بلافترة زمان.

٢ ـ وقال بعضهم: إنّها الحركة الجوهرية، وإنّ ما في الوجود يسير قدماً نحو الكمال المطلق، سواء أكان إنساناً «يا أيُّها الإنسانُ إنّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدحاً فَمُلاقيه»[١] أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً «كلٌّ إلينا راجِعون».[٢]

قال سيّدنا الطباطبائي: قد تحمل الآية على الحركة الجوهرية، وأنّ الأشياء كلّها ـ ومنها الجبال ـ تتحرّك بجوهرها إلى غاية وجودها، وهي حشرها، ورجوعها إلى الله سبحانه. قال: وهذا المعنى يناسبه التعبير بقوله: «تَحسبُها جامِدة» لأنّ الجمود هو السكون المحض، في حين أنّها في تحوّل وتنقّل، هادفة ساحة قدسه تعالى! قال: وهذا المعنى أنسب من المعنى الأوّل بإرادة قيام الساعة.

٣ ـ وقال آخرون: إنّها الحركة الطبيعية الكامنة في ذوات الأشياء، إذ كلّ موجود هو في تحوّل وتغيير دائب مستمرّ، وما من ذرّة في عالم الوجود إلّا وهي تتبدّل إلى غيرها وتتجدّد حسب الآنات والأحوال، وكلّ شيء هو في كلّ آنٍ خلقٌ جديد. «إنّكم لَفي خَلقٍ جَديد».[٣] «يَسألُهُ مَنْ في السَّماواتِ وَالأَرض كُلَّ يَومٍ هُوَ في شَأن»[٤] ما هذا السؤال المستمرّ؟ إنّها مسألة الإفاضة، إفاضة الوجود من ربّ العالمين، ومن ثمَّ فهو تعالى في كلّ لحظةٍ من لحظات حياتنا في خلق جديد.

قال الأُستاذ محمّد تقي الجعفري: إنّ مَن في السماء والأرض من عالم الوجود إنّما يسأله تعالى الاستمرار بالإفاضة عليه من قوى واستعداداتٍ وإيقاءٍ لوجوده خلقاً بعد خلق.[٥]

٤ ـ إنّها حركة الأرض الوضعية والانتقالية، ومسألة حركة الأرض أمرٌ تنبّه له كثير من العلماء الأقدمين كـ«فيثاغورث الحكيم» عاش قبل الميلاد بخمسة قرون. وتبعه على

---

١ ـ الانشقاق ٨٤: ٦.
٢ ـ الأنبياء ٢١: ٩٣.
٣ ـ سبأ ٣٤: ٧.
٤ ـ الرحمان ٥٥: ٢٩.
٥ ـ راجع: الحركة والتحوّل من النظرة القرآنية، ص ٤٩ فما بعد.

ذلك «فلوطرخوس» و«أرخميدس». وأيّده الحكيم «ارستر خوس» الذي جاء بعده بقرنين. وبعده «كليانثوس» الذي أثبت للأرض حركتين، يومية وسنوية.

لكن في هذا الأوان جاء الحكيم «بطلميوس» فأنكر حركة الأرض واعتقد سكونها وكونها مركز سائر الأفلاك. وساد هذا النظام الفلكي البطلميوسي ـ بفضل دعمه بالرأي العام ـ حتى القرن السادس عشر للميلاد، حيث نبغ الفلكي الشهير «كوبرنيك» (ت ١٥٤٤م) ليأخذ برأي «فيثاغورث». وهكذا توالى بعده العلماءُ مؤيّدين لهذا الرأي، بفضل المخترعات الفلكية الحديثة (المَجاهر والنظّارات المكبّرة).

وللسيّد هبة الدين الشهرستاني كلام طويل حول استظهار هذا الرأي من الآية الكريمة نذكر ملخّصه:

قال: أول من تفطّن إلى هذا الاستنباط من الآية الشريفة هو الفاضل علي قلي بن فتحعلي شاه القاجار. وجاء تأييده في «النخبة الأزهرية» ترجيحاً على تفسير القدماء للآية.

قال السيّد: وفي الآية دلائل على هذا الاستظهار:

أولاً: التعبير بالجمود «تَحسَبُها جامِدة». ولا تهويل إذا كانت الجبال تُرى يوم القيامة في ظاهرها هامدة وساكنة في مستقرّاتها.

ثانياً: التعبير بالمرور مرّ السَّحاب، وهو يدلّ على نعومةٍ في السير، وليس ممّا يهول.

وثالثاً: التشبيه بالسُحب، ولا هول في مشاهدة مسيرة السَّحاب.[١]

فصحّ أنّ الآية لاتتناسب وكونها من أشراط الساعة أو إشارة إلى أهوال يوم القيامة.

وقال سيّدنا الطباطبائي: حمل الآية على إرادة حركة الأرض الانتقالية معنى جيّد لولا منافاته للسياق.[٢]

وقد قدّمنا أنّ سياق الآية ذاتها ـ بقرينة الإشارة إلى إحكام الصنع ـ تُرجّح إرادة التفسير الأوّل المتقدّم.

---

١ ـ الهيأة والإسلام، ص ٩٧-٩٩.

٢ ـ الميزان، ج ١٥، ص ٤٤٢.

دَحْوُ الأرض

«وَالأَرضَ بَعدَ ذٰلِكَ دَحاها».[١]

الدحو: الدحرجة. يقال: دحا الشيء بمعنى دحرجه، كما يُدحرج الصبيانُ المداحي، وهي أحجار صغار أمثال القِرَصَة، يحفرون حفيرة فيدحون بها إليها. وتسمّى المسادي والمراصيع. والدحو: رمي الملاعب بالجوز وشبهه.[٢]

فمعنى دحو الأرض: دحرجتها وزحلقتها على بسيط الفضاء لتأخذ شكلها الكُرّيّ في التدوير.[٣]

فدحو الأرض إذاً ليس مجرّد بسطها، كما زعمه أُناس، وإنّما هو بسط مع تكوير، يشبه الدوّامة في جسمها الكُريّ يتداحى بها الصبيان في ألاعيبهم.

وهي اللفظة العربية الوحيدة التي تفيد معنى البسط والتكوير في ذات الوقت وتكون من أدلّ الألفاظ على شكل الأرض المنبسطة في ظاهرها، المتكوّرة في الحقيقة. الأمر الذي يوافقه أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض: إنّها مفرطحة من جانبي قطبيها، ومنبعجة على خطّ الاستواء. فيزيد قطرها الاستوائي عن قطرها القطبي بمقدار (٤٢/٦) كيلومتراً.[٤]

وهذا منتهى الإحكام والدقّة في اختيار اللفظ المناسب للتعبير.

---

١ ـ النازعات ٧٩: ٣٠.

٢ ـ الفائق للزمخشري، ج ١، ص ٤١٨.

وقال الفيروزآبادي: مرصاع ـ كمحراب ـ دوّامة الصبيان، وكلّ خشبة يُدحى بها، والدوّامة لعبة من خشب يلفّ الصبي عليها خيطاً ثمّ ينقضه بسرعة فتدوم أي تدور على الأرض. (انظر الشكل في المنجد). وعندنا في العراق كانت تسمّى «المُرصَع» كمُلجَم. وهي تشبه البيضة وفي قطبها السافل حديدة محدّدة، بها تدور على الأرض. ولعلّ تسمية البيضة دحية في الديار المصرية كانت من جهة هذا التشابه. قال مصطفى محمود في كتابه «محاولة لفهم عصريّ للقرآن، ص ٢٥٥»: الدحية: البيضة.

٣ ـ قال الأستاذ محمّد مصطفى الشاطر: ترجمة الدحو بمعنى البسط ضياع للمعنى الذي يؤخذ من الدحو وهو التكوير غير التامّ ـ كتكوير البيضة ـ مع الدوران. ولايزال أهل الصعيد ـ وأكثرهم من أصل عربي ـ يعبّرون عن البيض بالدحو أو الدحى أو الدح. القول السديد، ص ٢١-٢٢.

٤ ـ قطر الأرض الاستوائي: ١٢٧٥٤/٨. وقطرها القطبي: ١٢٧١٢/٢. راجع: بصائر جغرافية، ص ١٥٧.

مدّ الظلّ وقبضه

«أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَو شاءَ لَجَعَلَهُ
ساكِناً ثُمَّ جَعَلنَا الشَّمسَ عَلَيهِ دَليلاً.
ثُمَّ قَبَضناهُ إِلَينا قَبضاً يَسيراً».[1]

إنّ الظلّ الوريف اللطيف الذي يوحي إلى النفس المجهودة المكدودة بالراحة والنداوة والسكن والأمان هو الظلّ الذي يبدأ بروحه ونسيمه فور تحوّل الشمس هبوطاً من قبّة السماء (دائرة نصف النهار). تكاد تمتدّ وتنبسط نفحتها كلّما أخذت الشمس تقترب من أُفق مغربها. وإذا هي تبزغ أشعّتها عند الصباح، وإذا بالأظلّة تبدو على أطولها، ثمّ تأخذ في التناقص كلّما ارتفعت الشمس وسط السماء.

فهذا الظلّ يتحرّك مع حركة الأرض في مواجهة الشمس، فتتغيّر أوضاعه وامتداداته وأشكاله، والشمس تدلّ عليه بضوئها وحرارتها وتميّز مساحته وامتداده وارتداده.

وهذا المدّ والقبض إنّما هي بفعل حركة الأرض حول محورها تجاه عين الشمس الوهّاجة، وهي تحصل في كلّ ٢٤ ساعة يوماً كاملاً.

وشيء آخر: إنّ محور الأرض ـ في دورتها حول نفسها ـ ينحرف قليلاً عن مستوى

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٤٥-٤٦.

فلكها (أي مدارها السنوي) ويكون انحرافه بزاوية قدرها ٢٣/٥ درجة، الأمر الذي يسبّب تعاقب الفصول الأربعة. وكلّما ابتعدت الشمس عن خطّ الاستواء شمالاً أو جنوباً فإنّ الضلال تختلف امتداداً و تقلّصاً، فلا يستوي الظلّ في الشتاء مع الظلّ في الصيف أو الخريف أو الربيع، سواء في مناطق الاعتدال أو غيرها.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ مدّ الظلّ وقبضه قبضاً يسيراً ممّا ينبّؤك عن حركةٍ للأرض، إمّا محورية أو مدارية (وضعية أو انتقالية) أو كلتيهما جميعاً.

وكيف كان فهو ظلّ النهار، يزداد وينقص، حسب الأيّام والشهور.

أمّا الليل، فهي نعمة أُخرى جاء ذكرها في الآية التالية لما سبق: «**وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً وَالنَّومَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً**».[١]

وهي رحمة إلهية كبرى، إذ جعل الأرض تدور حول محورها يومياً، طول سنتها التي هي ٣٦٥ يوماً. وبذلك أمكنت الحياة على وجه الأرض من كلّ جوانبها على سواء.

أمّا كرة عطارد فإنّها تدور حول محورها بنفس دورتها حول الشمس في ٨٨ يوماً، كما حقّقه الفلكي «شيا پرلي».[٢] ومعنى ذلك أنّ طول يومها يساوي سنتها أي دورتها حول الشمس، ونتيجةً على ذلك فإنّ وجهاً واحداً منه يتّجه نحو الشمس بصورة دائمية، ولا يتّجه النصف الآخر نحوها مطلقاً.

وللسبب نفسه يكون أحد وجهيه ساخناً جدّاً، إذ تبلغ درجة الحرارة عليه نحو ٢٦٠ درجة مئوية، كما يكون الوجه المعاكس بارداً جدّاً، وتبلغ درجة البرودة فيه نحو ٨٠ درجة تحت الصفر المئوي، فهناك نهار سرمد، وليل سرمد، ولذا لا يتوقّع وجود حياة على سطح هذا الكوكب السيّار.[٣]

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٤٧.

٢ ـ راجع: مبادئ العلوم، ص ٣٧؛ وهامش الهيأة والإسلام، ص ٦١.

٣ ـ مبادئ العلوم، ص ٣٦.

وهكذا قيل عن الزهرة، فدورتها حول محورها تساوي دورتها حول الشمس في ٢٢٤ يوماً من أيّام الأرض. بصائر جغرافية، ص ٢٦١.

ونظير عطارد «القمر» في دورته حول الأرض. إذ تكمل دورته حول الأرض في مدّة تساوي دورته حول نفسه في ٢٨ يوماً، ويصبح نصف سطح القمر مواجهاً للأرض أبداً، ونصفه الآخر مختفياً عن الأرض أبداً.[١]

فليس من ناموس الطبيعة أن تختلف دورة كلّ كرة دائرة حول كرة اُخرى عن دورتها حول نفسها، وإنّما هو شيء يتبع مصلحة يراها الصانع تعالى فيما يراه في الخلق والتدبير.

فانظر إلى آثار رحمة الله كيف جعل الظلّ في الكوكب الأرضي متحرّكاً غير ساكن، ولم يجعله سرمداً كما جعله في كوكب عطارد، ذي الليل والنهار السرمدين.

«قُلْ أَرَأَيتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيلَ سَرمَداً إلى يَومِ القِيامَةِ مَن إلهٌ غَيرُ اللهِ يأتيكُمْ بِضِياءٍ أفلا تَسمَعُون. قُلْ أرَأيتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرمَداً إلى يَومِ القيامَةِ مَن إلهٌ غَيرُ اللهِ يَأتيكُمْ بِلَيلٍ تَسكُنُونَ فيهِ أفَلا تُبصِرُون. وَمِنْ رَحمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسكُنُوا فيهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرُون».[٢]

الحمدلله الذي جَعل لنا الأرض مهداً وسلك لنا فيها سُبلاً.

---

١ ـ ولمّا كان للقمر دورة ثالثة مع الأرض حول الشمس وفي هذه الدورة تدور حول محورها في ٢٨يوماً يكون نهاره ١٤يوماً من أيّام الأرض وليله ١٤يوماً. ومن ثمّ فالليل منه قارس البرودة، والنهار منه شديد الحرّ. وعندما تصل الشمس عمودية تبلغ الحرارة فيه إلى درجة الغليان. المصدر، ص ٢٥٩-٢٦٠.

٢ ـ القصص ٢٨: ٧١-٧٣.

«أن نُسَوّيَ بنانه»

«أيَحسَبُ الإنسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ. بَلى قادِرينَ عَلى أَنْ نُسَوِّي بَنانَه».[١]

هذا كلام صدر في مقام التحدّي، مشيراً بأنّ هناك معجزة كبرى في تسويته للبنان وبعثه على صورته الأُولى يكون أكبر من إحياء العظام البالية، الأمر الذي لم يُكشَف سرّه إلّا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة، حينما عُرف أنّ لكلّ إنسان بصمة خاصّة رسمت على بنانه، لايتّفق اثنان في بصمة واحدة، منذ أن خلق الله آدم حتّى التوائم. وهذا سرٌّ غريب في الخليقة أولاً، وفي إشارة القرآن إليه ثانياً. سبحانه وتعالى من عظيم القدرة وعجيب البيان!

ولكن لماذا خصّص الله البنان دون سائر أجزاء البدن؟ وهل البنان أشدّ تعقيداً من العظام؟

لقد توصّل العلم إلى سرّ البصمة في القرن التاسع عشر، وبيّن أنّ البصمة تتكوّن من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوّى، وتتفرّع عنها تغصّنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كلّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبت أنّه لايمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في

---

١ ـ القيامة ٧٥: ٣-٤.

شخصين في العالم، حتّى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة.

يتمّ تكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، وتظلّ ثابتة ومميّزة له طول حياته، ويمكن أن تتقارب بصمتان في الشكل تقارباً، ولكنّهما لاتتطابقان البتة. ولذلك فإنّ البصمة تُعَدُّ دليلاً قاطعاً ومميّزاً لشخصية الإنسان، معمولاً به في كلّ بلاد العالم، ويعتمد عليه القائمون على تحقيق القضايا الجنائية لكشف المجرمين واللصوص.[1]

١ ـ مع الطبّ، ص ٢٣.

«ومن كلّ شيءٍ خَلَقنا زَوجَين»[١]

لم يقل من الأحياء، بل من كلّ شيء. فالكهرباء فيها الشحنة السالبة والموجبة. والمغنطيسية فيها الاستقطاب إلى قطبين. وفي الذرّة الأليكترون والبوزيترون، والبروتون والنيوترون. وفي الكيمياء العضوية: الجُزَيء اليساري والجُزَيء اليميني. ونعرف الآن المادّة والمادّة المضادة. والثنائية والازدواجية في تركيب الأحياء والجمادات. يكشف لنا العلم أسرارها كلّ يوم.[٢]

ولعلّ اللقاح والتزاوج في النبات أصبح مشهوداً بعد ضرورة اللقاح والتزاوج في الأحياء (الإنسان والحيوان). قال تعالى: «وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوجَينِ اثنَين».[٣] والآيات بشأن أزواج النبات كثيرة.[٤]

وظاهرة التزاوج واللقاح مفروضة على كلّ موجود، نباتاً كان أم إنساناً، أم ممّا لايعلمون «الّذي خَلَقَ الأزواجَ كُلّها ممّا تُنبِتُ الأرضُ وَمِن أنفُسِهِمْ وَممّا لايَعلَمُون».[٥]

قال سيّد قطب: وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض

١ ـ الذاريات ٥١: ٤٩.

٢ ـ محاولة لفهم عصريّ للقرآن، ص ٧٣.

٣ ـ الرعد ١٣: ٣.

٤ ـ الحجّ ٢٢: ٥، والشعراء ٢٦: ٧، ولقمان ٣١: ١٠، وق ٥٠: ٧، والرحمان ٥٥: ٥٢، وطه ٢٠: ٥٣.

٥ ـ يس ٣٦: ٣٦.

ـ وربّما في هذا الكون، إذ أنّ التعبير لا يخصّص الأرض ـ قاعدة الزوجية في الخلق. وهي ظاهرة في الأحياء. ولكن كلمة «شيء» تشمل غير الأحياء أيضاً. والتعبير يقرّر أنّ الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية.

وحين نتذكّر أنّ هذا النصّ عرفه البشر (المسلمون) منذ أربعة عشر قرناً، وأنّ فكرة عموم الزوجية ـ حتّى في الأحياء ولاسيّما النبات ـ لم تكن معروفة حينذاك، فضلاً عن عموم الزوجية في كلّ شيء... حين نتذكّر هذا نجد أنّا أمام أمر عجيب عظيم.. وهو يطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكّرة كلّ التبكير!

كما أنّ هذا النصّ (القرآني المعجز) يجعلنا نرجّح أنّ البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة. وهي تكاد تقرّر أنّ بناء الكون كلّه يرجع إلى الذرّة، وأنّ الذرّة مؤلّفة من زوج من الكهرباء: موجب وسالب! فقد تكون تلك البحوث إذاً على طريق الحقيقة في ضوء هذا النصّ العجيب.[١]

* * *

وعن أكثر القدامى تفسير الزوجين هنا بالجنسين المتقابلين، كالأرض والسماء، والبرّ والبحر، والليل والنهار، والسهل والجبل، والشمس والقمر، والجنّ والإنس، والنور والظُلمة... وما إلى ذلك. وهكذا المعنويّات كالسعادة والشقاء، والخير والشرّ، والهدى والضلال... ونحو ذلك.

سوى ابن زيد، فإنّه فسّره بالذكر والأُنثى، وهو عجيب.[٢]

قال الرازي ـ توجيهاً لما قاله الأقدمون ـ: والزوجان: إمّا الضدّان فإنّ الذكر والأُنثى كالضدّين والزوجان منهما كذلك، وإمّا المتشاكلان فإنّ كلّ شيء له شبيه ونظير وضدّ وندّ. قال المنطقيّون: المراد بالشيء الجنس، وأقلّ ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كلّ جنس خلق نوعين من الجوهر، مثلاً المادّي والمجرّد، ومن المادّي النامي والجامد، ومن النامي المدرك والنبات، ومن المدرك الناطق والصامت.[٣]

---

١ ـ في ظلال القرآن، المجلّد ٧، ص ٥٨٧-٥٨٨.
٢ ـ راجع: مجمع البيان للطبرسي، ج ٩، ص ١٦٠.
٣ ـ التفسير الكبير، ج ٢٨، ص ٢٢٧.

العسل

«وَأوحى رَبُّكَ إلَى النَّحلِ أنِ اتّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَ
مِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعرِشُـون. ثُمَّ كُلي مِنْ كُـلِّ الثَّمَراتِ
فَاسـلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخـرُجُ مِنَ بُطُونِها
شَرابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُهُ فيهِ شِفاءٌ لِلنّاس».[١]

قال الدكتور نزار الدقر: النصوص القرآنية التي وردت في العسل هي أوضح وأرسخ النصوص القديمة على الإطلاق، كما أنّها تعتبر من أوائل النصوص التي جزمت بالفائدة المطلقة، وبالخصوص العلاجيّة الثابتة لهذه المادّة القديمة.[٢]

ولأصحاب النظر في الطبّ والعلاج ـ قديماً وحديثاً ـ مقالات ضافية بشأن أهمّية العسل وفوائده الكثيرة وأنّه النافع غيرالضارّ على الإطلاق، نقتطف منها ما يلي:

مكوّنات العسل

يحوي العسل أكثر من سبعين مادّة مختلفة، فهو:

١ ـ أهمّ منبع للموادّ السكّرية الطبيعية، حيث اكتشفت فيه إلى الآن حوالي ١٥ نوعاً

---

١ ـ النحل ١٦: ٦٨-٦٩.

٢ ـ مع الطبّ في القرآن الكريم، ص ١٨٢ نقلاً عن كتاب «العسل فيه شفاء للناس» للدكتور نزار الدقر.

من السكاكر، أهمّها: سكّر الفواكه (فركتوز) بنسبة ٤٠٪ وسكّر العنب (غلوكوز) بنسبة ٣٠٪ أمّا سكّر القصب فبنسبة ٤٪ وأنّ كيلو غراماً واحداً من العسل يعطي طاقة تقدّر بـ(٣٢٥٠) حريرة.

٢ ـ يقف في الصفّ الأول بين الأغذية الكاملة، من حيث احتوائه على بعض الخمائر (الأنزيمات) التي تساعد في عمليات الاستقلاب والهضم. وأهمّها: خميرة الشعير، التي تحوّل النشاء إلى سكّر، والقلابين التي تقلب السكّر العادي إلى سكّر عنب وسكّر فواكه والكاتازالا، والبيوركسيداز، والليباز.

٣ ـ يحوي مجموعة من الفيتامينات، أهمّها: فيتامين ب، وب ٢، وب ٣ (أو حمض البانتوثيني)، وب ٥ (أو حمض النياسين)، وب ٦ (أو البيرودكسين)، وفيتامين ث، وآثار من البيوتين، وفيتامين ك، وفيتامين ي، وفيتامين آ.

وهذه الفيتامينات توجد بمقادير غير مرتفعة، ولكنّها مفيدة، لأنّ العسل وسط ممتاز لحفظها. أمّا نسبة وجودها فمرتبط بنسبة غبار الطلع الذي تجمعه النحلة، كراتب غذائي لها.

٤ ـ يحوي العسل أنواعاً من البروتينات والحموض الأمينية، والحموض العضوية، كحمض النحل، ومشتقّات الكلوروفيل، وعلى منشطات حيوية، وعلى روائح عطرية وغيرها.

٥ ـ الأملاح المعدنية، وأهمّها: أملاح الكلس، والصوديوم، والبوتاسيوم، والمنغنيز، والحديد، والكلور، والفوسفور، والكبريت، واليود.

وتشكّل هذه الأملاح اثنين بالألف من وزن العسل.

٦ ـ يؤكّد الكثير من الباحثين على وجود موادّ مضادّة لنموّ الجراثيم في العسل. كما يعتقد بوجود هرمون نباتي ونوع من الهرمونات الجنسية (من مشتقّات اللاستروجين).

إذاً فالعسل مادّة شديدة التعقيد، تتباين أنواعه قليلاً بتراكيبها، باختلاف الزهور التي جنيت منها.

ولعلّ السرّ في احتوائه على هذه المواد المختلفة ـ التي لم تجمع في أيّ مادّة غذائية أُخرى على الإطلاق ـ هو جني النحل رحيق كلّ الأزهار والثمرات، استجابةً لنداء خالقها يوم أوحى لها: «ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوانُه».

ميزات العسل

١ ـ مقاومته دون تسرّب الفساد إليه إلى سنين عديدة، بل أحقاب متطاولة، بشرط ابتعاده عن فعل الرطوبة به.

٢ ـ مضادّته للعفونة. وقد أكّد أكثر الباحثين أنّ الجراثيم الممرضة للإنسان لا يمكن لها أن تعيش في العسل، وأنّ العسل فعلاً مبيدٌ لها.

وسبب ذلك احتواؤه على حمض النحل، وهو من الموادّ المضادّة للعفونة. ولارتفاع تركيز السكاكير التي تصل إلى ٨٠٪ من تركيب العسل، رغم أنّ الأوساط ذات السكّريّ الخفيف تزيد نشاط الجراثيم. وهكذا التمر الذي يحوي نسبة عالية من السكاكير لا تنمو فيه الجراثيم.

٣ ـ وقايته لنخر الأسنان، على عكس سائر السكاكر الصناعية التي هي قابلة للتخمّر بوجود العصيّات اللبنية.

أمّا العسل ففيه قدرة واضحة في الحثّ على نموّ العظام وبزوغ الأسنان وفي التكلّس العظمي والسنّي. وبالتالي يزيد نموّ الطفل ويبعده عن خطر الكساح.

٤ ـ يزيد خضاب الدم وعدد الكريات الحمر.

وتشير الإحصائيات إلى ندرة إصابة النحّالين بداء السرطان بالنسبة إلى أصحاب المهن الأُخرى.

٥ ـ يسرع التئام الجروح وينظّفها، لأنّه يزيد محتوى الجروح من مادّة الفلوتاثيون التي تسرع عملية التعمير والالتئام النسيجي.

٦ ـ إنّه علاج جيّد لتقرّحات الجلد المزمنة. وخاصّة إذا طبّق المزيج المؤلّف من ٤/٥ عسل + ١/٥ فازلين.

٧ ـ علاج جيّد للتقيّحات الجلدية.

٨ ـ يؤدّي لشفاء سريع للجروح الواهنة.

٩ ـ ضماد معقّم لعمليات تحتمل التلوّث بالجراثيم.

قال الدكتور بولمان ـ الجرّاح النسائي ـ: وعندي كلّ المعطيات الإيجابية كي أُفكّر بهذه المادّة البسيطة التي تجيب على كلّ الأسئلة حول مشاكل الجروح والقروح المتقيّحة... فهي مادّة غير مخرّشة، وغير سامّة، وعقيمة بذاتها، مضادّة للجراثيم، مغذّية للجلد، رخيصة، سهلة التحضير، سهلة الاستعمال... وفوق كلّ ذلك مادّة فعّالة.

فسبحانه عزّ من قائل: «**فيهِ شِفاءٌ لِلنّاس**»!!

١٠ ـ يساعد على الهضم بفعّالية الأنزيمات الهاضمة التي يحويها، ويخفض الحموضة المعدية الزائدة، وفعّال في معالجةاستطلاق البطن (الإسهال)، ويمنع حدوث الإمساك أيضاً، كما يفيد في معظم أمراض الكبد والصفراء، وفي السلّ، والسعال، والتهاب القصبات، ومعالجة الربو وذات الرئة، والتهاب حواف الأجفان، والقرنية، وحروق العين، والنزلات الشعبية في الأنف، والتهاب اللوزات والبلعوم المزمن.

وفوق ذلك فإنّ العسل يزيد إرواء العضلة القلبية ويمدّها بالطاقة بشكل ممتاز، وغير ذلك كثير، يطول بشرحها.

فسبحانه من عظيم، حيث وكّل حشرة صغيرة لإعداد هكذا مركّب عجيب كثير الخاصّية كبير الفائدة خطير الشأن.

وتمضي الأبحاث بغزارة على العسل، والكلّ يشعر أنّه مازال في هذا العجين الغريب، الكثير من الأسرار «**وَما أُوتيتُمْ مِنَ العِلمِ إلّا قَليلاً**».[1]

---

١ ـ الإسراء، ١٧: ٨٥. راجع: مع الطبّ في القرآن، ص ١٩١-١٩٩.

دقائق هي روائع في التعبير

جاء في القرآن كثير من دقائق تعبير قد لايلمس القارئ أثناء تلاوته ما يُلفت نظره إلّا إذا تدبّرها بإمعان، وتوقّف لديها متسائلاً: هل وراءها نكتة خافية؟ أم هناك سرّ مستتر عميق؟

فإذا مالجّ فيها وتعمّق النظر فيها وجدها ظرائف ولطائف تشرف الباحث على خضمّ بحر متلاطم وفيض بحر موّاج. وإليك طرفاً منها:

«وازدادوا تِسعاً»

قال تعالى ـ حكايةً عن قولهم ـ:[1] «وَلَبِثُوا فِي كَهفِهِم ثَلاثَ مِئَةٍ سِنينَ وَازدادُوا تِسعاً»[2] هذا الذي نقرأه عن رقدة أصحاب الكهف، كانت ثلاثمائة سنة كاملة حسب التقويم الشمسي، الذي كان عليه العالم المتحضّر، من عدا الأُمّة العربية، حيث لم يكن لها علم بحركة الفلك الشمسية، وكان تقويمها قائماً على دورة الفلك القمرية، وهي تنقص

---

١ ـ سوف نذكر في الجزء السابع أنّ هذا حكاية عن قولة البعض. ولا شكّ أنّ السنين كانت عندهم على حساب الدورة الشمسية. ولكنّه تعالى عندما حكاها للعرب، زاد التسع ليطابق محاسبتهم على السنين القمرية.

٢ ـ الكهف ١٨: ٢٥.

عن دورة الشمس سنوياً بأحد عشر يوماً وربع يوم تقريباً.[١] فكان لابدّ أن تزيد سنوات الرقدة ـ لو حسبناها على السنين القمرية ـ بتسعة سنين بـالضبط، بـالأيّام والسـاعات والدقائق والثواني.

فقد لزم أن يقول القرآن: إنّ سنوات الرقدة ـ حسبما ذكروه ـ تزيد تسعاً على التقويم الذي عند العرب. وهذا سرٌّ ربما خفي لحدّ الآن... معجزة باقية.

«قُل أنزَلَهُ الّذي يَعلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالأرض».[٢]

تقديم السمع على البصر

من الدقائق في تعبير القرآن الكريم أنّك تجده يذكر السمع مقدّماً على البصر في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً.[٣] وهي مسألة يعرف سرّها الآن علماء التشريح (الفسيولوجيا) ويدركون أنّ جهاز السمع أرقى وأعقد وأدقّ وأرهف من جهاز الإبصار، ويمتاز عليه بإدراك المجرّدات كالموسيقى، وإدراك التداخل مثل حلول عدّة نغمات داخل بعضها بعضاً، مع القدرة على تمييز كلّ نغمة على انفرادها، كما تميّز الأُمّ صوت بكاء ولدها من بين زحام هائل من أصوات متداخلة، يتمّ هذا في لحظة من الزمن. أمّا العين فهي تتوه في زحام التفاصيل ولاتعثر على ضالّتها. يتوه الولد عن عين أُمّه في الزحام ولا يتوه عن سمعها. والعلم يمدّنا بألف دليل على تفوّق معجزة السمع على معجزة البصر...

---

١ ـ أيّام السنة القمرية تتراوح بين ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٥ يوماً. بينما أيّام السنّة الشمسية هي: ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و٩ دقائق و٩ ثوانٍ بالضبط. إلّا شيئاً قليلاً (٥٩٥/٠ الثانية) تنقص كلّ سنة.

فتزيد السنة الشمسية على السنة القمرية بمقدار ١١ يوماً وهي مضروبة في (٣٠٠) تساوي (٣٣٠٠) يوماً وتساوي (٩ سنوات وثلاثة أشهر ونصفاً: ١٠٥) بالتقسيم على عدد أيّام القمرية، حساباً بالتقريب، حيث عدم انضباط السنة القمرية تماماً. فصحّ تعبير القرآن بزيادة تسعة أعوام تعبيراً بالدقّة.

راجع: التفهيم لأبي ريحان البيروني، ص ٢٣٥؛ ودهخدا، ص ١٣٣٣٠، مادة «سال».

٢ ـ الفرقان ٢٥: ٦.

٣ ـ البقرة ٢: ٧ و ٢٠، النساء ٤: ٥٨ و ١٣٤، الأنعام ٦: ٤٦، يونس ١٠: ٣١، هود ١١: ٢٠، النحل ١٦: ٧٨ و ١٠٨، الإسراء ١٧: ١ و ٣٦، طه ٢٠: ٤٦، الحجّ ٢٢: ٦١ و ٧٥، المؤمنون ٢٣: ٧٨، السجدة ٣٢: ٩، غافر ٤٠: ٢٠ و ٥٦، فصّلت ٤١: ٢٠ و ٢٢، الشورى ٤٢: ١١، والأحقاف ٤٦: ٢٦، المجادلة ٥٨: ١، الملك ٦٧: ٢٣، الإنسان ٧٦: ٢.

«سَنُرِيهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُ الحَقّ».[١]

وقد مرّ بعض الكلام عن ذلك في الجزء الخامس[٢] ضمن دقائق ونكات رائعة من القرآن الكريم.

«يَسْألونَكَ عَنِ المَحيضِ قُلْ هُوَ أذىً»[٣]

ما أرقّه من تعبير عن حالة المرأة أيّام طمثها، لاشقاءً كشقاء أحكام اليهود بشأنها، ولاجفاءً كجفاء جاهلية العرب بحقّها. إنّه تعبير ينمّ عن واقعية هي حالة مَرَضية تعتري المرأة في محيضها، فيجب مراعاة حالها والمداراة مع ضعفها الجسمي، وهي لاتطيق ما تطيقه في حالتها العادية وقد كان اليهود يشدّدون في مسائل الحيض، كما جاء في الفصل الخامس عشر من التوراة: إنّ كلّ من مسّ الحائض في أيّام طمثها يكون نجساً إلى المساء، وكلّ من مسّ فراشها يغسل ثيابه بماء ويستحمّ ويكون نجساً إلى المساء، وكلّ من مسّ متاعاً تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحمّ بماء ويكون نجساً إلى المساء، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه، يكون نجساً سبعة أيّام، وكلّ فراش يضطجع عليه يكون نجساً.[٤]

وكانت العرب في الجاهلية لايساكنون الحُيَّض، ولايؤاكلونهنّ، كما كانت تفعل اليهود والمجوس أيضاً.

لكن القرآن دفع عنها الرجس وجعلها في إطارها الخاصّ من الرفق بحالها والعطف عليها والحنان، لاهجرها ونبذها ومتاركتها أو إحراجها بالخروج عن مساكنها، كما كانت العادة عند المجوس، وحتّى عند قبائل من العرب. فقد كانت الحائض عندهم مبغوضة. كان بنو سليح أهل بلد الحَضَر[٥] وهم من قضاعة نصارى، إذا حاضت المرأة أخرجوها من

---

١ ـ فصّلت ٤١: ٥٣.

٢ ـ التمهيد، ج ٥، «شواهد من القرآن ـ تقديم السمع على البصر».

٣ ـ البقرة ٢: ٢٢٢.

٤ ـ سفر اللاويين: إصحاح ١٥ عدد ١٩-٢٤، ص ١٨٢-١٨٣.

٥ ـ مدينة قديمة دعاها اليونان «هَتْرا» شيّدها الفرثيّون على الحدود الرومانيّة قبل الميلاد بقرن بين دجلة والفرات كانت مركزاً تجاريّاً طيلة قرون.

المدينة إلى الربض (ضواحي البلد) حتّى تطهر. وفعلوا ذلك بنَصْرة ابنة الضيزن ملك الحضر.[١]

قال تعالى: «هو أذىً» أي حالة مرض يعتريها لاأكثر ولاأقلّ. والأذى، المرض الخفيف المؤونة. فهي حالة مؤذية دون إيذاء المرض والضرّ الشديد، كما في قوله تعالى: «لا جُناحَ عَلَيْكُم إنْ كانَ بِكُمْ أذىً مِن مَطَرٍ أو كُنْتُمْ مَرْضى».[٢] وقوله تعالى: «فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَريضاً أو بِهِ أذىً مِن رَأسِهِ فَفِديَة».[٣] وقوله تعالى: «لَن يَضرُّوكُم إلّا أذىً».[٤]

وقد ورد في شريعة الإسلام جواز مراودتها دون الجماع فقط، قالﷺ: اصنعوا كلّ شيء إلّا الجماع. وفي حديث آخر: لك ما فوق الإزار.

فالحكم الإسلامي بشأنها هو اعتزالها في المحيض فحسب، أي اعتزال موضع حيضها.

وفي ذلك أيضاً لطف بيان وإناقة كلام، بيّن أوّلاً سبب الحكم ثمّ رتّب الحكم عليه، ليكون المكلّف على بصيرة من أمره، أن ليست أحكام الشريعة تحميلاً أو مجرّد تعبّدٍ محض، بل لكلّ أمر سبب ولكلّ حكم وتكليف مصلحة، تعود إلى صالح المكلّفين في نهاية الأمر.

والخلاصة: الواجب هو ترك غشيان النساء مدّة الحيض، لأنّه سبب للأذى والضرر أحياناً. وقد أثبت الطبّ الحديث مفاسد غشيانهنّ في تلك الحالة، وأنّ الوقاع في زمن الحيض ربما يؤدّي إلى الأضرار التالية ـ حسبما أورده المراغي في تفسيره ـ:

آلام أعضاء التناسل في المرأة، وربما أحدث التهابات في الرحم في المبيضين أو في الحوض، تضرّ صحّتها ضرراً بليغاً، وربما أدّى ذلك إلى تلف المبيضين وأحدث العقم. وربما دخل موادّ الحيض في عضو التناسل عند الرجل، وذلك يحدث التهاباً صديدياً

---

١ ـ راجع: تفسير ابن‌عاشور (التحرير والتنوير)، ج ٢، ص ٣٤٦.

٢ ـ النساء ٤: ١٠٢.

٣ ـ البقرة ٢: ١٩٦.

٤ ـ آل عمران ٣: ١١١.

يُشبه السيلان، وربما امتدّ ذلك إلى الخصيتين فآذاهما، ونشأ من ذلك عقم الرجل، وقد يصاب الرجل بالزهري إذا كانت جراثيمه في دم المرأة، وغير ذلك.[١]

من بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً

قال تعالى: «وَإِنَّ لَكُم فِي الْأنعامِ لَعِبْرَةً نُسْقيكُمْ مِمّا في بُطونِهِ مِن بَيْنِ فَرثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشّارِبين».[٢]

يقول الأُستاذ أحمد كامل ضو: إنّ الجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به، وباستمرار دخوله في القلب وخروجه منه ثمّ مروره في أجزاء الجسم المختلفة يغذّي ما يحتاج منها إلى غذاء.

فالغذاء إذاً يتحوّل جزءٌ منه إلى دم، وجزء منه إلى فرث (ويعدّ فضولات الغذاء غير الصالحة للتغذية). فالدم يسير في أوعية، وهي الشرايين والأوردة المنتشرة في جميع أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها، حاملاً المواد الغذائية الصالحة، الذاهبة إليه من القناة الهضمية، ليوزّعها في أنحاء الجسم لبناء الأنسجة وتعويض المستهلك أثناء تأدية الوظائف الحيوية، وهو يغذّي الغُدَد التي منها الغُدَد اللبنية (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن.

فالغذاء يتحوّل جزء منه إلى دم، وهذا الدم يذهب إلى ضرع الحيوان، حيث يغذّي الغُدَد اللبنية فيتحوّل هذا الجزء من الدم إلى اللبن.

أمّا الجزء الآخر من الغذاء غير الصالح فإنّه يتحوّل إلى براز وهو الفرث. فالغذاء ينشطر شطرين هما الدم والفرث ـ أي إلى صالح وغير صالح ـ واللبن يخرج من بينهما خالصاً من كلّ شائبة تشوبه من أثر الطعام المهضوم ورائحته، صافياً من كلّ الموادّ التي كانت في الدم، ناصع البياض طاهراً، وذلك بعملية الغُدد اللبنية التي خلقها الله سبحانه كمعمل كيمياوي يتحوّل الدم فيه إلى لبن، ثمّ يصفّى بأدقّ مصفاة وأنظف أداة.

---

١ ـ راجع: تفسير المراغي، ج ٢، ص ١٥٧.

٢ ـ النحل ١٦: ٦٦.

وقد جعله الله سائغاً للشاربين: سهل المرور في حلقومهم، حلو الطعم في أفواههم، وأوجد فيه ذلك اليسر لما فيه من فوائد جمّة تعود على مخلوقات إنسية وحيوانية.

واللبن يتكوّن من ماء ودهن وسكّر وزلال وأملاح وفيتامينات، فهو يحتوي على جميع العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان، ويعتبر بحقّ أهمّ الأغذية على الإطلاق.[1]

وقال الشيخ محمّد الطاهر ابن‌عاشور بهذا الصدد في تفسيره «التحرير والتنوير»:

وجه العبرة في الآية أنّ ما تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة ثمّ الكبد ثمّ غُدَد الضرع مائعاً يُسقى، وهو مفرز من بين أفراز فرث ودم.

والفرث: الفضلاتِ التي تركها الهضم المعدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فرثاً. والدم: إفراز يفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها، ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيئية إلى الشرايين والعروق، ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب.

ومعنى كون اللبن من بين الفرث والدم: أنّه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفرث. وعلاقته بالفرث أنّ الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمرّ بجوار الفضلات البولية والثفلية، فتفرزه غُدَد الضرع لبناً، كما تفرزه غُدَد الكليتين بولاً بدون معالجة زائدة، وكما تفرز تكاميش الأمعاء ثفلاً بدون معالجة.

وليس المراد أنّ اللبن يتميّع من بين طبقتي فرث ودم، وإنّما الذي أوهم ذلك من توهّمه حَمْله «بين» على حقيقتها من ظرف المكان. وإنّما هي تستعمل كثيراً في المكان المجازي فيراد بها الوسط بين مرتبتين كقولهم: الشجاعة صفة بين التهوّر والجبن. فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكلّ طبقة من الناس بحسب مبالغ علمهم، مع كونه موافقاً للحقيقة.[2]

---

١ ـ التفسير العلمي للقرآن في الميزان لأحمد عمر أبي‌حجر، ص ٤٦٥-٤٦٦ نقلاً عن كتاب «القرآن الكريم والعلوم الحديثة» للأستاذ أحمد كامل ضو، ص ٥٦-٦٠ الطبعة الثانية.

٢ ـ التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ١٦١.

أنباء الغيب

«تِـلْـكَ مِـنْ أنْبـاءِ الْغَـيْـبِ نوحـيها إلَيْـكَ
ماكُنْتَ تَعْلَمُها أنتَ وَلاقَومُك مِن قَبلِ هذا»[١]

ويلحق بالإعجاز العلمي «الإعجاز الغيبي» كلاهما إنباء عن غياهب الوجود.

«عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أحَداً إلّا مَنِ ارْتَضى مِن رَسول»[٢]

من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم ـ حسبما ذكره العلماء ـ الإعجاز بما جاء فيه من أنباء الغيب، وهو كلّما كان غائباً عن النبيﷺ وقومه، ممّا لم يشهدوا حوادث الواقعة أو لم يحضر وقتها، فلم يكونوا على علم بتفاصيلها، فيدخل في الغيب بهذا المعنى كلّ ما ورد في القرآن عن بداية نشأة الكون وما وقع منذ خلق آدم عليه السلام إلى مبعث رسول اللهﷺ من عظيمات الأُمور ومهمّات حوادث التاريخ. وكذلك يشمل ما غاب عنهم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث وجاء الإخبار بها عن طريق الوحي، كإخبار الله تعالى بما يكيده اليهود والمنافقون وما ينوون من دسائس خبيثة، كانت أو كادت تقع حينذاك. ويشمل أيضاً ماتضمّنه من الإخبار عن أُمور وحوادث ستقع في المستقبل.

وعليه فكلمة «الغيب» تشمل كلّ هذه المعاني الثلاثة: غيب الماضي، غيب الحاضر،

---

١ ـ هود ١١: ٤٥.

٢ ـ الجنّ ٧٢: ٢٦و٢٧.

غيب المستقبل. وإليك نماذج من هذه الغيوب:

١ ـ غيب الماضي

لقد سمّى الله تعالى الإخبار عن الأُمم الماضية غيباً، وجعل ذلك دليلاً على صدق النبوّة، وأنّ القرآن الكريم وحيٌ من الله عزّ شأنه. فقد جاء في مواضع من القرآن ـ عند سرد قصص الأنبياء وأُممهم ـ أنّه من أنباء الغيب، بدليل أنّه **«ما كنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا»** فالنبيﷺ أُمّيّ لم يقرأ ولم يكتب. وقومه أُمّيّون ليسوا بأهل كتاب يقرأونه أو يدرسونه، فلا علم لهم جميعاً بحوادث ماضية، إذ لم يكونوا شهودها ولاقرأوها في كتاب أو درسوها في معهد.

قال تعالى بشأن قصّة مريم وكفالة زكريّا لها:

«ذلِكَ مِن أنباءِ الغَيبِ نوحيه إليكَ وَما كُنتَ لَدَيهِم إذ يُلْقُونَ أقْلامَهُم أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَما كُنْتَ لَدَيْهم إذ يَخْتَصِمون».[١]

وقال سبحانه بشأن قصّة نوح وقضية الطوفان:

«تِلْكَ مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ نوحيهِ إليكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنتَ وَلا قَومُك مِن قَبلِ هذا».[٢]

وقال بشأن قصّة يوسف وإخوته:

«ذلِكَ مِن أنْباءِ الْغَيْبِ نوحيهِ إلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذ أجْمَعوا أمرَهُم وَهُمْ يَمْكُرُون».[٣]

نعم، إنّ هذه القصص مع هذه التفاصيل كانت خافية على العرب بالذات، وعلى سائر الناس حتى أهل الكتاب، ممّا جاءت جوانب من تلكم الأخبار في كتبهم محرّفة ومشوّهة، فجاء نصّها الصحيح النزيه في القرآن الكريم، دليلاً على كونها وحياً من السماء، غير مستقاة من تلكم الأساطير.

وهكذا قبل عرض قصّة موسى يقول تعالى:

---

١ ـ آل عمران ٣: ٤٤.

٢ ـ هود ١١: ٤٩.

٣ ـ يوسف ١٢: ١٠٢.

«نَتْلو عَلَيْكَ مِن نَبَأِ موسى وَفِرعَونَ بِالْحَقِّ لِقَومٍ يُؤْمِنون».[١]

وبعد انتهاء القصّة وذكر تفاصيلها وما فيها من عبر وعظات يقول:

«وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إذ قَضَيْنا إلى موسى الأمرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشّاهِدين. وَلٰكِنّا أنْشَأنا قُروناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ وَما كُنتَ ثاوِياً في أهلِ مَدْيَنَ تَتْلو عَلَيهِم آياتِنا وَلٰكِنّا كُنّا مُرسِلين. وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطّورِ إذ نادَيْنا وَلٰكِن رَحْمَةً مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوماً مّا أتاهُم مِن نَذيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرون».[٢]

❊ ❊ ❊

إنّ ورود أخبار الأُمم الماضية والقرون الخالية بهذا التفصيل الدقيق في القرآن الكريم لدليل على كونه وحياً من عند الله علّام الغيوب، وليس من عند البشر ذي العلم القصير، ولاسيّما من مثل محمّدﷺ الذي نشأ في بيئةٍ لاتمكّنه الاطّلاع على مثل هذه الأُمور على دقائقها وظرائفها، ممّا لاسبيل إلى العلم بها سوى التلقّي عن منبع أصيل ركين، إذ لم يكن في تلك البيئة من يعرف هذه الأنباء على هذا الوجه الدقيق النزيه.

«وَما كُنْتَ تَتلُو مِن قَبلِهِ مِن كِتابٍ وَلاتَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لَارْتابَ المُبْطِلُون».[٣]

❊ ❊ ❊

وما تهمة قريش بأنّها «أساطيرُ الأوّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأصيلاً»[٤] إلّا هراءً عارماً، وافتراءً مفضوحاً، جاءت على خلاف ما استيقنتها نفوسهم من أُمّيّة الرسولﷺ وعدم إمكان اتّصاله بذوي الثقافات الراقية في ذلك العهد، حيث إحاطتهم بأحواله في سفره وحضره ومدى علاقاته بسائر الناس.

إنّهم كانوا يحيطون علماً بأحوال الرسولﷺ قبل البعثة، من عدم اتّصال بأحد من أهل الكتاب، ولم تكن له أسفار علمية للبحث والتنقيب عن آثار الأُمم. لكنّهم مع ذلك قالوا ـ كذباً وزوراً ـ: لابدّ أنّه يتعلّمها من أحد فهو يمليها عليه. لكن مَن الذي أُوتي علم

---

١ ـ القصص ٢٨: ٣.
٢ ـ القصص ٢٨: ٤٤-٤٦.
٣ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٨.
٤ ـ الفرقان ٢٥: ٥.

الأولين والآخرين حتّى يستطيع إملاءها على مثل محمّدﷺ؟! ولماذا لم يدع هو النبوّة بدل محمّدﷺ إذا كان هو الأصل ومحمّدﷺ الفرع؟! لذا كانت تهمتهم هذه اعترافاً منهم بأنّ هذه الأنباء لا يمكن أن يأتي بها محمّدﷺ من عند نفسه، ولكن تمويهاً وتضليلاً على الناس وخداعاً لأنفسهم فليلصقوها بأحد من أتباعه أو سائر آحاد الناس، ورواجاً لفريتهم هذه ليكن ذلك المملي شخصاً غريباً عن قريش، لعلّ في ذلك زيادة تضليل وتمويه.

فليكن صهيب الرومي أو سلمان الفارسي أو بلعام الرومي وكان قيناً بمكّة نصرانياً، أو عبداً لبني الحضرمي يقال له: يعيش أو عائش أسلم وحسن إسلامه، أو غلامين نصرانيّين كانا في الجاهلية من أهل عين تمر اسم أحدهما يسار والآخر خير. كانا صيقلين بمكّة يقرءان كتاباً لهما بلسانهم، وكان رسول اللهﷺ ربّما مرّ بهما واستمع لقراءتهما، قالوا إنّما يتعلّم منهما.[1]

الأمر الذي تولّى القرآن الردّ عليه بقوله تعالى:

«وَقالَ الَّذينَ كَفَروا إنْ هذا إلّا إفْكٌ افتَراهُ وَأعانَهُ عَلَيهِ قَومٌ آخَرونَ فَقَدْ جاؤوا ظُلماً وَزوراً. وَقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيهِ بُكْرَةً وَأصيلاً. قُلْ أنْزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّماواتِ وَالْأرْضِ إنَّهُ كان غَفوراً رَحيماً».[2]

«وَلَقَد نَعلَمُ أنَّهُمْ يَقولُونَ إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذي يُلْحِدونَ إليهِ أعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبين».[3]

يقول الإمام الرازي ـ بشأن دلالة القصّة على صدق الرسالة ـ: إنّ دلالتها من وجهين:

أحدهما: كما قال تعالى في سورة الشعراء بعد ذكر القصص: **«وَإنَّهُ لَتَنْزيلُ رَبِّ العالَمينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمين. عَلىٰ قَلْبِكَ لِتَكونَ مِنَ المُنْذِرين»**.[4] وجه الاستدلال أنّهﷺ لمّا لم يتعلّم علماً ولم يقرأ كتاباً ولم يتتلمذ لأُستاذ استحال منه عادةً دراية هذه القصص

---

١ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٨٦.

٢ ـ الفرقان ٢٥: ٤-٦.

٣ ـ النحل ١٦: ١٠٣.

٤ ـ الشعراء ٢٦: ١٩٢-١٩٤.

إلّا عن وحي الله وتنزيله.

والثاني: أنّه كان يذكر القصّة الواحدة مراراً مختلفة بألفاظ مختلفة. وكلّ ذلك مشابهة في الفصاحة. مع أنّ الفصيح إذا ذكر قصّةً مرّةً واحدةً بالألفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرّةً أُخرى بألفاظ فصيحة. فيستدلّ بفصاحة الكلّ على كونها من عند الله تعالى لامن البشر.[1]

و قد فصّلنا الكلام في ذلك في الجزء السابع في مقارنة للقرآن مع كتب السالفين.[2]

٢ ـ غيب الحاضر

والمقصود: ماجرى على عهد رسول الله ﷺ من حوادث لم يحضرها هو ولاالخصّيصون من أصحابه، فنزل القرآن متضمّناً لها ومخبراً بحقيقة ماجرى. حيث لولا إخبار القرآن بها لظلّت مكتومة على المسلمين وغيرهم ممّن غابت عنه، ولاسيّما الدسائس الخفيّة التي كان يقوم بها المنافقون، وكانت المحاولة شديدة على إخفائها، فافتضحهم القرآن الكريم.

وكان في تنبيه القرآن الكريم الرسولَ ومن معه من المؤمنين على الحقيقة وتوجيههم إلى ما ينبغي اتّخاذه حيال الوقائع، كان في ذلك ضمان لسلامة سير الدعوة وتجنيبٌ لها عن الوقوع فيما كان يخطّط لها الأعداء من الكفّار والمنافقين.

فالغاية الأساسية من الغيب الحاضر هو تأييد الدعوة والأخذ بيدها والسير بها على بيّنة من أمرها، وإن كان قد يضمّ إلى ذلك جانب دلالته على صدق الرسالة، ووجود تلك الصلة الوثيقة بينها وبين ربّ السماء والأرض العالم بغيوبهما عن أعين الناس، حيث لم يكن لصاحب الدعوة ولالذويه علم بما دار في غيابهم، وما خطّط لهم وكاد يجري

---

١ ـ أسرار التنزيل، ص ٧ (الفرقان والقرآن لخالد العكّ، ص ٢٣٨).

٢ ـ الجزء السابع، الباب الأوّل، ص ٣٠ فما بعد.

تنفيذه، حتّى أماط القرآن الكريم اللثام عنها وكشف عن واقعها.

ولنذكر أمثلة من هذا النوع من الإعجاز الغيبي، ليظهر لنا من خلالها الهدف الأساسي الذي رمى إليه هذا التوجيه الربّاني، والأهداف اللاحقة أو التبعية التي تستفاد من سوق الخبر أو الحادثة.

وأغلب هذه الحوادث تتعلّق بكشف خطط أعداء الله وكيدهم للقضاء على الجماعة المسلمة، وإطفاء نور الله «وَيَأبى اللهُ إلّا أن يُتِمَّ نورَهُ وَلَو كَرِهَ الْكافِرون».[١]

فممّا جاء بشأن اليهود قوله تعالى:

«وَمِنَ الَّذينَ هادوا سَمّاعُونَ لِلكَذِبِ سَمّاعُونَ لِقَومٍ آخَرينَ لَمْ يَأتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إن أُوتيتُمْ هذا فَخُذوهُ وَإن لَم تُؤْتَوْهُ فَاحْذَروا وَمن يُرِدِ اللهُ فِتنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيئاً أُولئِكَ الّذينَ لَم يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ في الدُّنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيم.

سَمّاعونَ لِلْكَذِبِ أكّالونَ لِلسُّحتِ فَإن جاؤوكَ فَاحكُمْ بَيْنَهُمْ أو أعرِضْ عَنْهُمْ وَإنْ تُعرِض عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيئاً وَإن حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسطِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطين.

وَكَيفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فيها حُكْـم الله ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذٰلِكَ وما أُولئِكَ بِالمُؤْمِنين».[٢]

روى الطبرسي عن الإمام محمّدبن عليّ الباقر عليه السلام وجماعة من المفسّرين أنّ هذه الآيات نزلت بشأن امرأة من خيبر ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشرافهم، وهما محصَنان، فكرهوا رجمهما. فأرسلوا إلى يهود المدينة أن يسألوا النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك طمعاً في أن يأتي لهم برخصة. فانطلق قوم منهم كعب‌بن الأشرف وكعب‌بن أسيد وشعبة‌بن عمرو ومالك‌بن الصيف وكنانة‌بن أبي الحقيق وغيرهم، فقالوا: يا محمّد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أُحصنا ما حدّهما؟ فقال: هل ترضون بقضائي في ذلك؟ قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به.

---

١ ـ التوبة ٩: ٣٢.

٢ ـ المائدة ٥: ٤١-٤٣.

فدعا رسول الله ﷺ عبدالله بن صوريا ـ أحد علمائهم بخيبر وكان عالماً بالتوراة ـ فقال له النبي ﷺ: إنّي أُنشدك بالله، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أُحصن؟ قال ابن صوريا: نعم، هكذا أنزل الله في التوراة، فقال له النبي ﷺ: فماذا كان أول ما ترخّصتم به أمر الله ـ أي تهادنتم به ـ؟ قال: كنّا إذا زنى الشريف تركناه وإذا زنى الوضيع أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا في أشرافنا، فوضعنا الجلد والتحميم[1] وهو أن يجلد أربعين جلدة ثمّ يسوّد وجهه، ويطاف بالبلد راكباً على حمار وجهه على دبر الحمار، فجعلوا هذا مكان الرجم.

فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به، وما كنت ـ لمّا أتينا عليك ـ بأهل، ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك. فقال: إنّه أنشدني بالتوراة، ولولا ذلك لما أخبرته به. فأمر بهما النبي ﷺ فرجما عند باب المسجد، وقال: أنا أول من أحيا أمر الله إذ أماتوه، فأنزل الله في ذلك:

«يا أَهْلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيراً مِمّا كُنْتُم تُخفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعفو عَن كَثيرٍ قَد جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكتابٌ مُبين. يَهدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ بإذنِهِ ويَهْديهِم إلى صِراطٍ مُستَقيم».[2]

فقام ابن صوريا ووضع يديه على ركبتي رسول الله ﷺ ثمّ قال: هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير الذي أُمرت أن تعفو عنه. فأعرض النبي ﷺ عن ذلك. ثمّ سأله ابن صوريا مسائل كثيرة، أوردها الطبرسي في تفسيره.[3]

ومن هذا القبيل ما أخبر القرآن الكريم عن أساليبهم الملتوية في إدخال الوسواس والأحزان في قلوب المؤمنين.

قال الطبرسي ـ في تفسير قوله تعالى: **«ألم تَرَ إلى الذين نُهُوا عن النجوى ثمَّ يعودون لِما نُهوا عنه»** ـ: نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم حسبوا أن بلغهم عن

---

١ ـ قال ابن الأثير: في حديث الرجم «إنّه مرّ بيهودي محمّم مجلود» أي مسودّ الوجه، من الحُمَمة وهي الفحمة.

٢ ـ المائدة ٥: ١٥-١٦.

٣ ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ١٩٣-١٩٤.

أقربائهم وإخوانهم الذين خرجوا إلى السرايا شيء، قتل أو أسر أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلمّا طال ذلك شكوا إلى رسول‌الله ﷺ فنهاهم عن النجوى دون المؤمنين، فلم ينتهوا عن ذلك، فنزلت الآية توبيخاً وتنديداً لهم:

«أَلَمْ تَرَ إلى الّذينَ نُهُوا عَنِ النَّجوى ثُمَّ يَعودونَ لِما نُهوا عَنهُ ويَتَناجَون بِالْإثْمِ وَالعُدوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسولِ وَإذا جاؤوكَ حَيَّوكَ بِما لَم يُحَيِّكَ بِهِ الله وَيَقُولُونَ في أَنْفُسِهِم لَولا يُعذِّبُنا اللهُ بِما نَقولُ حَسبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصلَونَها فَبِئسَ المَصير».[1]

وذلك أنّ اليهود كانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون: سام عليك، والسام الموت، وهم يوهمون أنّه السلام عليك. وهكذا كانوا يحيّون سائر المسلمين. وكانوا يزعمون أن لو كان نبيّاً لم يكد يخفى عليه ذلك، ومن ثمّ سوف لا يعذّبهم الله على صنيعهم هذا، فافتضحهم الله بنزول الآية، وحتم عليهم العذاب وبئس المصير.[2]

ثمّ قال تعالى ـ فصلاً لقوله الحقّ ـ: «يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا إذا تَناجَيْتُمْ فلا تَتَناجَوا بِالْإثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسولِ وَتَناجَوا بِالْبِرِّ وَالتَّقوى وَاتَّقوا الله الّذي إلَيْهِ تُحشَرُون. إنَّما النَجْوىٰ مِنَ الشيطانِ لِيَحْزُنَ الذينَ آمَنُوا وَلَيسَ بِضارِّهِم شَيئاً إلّا بِإذنِ الله وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون».[3]

❊ ❊ ❊

وممّا ورد بشأن المنافقين قوله تعالى:

«وَمِمَّن حَوْلَكُمْ مِنَ الأعرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعلَمُهُمْ نَحْنُ نَعلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلىٰ عذابٍ عَظيم».[4]

والفئة الثانية التي لم يقرّ قرارها في المدينة ـ بعد مهاجرة المسلمين إليها والإخاء الحاصل بينهم وبين الأنصار من أهل المدينة ـ هم فئة المنافقين، وكان يتزعّمها عبدالله‌بن أُبيّ‌بن سلول. فكان هو وأذنابه لم يفتأوا يحاولون النيل من الإسلام ووضع بذور الشقاق

---

١ ـ المجادلة ٥٨: ٨.
٢ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٩-٢٥١.
٣ ـ المجادلة ٥٨: ٩-١٠.
٤ ـ التوبة ٩: ١٠١.

والخلاف بين المسلمين، كلّما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ولكن آيات القرآن الكريم كانت لهم بالمرصاد، حيث كانت تكشف عن دسائسهم وعن أعمالهم الخبيثة، وعن دخيلة أنفسهم، ليكون المسلمون على بيّنة من أمرهم.

فمن الأساليب التي كان يلجأ إليها المنافقون حرب الأعصاب. ففي غزوة أُحد قام رأس النفاق بشطر الجيش وسحب أنصاره منه، وهم زهاء الثلاثمائة يريدون بذلك إيقاع البلبلة والاضطراب في قلوب المسلمين. ولمّا أُصيب المسلمون في المعركة أبدوا شماتة الأنذال الجبناء.

والقرآن يصوّر خسّتهم القائمة على خبث ولؤم وجبن، ويبرز الحقيقة الكامنة فيهم. وهي: أنّ ألسنتهم وصدورهم إنّما تعيشان باستمرار على طرفي نقيض.

قال تعالى:

«وَما أصابَكُمْ يَومَ التَقَى الجَمْعانِ فَبِإذْنِ اللهِ وَلِيعلَمَ المُؤمِنين. وَلِيَعْلَمَ الّذين نافَقوا وَقيلَ لَهُمْ تَعالَو قاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أوِ ادْفَعُوا قالوا لَو نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُم لِلْكُفرِ يَومَئِذٍ أقْرَبُ مِنْهُم لِلإيمانِ يَقُولُونَ بِأفْواهِهِمْ مالَيْسَ في قُلُوبِهِم وَاللهُ أعلمُ بِما يَكْتُمُون. الّذين قالوا لإخوانِهِمْ وَقَعَدوا لَو أطاعونا ما قُتِلُوا قُل فادرَأُوا عَن أنفُسِكُمُ المَوتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِين». [١]

قال الطبرسي: إنّ عبدالله بن أُبيّ بن سلول والمنافقين معه من أصحابه انخذلوا يوم أُحد نحواً من ثلاثمائة رجل وقالوا: علامَ نقتل أنفسنا. وقال لهم عبدالله بن عمرو بن حزام الأنصاري: تعالوا قاتلوا في سبيل الله واتّقوا الله ولا تَخذلوا نبيّكم، أو ادفعوا عن حريمكم وأنفسكم. [٢]

* * *

وفي غزوة الخندق كان لنذالة المنافقين دورها، فقد حفر المسلمون الخندق حول المدينة ليكونوا في مأمن من هجوم أحزاب العرب الكافرة، ولكن المسلمين أصبحوا مع ذلك في خطر يتهدّدهم من داخل المدينة من قبل اليهود ولاسيّما بني قريظة الذين غدروا

---

١ ـ آل عمران ٣: ١٦٦-١٦٨.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٣٣.

بالعهد ليطعنوا بالمسلمين من خلف. ولم يكتف المنافقون بمهمّة التثبيط حتّى قال قائلهم ـ هو معتب بن قشير ـ: كان محمّد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا يخشى أن يذهب إلى الغائط. لم يكتفوا بهذا أيضاً بل قاموا بدور الانسحاب مرّةً أُخرى، راجعين إلى بيوتهم، متذرّعين بعذر لئيم، قالوا: إنّ بيوتنا عورة (مكشوفة) معرّضةً للخطر فلابدّ لهم أن يتولّوا حراستها والدفاع عنها بأنفسهم، علماً بأنّ الخطر لم يكن كامناً على بيوتهم، بل على الجبهة التي وقف المسلمون أمامها، ولكن خسّة الطبع زيّنت لهم هذا الغدر وسوّغته، فتركوا الميدان.[١]

وفي ذلك يقول تعالى:

«هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُؤمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلزالاً شَديداً. وإذ يَقُولُ المُنافقونَ وَالَّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلّا غُروراً. وَإذ قالَت طائِفَةٌ مِنْهُم يا أهْلَ يَثْرِبَ لامُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأذِنُ فَريقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنا عَورَةٌ وَما هِيَ بعَورَةٍ إن يُريدونَ إلّا فِراراً».[٢]

❊ ❊ ❊

وفي غزوة تبوك يتكرّر موقف التخاذل والنذالة والانسحاب، بعد أن حاولوا تثبيط المسلمين عن الخروج للجهاد. وجهّز رأسهم جيشاً من المنافقين ينافس به جيش المسلمين، حتّى كان يقال: ليس عسكر ابن أُبيّ بأقلّ العسكرين. ثمّ أعلن حرب الأعصاب حين قرّر التخلّف والانسحاب، وهو يقول: يغزو محمّد بني الأصفر ـ مع جهد الحال والحرّ والبلد بعيد ـ إلى مالا قبل لديه، يحسب محمّد أنّ قتال بني الأصفر اللعب، والله لكأنّي أنظر إلى أصحابه غداً مقرّنين في الحبال.[٣]

هذا ديدنهم في الشدائد وعند الاستعداد للمعارك، وهو أن يفرّوا من الميدان، ويبرّرون هزيمتهم هذه بأتفه المعاذير. وانظر إلى عذر أحدهم ـ هو الجدّ بن قيس ـ يقول:

---

١ ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٣٣؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٧.

٢ ـ الأحزاب ٣٣: ١١-١٣.

٣ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٦٨.

إنّه يخشى على نفسه الفتنة من نساء الروم لجمالهنّ.[١]

وانظر إلى الآيات وهي تُعري حقائقهم:

«إنّما يَسْتَأذِنُكَ الّذينَ لايُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون. وَلو أرادوا الخُروجَ لَأعَدّوا لَهُ عُدّةً وَلكِن كَرِهَ اللهُ انبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُم وَقيلَ اقْعُدوا مَعَ الْقاعِدين. لَو خَرَجوا فيكُم ما زادُوكُم إلّا خَبالاً وَلَأوْضَعوا خِلالَكُم يَبْغونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفيكُم سَمّاعونَ لَهُم وَاللهُ عَليمٌ بِالظّالمين. لَقَدِ ابتَغَوُا الفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبوا لَكَ الْأُمورَ حَتّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أمرُ اللهِ وَهُمْ كارِهُونَ. وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ ائذَنْ لي وَلاتفتِنّي ألا في الفِتنَةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطَةٌ بِالْكافِرين».[٢]

***

وأخيراً وبصفة عامّة يصف العرب ـ ولاسيّما البدو منهم ـ بالنفاق العارم، وأنّهم لايزالون يكيدون بالإسلام، وحتّى الذين أسلموا في ظاهر الأمر، إنّما يُبطنون الكفر والنفاق.

قال تعالى بشأنهم:

«الأعرابُ أشَدُّ كُفراً وَنِفاقاً وَأجدَرُ أن لا يَعلَمُوا حُدودَ ما أنزَلَ اللهُ عَلى رَسولِهِ وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ. وَمِنَ الأعرابِ مَن يَتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوءِ وَاللهُ سَميعٌ عليمٌ ـ إلى قوله ـ وَمِمَّن حَوْلَكُمْ مِنَ الأعرابِ مُنافِقونَ وَمِن أهلِ المَدينَةِ مَرَدُوا عَلى النِّفاقِ لاتَعلَمُهُم نَحنُ نَعلَمُهُم سَنُعذِّبُهُمْ مَرَّتَينِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذابٍ عَظيم».[٣]

***

وما ورد بشأن مسجد ضرار:

«وَالَّذينَ اتَّخَذوا مَسجِداً ضِراراً وَكُفراً وَتَفريقاً بَينَ المُؤمِنينَ وَإرصاداً لِمَن حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبلُ وَلَيَحلِفُنَّ إن أرَدنا إلّا الحُسنى وَاللهُ يَشهَدُ إنَّهُمْ لَكاذِبون. لاتَقُمْ فيهِ أبَداً

---

١ ـ المصدر، ص ١٥٩؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٣٦. ٢ ـ التوبة ٩: ٤٥-٤٩.

٣ ـ التوبة ٩: ٩٧-١٠١.

لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقوى مِن أَوَّلِ يَومٍ أحَقُّ أن تَقومَ فيهِ، فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّروا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرين. أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِن اللهِ وَرِضوانٍ خَيرٌ أم مَن أسَّسَ بُنيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ في نارِ جَهَنَّمَ واللهُ لايَهْدي القَومَ الظّالمين. لايزالُ بُنْيانُهُمُ الّذي بَنَوا ريبَةً في قُلوبِهِم إلّا أن تَقَطَّعَ قُلوبُهُمْ وَاللهُ عَليمٌ حَكيم».[١]

هذه الآيات نزلت بعد منصرفه ﷺ من غزوة تبوك، وكان ﷺ قد وعدهم بالصلاة في مسجدهم، فجاءت الآيات نهياً وتحذيراً، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم وابن عدي وقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرّقاه، ففعلا.[٢]

٣ـ غيب المستقبل

إخبار عن حوادث ستقع في مستقبل قريب أو بعيد، ولاسيّما القريبة منها كانت دلائل على صدق النبوّة، وأمّا البعيدة منها فهي ما ينتظر دورها والزمن كفيل بإظهار ذلك للأجيال، الأمر الذي لايمكن البتّ بوقوعه فيما يأتي لسوى علّام الغيوب.

من ذلك، التحدّي بالقرآن بالنسبة إلى أجيال قادمة، ممّا يجعل القطع في مثله دليلاً على تداوم الإعجاز من ناحية التحدّي عبر الأيّام.

قال تعالى: «وَإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقين. فإن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا...».[٣]

فهذه القاطعية في عدم إمكان المعارضة مدى الأجيال لدليل قاطع على صدق الرسالة، وأنّه من كلامه تعالى العالم بما كان وما يكون.

الإنسان مهما بلغ من قدرة على الكمال والعلم والأدب، فإنّه إن أمكنه التحدّي مع أبناء زمانه ـ حيث يعرف مدى قابلياتهم ـ فإنّه عاجز عن إمكان معرفة مقدرة ذوي

---

١ ـ التوبة ٩: ١٠٧ـ١١٠.

٢ ـ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٧٤.

٣ ـ البقرة ٢: ٢٣ـ٢٤.

الفضائل في مستقبل الأيّام.

قال تعالى: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعْتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلى أن يأتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لايَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوكانَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ ظَهيراً».[١]

***

ومن ذلك، إخباره القاطع بظهور الإسلام وغلبة الدين على الإلحاد غلبةً ظاهرة. وأنّ الإسلام يعلو وما يعلىٰ.

«هُوَ الّذي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِاللهِ شَهيداً».[٢]

«يُريدونَ لِيُطفِئوا نورَ اللهِ بِأفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمّ نورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرون. هُوَ الَّذي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّه وَلَو كَرِهَ المُشْرِكُون».[٣]

«يُريدُونَ أنْ يُطْفِئوا نورَ اللهِ بِأفْواهِهِمْ وَيَأبى اللهُ إلّا أن يُتِمَّ نورَهُ وَلَو كَرِهَ الكافِرون. هُوَ الَّذي أرسَلَ رَسولَهُ بِالْهُدى وَدين الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّهِ وَلَو كَرِهَ المُشركون».[٤]

ففي هذه الآيات الثلاث وعدٌ حتمٌ بظهور الإسلام وغلبته على الكفر والإلحاد، رغم معارضة المناوئين الألدّاء، وهو إخبار غيبيّ عن مستقبل قادم، وقد تجلّت الحقيقة بصدق مقام الرسالة العامّة مدى القرون والأعوام.

وفي قوله «على الدّين كلّه» دلالة واضحة على سطو الإسلام على سائر الأديان الراهنة في أرجاء الأرض، إمّا ظهوراً بالغلبة والإبادة، أو بسطوع البرهان القاطع. فقد «جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقاً».[٥]

ولعلّ في ذلك إلماعة إلى ظهور دولة الحقّ، على يد مهديّ آل محمّد عجّل الله فرجه، والتي تملأ بها الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، اللهمّ عجّل فرجه وسهّل

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٨٨.
٢ ـ الفتح ٤٨: ٢٨.
٣ ـ الصف ٦١: ٨-٩.
٤ ـ التوبة ٩: ٣٢-٣٣.
٥ ـ الإسراء ١٧: ٨١.

مخرجه.[١]

***

ومن ذلك ما توعّد القرآن أُناساً معيّنين معروفين وحدّد مصيرهم في هذه الحياة إلى شقاء وفي الآخرة شمول عذاب عظيم، وأنّهم سوف يموتون على الكفر ويخلدون في نار جهنّم داخرين.

قال تعالى بشأن أبي‌لهب:[٢]

«تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ. ما أَغْنىٰ عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَب. سَيَصلىٰ ناراً ذاتَ لَهَب. وامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الحَطَب. في جيدِها حَبلٌ مِنْ مَسَد».[٣]

---

١ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٢٧.

٢ ـ هو عبدالعزّىٰ بن عبدالمطّلب عمّ رسول الله صلّی الله عليه وآله كان من أشدّ الناس عداوة له. كان إذا غدا رسول الله إلى بعض القبائل يتبعه ليكذّبه وينهى الناس عن تصديقه. وكانت امرأته أُمّ جميل بنت حرب أُخت أبي‌سفيان وعمّة معاوية تسعى عند القوم بالنميمة على رسول الله صلّی الله عليه وآله لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة. والساعي بالنميمة يلقّب بحامل الحطب، كما قال الراجز:

إنّ بـني الأدرم حـمّالو الحـطب ... هم الوُشاة في الرضاء والغـضب

ولقّب عبدالعزّى بأبي‌لهب، قيل: لتلهّب وجنتيه وإشراقهما.

وكان ذا ثروة طائلة وحفدة وبنين. ولكن رماه الله بالعَدَسة (بَثْرة تخرج في مواضع من البدن، هي قرحة منتنة ومعدية تشبه السرطان الجلدي، كالطاعون. قلّما يسلم صاحبها. وكانت العرب تتّقي العدسة وعدواها كما يتّقي الناس الطاعون).

فقد أُصيب أبولهب بهذه القرحة الفجيعة، وتجنّبه ولده وخدمه وسائر ذويه استنفاراً منه وتركوه بلا دواء ولا غذاء ولا علاج، يتجرّع الأمرّين طول ثلاثة أيّام حتّى وافته المنيّة في شرّ الأحوال، وكان ذلك بعد وقعة بدر، ولم يحضرها. وتركه ذووه ثمّ جرّوه إلى حفيرة وأهالوا عليه التراب ذلاًّ. فهلك وقبر ذليلاً مذموماً. وكانت معجزة للإسلام وعبرة لسائر الأنام.

قال الإمام الرازي: هذه الآيات تضمّنت الإخبار بالغيب من ثلاثة أوجه:

أحدها: الإخبار عنه بالتباب والخسار، وقد كان كذلك.

ثانيها: الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده، وقد كان كذلك كما عرفت.

ثالثها: الإخبار بأنّه من أهل النار، وقد كان كذلك، لأنّه مات على الكفر. راجع: التفسير الكبير، ج ٣١، ص ١٧٠-١٧١.

٣ ـ المسد ١١١: ١-٥.

وقال بشأن الوليد بن المغيرة:[1]

«ذَرني وَمَن خَلَقْتُ وَحيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً. وَبَنينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أن أزيدَ. كَلّا إنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنيداً. سَأُرهِقُهُ صَعُوداً. إنَّهُ فَكَّرَ وَقدَّرَ. فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقالَ إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البَشَر. سَأُصليهِ سَقَر».[2]

وبشأن أبي جهل:[3]

«أرَأَيْتَ الَّذي يَنهىٰ. عَبداً إذاً صَلّى. أرَأيْتَ إنْ كانَ عَلَى الهُدى. أو أَمَرَ بِالتَقْوىٰ. أرَأيْتَ إنْ كَذَّبَ وَتَوَلّىٰ. ألَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرىٰ. كَلاّ لَئِن لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَةِ. ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ. فَلْيَدعُ نادِيَهُ. سَنَدعُ الزَّبانِيَة».[4]

فلو لم يكن ذلك من علّام الغيوب ـ المحيط بالماضي والحال والمستقبل ـ لما صحّ ذلك في ما أخبر به. بل لما كان من عاقل البشر أن يضع مصير دعوته على شيء معيّن يحتمل خلافه. فلو كان آمن واحد من هؤلاء الثلاثة الذين دمغهم القرآن بالكفر والشقاق المخلّد ذكره في زمرة الأشقياء لانطفأت شعلة الإسلام وقامت الحجّة على القرآن ومن

---

١ ـ هو الوليد بن المغيرة المخزومي من أشراف قريش وقضاتها في الجاهليّة ومن الأثرياء. أعلن العداوة للدعوة الإسلاميّة، وهلك كافراً قبل الهجرة بعام. هو والد خالد بن الوليد بطل المعركة يوم أُحد.

قال الإمام الرازي: أجمعوا على أنّ المراد هاهنا: الوليد بن المغيرة... راجع: التفسير الكبير، ج ٣٠، ص ١٩٨.

٢ ـ المدّثّر ٧٤: ١١-٢٦.

٣ ـ هو أبوجهل بن هشام، قتل في واقعة بدر مذموماً. كان من أعدى أعداء الإسلام، مهرّجاً مستهتراً وقيحاً.

قال ابن إسحاق: لمّا نزلت الآية: «أذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أم شَجَرَةُ الزَقّوم. إنّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظّالِمين. إنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أصْلِ الجَحيم. طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤوسُ الشَّياطين. فَإنَّهُمْ لآكِلونَ مِنْها فَمالِئونَ مِنْها البُطون...». الصافّات ٣٧: ٦١-٦٢.

فقد أهاجت من غلواء المشركين وجعلتهم حيارىٰ مندهشين. فعمد أبوجهل ـ على عادته ـ يحاول تهدئة هياجهم المبرّح، قائلاً: يا معشر قريش، أو تدرون ما هي شجرة الزقّوم، إنّها عجوة يثرب بالزبد. فوالله لئن استمكنّا منها، لنتزقّمنّها تزقّماً (التزقّم: الابتلاع). قالها مستهزءاً لهياجهم الثائر.

قيل: فنزلت: «إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعامُ الأثيم. كَالْمُهْلِ يَغْلي في البُطونِ كَغَلْيِ الحَميم. خُذوهُ فَاعْتِلوهُ إلى سَواءِ الجَحيم. ثُمَّ صُبّوا فَوْقَ رَأسِهِ مِنْ عَذابِ الحَميم. ذُقْ إنَّكَ أنْتَ العَزيزُ الكَريم...». الدخان ٤٤: ٤٣-٤٩.

فما أبرها من معجزة، دامغة في حينها وجارية مع الطغاة أبداً.

٤ ـ العلق ٩٦: ٩-١٨.

جاء به. مثلاً لو آمن أبو لهبَ لما كان لقوله تعالى: «**سيصلى ناراً ذات لهب**» منصرف ولا واقع مفهوم، ولأصبحت هذه الآية ـ مثلاً ـ في وادٍ والواقع في وادٍ آخر.

قال الدكتور مصطفى مسلم: وكيف كان محمّدﷺ يقابل الناس بها، وقد أصبح أبولهب من الصحابة كعمربن الخطّاب وأحزابه من الّذين كان لهم موقف معادٍ للإسلام قبل أن يدخلوا فيه.[1]

هذه معجزة القرآن الباهرة، وأيّ معجزة أبهر وأقهر من أمرٍ لايكلّف صاحبه أكثر من كلمة يقولها بلسانه، فيبطل بها قول محمّدﷺ ويفسد أمره جميعه، ثمّ لا يقول تلك الكلمة، ولاتسمح له الحياة أن يقولها، فقد عاجلَته المنيّة قبل يوم الفتح الذي دخلت فيه قريش كلّها الإسلام واعتنقته رغم أُنوفها. فربّما كان مصير أبي جهل وأبي لهب والوليد مصير سائر صناديد قريش لو عاشوا ذلك اليوم. فلو كان لكان إسلامهم إذ ذاك هدماً للإسلام بتقويض أكبر دعامة له والعياذ بالله.

أفلا يدلّ ذلك جليّاً أنّ القرآن كلامه تعالى، كلام مَن خلق الموت والحياة، والذي بيده الآجال، ومصير كلّ شيء بيده، ومآل كلّ أمر إليه؟! وهو الذي ضمن حفظ دينه وكتابه: «**إنّا نحنُ نزّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لهُ لحافِظُون**».[2]

«**وَما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفْتَرى مِن دُونِ اللهِ وَلكنْ تَصديقَ الّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصيلَ الكِتابِ لارَيْبَ فيهِ مِنْ رَبِّ العالَمِين**».[3]

* * *

ولو ذهبنا نتتبّع أخبار القرآن الغيبية لطال بنا المسير، وإنّما نشير إلى جملة من الآيات الكريمة في هذا الشأن:

قال تعالى بشأن المشركين يوم كانوا على ذروة العزّة والشقاق وكانوا ذوي قدرة واتّفاق، فأخبر عن تفرّقهم و تبدّد جمعهم وهزيمتهم تجاه شوكة الإسلام:

---

١ ـ اُنظر: مباحث في إعجاز القرآن، ص ٢٤٧-٢٥٦ ط جدّة.

٢ ـ الحجر ١٥: ٩.

٣ ـ يونس ١٠: ٣٧.

«أم يَقُولُونَ نَحْنُ جَميعٌ مُنتَصِرٌ. سَيُهزمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَل السّـاعَةُ مَـوعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أدهى وأمَرّ». [1]

وهكذا أخبر عن ظهور الدعوة وغلبتها على الكفر والشقاق وانهزام المناوئين، أخبر بذلك في بكرتها إبّان إعلان الدعوة بمكّة:

«فاصدَعْ بِما تُؤمَرُ وَأعرِض عَنِ المُشرِكينَ. إنّا كَفيناكَ المُسْتَهزِئينَ. الّذينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَسَوفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَد نَعلَمُ أنّكَ يَضيقُ صَدرُكَ بِما يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وَكُنْ مِنَ السّاجِدين. وَاعبُد رَبَّكَ حتّى يَأتِيَكَ اليَقين». [2]

وعلى غرارها جاءت الآية الأُخرى ـ في نهاية أمره بالمدينة بعد منصرفه من حجّة الوداع ـ:

«يا أيُّهَا الرَسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مَنَ النّاسِ إنَّ اللهَ لايَهدِي القَومَ الكافرين». [3]

نزلت بغدير خمّ عند أمره ﷺ بنصب علي عليه السلام وليّاً على المؤمنين.

❊ ❊ ❊

وآيات حفظ القرآن عن الضياع والإهمال وعن تناوش أيدي الاعتداء والمبطلين، لدليل قاطع على كونه معجزةً قاهرةً وآيةً باهرة:

«إنّا نَحنُ نَزَّلْنَا الذِّكرَ وَإنّا لَهُ لَحافِظُونَ». [4]

«وإنَّهُ لَكِتابٌ عَزيزٌ. لايَأتيهِ الباطِلُ مَن بَيْنَ يَدَيْهِ وَلا مِن خَلْفِهِ تَـنزيلٌ مِـن حَكـيمٍ حَميد». [5]

«إنَّ عَلَيْنا جَمعَهُ وَقُرآنَه». [6]

«وَما أرْسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رَسُولٍ وَلانَبيٍّ إلّا إذا تَمَنّى ألق الشَّيطانُ في أُمنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ

---

١ ـ القمر ٥٤: ٤٤ـ٤٦.
٢ ـ الحجر ١٥: ٩٤ـ٩٩.
٣ ـ المائدة ٥: ٦٧.
٤ ـ الحجر ١٥: ٩.
٥ ـ فصّلت ٤١: ٤١ـ٤٢.
٦ ـ القيامة ٧٥: ١٧.

ما يُلقي الشَّيطانُ ثمّ يُحكِمُ اللهُ آياتِهِ واللهُ عَليمٌ حَكيم». [١]

«بَل نَقْذِفُ بِالحَقِّ علَى الباطِلِ فَيدمَغُهُ فَإذا هُوَ زاهِق». [٢]

والآيات من هذا القبيل كثيرة ضمنت الخلود لهذا الدين والبقاء لشريعة الإسلام مع الأبدية، وهكذا الوعد بالنصر المحتوم:

«إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالّذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا وَيَومَ يَقُومُ الأشهاد». [٣]

«إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً. لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ ما تقدّم مِن ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّر وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُستَقيماً. وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصراً عَزيزاً». [٤]

* * *

كما جاء الوعد بالنصر عقب صلح الحديبية ودخول مكّة وعداً محقّقاً، كان فيه الظفر النهائي للإسلام على الكفر والإلحاد:

«لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤمِنينَ إذ يُبايِعُونَكَ تَحتَ الشَجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فَأنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِم وَأثابَهُمْ فَتحاً قَريباً (فتح خيبر أو فتح مكّة) وَمَغانِمَ كَثيرَةً يأخُذُونَها وَكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً. وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثيرةً تَأخُذونَها (مع النبيّ وستدوم بعده) فَعَجَّلَ لَكُم هذه (مغانم خيبر) وَكَفَّ أيْدِيَ النّاسِ عَنْكُمْ (حيث رأوا شوكتهم وأُبّهتكم فهابوكم) وَلِتَكُونَ آيَةً لِلمُؤمِنينَ وَيَهدِيَكُمْ صِراطاً مُستَقيماً». [٥]

نعم، كان تحقّق هذا النصر وتلك الغلبة آيةً للمؤمنين وعبرةً لمن سواهم.

«لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرامَ (في عمرة القضاء) إن شاءَ اللهُ آمِنينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ لاتَخافُونَ فَعَلِمَ مالَمْ تَعلَمُوا فَجَعلَ مِن دُونِ ذلكِ فَتحاً قريباً. (فتح مكّة ودخولها مظفّرين) هُوَ الّذي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِاللهِ شَهيداً». [٦]

---

١ ـ الحجّ ٢٢: ٥٢.
٢ ـ الأنبياء ٢١: ١٨.
٣ ـ غافر ٤٠: ٥١.
٤ ـ الفتح ٤٨: ١-٣.
٥ ـ الفتح ٤٨: ١٨-٢٠.
٦ ـ الفتح ٤٨: ٢٧-٢٨.

وكذلك وعده بالنصر والرجوع إلى بلده الآمن كما كان:

«إنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيكَ القُرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ قُل رَبِّي أعلَمُ مَن جاءَ بِالهُدىٰ وَمن هُوَ في ضَلالٍ مُبين».[1]

قال الطبرسي: في الآية دلالة على صدق النبوّة، لأنّه أخبر برجوعه إلى مكّة من غير شرط ولا استثناء، وجاء المخبر به مطابقاً للخبر. قال القتيبي: معاد الرجل بلده، لأنّه يتصرّف في البلاد ثمّ يعود إليه.[2]

***

وكذلك إخباره عن اعتذارات تذرّع بها المتخلّفون من الأعراب، منها عام الخروج إلى الحديبية سنة ستّ من الهجرة والمسير إلى عمرة القضاء، فاستنفر من حول المدينة جماعات، وتثاقل عنه آخرون.

قال تعالى بشأنهم:

«سَيَقُولُ لَكَ المُخَلَّفُونَ مِنَ الأعرابِ شَغَلتنا أموالُنا وَأهلُونا فاستَغْفِر لنا يَقُولُونَ بِألسِنَتِهِم ما لَيْسَ في قلوبهم ـإلى قوله ـ بَل ظَنَنْتُمْ أن لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسولُ وَالمُؤمِنونَ إلى أهْلِيهِمْ أبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ في قُلوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوماً بُوراً».[3]

«سَيَقُولُ المُخَلَّفُونَ إذا انطَلَقتُمْ إلى مَغانِمَ (بعد فتح خيبر) لِتَأخُذُوها ذَرونا نَتَّبِعْكُمْ يُريدونَ أن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُل لَنْ تتبعُونا كَذلِكُم قالَ اللهُ مِن قَبلُ».[4]

«قُل لِلْمُخَلَّفينَ مِنَ الأعْرابِ سَتُدْعَونَ إلى قَومٍ أُولي بَأسٍ شَديدٍ تُقاتِلونَهُمْ أو يُسلِمُون».[5]

قال الطبرسي: الداعي هو النبيّ‌ﷺ لأنّه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة وقتال أقوام ذوي نجدة وشدّة مثل أهل حنين والطائف ومؤتة وتبوك وغيرها.[6]

---

١ ـ القصص ٢٨: ٨٥.
٢ ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٩.
٣ ـ الفتح ٤٨: ١١-١٢.
٤ ـ الفتح ٤٨: ١٥.
٥ ـ الفتح ٤٨: ١٦.
٦ ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ١١٥-١١٦.

وهكذا الآيات النازلة بشأن غزوة تبوك، من تثاقل من المسلمين ومن تقاعس منهم من ضعاف الإيمان. قال تعالى:

«يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا ما لَكُم إذا قيلَ لَكُمُ انْفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الْأَرْضِ، أرَضيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ. فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلّا قَليل.

إن لا تَنْفِروا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً وَيَسْتَبْدِل قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضرُّوهُ شَيْئاً. وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدير».[1]

قال الطبرسي: لمّا رجع رسول الله ﷺ من الطائف أمر بالجهاد لغزوة تبوك. وكان قلّ ما خرج في غزوة إلّا كنّى عنها وورّىٰ بغيرها، إلّا غزوة تبوك، لبعد شُقّتها وكثرة العدوّ، ليتأهّب الناس، فأخبرهم بالذي يريد. فلمّا ظهر من الناس تثاقلهم، أنزل الله...[2]

قوله تعالى: «ويستبدل قوماً غيركم».. قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس.

وقال تعالى: «إنْ لا تَنْصُروهُ فَقَد نَصَرَهُ اللهُ إذ أخْرَجَهُ الَّذينَ كَفَروا ثانِيَ اثْنَيْنِ إذ هُما في الغار، إذ يَقول لِصاحِبِهِ: لا تَحْزَنْ، إنَّ اللهَ مَعَنا. فَأنْزَلَ اللهُ سَكينَتَهُ عَلَيْهِ وَأيَّدَهُ بِجُنودٍ لَمْ تَرَوْها. وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذينَ كَفَروا السُّفْلىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هيَ الْعُلْيا. وَاللهُ عَزيزٌ حَكيم».[3]

قوله تعالى ـ حكاية عن النبيّ ﷺ ـ: «إنّ الله معنا...».. ثقة بالله قاطعة أنّه سيؤيّده بنصره، وقد تحقّق بالفعل: «فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها».

وقال تعالى: «لَو كانَ عَرَضاً قَريباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعوكَ، وَلٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ، وَسَيَحْلِفونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجنا مَعَكُم. يُهْلِكونَ أنْفُسَهُم. وَاللهُ يَعْلَمُ إنَّهُمْ لَكاذِبون».[4]

قوله: «سيحلفون...». قال الزمخشري: يعني المتخلّفين عند رجوعك من غزوة تبوك، معتذرين، يقولون: بالله لو استطعنا لخرجنا معكم.

قال: والإخبار بما سوف يكون بعد القفول ـ من حلفهم واعتذارهم ـ وقد كان، هو من

---

١ ـ التوبة ٩: ٣٨-٣٩.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٠.

٣ ـ التوبة ٩: ٤٠.

٤ ـ التوبة ٩: ٤٣.

جملة المعجزات.[١]

❊ ❊ ❊

وهكذا الإخبار عن قولة المشركين وغيرهم فيما سيأتي، وقد تحقّق في وقت قريب دليلاً على الإعجاز:

قال تعالى: «سَيَقُولُ السُّفهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلّاهُمْ عن قِبْلَتِهِمُ الّتي كانُوا عَلَيها...».[٢]

وقال: «سَيَقُولُ الّذين أشرَكُوا لَو شاءَ اللهُ ما أشرَكنا وَلا آباؤُنا وَلاحَرَّمنا مِن شَيءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم».[٣]

تلك قولة من سقطت حجّته واستفلس برهانه، ومن ثمّ ردّ عليهم سبحانه بقوله: «قُل فَلِلّهِ الحُجَّةُ الْبالِغَة فَلَو شاءَ لَهَداكُم أجْمَعين».[٤]

❊ ❊ ❊

ومن الإخبار بالغيب القريب ما جاء بشأن غلبة الفرس على الروم وسينقلب الأمر في وقت قريب.

قال تعالى: «غُلِبَتِ الرُّومُ. في أدنَى الأَرضِ وَهُمْ مِنْ بَعدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بِضْعِ سِنينَ للهِ الأمرُ مِنْ قَبلُ وَمِن بعدُ ويَومَئِذٍ يَفرَحُ المؤمِنونَ. بِنَصرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ. وَعْدَ اللهِ لايُخلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لايَعلَمُونَ».[٥]

كانت المعارك دامية بين الروم والفرس أيّام الملك «خسرو أبرويز» فكانت الحروب مستمرّة من سنة ٦٠٣م إلى سنة ٦٢٧م، وكانت الكفّة راجحة لإيران في أول الأمر حتّى عام ٦٢٢م، وبعده انقلب الأمر ودارت الدائرة على إيران، وكانت الغلبة لبيزانس حيث الغلبة حالفت هرقل ملك الروم حتّى نهاية أمر خسرو أبرويز عام ٦٢٨م حيث قتل في الطامورة على يد نجباء إيران ذلك اليوم، وبدأ مُلك «شيرويه» الملِك الذي انهزم أمام

١ ـ الكشاف، ج ٢، ص ٢٧٣.
٢ ـ البقرة ٢: ١٤٢.
٣ ـ الأنعام ٦: ١٤٨.
٤ ـ الأنعام ٦: ١٤٩.
٥ ـ الروم ٣٠: ٢-٦.

جيوش الإسلام في نهاية الأمر.[1]

والآية نزلت بمكّة، حيث كانت الغلبة للفرس على الروم، حتّى عام ٦٢٢م وهو عام الهجرة إلى المدينة، فكانت الهجرة مقارنة لغلبة الروم على الفرس، تمهيداً للفتوحات التي كانت تنتظر المسلمين تجاه قوى الفرس المنحلّة بعد تلك الحروب الدامية، وقد شلّت قواهم تجاه تلك المعارك المضنية.

ولعلّ الآية نزلت في بعض فتوحات الفرس لبلاد الروم، ولاسيّما فيما قارب بلاد العرب، ولعلّه الحرب التي وقعت في صالح الفرس عام ٦١٧م، حيث فتحوا بلاد الشام و حاولوا الهجمة على مصر والاسكندرية، وهذا قبل الهجرة بخمس سنين تقريباً، ومن ثَمَّ كان الإيعاز بغلبة الروم على الفرس حوالي عشر سنين ـ أي سنة ٦٢٧م ـ تقريباً ـ أي بعد الهجرة بخمس سنين ـ وبذلك كان الرجاء في ظفرِ المسلمين أيضاً على الفرس حينذاك قريباً، وبذلك يفرح المؤمنون.

***

وآخر سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة النصر:

«بِسمِ اللهِ الرَّحمانِ الرَّحيم. إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ في دينِ اللهِ أفواجاً. فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرهُ إنَّهُ كانَ تَوّاباً».[2]

نزلت بعد فتح مكّة وظهور الإسلام ظهوراً كاملاً، وجعلت العرب تتسابق إلى الدخول في الإسلام أفواجاً أفواجاً، فجاءت السورة مبشّرة بهذا الفتح وحسن عاقبة الأمر. وقد فرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، حيث تحقّق وعد الله بالنصر والغلبة النهائية.

لكن العبّاس بن عبدالمطّلب ـ عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله ـ لمّا سمع بها اغتمّ وبكى، فقيل له: ما يبكيك وقد استبشر المسلمون بها؟! قال: أظنّ أنّه قد نعيت إلى ابن أخي نفسه الكريمة. فقيل بذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله فقال: صدق عمّي، قد نعيت إليّ نفسي، وهي مقبوضة في هذا

---

١ ـ راجع: تاريخ إيران لحسن پيرنيا، ص ٢٢٢-٢٢٧. ٢ ـ النصر ١١٠: ١-٣.

العام.[١]

ذلك أنّ السورة إيعاز بكمال رسالته وإتمامها، فقد حان أوان الرحيل إلى لقاء الله.

***

ومنها آيات وراثة الأرض للعباد الصالحين في وقت عاجل وآجل جميعاً.

قال تعالى: «وَعَدَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخلِفَنَّهُم فِي الأرضِ كَما استَخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِهِمْ ولَـيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارتَضى لَهُمْ وَلَيُبدِّلَنَّهُمْ مِن بَـعدِ خَوفِهِمْ أمناً».[٢]

«وَنُريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضعِفُوا في الأرضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثين».[٣]

والآيات وإن كنّ نزلن بشأن بني إسرائيل ـ في ظاهر تفسيرهنّ ـ لكن عموم القاعدة المستفادة من آية أُخرى جاءت عامّة: «ولَقَد كَتَبنا فِي الزَّبورِ[٤] مِن بَعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُون».[٥]

إنّها سنّة إلهية جارية في الخلق، سوف يرث المستضعفون المستكبرين في الأرض ويستخلفونهم في عمارتها، وجاء تأويل مثل تلكمُ الآيات في ظهور دولة الحقّ في آخر الزمان،[٦] رزقنا الله شهودها إن شاء الله.

***

وهناك آيات تندّد بالعرب ممّن استسلموا ولم يُسلموا إسلاماً صادقاً، أو أسلموا ثمّ ارتدّوا على أعقابهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر والنفاق. ولعلّ الأمر بعد وفاته صلى الله عليه وآله كان أبين من حالتهم التعنّتيّه، حيث نبذوا وصايا الرسول صلى الله عليه وآله خلف ظهورهم واتّبعوا أهواءهم. فهناك تنديد بأمثالهم أن سوف يأتي الله بقوم يكونون صادقين في إيمانهم فيغلبون العرب وتكون الدولة دائرة بيدهم، والعرب أذلّاء بين أيديهم، ولقد صدق عليهم

١ ـ راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٤.
٢ ـ النور ٢٤: ٥٥.
٣ ـ القصص ٢٨: ٥.
٤ ـ راجع: مزامير داود ـ في العهد القديم ـ فصل ٣٧، ص ٢٦.
٥ ـ الأنبياء ٢١: ١٠٥.
٦ ـ راجع: الصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ١٠٧ و١٧٨ و٢٥٣.

القول وظهر وجه الحقّ.

قال تعالى:

«يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَن يَرتَدَّ مِنْكُم عَن دينِهِ فَسَوفَ يَأتي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنينَ أعِزَّةٍ عَلَى الكافِرينَ يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَومَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَليم».[١]

وقال: «إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيُّها النّاسُ وَيَأتِ بِآخَرينَ وَكانَ اللهُ عَلىٰ ذلِكَ قَديراً».[٢]

وقال: «فَإن يَكفُر بِها هؤلاءِ فَقَد وَكَّلنا بِها قَوماً لَيسوا بِها بِكافِرين».[٣]

❊ ❊ ❊

وقال بشأن رجوعهم القهقرى: «وَمِمَّن حَولَكُم مِنَ الأَعرابِ مُنافِقُونَ وَمِن أهلِ المَدينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لاتَعلَمُهُمْ نَحْنُ نَعلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَينِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذابٍ عَظيم».[٤]

«وَما مُحَمّدٌ إلّا رَسُولٌ قَد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعقابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجزي اللهُ الشّاكرين».[٥]

والآية وإن كانت نزلت بشأن واقعة أُحد وفرار أكثر المسلمين وفيهم المعاريف لكن اللحن عامّ يشمل ما بعد وفاته ﷺ أيضاً. حيث ارتداد بعض العرب آنذاك.

❊ ❊ ❊

قال تعالى: «وَإن تَتَوَلَّوا يَستَبدِلَ قَوماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لايَكُونُوا أمثالَكُم».[٦]

أمّا مَن هؤلاء القوم الذين استبدلهم الله ففاقوا العرب صدقاً وثباتاً في الدين؟ فقد سئل رسول الله ﷺ عنهم، فقال ـ واضعاً يده على عاتق سلمان الفارسي ـ: هذا وذووه. ثمّ قال: لو كان الدين معلّقاً بالثريّا لتناوله رجال من أبناء فارس.[٧]

❊ ❊ ❊

---

١ ـ المائدة ٥: ٥٤.
٢ ـ النساء ٤: ١٣٣.
٣ ـ الأنعام ٦: ٨٩.
٤ ـ التوبة ٩: ١٠١.
٥ ـ آل عمران ٣: ١٤٤.
٦ ـ محمّد ٤٧: ٣٨.
٧ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٣، ص ١٢٢ و٢٠٨ وج ٩، ص ١٠٨؛ والميزان، ج ٧، ص ٢٧٢.

أمّا وجه دلالة هذه الأنباء على صدق الرسالة فلأنّ حالة النبيّ ﷺ عند إطلاق هذه الأنباء ـ الموغلة في القدم، أو الحاضرة الخافية في صدور أهلها، أو الوعود المستقبلة التي كانت في مجاهل الغيب ـ حال الواثق المتيقّن من الأمر، من غير أن يتعتع أو يتزلزل عند تلاوتها، وهو بشر لم يطّلع على كتب السالفين، ولا يملك تصرّفاً في اُمور غائبة أو نائية في مستقبل قريب أو بعيد، وكان هو بذاته ينفي عن نفسه العلم بالغيب: «قُل لا أملِكُ لِنَفسي نَفعاً وَلا ضَرّاً إلّا ما شاءَ اللهُ وَلَو كُنتُ أعلَمُ الغيبَ لاستَكثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَما مَسَّنِيَ السّوء».[1] فلو لم يكن مستنداً إلى ركن وثيق ما أمكنه إطلاق مثل هذا، وكان قد جازف بدعوته وعرّضها للخطر، لو كان محتملاً للخلاف ولم يكن جازماً بالأمر. وهذا بالإضافة إلى ما عرف عنه التعقّل والحكمة، ولم يعهد منه تسرّع في أمر أو تقوّل بلا رويّة، حتّى قبل أن يكرمه الله بالرسالة.

ولقد أدرك مشركو العرب هذه الحقيقة من خلال اختلاطهم برسول الله ﷺ والمؤمنين به، حيث صدقت الحوادث الواقعة ممّا أخبرهم به القرآن الكريم.

إنّ هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن لدليل ظاهر وبرهان قاهر على أنّه كلام ربّ العالمين، الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق، ولاتخفى عليه خافية. لقد ظهر صدق القرآن الكريم لكلّ ذي عينين في عشرات الحوادث التي أخبر عن وقوعها في المستقبل ووقعت بالفعل كما أخبر.

إنّ ظاهر الإخبار بالمغيّبات في القرآن الكريم وتصديق الوقائع لها وعدم تخلّف الصدق عنها في شيء لدليل على أنّه وحي ممّن خلق الأرض والسماوات العلى، أنزله على رسوله ليكون دلالةً على صدق رسالته. وهذا على غرار ما أخبر به القرآن الكريم أو أشار إليه من خفايا أسرار الوجود، وقد كشفها العلم عبر العصور، دليلاً على صدق هذا الكتاب الذي «لا يَأتيهِ الباطِلُ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ وَلا مِن خَلفِهِ تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميد».[2]

فعلى العلماء وأهل الاختصاص أن يعايشوا القرآن الحكيم، ويستنطقوا آياته

---

[1] ـ الأعراف ٧: ١٨٨.

[2] ـ فصّلت ٤١: ٤٢.

لكشف الأستار عن الإشارات القرآنية وعن تلميحاته عن الحقائق المودعة في هذا الكون وفي سجلّ التاريخ، ولتكون بحوثهم ونتاج جهودهم وسيلة لتحقيق وعد الله سبحانه وتعالى، وظهور هذا الدين على الدين كلّه، وليعمّ وجه البسيطة على الإطلاق.

«سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وَفي أنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يكفِ بِرَبِّكَ أنّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهيد».[١]

صدق الله العليّ العظيم، وصدق رسوله النبيّ الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين والشاكرين، والحمدلله ربّ العالمين.

الإعجاز التشريعي

الباب الثالث

في الإعجاز التشريعي

«وَنزّلنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبياناً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدىً ورَحمَةً وَبُشرىٰ لِلمُسلِمين».[١]

معارفٌ سامية وشرائعٌ راقية

كانت للإنسان ـ ولاتزال ـ مسائل عن هذه الحياة، كان يحاول الإجابة عليها: من أين أتى؟ وَلِمَ أتى؟ وإلى أين؟ وكانت محاولاته بهذا الشأن قد شكّلت مجموعة مسائل الفلسفة الباحثة عن سرّ الوجود. ولكن هل حَصل على أجوبة كافية؟ أم كانت ناقصة غير مستوفاة لحدّ الآن؟ لولا إجابة القرآن عليها إجابة وافية وشافية كانت علاجاً حاسماً لما كان يجوش في الصدور. «يا أَيُّها النّاسُ قَد جاءَتْكُمْ مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُّدُور وَهُدىً ورَحمَةٌ لِلمُؤمِنين».[٢]

كان ما وصل إليه الإنسان من معارف حول سرّ الوجود ناقصاً وغير مقنع إلى حدّ بعيد «وَما أُوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلّا قَليلاً»[٣] فكان مستطلعاً ومتعطّشاً إلى حلّ مشاكله والإجابة على مسائله بشكل كامل ومستوفٍ جميع الجوانب ممّا يرتبط بالمبدأ والمعاد والغاية التي

---

١ ـ النحل ١٦: ٨٩.

٢ ـ يونس ١٠: ٥٧.

٣ ـ الإسراء ١٧: ٨٥.

خلق من أجلها العباد.

نعم، كان القرآن الكريم هو الذي تعرّض لحلّ معضلة الحياة وفصّل الكلام عن بدء الخليقة والغاية عن الوجود وكشف عن سرّ الحياة، تفصيلاً مستوفىً بما لم يدع مجالاً لمسارب الشكّ في مسائل الحياة في المبدأ والمعاد. وأجاب عن مسائل ممّا لم يكد يعرفه الإنسان. «وَرَبُّكَ الأَكرَمُ. الّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الإنسانَ مالَم يَعلَم».[1]

الأمر الذي جعل من القرآن آية باهرة ومعجزة قاهرة، دلّت على أنّه ليس كلام البشر، وإنّما هو وحي أنزله الله تعالى هدىً ورحمةً للعالَمين.

* * *

كما وأتحف للبشرية جمعاء برامج لنظم الحياة وليعيش في سلامة وتُؤَدة وهناء، ممّا لم يسبقه ـ كما لم يلحقه ـ شريعة وضعها الإنسان.

كانت الأنظمة التي وضعها الإنسان لنظم حياته غير كافلة لسعادته، فإنّها وإن كانت راقية من جانب لكنّها كانت سافلة وسحيقة من جوانب اُخر، كانت مناشئ الخسّة والدناءة عليها بادية.

الإنسان مهما ارتقى في مدارج الكمال فإنّه لايمكنه الانطلاق من قيود نزعاته الهابطة التي تربطه بخسائس الأرض أكثر ممّا يرتقيه إلى آفاق السماء. الإنسان لايستطيع التخلّص من براثن الحيوانية والبهيمية التي تتحكّم في نفسه إذا لم تكن مهذّبة تهذيباً يتناسب ومعالي الإنسانية الرفيعة.

ومن ثمّ فإنّ سماته الخسيسة سوف تبدو على ما يضعه من قانون أو يعرضه من شرائع وأنظمة لتنظيم الحياة. وكلّ إناء بالذي فيه ينضح. إنّ ما يأتي به الإنسان من علم ومعرفة إنّما هي ترشّحات نفسه وصفاته الباطنة في شخصه. إنّ فكرة الإنسان وليدة مشاعره عن هذه الحياة، إنّه يفكّر حسبما يعيش، كما يعيش حسبما يفكّر، لأنّ الإنسان وليد جامعته ونتيجة بيئته. والبيئة هي التي تكوّن شخصية الأفراد الناشئة منها، فكيف يحاول الترقية ببيئته وهو حصيلها!!

---

١ ـ العلق ٩٦: ٣-٥.

إنّ القيم الساطية على البيئات هي التي توجّه مسيرة الإنسان في مشاعره وفي أفكاره. فلابدّ أن يكون ما يضعه من قانون وشريعة هي مسيّرة من خارج ذاته الإنسانية الرفيعة التي خلقه الله تعالى عليها حسب فطرته الأوّلية.

إنّ نزعات القومية والوطنية واللونية واللسانية ـ فضلاً عن القبائلية والبلدية ـ كانت قيوداً لا يستطيع الإنسان الانفلات منها ما دام رهن ميوله واتّجاهاته البشرية السافلة.

***

نعم، كانت الشرائع السماوية هي المتحرّرة عن كلّ هذه القيود، ومن ثمّ جاءت صافية ونقية، ونزيهة عن كلّ دنس وخسيسة بشريّة، ممّا افتقدته الإنسانية منذ قرون، حيث جاء القرآن الكريم بشرائعه طاهرة زكية.

كان الإنسان في عهد نزول القرآن يعيش في ظلمات الغيّ والجهالة، وفي لفيف من أنظمة كانت صبغتها الظلم والعتوّ على صنوف الإنسان العائشة تحت سيطرة أقوام مستكبرين ومستهترين بمبادئ الإنسانية الكريمة. وكانت القوانين الحاكمة على البشرية حينذاك ضامنة للمستعلين في الأرض مصالحهم دون المستضعفين ـ وهم أكثر سكّان هذه البسيطة المظلومون ـ قد هضم حقّهم وسحقت كرامتهم وربطوا ربط المواشي والأغنام.

***

في هذا الجوّ المظلم والبيئة الحالكة جاء القرآن الكريم بمشاعل وهّاجة ومصابيح وضّاءة، تنقشع عن البشرية سحب الظلام وتنكشف على الإنسانية كرامة ذاته الأصيلة. فقد جاء بأنظمة وقوانين ترفع بالإنسان إلى كرامته العليا وتسعده في الحياة سعادة شاملة وكافلة لجميع البشرية العائشة على الأرض، على حدّ سواء، لاميز لقبيلة على أُخرى، ولا لأهل بلد على آخرين، ولا للغة دون أُخرى، كلّهم بنو آدم، وآدم من تراب «**يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ**».[١]

---

١ ـ الحجرات ٤٩: ١٣.

فالقرآن الكريم ـ بهذا المنطق العقلاني السليم ـ جاء بشرائعه وأنظمته، وعرضها على الإنسان، ليكون سعيداً في الحياة.

***

ومن جانب آخر، كانت الأنظمة التي وضعها الإنسان ذاته إنّما تنظّم جانبين من جوانب الإنسان في الحياة: جانب الفرد في ذاته، وجانبه مع بني نوعه. أي كيف يعيش في ضمان من مصالحه في الحياة ممّا يعود إلى نفسه، وفي المقدار الذي يربطه بمجتمعه.

في حين أنّ للإنسان جوانب أُخر في هذه الحياة، جانب مشاعره وأحاسيسه عن نشأة الوجود، وعن حبّه وعاطفته التي قد تفوق جانب رعاية مصلحة وقتية محدودة النطاق. وكذلك حسّه المرهف عن تلك القوّة القاهرة التي تسيّر عالم الوجود، وهو ربّ العالمين. الإنسان في فطرة ذاته يشعر بوجود هكذا قدرة خارقة، ويحاول معرفتها ومعرفة مقدار علاقته بها، ووظيفته التي يجب عليه تأديتها تجاه تلك العظمة الباهرة.

إنّ أنظمة الإنسان الوضعية لتعجز على إمكان شمولها لهذه الجوانب من حياة الإنسان. نعم، كانت الشرائع الإلهية ـ والتي جاء بها القرآن الكريم ـ هي الكافلة لجميع جوانب الحياة، والتي تضمن سعادة الإنسان في النشأتين.

والخلاصة: أنَّ للإنسان علاقات في هذه الحياة، تشمل علاقته بنفسه، وعلاقته مع بني نوعه، وعلاقته مع ربّه وخالقه وَمَن إليه مصيره في نهاية المطاف.

والأنظمة الوضعية إنّما تكفل ضمان العلاقتين الأوّلتين بشكل ناقص، وإنّما يضمن العلاقات أجمع وبشكل كامل، الشرائع الإلهية، ولاسيّما شريعة الإسلام التي جاء بها القرآن.

***

فالرابطة بين أفراد المجتمع الإسلامي رابطة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين:

إنّ الأساس الذي يبنى عليه هيكل المجتمع الإسلامي هو: أنّ رابطة العقيدة هي التي تشكّل الآصرة التي تربط الأفراد في المجتمع. وليس للرابطة الوطنية أو القومية أو القبلية

أو الجنس أو اللون أو اللسان أيّ أثر في المجمع الإسلامي. وارتباط المسلم بالوطن والقوم إنّما هو بمقدار ارتباط هذا الوطن وأهله بالإسلام. فولاء المسلم لعقيدته أولاً وآخراً هو الذي يربطه بأخيه وبقومه وذويه وجميع ما يليه.[1]

لذا نجد القرآن الكريم ندّد بمن آثر الوطن والمسكن والأهل والأقارب على العقيدة، وامتدح الذين ضحّوا بكلّ ذلك في سبيل عقيدتهم وأذابوها في بوتقة الإسلام.

يقول تعالى: «لاتَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كانُوا آباءَهُمْ أو أبْناءَهُمْ أو إخوانَهُمْ أو عَشيرَتَهُمْ اُولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وَأيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهار خالِدينَ فيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه اُولئِكَ حِزبُ الله ألا إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ».[2]

***

نعم، إنّ التشريعات الإسلامية التي جمعت بين الروح والمادّة ـ فأشبعت كلّاً منهما في الإنسان بما يناسبها ووفّرت السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وأزالت القلق عن النفوس من المستقبل مع مراعاة الفطرة والتلاؤم معها ـ لدليل على أنّ أحداً من البشر لايستطيع أن يدرك هذه المجالات أو يحيط بها. وهي برهان ساطع على أنّها منزّلة من خالق الإنسان الذي أودع فيه هذه الطاقات والقدرات والاستعدادات، فأنزل ما ينظّمها جميعاً ويوجّهها لعبادة الخالق سبحانه وتعالى. وتكون الدلالة أوضح والبرهان أظهر عندما تعلم أنّ الذي نزلت عليه كان اُمّيّاً لم يتلقّ العلم على يد أحد من البشر ولم يعرف بتجواله في الآفاق بحثاً عن النظريات والدساتير الإصلاحية.

يقول الشيخ محمّد أبو زهرة: إنّ ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلّق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودّة والرحمة والعدالة لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية. وإذا وازنّا ما جاء في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم وجدنا أنّ الموازنة فيها خروج عن

---

١ ـ راجع: الفرقان والقرآن، ص ٢١٨.

٢ ـ المجادلة ٥٨: ٢٢.

التقدير المنطقي للأُمور، مع أنّ قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثماءة سنة وألف، من وقت إنشاء مدينة روما إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد. ومع أنّه قانون تعهّده علماء قيل إنّهم ممتازون، منهم: سولون الذي وضع قانون أثينا، ومنهم: ليكورغ الذي وضع نظام اسبرطة.

فجاء محمّدﷺ ومعه القرآن الذي ينطق بالحقّ عن الله سبحانه وتعالى من غير درسٍ دَرَسَهُ، وكان في بلد أُمّي ليس فيه معهد ولاجامعة ولا مكان للتدريس، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني لم يسبقه سابق ولم يلحق به لاحق.[1]

«لَقَد مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنفُسِهِمْ يَتلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَإن كانُوا مِنْ قَبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِين».[2]

هكذا جاء القرآن بشرائع راقية ـ فاق بها شرائع وضعتها البشرية ـ شاملة كاملة وكافلة لسعادة الإنسان في الدارين. فكانت معجزة خارقة، ودليلاً واضحاً على صدق رسالة الله في الأرض.

فالآية المعجزة في القرآن الكريم، أنّه أتى بمعارف تسمو معارف البشرية، وجاء بشرائع تتعالى عن خسائس الشرائع الوضعية، وبذلك كانت معارف القرآن وشرائعه ممتازة عن سائر الشرائع والأديان بحيث لاتشابه بين شريعة الإسلام وما كان عليه الإنسان المتحضّر في ذلك العهد. إذاً فكيف يزعم بعض أصحاب العقول الضعيفة: أنّ القرآن ـ بل الإسلام ـ أخذ شرائعه من شرائع وضعية كان قد وضعها الرومان، أو أخذ معارفه من معارف فرضية كان قد فرضها اليونان، أو غيرهما من أُمم بائدة قد أكل الزمان عليها وشرب؟! حاش القرآن أن ينتهج منهجاً كان معوجّاً في أساسه غير قويم.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لاتَبْديلَ لِخَلقِ اللهِ ذلكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لايَعلَمُونَ».[3]

---

١ ـ المعجزة الكبرى، ص ٤٥٥؛ وراجع: الفرقان والقرآن، ص ٢٣٣-٢٣٤.

٢ ـ آل عمران ٣: ١٦٤.

٣ ـ الروم ٣٠: ٣٠.

المَثَل الأعلى في الإسلام

عنوان عنون به سيّد مير علي الهندي مقاله بهذا الشأن، فلنترك القلم بيده.[١]

قال: والمبادئ الأساسية التي أُنشئ النظام الإسلامي على أساسها هي:

١ ـ الإيمان بالوحدانية، ولامادّية الخالق وقدرته ورحمته وحبّه الشامل.

٢ ـ المحبّة والإخاء بين الجنس البشري.

٣ ـ قهر الشهوة وكسر صولتها والضبط من جموحها.

٤ ـ تدفّق الشكر المتواصل من القلب، لواهب النِعَم والآلاء.

٥ ـ مسؤولية الإنسان ومحاسبته على ماقدّمت يداه في الدنيا والآخرة.

والحقّ أنّ المفاهيم الرفيعة النبيلة ـ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ـ فيما يتعلّق بقدرة الخالق ولطفه وإنعامه لخلقه تفوق أيّة مفاهيم أُخرى من نوعها وردت في أيّة لغة أُخرى.

فوحدانية الله ولامادّيته وجلاله ورحمته تشكّل الموضوع الثابت الذي لاينتهي لأفصح عبارة في آيات تستثير الروح وتهيج الوجدان. ويظلّ فيها تدفّق الحياة والروح زاخراً لاينقطع جريانه. وليس في ذلك أيّ أثر للتحكّم أو الجمود ضمن قواعد محدّدة. فالدعوة موجّهة إلى الضمير الداخلي للإنسان وحده، وهو الذي تناشده دعوة محمّد ﷺ.

---

١ ـ من كتابه روح الإسلام، ص ١٥٧-١٨٤ مع شيء من التغيير والتعديل.

ولإدراك واقع الحال علينا أن نقلب بعض صفحات التاريخ. فلنلتفت إلى الماضي التفاتة قصيرة لنرى المبادئ الدينية التي كانت قائمة آنذاك، أي عندما جاء نبيّ الإسلام مبشّراً برسالته.

ولنبدأ بفكرة الربوبية:

كانت هذه تختلف بين العرب الأقوياء، وفقاً لثقافة الفرد أو القبيلة. فهي ترتقي عند بعضهم إلى درجة الألوهية أو تأليه الطبيعة، بينما هي عند بعضهم الآخر تنحدر إلى مجرّد عبادة الأوثان وتقديس قطعة من العجين أو عصاً أو حجر.

كان بعضهم يؤمن بالحياة الأُخرى، أمّا البعض الآخر فليست لديهم أيّة فكرة عنها من أيّ نوع كان.

وكذلك فإنّ العرب قبل الإسلام كانوا يعبدون غاباتهم الصغيرة وأشجار الوحي فيها ـ حسب زعمهم ـ وكان لهم كاهناتهم مثل فنيقي سوريا.

هكذا كان عالم الأعراب سابحاً في دوّامة من المبادئ التي لايكاد يصدّقها العقل حول مثاليّة الإله سيّد الجميع.

***

أمّا اليهود ـ الذين حافظوا بعض الشيء على فكرة التوحيد ـ فإنّهم أنفسهم قد شوّهوا مقداراً من تلك الفكرة ومسخوها مسخاً.[1] كان اليهود قد وفدوا إلى شبه جزيرة العرب على عدّة فترات، ولاشكّ أنّ الصفات المميّزة التي قادت الإسرائيليين مراراً إلى الميل ثمّ التردّي في عبادة الأوثان في ديارهم الأصلية قد ازدادت عند هجرتهم إلى الجزيرة بتأثّرهم بوثنية إخوانهم العرب، وكان ذلك طبيعياً، وقد كان لدى اليهود فكرة ربّ إبراهيم أن يضمّوا إليها مفهوماً مادّياً للخالق. وكانت عبادة الناموس منحرفة إلى درجة الوثنية بين آخر مجموعة يهودية وفدت إلى الجزيرة. وكانوا يحترمون الكتبة والأحبار ويقدّرونهم إلى حدّ تقديسهم.[2] وكان هؤلاء الأحبار ينظرون إلى أنفسهم على اعتبار أنّهم صفوة

---

١ ـ «وقالَتِ اليَهُودُ عُزَيرٌ ابنُ الله وَقالَتِ النَّصارى المسيحُ ابنُ الله ذلكَ قَولُهُم بِأفواهِهِم يُضاهِئُونَ قَولَ الّذينَ كَفَرُوا مِن قَبلُ قاتَلَهُمُ اللهُ أنّى يُؤفَكُون» التوبة ٩: ٣٠.

٢ ـ «اتَّخذوا أحْبارَهُم وَرُهبانَهُمْ أرباباً مِن دُونِ اللهِ وَالمَسيحَ بنَ مَريَمَ وما أُمِرُوا إلّا لِيَعْبُدُوا اللهَ إلٰهاً واحداً لا إلٰهَ إلّا ←

الشعب وأنّهم صلة الوصل بالله وأكثر الناس قربى من الله.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الجماهير اليهودية لم تترك عبادة التيرافيم، وهي عبارة عن آلهة كانوا يحتفظون بها في بيوتهم، قد صنعوها على شكل بني البشر، وكانوا يستشيرون هذه الآلهة في كلّ المناسبات، على اعتبار أنّها آلهتهم الخاصّة التي تتلقّى الوحي من الله. ولابدّ أن تكون هذه العبادة قد تعزّزت وارتفع شأنها عن طريق الاتّصال مع الوثنيين العرب.

ونحن نرى أنّ الفلسفة الكلدوزرادشتية قد تركت أثرها الذي لايمحى على التقاليد اليهودية من جهة، ومن جهة أُخرى فقد كان أعظم مفكّريهم ـ حين يحاولون إدخال الاعتقاد بالعلّة الأُولى إلى آراء وتصانيف فلاسفة اليونان والرومان ـ يُشرّبون مدارس الفكر الإسكندرانية بمبادئ وأفكار لايمكن أن تتّفق مع مذهبهم التوحيديّ الأصل.

وبالإضافة إلى هؤلاء كان هنالك الهندوس مع الحشد الضخم من آلهتهم وإلاهاتهم، والزرادشتيون مع توأم آلهتهم اللذين يتخاصمان دوماً في سبيل الغلبة والسيادة.

ولن يغيب عن بالنا اليونان والرومان والمصريون، مع هياكلهم التي تتراكم فيها الآلهة بأخلاقها التي لاترقى إلى مستوى أخلاق عبدتها المنحلّين.

* * *

هكذا كان حال العالم المتحضّر في إبّان نشر دعوة المسيح عليه السلام.

وكان السيّد المسيح بالرغم من كلّ بشاراته وتعاليمه واتّجاهات فكرته فإنّه لم يدّع أنّه «متمّم لله» أو أنّه «جوهر الله وذاته» إطلاقاً. ومن المؤسف حقّاً أنّه حتّى المسيحية الحديثة قد ظلّت عاجزة عن انتزاع نفسها وتحريرها من الأساطير القديمة التي تركتها لها العصور الغابرة ذلك لأنّ أتباع المسيحية كانوا يتخلّصون جيلاً بعد جيلٍ من كلّ ماهو بشري، في تاريخ المسيح حتّى ضاعت شخصيّته في خضمّ الأساطير.

وها هو «العهد الجديد» ذاته ـ بما تفرّع عنه خلال قرن كامل ـ يترك المسيح تلك الشخصية الجليلة غامضة يلفّها ضباب الشكّ والأُسطورة أكثر ممّا ينيرها اليقين

← هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» التوبة ٩: ٣١.

والتحقيق، وهكذا مع كلّ يوم يمرّ. كانت فكرة «ذاتٍ وُلدت في قلب الأزلية» تكتسب قوّة تظلّ تتزايد، حتّى تحوّلت إلى عقيدة في صلب الدين.

وقد كانت تعاليم المسيح حَريَّةً بأن ترقى إلى مفهوم عن الله أشدّ نقاءً وأعظم مجداً. غير أنّ قروناً ستّة قد مضت على عيسى عليه السلام ظلّت تلفّه طوالها هذه الخزعبلات التي تتعارض مع رسالته، فكان أن أضفت عليه صفة الأُلوهية. وهكذا فإنّ العبد قد احتلّ مكان مولاه في تقديس البشر.

ولمّا كانت جمهرة العامّة عاجزة عن أن تستوعب ـ أو حتّى تدرك ـ المزيج العجيب للفلسفات الفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية واليهودية الهيلينية، وكذلك تعاليم المسيح، فقد عبدته كما لو كان إلهاً أصيلاً، أو انقلبوا إلى عبادة الآثار وآلهة منحوتة تمثّل أُمّه البتول.

وحين كان المدى قد طال على هذه الخزعبلات فإنّ المسيحيين قد ابتعدوا كثيراً عن بساطة تعاليم المسيح عليه السلام. حتّى لقد أصبحت عبادة الصوَر والقدّيسين والآثار جزءً لا يتجزّأ من ديانة يسوع. وكذلك فإنّنا نرى أنّ الشرور التي شجبها عيسىٰ عليه السلام نفسه والطقوس التي أنكرها قد أخذت تدخل في صلب دينه، واحدة تلو أُخرى.

❊ ❊ ❊

وبعد، فإنّنا نرى ضدّ كلّ هذه السخافات التي كانت سائدة طول عصور والتي ظلّت مستحكمة البنيان ذلك العهد كان هدف نبيّ الإسلام في حياته موجّهاً ومركّزاً على أُسس قويمة يدعمها العقل والفطرة السليمة. فهو إذ يخاطب الناس يخاطبهم بحقّ، وهو متأثّر باتصال وثيق مع الله، الله الذي خلق الكون جملةً وتفصيلاً. ولم يحد محمّدٌ صلى الله عليه وآله عن طريق العقل الرشيد. ورغم قيام عبدة الأوثان ـ من أبناء القبائل العربية من جهة، وأتباع المسيحية واليهودية الممسوختين من جهة أُخرى ـ بمحاولة إغرائه، فقد ظلّ يخاطبهم حتّى جعلهم يخجلون من فظاعة معتقداتهم.

وهكذا، فإنّ نبي الإسلام ـ الذي كان يسمّى بحقّ «سيّد القائلين» و«سيّد المرسلين» والداعي إلى وحدانية الله ـ قد صمد، كما يحدّثنا التاريخ، في صراع نبيل واجهته به أوّل الأمر، ثمّ فرضته عليه بعد ذلك محاولات الإنسان الرجعية الرامية إلى إشراك مخلوقات أُخرى مع خالق الكون. غير أنّ الدعوة قد غلبت الجميع، وظهر الدين كلّه على الشرك كلّه.

فقد «جاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ أمرُ اللهِ وَهُمْ كارِهُونَ».[١]

وليس أوضح ولاأجزم من الآيات التالية التي وردت في القرآن الكريم في تفسير وحدانية الله، إنّه يقول:

«وَإِلٰهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ الرَّحمانُ الرَّحيم. إنّ في خَلقِ السَّماوٰاتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَالفُلكِ الّتي تَجري في البَحرِ بما يَنفَعُ النّاسَ وَما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها وَبَثَّ فيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وتَصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلُون. وَمِنَ النّاسِ مَن يَتَّخذُ مِن دُونِ اللهِ أنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالّذينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبّاً لله وَلَو يَرَى الّذينَ ظَلَمُوا إذ يَرَوْنَ العَذابَ أنّ القُوَّةَ للهِ جَميعاً وَأنّ اللهَ شَديدُ العَذابِ».[٢]

فأيّ عطف عميق تعرضه هذه الكلمات على أُولئك الذين في الجهالة يعمهون؟!

ثمّ هذه الآيات، حيث قال لله تعالى في كتابه الكريم:

«هُوَ الَّذي يُريكُمُ البَرْقَ خَوفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعدُ بِحَمْدِهِ وَالملائِكَةُ مِنْ خيفَتِهِ وَيُرسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيبُ بِها مَن يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ في اللهِ وَهُوَ شَديدُ المِحال. لَهُ دَعوَةُ الحقِّ وَالّذينَ يَدعُونَ مِن دُونِهِ لايَسْتَجيبُونَ لَهُمْ بِشيءٍ إلّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إلَى الماءِ لِيَبلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الكافِرينَ إلّا في ضَلالٍ. وَللهِ يَسجُدُ مَن في السَّماواتِ وَالأَرضِ طَوعاً وكَرهاً وَظِلالُهُمْ بِالغُدُوِّ وَالآصالِ. قُل مَن رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرض قُلِ اللهُ قُل أفَاتَّخَذْتُمْ مِن دُونِهِ أولياءَ لايَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفعاً وَلاضَرّاً قُل هَلْ يَستوي الأَعْمىٰ وَالبَصيرُ أم هَل تَستَوي الظُّلُماتُ والنُّورُ أم جَعَلُوا للهِ شُركاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الخَلقُ عَلَيْهِم قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الواحِدُ القَهّار».[٣]

وقوله جلّ شأنه:

«خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ بِالحقِّ تَعالى عمّا يُشْرِكُونَ. خَلَقَ الإنسانَ مِن نُطفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ. والأنعامَ خَلَقَها لَكُمْ فيها دِفءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تأكُلُونَ. وَلَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ

---

١ ـ التوبة ٩: ٤٨.
٢ ـ البقرة ٢: ١٦٣-١٦٥.
٣ ـ الرعد ١٣: ١٢-١٦.

تُريحُونَ وَحينَ تَسرَحُونَ. وَتَحمِلُ أثقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكونُوا بالِغيهِ إلّا بِشِقِّ الأنفُسِ إنَّ رَبَّكُمْ لَرؤوفٌ رَحيمٌ. وَالخَيلَ وَالبِغالَ وَالحَميرَ لِتَركَبُوها وَزينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاتَعلَمُونَ. وَعَلى اللهِ قَصدُ السَّبيلِ وَمِنها جائِرٌ وَلَو شاءَ لَهَداكُم أجمَعينَ. هُوَ الّذي أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنهُ شَرابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمُونَ. يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرعَ وَالزَّيْتُونَ والنَّخيلَ وَالأَعنابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ إنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُون. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بأمرِهِ إنّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلون. وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرضِ مُختَلِفاً ألوانُهُ إنَّ في ذلك لآيةً لِقَومٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ البَحرَ لِتَأكُلُوا مِنهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَستَخرِجُوا مِنْهُ حِليَةً تَلبَسُونَها وَتَرَى الفُلكَ مَواخِرَ فيهِ وَلِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ. وَألقى في الأرضِ رَواسِيَ أنْ تَميدَ بِكُمْ وَأنهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ. وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجمِ هُم يَهتَدُون. أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لايَخلُقُ أفَلا تَذَكَّرُونَ. وَإن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللهِ لاتُحصُوها إنّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحيمٌ. وَاللهُ يَعلَمُ ماتُسِرُّونَ وَما تُعلِنُون. وَالَّذينَ يَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ لايَخلُقُونَ شَيئاً وَهُمْ يُخلَقُونَ. أمْواتٌ غَيرُ أحياءٍ وَما يَشعُرُونَ أيّانَ يُبعَثُونَ».[١]

و: «اللهُ لاإلٰهَ إلّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاتَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَومٌ لَهُ مـا في السَّماواتِ وَمـا فِي الأرضِ مَن ذَا الّذي يَشْفَعُ عِندَهُ إلّا بِإذنِهِ يَعلَمُ ما بَينَ أيديهِم وَما خَلفَهُم وَلا يُحيطُونَ بِشَيءٍ مِن عِلمِهِ إلّا بِما شاءَ وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأرضَ وَلا يَـؤودُهُ حِفظُهُما وَهُوَ العَلِيُّ العَظيم».[٢]

وكذلك: «إنّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أيّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العَرشِ يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأمرِهِ ألا لَهُ الخَلقُ وَالأمرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمين».[٣]

وكذلك «سورة الإخلاص»:

«قُل هُوَ اللهُ أحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحد».[٤]

---

١ ـ النحل ١٦: ٣-٢١.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٥٥.
٣ ـ الأعراف ٧: ٥٤.
٤ ـ الإخلاص ١١٢: ١-٤.

وسورة الفاتحة:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحمانِ الرَّحيمِ. الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ. الرَّحمانِ الرَّحيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدّينِ. إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعينُ. إهْدِنَا الصِّراطَ المُستَقيمَ. صِراطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالّينَ.»[1]

«قُل لِمَن ما في السَّماواتِ وَالأَرضِ قُل للهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحمَةَ لَيَجمَعَنَّكُمْ إلى يَومِ القِيامَةِ لارَيبَ فيهِ الَّذينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ فَهُم لايُؤمِنُونَ».[2]

«وَعِندَهُ مَفاتِحُ الغَيبِ لايَعلَمُها إلّا هُوَ وَيَعلَمُ ما في البَرِّ وَالبَحرِ وَما تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلّا يَعلَمُها وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ وَلارَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلّا في كِتابٍ مُبينٍ. وَهُوَ الَّذي يَتَوَفّاكُمْ بِاللَّيلِ وَيَعلَمُ ما جَرَحتم بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبعثُكُمْ فيهِ لِيُقضىٰ أجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إلَيهِ مرجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئكُمْ بِما كُنْتُمْ تعمَلُونَ».[3]

وفي مجال بيان توحيد الله سبحانه والاستدلال عليه من خلال مخلوقاته وآثار الإبداع في خلقه، وهي الطريقة الفطرية للإقناع والاتّباع، يقول تعالى:

«إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ وَالنَّوى يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ذلِكُمُ اللهُ فَأَنّىٰ تُؤفَكُونَ. فالِقُ الإصباحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ حُسباناً ذٰلِكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ. وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحر قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمُونَ. وَهُوَ الَّذي أَنْشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُستَقَرٌّ وَمُستَودَعٌ قَد فَصَّلنا الآياتِ لِقَومٍ يَفْقَهُون. وَهُوَ الَّذي أنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخرَجنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيء فَأَخرَجنا مِنهُ خَضِراً نُخرِجُ مِنهُ حَبّاً مُتراكِباً وَمِنَ النَخلِ مِن طَلعِها قِنوانٌ دانِيَةٌ وَجَنّاتٍ مِن أعنابٍ وَالزَّيتُونَ وَالرُّمّانَ مُشتَبِهاً وَغَيرَ مُتَشابِهٍ انظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أَثمَرَ وَيَنعِهِ إنّ في ذلِكُمْ لآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُونَ. وَجَعلُوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنينَ وَبَناتٍ بِغَيرِ عِلْمٍ سُبحانَهُ وَتَعالَىٰ عَمّا يَصِفُونَ. بَديعُ السَّماواتِ وَالأَرضِ أَنّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَم تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ. ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إلهَ إلّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ

١ ـ الفاتحة ١: ١-٧.

٢ ـ الأنعام ٦: ١٢.

٣ ـ الأنعام ٦: ٥٩-٦٠.

وَكيلٌ. لاتُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأبصارَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ. قَد جاءَكُمْ بَصائِرُ مِن رَبِّكُمْ فَمَن أبصَرَ فَلِنَفسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أنا عَلَيْكُمْ بِحَفيظٍ».[١]

«قُل إنّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحيايَ وَمَماتي للهِ رَبِّ العالَمين».[٢]

«أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُسبِّحُ لَهُ مَن في السَّماواتِ وَالأَرضِ وَالطَّيرُ صافّاتٍ كُلٌّ قَد عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسبيحَهُ وَاللهُ عَليمٌ بما يَفعَلُون. وَللهِ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَإلى اللهِ المَصير».[٣]

«اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العَرشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَليٍّ وَلا شَفيعٍ أَفَلا تَتَذكَّرُونَ. يُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ ثُمَّ يَعرُجُ إليهِ في يَومٍ كانَ مِقدارُهُ ألفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ. ذٰلِكَ عالِمُ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ العَزيزُ الرَّحيمُ. الّذي أحسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأ خَلقَ الإنسانِ مِن طينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهين. ثُمَّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فيهِ مِن رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبصارَ وَالأفئِدَةَ قَليلاً ما تَشكُرُونَ».[٤]

«قُل يا أَيُّها النّاسُ إنّي رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً الّذي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ لا إلهَ إلّا هُوَ يُحيي وَيُميتُ فآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمّيِّ الّذي يُؤمِنُ بِاللهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ».[٥]

«قُل هُوَ الَّذي أنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأبصارَ وَالأفئِدَةَ قَليلاً ما تَشكُرُونَ. قُل هُوَ الّذي ذَرَأكُم فِي الأرضِ وَإليهِ تُحشَرُونَ».[٦]

«وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً وَالنَّومَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً».[٧]

«غافِرِ الذَّنبِ وَقابِلِ التَّوبِ.... ذِي الطَّوْلِ لا إلهَ إلّا هُوَ إليهِ المَصير».[٨]

«لا شَريكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ اُمِرْتُ وَأَنا أَوَّلُ المُسلِمين».[٩]

«أمَّن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَأنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأنبَتنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهجَةٍ

---

١ ـ الأنعام ٦: ٩٥-١٠٤.
٢ ـ الأنعام ٦: ١٦٢.
٣ ـ النور ٢٤: ٤١-٤٢.
٤ ـ السجدة ٣٢: ٤-٩.
٥ ـ الأعراف ٧: ١٥٨.
٦ ـ الملك ٦٧: ٢٣-٢٤.
٧ ـ الفرقان ٢٥: ٤٧.
٨ ـ غافر ٤٠: ٣.
٩ ـ الأنعام ٦: ١٦٣.

ما كانَ لَكُمْ أن تُنبِتُوا شَجَرَها أإلهٌ مَعَ اللهِ بَل هُمْ قَومٌ يَعدِلُون. أمَّن جَعَلَ الأرضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أنهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَينَ البَحرَينِ حاجِزاً أإلهٌ مَعَ اللهِ بَل أكثَرُهُمْ لايَعلَمُون. أمَّن يُجيبُ المضْطَرَّ إذا دَعاهُ وَيَكشِفُ السُّوء وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأرضِ أإلهٌ مَعَ اللهِ قَليلاً ما تَذَكَّرُون». [1]

«لايُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلّا وُسعَها لَها ما كَسَبَت وَعَلَيْها ما اكتَسَبَت رَبَّنا لاتُؤاخِذنا إن نَسينا أو أخطأنا رَبَّنَا وَلا تَحْمِل عَلَيْنا إصراً كَما حَمَلتَهُ عَلى الّذينَ مِن قَبلِنا رَبَّنا وَلاتُحمِّلنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعفُ عَنّا وَاغْفِر لَنا وَارحَمنا أنت مَولانا فَانْصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرين». [2]

«عالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهادَةِ ٱلْكَبيرُ ٱلْمُتَعالِ.سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ. لَهُ مُعَقِّباتٌ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لايُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ ٱللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُم مِن دُونِهِ مِن والٍ». [3]

«اللهُ نُورُ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فيها مِصْباحٌ ٱلْمِصْباحُ في زُجاجَةٍ ٱلزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُّورٌ عَلىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللهُ لِنُورِهِ مَن يَشاءُ وَيَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثالَ لِلنّاسِ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بِالْغُدُوِّ وَٱلآصالِ. رِجالٌ لّا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللهِ وَإِقامِ ٱلصَّلاةِ وَإِيتاءِ ٱلزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصارُ. لِيَجْزِيَهُمُ ٱللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِن فَضْلِهِ وَٱللهُ يَرْزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ. وَٱلَّذينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ ماءً حَتَّىٰ إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ ٱللهَ عِندَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَٱللهُ سَريعُ ٱلْحِسابِ. أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِن نُورٍ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ وَٱللهُ عَليمٌ بِما يَفْعَلُونَ. وَلِلهِ مُلْكُ

---

١ ـ النمل ٢٧: ٦٠ ـ ٦٢.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٨٦.
٣ ـ الرعد ١٣: ٩ ـ ١١.

ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللهِ ٱلْمَصيرُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُزْجي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِن جِبالٍ فيها مِن بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَن يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ. يُقَلِّبُ ٱللهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهارَ إِنَّ في ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي ٱلْأَبْصارِ».[1]

وفي سورة الرحمان أنصع دليل على ذلك التـقدير الكـبير الّـذي كـان يشـعر بـه محمّدﷺ نحو ضرورة تبصير قومه بمجالي الطبيعة المشرقة، وفي شكل جعل الغربيين يطلقون على تلك السورة اسم «جمال الطبيعة في القرآن».

فهو يقول:

«ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبانٍ. وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدانِ. وَٱلسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ ٱلْميزانَ. أَلّا تَطْغَوْا في ٱلْميزانِ. وَأَقيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا ٱلْميزانَ. وَٱلْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ. فيها فاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذاتُ ٱلْأَكْمامِ. وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. خَلَقَ ٱلْإِنسانَ مِن صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ. وَخَلَقَ ٱلْجانَّ مِن مارِجٍ مِـن نـارٍ. فَـبِأَيِّ آلاءِ رَبِّـكُما تُكَذِّبانِ. رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَـلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغيانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. يَخْرُجُ مِنْهُما ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجانُ. فَـبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. وَلَهُ ٱلْجَوارِ ٱلْمُنشَآتُ في ٱلْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَيَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلالِ وَٱلْإِكْرامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. يَسْأَلُهُ مَن في ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».[2]

وكذلك الآيات البيّنات التالية:

«وَكُلَّ إنسانٍ أَلزَمناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القيامَةِ كِتاباً يَلقاهُ مَنشُوراً».[3]

«وَنَفْسٍ وَما سَوّاها. فَأَلهَمَها فُجُورَها وَتَقواها. قَد أفلَحَ مَن زَكّاها».[4]

«الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى في خَلقِ الرَّحمانِ مِن تَفاوُتٍ فَارجِعِ البَصَرَ هَلْ

---

١ ـ النور ٢٤: ٣٥ـ٤٤.
٢ ـ الرحمان ٥٥: ٥ـ٣٠.
٣ ـ الاسراء ١٧: ١٣.
٤ ـ الشمس ٩١: ٧ـ٩.

تَرىٰ مِنْ فُطور. ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقَلِب إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسير».[١]

«وَمِن آياتِهِ أن تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرضُ بأمرِهِ ثُمَّ إذا دَعاكُمْ دَعوَةً مِنَ الأرضِ إذا أنتُم تَخرُجُونَ».[٢]

ومتى يا ترى؟ إنّ الجواب على ذلك ظاهر في سورة التكوير، حيث قال الله تعالى:

«إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ. وَإِذَا ٱلْجِبالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا ٱلْعِشارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا ٱلْبِحارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا ٱلسَّماءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ. فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. ٱلْجَوارِ ٱلْكُنَّسِ. وَٱللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ. وَٱلصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَما صاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ ٱلْمُبِينِ. وَما هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَن شاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ. وَما تَشاؤُونَ إِلّا أَن يَشاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعالَمِينَ».[٣]

ويسألونك يا محمّد عن الساعة، فقل: «عِلمُها عِندَ رَبِّي في كِتابٍ لايَضِلُّ رَبِّي وَلايَنسى».[٤]

وقد سبق أن «كَذَّبَت ثَمُودُ بِطَغْواها»[٥] فأنكرت يوم القيامة وعقر أشقاها الناقة، وقال لهم رسولُ الله: «ناقَةَ اللهِ وَسُقْياها»[٦] فلم يستجيبوا له «فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُمْ بِذَنبِهِم»[٧] وسوّى بلدهم بالأرض بعد أن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية. وبحقٍّ.

«وَٱلضُّحىٰ. وَٱللَّيْلِ إِذا سَجىٰ. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلىٰ. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولىٰ. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ. وَوَجَدَكَ ضالّاً فَهَدىٰ. وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنىٰ. فَأَمّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمّا ٱلسّائِلَ فَلا تَنْهَرْ. وَأَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ».[٨]

---

١ ـ الملك ٦٧: ٣-٤.
٢ ـ الروم ٣٠: ٢٥.
٣ ـ التكوير ٨١: ١-٢٩.
٤ ـ طه ٢٠: ٥٢.
٥ ـ الشمس ٩١: ١١.
٦ ـ الشمس ٩١: ١٣.
٧ ـ الشمس ٩١: ١٤.
٨ ـ الضحى ٩٣: ١-١١.

وربّما ظنّ المشركون أنّ الله قد خلقهم لهواً وهزؤاً فبلّغهم يا محمّد إنّهم مخطئون في ظنّهم، وإنّ إلينا النشور، وحينئذٍ ننبئهم بكلّ مافعلوا. أمّا أنت وأصحابك فقولوا: «رَبَّنا لاتُؤاخِذْنا إن نَسينا أو أخْطَأنا»[١] واغفر لنا ذنوبنا واعفُ عنّا واغفرلنا وارحمنا إنّك أنت الغفور الرحيم.

وثِقوا جميعاً أنّه لن تحمل «وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ»[٢] فكلّ نفس بما كسبت رهينة. وأنّ ربّكم لن يعذّب أحداً كما أنّه لم يعذّب من قبل إلّا بعد أن يرسل رسولاً... واذكروا:

«وَما كُنّا مُعذِّبينَ حَتّىٰ نَبعَثَ رَسُولاً».[٣]

وهكذا يمضي هذا الكتاب الرائع، مناشداً أنبل مشاعر الإنسان، وضميره الداخلي وإدراكه العقلي، عارضاً ثمّ مبرهناً على بشاعة المعتقدات الوثنية وانحطاطها. وقلّما تخلو سورة من سوَر القرآن من عبارة بليغة متألّقة عن قدرة الله وعطفه ووحدانيّته. ومع هذا فقد أساء الكتّاب المسيحيّون إدراك المفهوم الإسلامي لقدرة الذات الإلهية، فجعلوا يصوّرون إله المسلمين على أنّه «عديم الشفقة، طاغية يلعب بمقدرات الإنسانية كما يلعب المرء بحجارة الشطرنج». وقالوا: «إنّه يقوم بما يقوم به دون أيّ اعتبار لتضحيات البشر». هكذا زعموا، فلنر ما إذا كان هذا التقدير صحيحاً.

إنّ إله المسلمين هو القويّ العليم العدل ربّ العالمين، فاطر السموات والأرض، وهو الذي ذرأ الحياة، وكتب الموت، بيده السيطرة على كلّ شيء، وهو الأوّل والآخر، وصاحب القوّة التي لاتقاوم، وهو العظيم القويّ الذي استوى على العرش. إنّ الله هو القويّ، الرحيم، العليّ، الخالق، الصانع، المصمّم، العاقل، العادل، الحقّ، السريع الحساب. إنّه هو الذي يعرف مثقال الذرّة من خير أو شرّ عمله الإنسان، وهو الذي لايضيع أجر من أحسن عملاً. والحقّ أنّ هذا الرحيم العادل هو أيضاً الملكُ القدّوس السلام المؤمن المهيمنُ الحارسُ على مصالح عباده. وهو كذلك ملجأ العاجز ومرشد الضالّ، والمعطي الوهّاب، صديق المحروم، ومستشار المظلموم، في يده كلّ الخير، وهو السيّد الكريم،

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٨٦.

٢ ـ ذكرت في القرآن في خمسة مواضع.

٣ ـ الإسراء ١٧: ١٥.

الغفور، السميع، القريب، الشفوق، الرحيم، الذي يحبّ الإنسان أكثر من حبّ الطير لصغاره.

إنّ رحمة الله لَهي من أوسع المواضيع التي تضمّنها القرآن، وكلمة «الرحمان» التي تتفتّح بها كلّ سورة من سوَر القرآن الكريم في البسملة والتي تدلّ على إله رحيم إنّما تعبّر تعبيراً عميقاً عن ذلك الحبّ الذي يكنّه خالق السماوات والأرض لعباده.

إنّ ما تعرّض له أتباع الفئتين سالفتي الذكر (اليهود والمسيحين) من تحقير خلقي، قد اعتصر قلب الرسول، ثمّ تحوّل هذا الألم إلى شجب للمعتقدات الخرافية التي كانوا يمارسونها خلافاً لتحذيرات رسولهم. إنّ نار الغيرة الدينية التي اشتعلت في صدر أشعيا و جرميا قد عادت واشتعلت في صدر رجل آخر أعظم منهما. وقد شجب هذا الرجل ولكن دون نواح، صيحات اليأس والكمد حول تقليل قيمة الإنسانية، وأسمعهم صوت الأمل والعقل.

وقد عنف القرآن اليهود بشدّة على عبادتهم آلهة مزيّفة من الأوثان، ولمبالغتهم في الاعتماد على ذاكرة عزرا. كما لام القرآن المسيحيين لتأليههم عيسى وأُمّه مريم كما هو مبيّن في الآيات التالية:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلاءِ أَهْدىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُوْلٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً».[1]

«وَقالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ وَقالَتِ ٱلنَّصارى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قاتَلَهُمُ ٱللهُ أَنّىٰ يُؤْفَكُونَ. ٱتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِن دُونِ ٱللهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً واحِداً لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ. يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكافِرُونَ».[2]

«وَقالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصارىٰ نَحْنُ أَبْناءُ ٱللهِ وَأَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ

---

١ ـ النساء ٤: ٥١-٥٢.

٢ ـ التوبة ٩: ٣٠-٣٢.

ٱلْمَصِيرُ». [١]

«يا أَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». [٢]

والآيات التالية تظهر الشعور الذي اعتبر به هذا المعتقد الديني:

«يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ لا تَغْلُوا في دينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلاّ ٱلْحَقَّ إِنَّما ٱلْمَسيحُ عيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّما ٱللهُ إِلٰهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما في ٱلسَّماواتِ وَما في ٱلْأَرْضِ وَكَفىٰ بِاللهِ وَكيلاً». [٣]

«وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَريقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ ٱلْكِتابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَما هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. ما كانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللهُ ٱلْكِتابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِن دُونِ ٱللهِ وَلٰكِن كُونُوا رَبّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتابَ وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلا يَأْمُرُكُم أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ». [٤]

«أَن دَعَوْا لِلرَّحْمانِ وَلَداً. وَما يَنبَغي لِلرَّحْمانِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً. إِن كُلُّ مَن في ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ إِلّا آتِي ٱلرَّحْمانِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً». [٥]

إنّ الكراهية الملتهبة المشتركة التي يكنّها كلّ من اليهود والمسيحيين والحروب الضارية واضطهاد القبائل الذي لامعنى له والفلسفة الجوفاء عند الكنيسة البيزنطية كانت أبداً تلقى الشجب من رسالة محمّدﷺ كما يتّضح من الآيات التالية:

«ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ وَحَبْلٍ مِنَ ٱلنّاسِ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ. لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ ٱللهِ

---

١ ـ المائدة ٥: ١٨.
٢ ـ المائدة ٥: ١٠٥.
٣ ـ النساء ٤: ١٧١.
٤ ـ آل عمران ٣: ٧٨-٨٠.
٥ ـ مريم ١٩: ٩١-٩٤.

آناءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ».[1]

ويختلف الذين أُوتوا الكتاب في إبراهيم فليسمعوا:

«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ ٱلْقَواعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ. رَبَّنا وَٱجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوّابُ ٱلرَّحِيمُ».[2]

ولقد ذهب إبراهيم وإسماعيل، وسيجازيهم ربّهم بأعمالهم، فـ«كُلّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتَ رَهِينَة»[3] «وَلاتَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى»[4] فدعوهم لربّهم هو أعلم بهم، و «هُوَ أعلَمُ بِمَنِ اهْتَدى»،[5] إنّه ذلك «الّذي يُؤتي مالَهُ يَتَزَكّى. وَما لأحَدٍ عِندَهُ مِن نِعمَةٍ تُجزى. إلّا ابتِغاءَ وَجهِ رَبِّهِ الأعلى. وَلَسَوفَ يَرضى».[6]

هؤلاء الأخيار الذين يقدّمون الحسنة:

«وَيُطعِمُونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسكيناً وَيَتيماً وَأسيراً. إنَّما نُطعِمُكُمْ لِوَجهِ اللهِ لانُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاشُكُوراً».[7]

فيا أيّها النبيّ وأصحابه، اعبدوا الله وأطيعوه: وكونوا رحماء بينكم. أمّا بشأن معاملة الفرد مِنكُم لوالديه فليخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة «وَقُل رَبِّ ارحَمْهما كَما رَبَّياني صَغيراً».[8]

ويا أيّها المسلمون، اقلعوا عن عادات الجاهلية الشائنات وتحلّوا بالفضائل الزكية «وَلا تَقتُلُوا أولادَكُمْ خَشيَةَ إملاقٍ نَحنُ نَرزُقُهُمْ وَإيّاكُم».[9] وإذا سألك أصحابك عن الصراط السويّ يا محمّد، والطريق التي تنجيهم من عذاب يوم عظيم، فقل لهم:

---

١ ـ آل عمران ٣: ١١٢-١١٤.
٢ ـ البقرة ٢: ١٢٧-١٢٨.
٣ ـ المدّثر ٧٤: ٣٨.
٤ ـ الأنعام ٦: ١٦٤، الإسراء ١٧: ١٥، فاطر ٣٥: ١٨، الزمر ٣٩: ٧، النجم ٥٣: ٣٨.
٥ ـ النجم ٥٣: ٣٠.
٦ ـ الليل ٩٢: ١٨-٢١.
٧ ـ الإنسان ٧٦: ٨-٩.
٨ ـ الإسراء ١٧: ٢٤.
٩ ـ الإسراء ١٧: ٣١.

«فَكُّ رَقَبَةٍ. أو إطعامٍ في يومٍ ذي مَسغَبَةٍ. يَتيماً ذا مَقرَبَةٍ. أو مِسكيناً ذا مَترَبَةٍ. ثُمَّ كانَ مِنَ الّذينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بالصَبرِ وَتَواصَوْا بِالمَرحَمَة».[١]

فمن يفعل ذلك يكن شأنه شأن من سبقه من رجالنا المخلصين الذين كان منهم إبراهيم عليه السلام، حيث:

«فَغَفَرنا لَهُ ذلِكَ وَإنَّ لَهُ عِندَنا لَزُلفى وَحُسنَ مَآبٍ».[٢]

ولايجوز أن يكون الإحسان حبّاً في التظاهر والتعاظم على المحتاج، فإنّ ذلك يمحق الحسنات كما أنّ فيه إذلالاً للنفس البشرية، وهي عند الله أكرم من أن يتسامح في إذلالها، فإذا فعلتم أيّها المسلمون حسنة فلا يجعل الواحد منكم شماله تعلم ما قدّمت يمناه. أمّا إذا أخذه الزهو فإنّ عمله يكون كسقوط المطر على صخرة ملساء مكشوفة ما عليها تراب، فيهطل المطر، ولكنّه يتساقط على أطرافها، فلا تنتفع منه شيئاً. أمّا ذلك الذي يقصد ربّه بعمله فهو كبستان على ظهر رابية يتقاطر عليها الغيب فتمرع، ويصوبها الندى فَتتفتّح أزاهيرها.

وعلى محمّد أن يفصل فيما يعترض قومه من مشكلات: فإذا حكم فليحكم كما فعل داود: «يا داوُودُ إنّا جَعَلناكَ خَليفَةً في الأَرضِ فَاحكُمْ بَينَ النّاسِ بِالحَقِّ وَلاتَتَّبِعِ الهَوى فَيُظِلّكَ عَن سَبيلِ اللهِ إنّ الّذينَ يَضِلُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَومَ الحِساب».[٣]

ولربّما آتاك الله بسطة في المال وسعة في العيش فلا تمنن بأنعم الله، أمّا إذا حاول الشيطان أن يوسوس في فؤاد أيٍّ من أصحابك فقل له: ارجع إلى الله.

وإيّاك أن تتعاظم نفسك فربّك أكبر منك.

«وَلا تَمشِ فِي الأَرضِ مَرَحاً إنَّكَ لَن تَخرِقَ الأَرضَ وَلَن تَبلُغَ الجِبالَ طُولاً»[٤] وحذّر قومكَ من:

«إذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثى ظَلّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وَهُوَ كَظيم».[٥] وربّما قتل تلك المولودة فإيّاك وأصحابك أن يفعل أحدكم هذه الكبيرة:

---

١ ـ البلد ٩٠: ١٣-١٧.

٢ ـ ص ٣٨: ٢٥.

٣ ـ ص ٣٨: ٢٦.

٤ ـ الإسراء ١٧: ٣٧.

٥ ـ النحل ١٦: ٥٨.

«وَلاتَقتُلُوا النّفْسَ الّتي حَرَّمَ اللهُ إلّا بالحَقّ».[١]

والموؤدة نفس سيحشرها ربّها يوم القيامة: «وَإذَا المَوؤودَةُ سُئِلَتْ. بأيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ».[٢]

ألم تلدكم أُناث يا هؤلاء؟ فاحترموا أرحاماً ولدَتكم: «وَلا تَقرَبُوا الزِّنا إنّه كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبيلاً».[٣]

ومن هذا القبيل يتوجّب:

«قُل لِلمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِن أبصارِهِم».[٤]

وللمؤمنات «وَلاتَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيّةِ الأُولى»،[٥] وعليهنّ أن لا يبدين زينتهنّ إلّا لبعولتهنّ أو ذوي أرحامهنّ من المحرمين.

ولا تغرّنكم الحياة الدنيا يا أصحاب محمّد، واعلموا أنّه:

«وَمَا الحَياةُ الدُنيا إلّا مَتاعُ الغُرُور»[٦] وما مثلها إلّا كزرع استوى على سوقه يعجب الزرّاع نباته ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً، وكذلك يصرّف الله الآيات لقومٍ يعقلون.

واعلمو أنّه:

«قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ. ٱلَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ. وَٱلّذينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَٱلَّذينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ. وَٱلّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ. إلّا عَلىٰ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومينَ».[٧]

أمّا:

«فَمَنِ ابتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئكَ هُمُ العادُون».[٨]

بخلاف:

«والّذينَ هُم لِأماناتِهِم وَعَهدِهِم راعون. وَالَّذينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظون. أُولئكَ هُمُ الوارِثون».

١ ـ الأنعام ٦: ١٥١.
٢ ـ التكوير ٨١: ٨-٩.
٣ ـ الإسراء ١٧: ٣٢.
٤ ـ النور ٢٤: ٣٠.
٥ ـ الأحزاب ٣٣: ٣٣.
٦ ـ آل عمران ٣: ١٨٥.
٧ ـ المؤمنون ٢٣: ١-٦.
٨ ـ المؤمنون ٢٣: ٧.

وماذا يرثون؟

«الّذينَ يَرِثُونَ الفِردَوسَ هُم فيها خالِدُونَ».[١]

وكيف تعاملون والديكم يا أصحاب محمّد؟

«وَقَضىٰ رَبُّكَ أنْ لا تَعبُدُوا إلّا إيّاه وَبالوالِدَيْنِ إحساناً إمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أفٍّ وَلا تَنهَرهُما وَقُل لَهُما قَولاً كَريماً».[٢]

ولاتطمعوا في أموال قرباكم بل:

«وَآتِ ذَا القُربى حَقَّهُ وَالمِسكينَ وَابنَ السَبيلِ وَلاتُبَذِّر تَبذيراً».[٣]

وألزموا العدل في إنفاق أموالكم:

«وَلاتَجعَل يَدَكَ مَغلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبسُطها كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً مَحسُوراً».[٤]

وكذلك العدل في أقوالكم:

«وَقُل لِعِبادي يَقُولُوا الّتي هِيَ أحسَنُ إنّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بَيْنَهُم إنّ الشَّيطانَ كانَ للإنسانِ عَدُوّاً مُبيناً».[٥]

وأنت يا محمَّد:

«إدفَع بِالَّتي هِيَ أحسَنُ السَّيِّئَةَ نَحنُ أعلَمُ بِما يَصِفُونَ».[٦]

وسيندم أُولئك الذين يظنّون أنّ الله غافل عمّا يفعلون إذ أنّه:

«نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإذا هُم مِنَ الأجداثِ إلى ربِّهِم يَنسِلُون».[٧]

وحينئذٍ:

«وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفْسٌ شَيئاً وَإن كانَ مِثقالَ حَبّةٍ مِن خَردَلٍ أتَينا بِها وَكَفى بِنا حاسِبين».[٨]

وعليك يا محمّد أن تقول لأصحابك ممّن اهتدوا إلى سواء السبيل:

---

١ ـ المؤمنون ٢٣: ٨-١١.

٢ ـ الإسراء ١٧: ٢٣.

٣ ـ الإسراء ١٧: ٢٦.

٤ ـ الإسراء ١٧: ٢٩.

٥ ـ الإسراء ١٧: ٥٣.

٦ ـ المؤمنون ٢٣: ٩٦.

٧ ـ يس ٣٦: ٥١.

٨ ـ الأنبياء ٢١: ٤٧.

«وَاسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحيمٌ وَدود».[١]

ولن يبخل الله عليكم فهو:

«غافِرِ الذَّنبِ وَقابِلِ التَّوب».[٢]

وهو يبلغكم:

«قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسرَفُوا عَلى أنفُسِهِمْ لاتَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللهِ إِنّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إِنّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحيم».[٣]

واذكروا يا أصحاب محمّد أنّه:

«مَن كانَ يُريدُ العِزَّةَ فَللهِ العِزَّةُ جَميعاً إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ وَالّذينَ يَمكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُم عَذابٌ شَديدٌ وَمَكرُ أُولئكَ هُوَ يَبُور».[٤]

وإذا سألك المؤمنون عمّا حرّم الله فأجبهم:

«قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَواحِشَ ماظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلى ٱللهِ ما لا تَعْلَمُونَ».[٥]

فمن واجبكم أن:

«ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لايُحِبُّ ٱلْمُعْتَدينَ. وَلا تُفْسِدُوا في ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ ٱللهِ قَريبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنينَ. وَهُوَ ٱلَّذي يُرْسِلُ ٱلرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ ٱلْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَراتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذي خَبُثَ لايَخْرُجُ إِلّا نَكِداً كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».[٦]

ومن الشكر:

«وَصَّينا الإنسانَ بِوالِدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهنٍ».[٧]

---

١ ـ هود ١١: ٩٠.

٢ ـ غافر ٤٠: ٣.

٣ ـ الزمر ٣٩: ٥٣.

٤ ـ فاطر ٣٥: ١٠.

٥ ـ الأعراف ٧: ٣٣.

٦ ـ الأعراف ٧: ٥٥-٥٨.

٧ ـ لقمان ٣١: ١٤.

فحين يشبّ يغدو من واجبه أن يقول:

«رَبِّ أوزِعني أن أشكُرَ نِعمَتَكَ الّتي أنعَمتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيّ».[١]

ولكن الشكر لذينك الوالدين لايجعله في حلّ من أن يعصي ربّه من أجلهما:

«وَإن جاهَداكَ عَلى أن تُشرِك بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعرُوفاً».[٢]

ولكنّك في حلٍّ من العصيان لأنّ:

«اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً»[٣] إلّا «أن يُشرَكَ بِهِ».[٤]

واضرب يا محمّد للمخلصين من أتباعك مثلاً وقل لهم:

«مَثَلُ ٱلَّذينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ ٱللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِأَةُ حَبَّةٍ وَٱللهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ وَٱللهُ واسِعٌ عَليمٌ. ٱلَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ ٱللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَٱللهُ غَنِيٌّ حَليمٌ».[٥]

وليس في هذا على المؤمنين رهق ولاتعجيز إذ أنّه:

«لا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفساً إِلّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِن نَسينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَٱعْفُ عَنّا وَٱغْفِرْ لَنا وَٱرْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَٱنْصُرْنا عَلى ٱلْقَوْمِ ٱلْكافِرينَ».[٦]

هؤلاء القوم هم الّذين تردّد ألسنتهم وتطفح قلوبهم بحبّ الله فيظلّ دعاؤهم:

«الّذين يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمنّا فَاغفِر لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النار».[٧]

و«ربَّنا إِنَّكَ مَن تُدخِلِ النارَ فَقَد أخزَيتَهُ وَما لِلظالِمينَ مِن أنصار».[٨]

واعلموا يا أصحاب الرسول أنّ:

---

١ ـ النمل ٢٧: ١٩.
٢ ـ لقمان ٣١: ١٥.
٣ ـ الزمر ٣٩: ٥٣.
٤ ـ النساء ٤: ٤٨ و ١١٦.
٥ ـ البقرة ٢: ٢٦١-٢٦٣.
٦ ـ البقرة ٢: ٢٨٦.
٧ ـ آل عمران ٣: ١٦.
٨ ـ آل عمران ٣: ١٩٢.

«مَن يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصيبٌ مِنْها وَمَن يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ ٱللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقيتاً».[١]

و «يَا أَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبينَ إِن يَكُنْ غَنيّاً أَوْ فَقيراً فَاللهُ أَوْلىٰ بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَـلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبيراً».[٢]

فهل تقصر دعوة ابن الصحراء العربي، أو الرسول إلى العالم كافّة، في مخاطبته ضمائر الناس من قومه السابقين والإنسانية جمعاء من اللاحقين، عن دعوة المسيح الرقيقة!!

لقد كان يتيماً فقيراً عائلاً حرَمتهُ الأيّام حنان أعزّ الأقربين إليه في طفولته، وتمزّقت نياط قلبه في صباه، ثمّ اعتصرهُ الألم والحسرة على ضلالة قومه في رجولته. وكان عليه أن يقارع الجهالة والحقد وعمى البصيرة طوال حياته، ومع هذا تدفّق من قلبه ذلك الينبوع الصافي فسمت إنسانيّته، وهبط عليه وحي ربّه يهديه ليهدي غيره، ويدلّه على صـراطٍ سويّ ترتفع به النفس البشرية من مسارب العالم المادّي إلى عالم الروح وإن كانت تظلّ تنظر إلى وجودها الأصيل في عالم المادّة.

هكذا كان نبيّ الإسلام، وهكذا كانت رسالته، رسالة نور وهداية للعقل البشرى في مختلف الحقب والعصور.

«رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلاتُخزِنا يومَ القِيامَةِ إنَّكَ لاتُخلِفُ الميعاد».[٣]

وهل أغفلهم ربّهم؟ أنّه:

«فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ فالَّذينَ هاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأُوذُوا في سَبيلي وَقاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّآتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِندِ ٱللهِ وَٱللهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوابِ».[٤]

فيا أيّها المؤمنون اتلوا مع رسولكم:

---

١ ـ النساء ٤: ٨٥.
٢ ـ النساء ٤: ١٣٥.
٣ ـ آل عمران ٣: ١٩٤.
٤ ـ آل عمران ٣: ١٩٥.

«يا أَيُّها ٱلنّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً وَنِساءً وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذي تَساءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحامَ إِنَّ ٱللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقيباً».[١]

وإيّاك يا محمّد وأصحابك أن تقعوا في نكاح المقت:

«وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ ٱلنِّساءِ إِلّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبيلاً».[٢]

وكذلك لاتحقدوا على ذوي البسطة فيكم واقنعوا بما رزقكم ربّكم:

«وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا ٱللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ ٱللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً».[٣]

«وَٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْيَتامىٰ وَٱلْمَساكينِ وَٱلْجارِ ذِي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْجارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ ٱللهَ لا يُحِبُّ مَن كانَ مُخْتالاً فَخُوراً».[٤]

وخاطب قومه وحذّرهم برفق أن يقترفوا مآثم كانوا يرتكبونها في الجاهلية، وأمرهم بإقامة العدل والإحسان والوفاء بالعهد:

«إنّ العهد كان مسؤولاً».[٥]

«قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلاتَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا ٱلْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتي حَرَّمَ ٱللهُ إِلّا بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلا تَقْرَبُوا مالَ ٱلْيَتيمِ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ حَتّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْميزانَ بِالْقِسْطِ لانُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ وَبِعَهْدِ ٱللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

ثمّ قال: «وَأَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاتَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».[٦]

---

١ ـ النساء ٤: ١.
٢ ـ النساء ٤: ٢٢.
٣ ـ النساء ٤: ٣٢.
٤ ـ النساء ٤: ٣٦.
٥ ـ الإسراء ١٧: ٣٤.
٦ ـ الأنعام ٦: ١٥١-١٥٣.

صفات المجد في القرآن

جاءت صفات المجد لله تعالى في القرآن صافية زاهية، ونزيهة وطاهرة، هي صفات الجلال و الجمال في تقديس وإكبار:

«هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهادَةِ هُوَ ٱلرَّحْمانُ ٱلرَّحيمُ. هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذي لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزيزُ ٱلْجَبّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ ٱللَّهَ عَمّا يُشْرِكُونَ. هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخالِقُ ٱلْبارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْماءُ ٱلْحُسْنىٰ يُسَبِّحُ لَهُ ما في ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزيزُ ٱلْحَكيمُ».[١]

فهو اللهُ، لا إله غيره، ولا معبود سواه. لاشريك له، تعالى الله عمّا يشركون.

عالم الغيب والشهادة، لا يعزب عن علمه شيء، عالم السرّ وأخفى، هو الرحمانُ الرحيم. قل لمن ما في السماوات والأرض، قل لله كتب على نفسه الرحمة. هو الله الّذي لا إله إلّا هُوَ الملك، المسيطر على الخلق كلّه، ملك الناس والمالك يوم الدين.

القدُّوسُ، المترفّع عن الدنائس والخسائس، العليّ العظيم.

السلامُ، الّذي ضمن على الخلق سلامتهم في عافية وهناء.

---

١ ـ الحشر ٥٩: ٢٢-٢٤.

المؤمنُ، الّذي كفل الأمن والطمأنينة على الناس في الحياة.

المهيمنُ، المسيطر على مقدّرات الخلق، ربّ العالمين.

العزيزُ، الّذي لايغالب في تدبيره وتنفيذ إرادته. إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

الجبّارُ، النافذ إرادته، الغالب على أمره فيما يشاء.

المتكبّرُ، الّذي تلبّس بالعزّ والكبرياء.

«أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لله جَميعاً».[1]

«مَن كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فلِلّهِ العِزَّةُ جَميعاً إلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصّالِحُ يَرفَعُه».[2]

«ولله العِزَّةُ ولِرَسولِهِ وَلِلْمُؤمِنينَ وَلكِنَّ المُنافِقِين لايَعلَمُونَ».[3]

والآيات من هذا النمط كثيرة في القرآن الكريم، جاءت لتمجّد الربّ تعالى تمجيداً لائقاً بمقام عظمته عزّ شأنه، وتنزيهاً متناسباً لموضع كبريائه، سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

❋ ❋ ❋

أمّا الذي جاء في الكتب المحرّفة ـ وكانت متداولة حينذاك ـ مثل العهدين، فإلى الإهانة أقرب منها إلى الاحترام بشأنه تعالى، ولنشر إلى نماذج منها:

خديعة آدم وحوّاء، خشية أن يخلدا في الحياة!

إله التوراة يكذب في نصيحته لآدم وحوّاء، وإبليس يصادقهما القول! إله يجهل مكانهما. و يخشى أن يعرفا الخير من الشرّ ويصبحا عاقلين!

هكذا جاء في التوراة المحرّفة، في الإصحاح الثالث من سفر التكوين:

---

١ ـ النساء ٤: ١٣٩.
٢ ـ فاطر ٣٥: ١٠.
٣ ـ المنافقون ٦٣: ٨.

«كانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرّية، فقالت للمرأة: أحقّاً قال الله: لا تأكلا من كلّ ثمر الجنّة؟ فقالت المرأة للحيّة: وأمّا ثمر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله: لا تأكلا منه ولاتمسّاه لئلّا تموتا، فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنّه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين للخير والشرّ، فأخذت المرأة من ثمرها وأكلت وأعطت رَجُلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما، وعلما أنّهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر، وسمعا صوت الربّ الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الربّ الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال آدم: سمعتُ صوتك في الجنّة فخشيت لأنّي عريان فاختبأت، فقال الربّ: من أعلمك أنّك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها»؟[١]

«وقال الربّ الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منّا عارفاً للخير والشرّ، والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الربّ الإله من جنّة عدن، فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنّة عدن الكروبيم، ولهيب سيف منقلب، لحراسة طريق شجر الحياة».[٢]

* * *

إله التوراة يخاف من بني آدم وحدتهم وائتلافهم، ولذلك يفرّق بينهم ويبلبل ألسنتهم، هكذا جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين:

«وكانت الأرض كلّها لساناً واحداً، ولغةً واحدة. وحدث في ارتحالهم (ارتحال بني الإنسان) شرقاً أنّهم وجدوا بقعةً من أرض شنعار[٣] وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلمّ نصنع لبناً ونشوّيه شيّاً. فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان الحُمَر[٤] مكان الطين. وقالوا

---

١ ـ العدد: ١-١٢، ص ٦.
٢ ـ العدد: ٢٢-٢٤، ص ٧.
٣ ـ أرض شنعار: هو ما بين النهرين (دجلة والفرات) بالعراق، وهي أرض بابل قرب مدينة الحلّة اليوم بالعراق.
٤ ـ الحُمَر: ضرب من القار كانوا يطلون به الحيطان كالملاط.

هلمّ نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلّا نتبدّد على وجه كلّ الأرض. فنزل الربّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الربّ: هو ذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه، هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتّى لا يسمع بعضهم لسان بعض.

فبدّدهم الربّ هناك على وجه كلّ الأرض، فكفّوا عن بنيان المدينة».[١]

هكذا يعارض إله التوراة حضارة الإنسان، ويعرقل في سبيل مدنيّته، وبذلك يكون قد كافح واقع الحياة وعارض متطلّباتها التي جعلها هو في ذات الإنسان. إن هذا إلّا تضادّ عارم يتحاشاه ربّ العالمين وإله الخلق أجمعين.

* * *

هذا، بينما القرآن يجعل من الإنسان أكرم خليقته ويفضّله على كثير ممّن خلق، ويعلّمه الأسماء كلّها ليجعله خليفته في الأرض، ويوكّله عمارة الأرض «هُوَ أنشَأكُم مِنَ الْأرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُم فيها».[٢] وعلّمه ما لم يعلم[٣] «ويُزَكّيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونُوا تَعلَمُون».[٤]

تقديس مقام الأنبياء والرسل وتفخيم شأنهم

ويتعرّض القرآن لذكر الأنبياء فيصفهم بكلّ جميل ينبغي أن يوصفوا به، وينسب إليهم كلّ مأثرة كريمة تلازم قداسة النبوّة، ونزاهة السفارة الإلهية.

«الّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُمْ في التَّوراةِ وَالإنجيلِ يأمُرُهُمْ بِالمَعرُوفِ وَيَنهاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِث».[٥]

---

١ ـ العدد: ١ ـ ٩، ص ١٧.
٢ ـ هود ١١: ٦١.
٣ ـ إشارة إلى قوله تعالى: «عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَم» العلق: ٥.
٤ ـ البقرة ٢: ١٥١.
٥ ـ الأعراف ٧: ١٥٧.

«هُوَ ٱلَّذي بَعَثَ في ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ».[١]

«وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظيمٍ».[٢]

«إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى ٱلْعالَمينَ».[٣]

«وَإِذْ قالَ إِبْراهيمُ لِأَبيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّني بَراءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ. إِلّا ٱلَّذي فَطَرَني فَإِنَّهُ سَيَهْدينِ».[٤]

«وَكَذٰلِكَ نُري إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنينَ».[٥]

«وَوَهَبْنا لَهُ إِسحاقَ وَيَعْقوبَ كُلّاً هَدَيْنا وَنوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسىٰ وَهارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنينَ. وَزَكَرِيّا وَيَحْيىٰ وَعيسىٰ وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ ٱلصّالِحينَ. وَإِسْماعيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنا عَلَى ٱلْعالَمينَ. وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَٱجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ».[٦]

«وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذي فَضَّلَنا عَلىٰ كَثيرٍ مِنْ عِبادِهِ ٱلْمُؤْمِنينَ».[٧]

«وَٱذْكُر إِسماعيلَ وَاليَسَعَ وَذَا الكِفلِ وَكُلٌّ مِنَ الأخيارِ».[٨]

«أُوْلٰئِكَ ٱلَّذينَ أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْراهيمَ وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَٱجْتَبَيْنا إِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُ ٱلرَّحْمانِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً».[٩]

هذه جملة من الآيات التي جاء بها الكتاب العزيز في تنزيه الأنبياء وتقديسهم، وإظهارهم على حقيقتهم من القداسة والنزاهة وجميل الذكر.

أمّا كتب العهدين فقد تعرّضت أيضاً لذكر الأنبياء ووصفتهم، ولكن بماذا وصفتهم؟!

---

١ ـ الجمعة ٦٢: ٢.
٢ ـ القلم ٦٨: ٣-٤.
٣ ـ آل عمران ٣: ٣٣.
٤ ـ الزخرف ٤٣: ٢٦-٢٧.
٥ ـ الأنعام ٦: ٧٥.
٦ ـ الأنعام ٦: ٨٤-٨٧.
٧ ـ النمل ٢٧: ١٥.
٨ ـ ص ٣٨: ٤٨.
٩ ـ مريم ١٩: ٥٨.

وبأيّ منزلة وضيعة أنزلت هؤلاء السفرة الأبرار.[١]

أبرام يحتال

جاء في الإصحاح ١٢ من سفر التكوين: انحدر أبرام إلى مصر، وحدث لمّا قرب أن يدخلها أنّه قال لساري امرأته: قد علمت أنّكِ حسنة المنظر، فيكون إذا رآكِ المصريّون فيقولون إنّها امرأته، فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنّك أُختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك.

ولمّا دخلوا مصر ورآها المصريّون أنّها حسنة جدّاً وصفوها لفرعون، فأُخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن[٢] وجمال.

وحينما علم فرعون أنّها امرأة أبرام وليست أُخته دعا أبرام ووبّخه وقال له: ما هذا الّذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنّها امرأتك؟ فردّها عليه.

أفهل يعقل من نبيّ عظيم أن يعرّض بزوجه للفحشاء بغية حفظ نفسه أو طلباً في المال؟

قال سيّدنا الأُستاذ ﷺ: وحاشا إبراهيم ـ وهو من أكرم أنبياء الله ـ أن يرتكب ما لا يرتكبه فرد عاديّ من الناس.[٣]

لوط وابنتاه

جاء في الإصحاح ١٩من سفر التكوين: وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا،

---

١ ـ البيان في تفسير القرآن، ص ٦٠-٦١.

٢ ـ الأُتن: جمع أتان بمعنى حمارة.

٣ ـ المصدر، ص ٦٣.

هلمَّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً.

ففعلتا ذلك من غير أن يشعر أبوهما بفعلتهما الشنيعة، فحملتا منه، فولدت البكر إبناً ودعت اسمه (موآب ـ وهو أبو الموابيين). والصغيرة أيضاً ولدت إبناً وسمّته (بن عمّي ـ وهو أبو بني عمّون).

يعقوب يخدع أباه إسحاق

جاء في الإصحاح ٢٧ من سفر التكوين: كان إسحاق عندما كبر وشاخ أمر ابنه الأكبر (عيسو) أن يذهب إلى الصيد فيأتيه بطعام يأكله، ووعده أن يعطيه مواريث النبوّة ويبارك له. فسمعت «رفقة» أمّ يعقوب ـ وهو الولد الأصغر ـ ذلك فأسرعت إلى يعقوب تقول له: اصنع لأبيك طعاماً حتى يبارك لك بدل «عيسو». فقال يعقوب: كيف وإنّي أملس وأخي أشعر؟! فدبّرت له شعراً ولبّس الأمر على أبيه إسحاق، فظنّه «عيسو».

فدخل يعقوب على أبيه وقال: يا أبي! فقال:ها أناذا، من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك.

فقال إسحاق: ما هذا الّذي أسرعت يا ابني؟ فقال: إنّ الربّ إلهك فقد يسّرلي.

فقال إسحاق ليعقوب: تقدّم لأجسّك يا ابني أأنت هو ابني عيسو أم لا.

فتقدّم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسّه وقال: الصوت صوت يعقوب. ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو. فقال: أنا هو، فدعا له وقال: ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيّداً لإخوتك.

ولمّا رجع عيسو ودخل إلى أبيه وتهيّأ ليبارك له قال له إسحاق أبوه: من أنت؟ فقال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جدّاً وقال: فمن هو الذي باركته قبل مجيئك؟!

فلمّا سمع عيسو ذلك صرخ صرخةً عظيمةً ومُرّةً جدّاً وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي. فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك.

فقال عيسو: أما أبقيت لي بركة؟ فأجاب إسحاق: إنّي قد جعلته سيّداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً فماذا أصنع إليك يا ابني؟!

هكذا، وبهذا الأُسلوب الشيطاني يصف التوراة كيفية انتقال مواريث النبوّة من نبيّ إلى نبيّ.

قال سيّدنا الأُستاذ ﷺ: أفهل يعقل انتهاب معالم النبوّة؟ وهل يمنح الربّ تعالى النبوّة لمخادعٍ كذّاب، ويحرم منها أهلها المستحقّ لها؟!

قال: ولعلّ سكرة الخمر دعت إلى وضع هذه السخافة، وإلى نسبة شرب الخمر إلى نبيّ الله إسحاق عليه السلام.[١]

يهوذا يزني بأرملة ابنه

جاء في الإصحاح ٣٨ من سفر التكوين: أنّ يهوذا بن يعقوب لمّا مات ابنه الأكبر (عِير) أرسل أرملته (ثامار) إلى بيت أبيها، واتّفق أنّ يهوذا صعد إلى نمنة، فأخبرت ثامار بذلك، فتلفّفت ببرقع وقعدت في طريقه، فنظرها يهوذا وحسبها زانية، فمال إليها و قال: هاتي لأدخل عليك، لأنّه لايعرف أنّها كنّته، فقالت: ماذا تعطيني؟ قال: جدي معزى من الغنم، قالت: حتّى آخذ رهناً. فأعطاها خاتمه وعصابته وعصاه، فدخل عليها وحبلت منه. ثمّ قامت و مضت، ولمّا أرسل إليها الجدي لم يجدوها، وبعد ثلاثة أشهر أخبر يهوذا بأنّ ثامار قد زنت وهي حبلى، فقال: أخرجوها فتحرق، فلمّا أُخرجت قالت: أنا حبلى من الرجل الذي هذه العصا والعصابة والخاتم منه، فقال يهوذا: هي أبرّ منّي. فولدت توأمين: فارَص وزارَح.

---

١ ـ المصدر، ص ٦٤

وفارس هذا ينتهي إليه نسب المسيح وداود وسليمان عليهما السلام على ماصرّح به إنجيل متّى في الإصحاح الأول.

هذا، وقد قال تعالى بشأن خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله: «وَتَقَلُّبَكَ فِي السّاجِدين».[1] قال الإمام باقر العلوم عليه السلام: أي في أصلاب النبيّين نبيّ بعد نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام.[2]

وفي زيارة الإمام أبي‌عبدالله الحسين عليه السلام: «أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة...».

وهذه هي عقيدتنا في آباء الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام وأُمّهاتهم، لم يزالوا ينتقلون من صلبٍ طاهر إلى رحمٍ مطهّر، من لدن آدم فإلى حين ولادتهم، من نكاح غير سفاح.

قصّة داود وأُوريا

جاء في الإصحاح ١١ و ١٢ من صموئيل الثاني أنّ داود ـ حاشاه من نبيّ كريم ـ زنى بامرأة أُوريا في غياب منه، لأنّه كان في قتال مع الكفّار، فحبلت منه، وخشي داود الفضيحة وأراد تمويه الأمر، فكتب إلى رئيس جنده أن يجعل أُوريا في مقدّمة الجيش، فقتل أُوريا. فضمّ داود امرأة أُوريا إلى بيته وصارت امرأته.

سليمان يعبد أوثاناً

جاء في الإصحاح ١١ من الملوك الأول أنّ نساء سليمان ـ وكنَّ سبعمائة امرأة ـ أملن قلبه وراء آلهة أُخرى (عشتورث آلهة الصيد ونبين وملكوم...).

---

١ ـ الشعراء ٢٦: ٢١٩.

٢ ـ الصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٢٨؛ وراجع: الدرّ المنثور، ج ٥، ص ٩٨.

المسيح يحضر مجلس خمر!

جاء في الإصحاح ٢ من إنجيل يوحنا أنّ عيسى المسيح حضر مجلس عرس، فنفد خمرهم، فعمل لهم ستّة أجران من الخمر بطريق المعجزة.

وفي إنجيل متّى ١١ ولوقا ٧ أنّ المسيح كان يشرب الخمر كثير الشرب لها.

هذا مع العلم أنّ الخمر كانت محرّمة في جميع الأديان السماوية، وصرّح بتحريمها كتب العهدين.[١]

هكذا تطيح تعاليم العهدين بشأن الأنبياء العظام وتحطّ من كرامتهم وتطعن في أنسابهم، وتنزلهم إلى مرتبة سفلى من الابتذال والارتذال، حاشاهم من عباد الله المخلصين وأوليائه المكرمين.

هارون هو الّذي صنع العجل لاالسامري

وقال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتّى جلبت عليه خطيّة عظيمة؟!

فقال هارون: لايحم غضب سيّدي، أنت تعرف الشعب أنّه في شرّ، فقالوا لي: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأنّ هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه، فقلت لهم: من له ذهب فلينزعه ويعطني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل.[٢]

موسى يهدّد الربّ تعالى بالاستعفاء من الرسالة

وكان في الغدّ أنّ موسى قال للشعب: أنتم قد أخطأتم خطيّة عظيمة، فأصعد الآن إلى الربّ العلي أُكفّر خطيّتكم. فرجع موسى إلى الربّ وقال: آه قد أخطأ هذا الشعب خطيّة عظيمة، والآن إن غفرت خطيّتهم، وإلّا فامحُني من كتابك الذي كتبته.[٣]

---

١ ـ راجع: لاويين ١٠، ص ١٧١ ولوقا ١، ص ٨٩.

٢ ـ سفر الخروج: الإصحاح ٣٢، العدد ٢١-٢٤، ص ١٤١.

٣ ـ سفر الخروج: الإصحاح ٣٢، العدد ٣٠-٣٣، ص ١٤١.

يعقوب يصارع الربّ تعالى

ثمّ قام يعقوب في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبّوق، أخذهم وأجازهم الوادي، وأجاز ما كان له، فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسانٌ حتّى طلوع الفجر. ولمّا رأى أنّه لايقدر عليه ضرب حُقّ فخذه، فانخلع حُقّ فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال: أطلقني لأنّه قد طلع الفجر، فقال: لاأُطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل. لأنّك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوبُ وقال: أخبرني باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك.[1]

تكريم مقام الإنسان

القرآن يرى من الإنسان المخلوق المفضّل، الذي وقع موقع التكريم والتفخيم في كثير من آيات الذكر الحكيم:

«وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ في ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْناهُم مِنَ ٱلطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلىٰ كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً».[2]

«يا أَيُّهَا ٱلنّاسُ إِنّا خَلَقْناكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللهِ أَتْقاكُمْ».[3]

«وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْملائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ في الأَرضِ خَليفَة... وَعَلَّم آدَم الأَسْماءَ كُلَّها... فَتَلَقّى آدَمُ مِن رَبِّه كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيه».[4]

«أَلَمْ تَرَوا أَنّ اللهَ سخَّرَ لَكُمْ ما في السَّماواتِ وما في الأرض».[5]

---

١ ـ سفر التكوين: الإصحاح ٣٢، العدد ٢٢-٢٩، ص ٥٤. ٢ ـ الإسراء ١٧: ٧٠.
٣ ـ الحجرات ٤٩: ١٣. ٤ ـ البقرة ٢: ٣٠-٣٧.
٥ ـ لقمان ٣١: ٢٠.

«وَسَخَّرَ لَكُم ما في السَّماواتِ وَما في الْأَرْضِ جَميعاً».[١]

«هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرضِ واسْتَعمَرَكُمْ فيها».[٢]

«ثُمّ أنْشَأناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقين».[٣]

هكذا يجد الإنسان نفسه الجوهرة الفريدة والدرّة اليتيمة في عالم الوجود وفي وصف القرآن كلام ربّ العالمين، على عكس ما جاء في العهد العتيق، حسبما عرفت.

شمول الدعوة وعموم الرسالة إلى كافّة الناس على طول الدهر

القرآن يحمل رسالة الله إلى كافّة الخلائق، رسالة عامّة لاتخصّ اُمّة دون اُخرى ولاجيلاً دون جيل، ولاهي محدودة بفترة ولابرقعة من الأرض دون ما سواها.

«هذا بَيانٌ لِلنّاس».[٤]

«هذا بَلاغٌ للنّاس».[٥]

«بَصائرَ لِلنّاس».[٦]

«هُدىً للنّاس».[٧]

«ياأيُّها النّاس قَدْ جاءَتْكُم مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُّدور».[٨]

«وَأرسَلناكَ لِلنّاس رَسُولاً».[٩]

«وَما أرسَلناكَ إلّاكافَّةً لِلنّاس».[١٠]

«قُل يا أيُّها النّاسُ إنّي رَسولُ الله إلَيكُم جَميعاً».[١١]

---

١ ـ الجاثية ٤٥: ١٣.
٢ ـ هود ١١: ٦١.
٣ ـ المؤمنون ٢٣: ١٤.
٤ ـ آل عمران ٣: ١٣٨.
٥ ـ إبراهيم ١٤: ٥٢.
٦ ـ القصص ٢٨: ٤٣.
٧ ـ البقرة ٢: ١٨٥.
٨ ـ يونس ١٠: ٥٧.
٩ ـ النساء ٤: ٧٩.
١٠ ـ سبأ ٣٤: ٢٨.
١١ ـ الأعراف ٧: ١٥٨.

«هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسولَهُ بِالْهُدىٰ وَدينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلِّه».[١]

«قُل يا أَيُّهَا النّاس إِنَّما أنا لَكُمْ نَذيرٌ مُبين».[٢]

إلى غيرهنّ من آيات، فضلاً عن دلائل جاءت في صحيح الروايات، وهي كثيرة، دلّتنا على عموم رسالة الإسلام، وشمول دعوة القرآن.

هذا، ولكن الدعوة ـ في العهد القديم ـ موجّهة إلى شعب إسرائيل، وكانت الشريعة خاصّة ببني إسرائيل، شعب الله المختار[٣] ـ حسبما يزعمون ـ!!

سوى أنّ القرآن الكريم يفنّد من تلك المزعومة، ويصرّح بأنّ دعوة النبيّين من قبل أيضاً كانت عامّة لجميع شعوب العالم، ولاسيّما أُولي العزم ـ كنوحٍ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، مضافاً إلى خاتم النبيّين ـ صلوات الله عليهم أجمعين.

وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: «وَإِذ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيّينَ ميثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نوحٍ وَإبراهيمَ وَمُوسىٰ وَعيسىَ بنِ مَريَمَ وَأَخَذنا مِنهُمْ ميثاقاً غَليظاً».[٤]

«وَإذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاس».[٥]

وبشأن دعوة موسى عليه السلام: «قُل مَن أَنزَلَ الكِتابَ الّذي جاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنّاس».[٦]

وبشأن التوراة والإنجيل معاً: «وَأَنزَلَ التّوراةَ والإنجيلَ مِن قَبلُ هُدىً لِلنّاس».[٧]

إذاً فلم يعرف وجهٌ لمزعومة الاختصاص.

---

١ ـ الصف ٦١: ٩؛ التوبة ٩: ٢٣. ٢ ـ الحج ٢٢: ٤٩.

٣ ـ جاء في سفر التثنية (الإصحاح ٢٦، العدد ١٨ و ١٩): هذا اليوم قد أمرك الربّ إلهك أن تعمل بهذه الفرائض والأحكام... وواعدك الربّ اليوم أن تكون له شعباً خاصّاً... وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل، التي عملها في الثناء والاسم والبهاء... وأن تكون شعباً مقدّساً للربّ إلهك.

وفي (الإصحاح ٢٧، العدد ٩): «ثمّ كلّم موسى والكهنة اللاويّون جميع إسرائيل، قائلين: انصت واسمع يا إسرائيل، اليوم صرت شعباً للربّ إلهك...».

وفي (الإصحاح ٢٨، العدد ٢): «اليوم يجعلك الربّ إلهك مستعلياً على جميع قبائل الأرض...».

٤ ـ الأحزاب ٣٣: ٧. ٥ ـ آل عمران ٣: ١٨٧.

٦ ـ الأنعام ٦: ٩١. ٧ ـ آل عمران ٣: ٣-٤.

انظر إلى هذه الأحكام التشريعية جاءت في التوراة (العهد القديم) خاصّة ببني إسرائيل.

«لاتكن زانيةٌ من بنات إسرائيل... ولايكون مأبُونٌ من بني إسرائيل...».

«لاتُقرض أخاك بربا، ربا فضّة أو ربا طعام أو ربا شيء مّا ممّا يقرض بربا... للأجنبي تُقرض بربا، ولكن لأخيك لاتُقرض بربا، لكي يباركك الربّ إلهك».[1]

ودليلاً على هذا التخصيص نجد حكماً آخر ناصّاً على التعميم:

«لاتظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إخوتك، أو من الغرباء الذين في أرضك».[2]

عقيدة اليونان الأساطيرية

كانت ليونان القديمة آلهة لايحصرها عدٌّ، حسب تنوّعها وتفرّق أفرادها، وكان لكلّ إله من الآلهة أُسطورة متّصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدنيّة، أو تفسّر الطقوس التي تقام تكريماً له. وقد أصبحت هذه الأساطير التي نشأت نشأة تلقائية ممّا في المكان وممّا لدى الناس من معارف، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم. أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأوّلين وفلسفتهم وآدابهم و تاريخهم جميعاً. فمنها استمدّوا الموضوعات التي زيّنوا بها مزهريّاتهم، وهي التي أوحت إلى الفنّانين ما لا يحصى من الرسوم والتماثيل والنقوش، وقد ظلّ الناس إلى آخر أيّام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير، بل يخلقون الآلهة أنفسها، رغم ما انتجته بحوثهم الفلسفية، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد.

لقد كان في وسع رجال ـ من أمثال هرقليس ـ أن يعدّوا أمثال هذه الأساطير مجرّد مجازات وتشابيه، وفي وسع آخرين ـ أمثال أفلاطون ـ أن يعدّلوها ويوفّقوا بينها وبين ما

---

١ ـ سفر التثنية: الإصحاح ٢٣، العدد ١٨ ـ ٢٠ (العهد القديم، ص ٣١٦). والمقصود بالأخ هم بنو إسرائيل.

٢ ـ سفر التثنية: الإصحاح ٢٤، العدد ١٤.

تقبله العقول، وفي مقدور رجال ـأمثال زنو فانير ـأن ينـدّدوا بـها ويـنبذوها. غـير أنّ پوزيناس ـحين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ـ وجد الخرافات والأساطير التي كانت تثير الحميّة في قلوب الأهلين في عصر هومر لاتزال حيّة قويّة.

وإليك بعض التفصيل عن ذلك الحشد الكبير من الآلهة المصطنعة:

تنقسم آلهة يونان الأساطيرية إجمالياً إلى سبع مجموعات: آلهـة السـماء، وآلهـة الأرض، وآلهة الخصب، والآلهة الحيوانية، وآلهة ما تحت الأرض، وآلهـة الأسـلاف أو الأبطال، والآلهة الأُولمبية. وأما أسماؤها جميعاً فممّا يشقّ على الإنسان ذكرها لكثرتها وتشعّبها.

وقد أورد ول ديورانت شطراً من قصص هؤلاء الآلهة في كتابه «قصّة الحضارة» ممّا يطول.[١]

❊ ❊ ❊

أمّا العبادات، فلم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقلّ تنوّعاً واختلافاً من الآلهة التي كانت تحتفل بها وتعظّمها: فقد كانت للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسكّن بها غـضبها ويتّقى شرّها. وكان للآلهة الأُولمبية طقوس سارّة كلّها ترحيب بها وثناء عليها. ولم تكن هذه وتلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها، فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن في الأُسرة، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه في الدولة.

أمّا مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد النار أو موقد البلدية القائم فـي قـاعة المدينة العامّة، ويمكن أن يكون شقّاً من الأرض يسكنه إله أرض أو هيكلاً لإله اُولمبي. وكان حرم الهيكل مكاناً مقدّساً، لايعتدى عليه، يجتمع فيه العابدون، ويجد فيه اللاجئون مكاناً أميناً يجتمعون فيه ولو كانوا ممّن ارتكبوا أشنع الجرائم.

ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلّين بل كانت بيت الإله، يُنصب فيه تمثاله،

---

١ ـ راجع: قصّة الحضارة، ج ٦، ص ٣١٧-٣٤٧.

ويوقد أمامه ضوء لاينطفئ أبداً. وكثيراً مّا كان الناس يعتقدون أنّ الإله هو التمثال نفسه، ولذلك كانوا يعنون بغسله وكسوته وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية. وكانوا أحياناً يؤنّبونه إذا أهمل أمرهم. وكانوا يقصّون على من يستمع إليهم كيف تصبّب التمثال عرقاً في بعض الأحايين أو كيف بكى أو أغمض عينيه.

وكان الاحتفال الّذي يقام في تلك الهياكل يتألّف من موكب وأناشيد وقربان وأدعية، يضاف إليها في بعض الأحيان وجبة مقدّسة. وقد يشمل الموكب سحراً ومقنعات وجماهير من الممثّلين يعملون مجتمعين، ومسرحية تمثيلية... إلى آخر التفاصيل الّتي ذكرها ول ديورانت.[١]

❊ ❊ ❊

وأمّا الخرافات، فقد كان بين قطب الدين اليوناني العلوي والسفلي، الأُولمبي والأرضي، بحر يزخر بالسحر والخرافات والأباطيل. وكان من وراء عباقرة معروفين، وكان من ورائهم جمهرة الشعب من الفقراء والسذّج الذين لم يكن الدين في نظرهم إلّا شراكاً من الخوف لا سلّماً للآمال. ولم يكن اليوناني العادي يكتفي بتصديق القصص التي تروي المعجزات، كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب في مرثون. أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيس، بل أنّ في وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هذا، فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوى فيها عظام تسيوس، وحرص اسپارطة على أن تستردّ من تيجيا عظام ارستيز. فقد يكون ما يعزوه الحكّام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات، جزءً من فنّ الحكم وأساليبه. أمّا الذي كان ينيخ بكلكله على اليوناني الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التي يعتقد أنّها متأهّبة على الدوام لأن تعرف محباته، وأن تتدخّل في شؤونه وتلحق به الأذى. وأنّ في مقدورها أن تفعل به هذا كلّه، وكانت هذه الشياطين (الأرواح الخبيثة) لاتنفكّ تعمل لأن تتقمّصه، وكان عليه أن يحذرها ويتّقي أذاها على

---

١ ـ المصدر، ص ٣٤٨-٣٥٣.

الدوام، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها.

* * *

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علماً من العلوم الطبيعية، وكانت إلى حدٍّ مّا سوابق لنظرية الجراثيم التي نعرفها اليوم. فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليوناني أنّ المريض قد حلّ فيه روح غريب. وأنَّ من يلمس الشخص المريض يعدى بقذارته أو «يلبسه ذلكالروح الغريب نفسه». وليست المكروبات والبكتريا إلّا صوراً جديدةً شائعةً لما كان اليونان يسمّونه كريس أو الجنّ الصغيرة. ومن ثمّ كان الميّت «نجساً» لأنّ الجنّي قد استحوذ عليه كلّ الاستحواذ. وكان اليوناني إذا خرج من بيت فيه ميّت رشّ نفسه بالماء من إناءٍ يوضع لهذا الغرض عند باب البيت. وذلك لكي يطرد من جسمه الروح الذي غلب الميّت على أمره.

وكان الجماع من أسباب النجاسة،كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمّد). وكان الطفل المولود نفسه نجساً، ولم يكن الجنون إلّا حلول روح غريب في جسم المصاب به، وكان يقال: إنّ المجنون قد خرج عن نفسه. وكان لابدّ في هذه الحالات من القيام باحتفال يطهر فيه الشخص النجس.

وكانت المنازل والهياكل والمدن بأجمعها في بعض الأحيان تطهر بالماء أو الدخان، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كلّ هيكل، حتّى يطهّر به نفسه كلّ قادم للتعبّد، أو لعلّ هذا الدعاء كان رمزاً يوحي إلى الناس بضرورة التطهّر.

وكان الكاهن نفسه خبيراً بأُصول التطهير، وكان في مقدوره أن يطرد الأرواح الشرّيرة من الأجسام بالضرب على إناء من البرنز، أو بقراءة العزائم، أو بالسحر أوالصلاة. وحتّى قاتل النفس عمداً كان يمكن تطهيره إذا أُجريت له الطقوس والمراسم الملائمة. ولم تكن التوبة ضرورة محتومة في مثل هذه الأحوال، بل كلّ ما كان يحتاجه المتطهّر هو أن يتخلّص من الشيطان الشرّير الذي تقمّصه، وذلك لأنّ الدين لم يكن أمر أخلاق عند

اليونان بقدر ما كان فنّاً لمعالجة أُمور الأرواح.

***

يقول ثيموفراستوس في كتابه «الأخلاق»: يبدو أنّ الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوّة الإلهية. إنّ الرجل المخرّف لايخرج من داره أو النهار إلّا بعد أن يغسل يديه ويرشّ نفسه بالماء من العيون التسع، ويضع في فمه قطعة من ورقة شجرةٍ في معبدٍ، فإذا ما اعترضت طريقه قطّة لم يواصل السير حتّى يمرّ به إنسان آخر، أو يقذف بثلاثة أحجار في الشارع. وإذا أبصر أفعى في بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس. أمّا إذا كانت أفعى مقدّسة فإنّه يقيم لها ضريحاً من فوره في البقعة التي أبصرها فيها. وإذا مرّ بحجارة ملساء مقامة في مفترق الطرق صبّ عليه الزيت من قنّينته ولم يواصل السير في طريقه إلّا بعد أن يركع له ويتعبّد. وإذا قرض فأر جعبة طعامه توجّه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل. وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ارتجف وبصق على صدره...[١]

... إلى غيرها من خرافات وأوهام كانت تعتور حياة اليونان في عهد طويل، ولاتزال حتّى ظهور الإسلام في الجزيرة باقية على قوّتها وسيطرتها على النفوس.

---

١ ـ المصدر، ص ٣٥٤-٣٥٧.

القرآن في تشريعاته الراقية

قد أسلفنا أنّ تشريعات القرآن جاءت متوافقة مع الفطرة السليمة ومتلائمة مع العقل الرشيد، لاتشوهها نزعات بشرية هابطة ولا تكدرها خسائس إنسانية مبتذلة.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لاتَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لايَعْلَمُون».[1]

وقد ثبت في علم الكلام أنّ الأحكام الشرعية ألطاف في الأحكام العقلية. ومعنى ذلك أنّ ما حكم به الشرع فقد حكم به العقل، أي إنّما يحكم الشرع بما كان العقل حاكماً بذاته لو خلّي وطبعه.

قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّما جاء الأنبياء ليثيروا دفائن العقول. أي ليبدوا ما كان مختبئاً في زوايا العقول.

قال عليه السلام: «فبعث فيهم رُسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيَّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ. ويثيروا لهم دفائن العقول».[2]

وهكذا ذكر الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام: إنّ لله حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وأمّا الباطنة فالعقول.[3]

---

١ ـ الروم ٣٠: ٣٠.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة الأُولى، ص ٤٣.

٣ ـ الكافي، ج ١، ص ١٦، ح ١٢ من كتاب العقل.

فالشريعة إنّما جاءت بما يحكم به العقل الرشيد، ويتوافق مع الفطرة السليمة.

***

ومن جهة أُخرى، كانت القوانين الإلهية جامعة وشاملة للجوانب الثلاثة في حياة الإنسان، والمرتبطة بعضها مع البعض ـ حسبما مرّت الإشارة إليه ـ وهي: جانب الفرد ذاته. وجانب المجتمع الذي يعيش فيه. وجانب حقّ الله في الخلق، والذي ضمن للإنسان كرامته في الحياة، وحبّب إليه عواطفه النبيلة مع بني نوعه العائش معهم، تلك جوانب الحياة الإنسانية الراقية، التي ضمنتها القوانين الإلهية، والتي اعوزتها أو افتقدتها سائر القوانين. وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

قال تعالى بشأن شريعة القصاص: «يا أَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصاصُ فِي ٱلْقَتْلى ٱلْحُرُّ بِالْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَٱلْأُنْثىٰ بِالْأُنْثىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَليمٌ. وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصاصِ حَياةٌ يا أُوْلِي ٱلْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».[1]

في هذه الآية ـ بل في هذا التشريع العادل ـ نكات ودقائق ظريفة:

أولاً: إنّ في شريعة القصاص ضماناً للحياة وإبقاءً عليها، وليس تكثيراً في القتل كما يتوهّمه القاصرون.

ثانياً: ضمان العدالة الاجتماعية في التعادل بين أصناف الإنسان، فلا يُقتل حرّ بعبدٍ، ولاذكر بأُنثى إلّا بعد دفع التفاوت، وفي شرائط خاصّة محرّرة في الفقه.

ثالثاً ـ وهو عمدة النظر هنا ـ: جانب رعاية الأُخوّة الإنسانية الكامنة وراء كلّ تشريع إلهي عرضه الإسلام. فالقانون ـ مهما كان ـ لامرونة فيه ولاعطوفة، إلّا إذا كان ناشئاً عن واقع الإنسان النابع عن كرامته وفضيلته في هذه الحياة.

والذي نجده في قوانين الشريعة التي عرضها القرآن: أنّ لأولياء الدم حقّ مطالبة القصاص، ولكن لافي جفاء «وَمَن قُتِلَ مَظلُوماً فَقَد جَعَلنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلايُسرِفْ فِي القَتلِ

---

١ ـ البقرة ٢: ١٧٨ ـ ١٧٩.

إنّهُ كانَ مَنصُوراً».[١] وله العفو عن القصاص تنازلاً إلى الدية، وهذا تخفيف من الله ورحمةٌ بالعباد.

والنكتة هنا أنّه تعالى جعل العفو منسوباً إلى الأخ، وقد عبّر عن وليّ الدم ـ وهو الثائر بأحاسيسه دفاعاً عن حقّ المقتول ـ بالأخ الكريم، إثارة لعواطفه الإنسانية النبيلة. فلايثور مثار العدوّ اللدود، وإنّما هوأخٌ وابن أخٍ كريم. ثمّ لا يذهب عن القاتل، أنّ الذي عفا عنه إنّما هو أخوه وإنّما عفا عنه لمكان أُخوّته، فلا يجفونّ بشأنه في أداء الدية إليه بإحسان. كما لا يَجفو وليّ الدم في مطالبة الدية، وإنّما يطالبه عن رفق ومداراة، لأنّه إنّما عفا عنه لأنّه أخوه.

فهنا جاءت قضية الأُخوّة الإنسانية فضلاً عن الأُخوّة الإسلامية، هي الفاصلة في الأمر والمستدعية لانتهاء الأمر بسلام، فلا خصومة بعد ذلك ولا تجافي عن الحقوق.

والقرآن في هذا المجال كأنّما أخذ موضع الحياد من القضية، وإنّما أوكلها إلى جانب من حياة الإنسان الرقيقة، هي جانب أُخوّته وكرامته وفضيلته، فهو الذي يحدو به إلى هذا المجال من الكرامة الإنسانية النبيلة وإن كان القرآن هو الذي أثار فيه هذه العاطفة، وساقه إلى هذا السبيل الرشيد.

فمتى قبل وليّ الدم الدية بدل القصاص ورضيه فيجب إذاً أن يطلبه بمعروف ورضاً ومودّة. ويجب على القاتل أن يؤدّيه بإحسانٍ وإجمالٍ وإكمال، تحقيقاً لصفاء القلوب وشفاءً لجراح النفوس، وتقويةً لأواصر الأُخوّة بين البقية الأحياء.

※※※

وقال بشأن اليتامى:

«وَآتُوا اَلْيَتامىٰ أَمْوالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا اَلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلىٰ أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً ـ إلى قوله: ـ وابتَلُوا اليَتامىٰ حَتّى إذا بَلَغوا النِّكاحَ فَإن آنَستُم مِنهُم رُشداً فَادفَعوا إلَيهِم أموالَهُم وَلاتأكُلوها إسرافاً وبِداراً أن يَكبَروا وَمَن كانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِف وَمَن

---

١ ـ الإسراء ١٧: ٣٣.

كانَ فَقيراً فَلْيَأكُل بِالْمَعْروف فَإذا دَفَعْتُم إلَيهِم أموالَهُم فَأشْهِدوا عَلَيْهِم وَكَفى بِاللهِ حَسيباً ـ إلى قوله: ـ وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَرَكُوا مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلِيَقُولُوا قَولاً سَديداً. إنَّ الَّذينَ يَأكُلُونَ أموالَ اليَتامى ظُلماً إنّما يأكُلُونَ في بُطونِهِم ناراً وَسَيَصْلَونَ سَعيراً».[١]

انظر إلى دقة تعابير القرآن الواردة في هذه الآيات:

إنّها توصيات مشدّدة بما كان واقعاً في الجاهلية العربية من تضييع لحوق الضعاف بصفة عامّة، والأيتام والنساء بصفة خاصّة. هذه الرواسب التي ظلّت باقية في المجتمع المسلم حتّى جاء القرآن يذيبها ويزيلها، وينشئ في الجماعة المسلمة تصوّرات جديدة ومشاعر جديدة وعرفاً جديداً وملامح جديدة.

«وآتوا اليتامى أموالَهم ولاتتبدّلوا الخبيث بالطيّب».

أُعطوا اليتامى أموالهم التي تحت أيديكم، ولاتعطوهم الرديء في مقابل الجيّد، كأن تأخذوا أرضهم الجيّدة وتبدّلوهم منها من أرضكم الرديئة، أو ماشيتهم أو أسهمهم أو نقودهم، أو أيّ نوع من أنواع المال فيه الجيّد والرديئ.

وكذلك لاتأكلوا أموالهم بضمّها إلى أموالكم، كلّها أو بعضها، إنّ ذلك كان ذنباً كبيراً، والله يحذّركم من هذا الذنب الكبير.

فقدكان هذا كلّه يقع إذاً في البيئة التي خوطبت بهذه الآية أول مرّة. فالخطاب بشيء بأنّه كان موجّهاً إلى مخاطبين فيهم من يقع منه هذه الأُمور. وهي من أثر مصاحب من آثار الجاهلية، وفي كلّ جاهلية يقع مثل هذا.

قال سيد قطب: ونحن نرى أمثاله في جاهليتنا الحاضرة في المدن والقرى، وما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتّى الطرق وشتّى الحيل، ومن أكثر الأوصياء بل الأولياء، على الرغم من كلّ الاحتياطات القانونية، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصّصة للإشراف على أموال القصّر، بل الغيّب أيضاً.

١ ـ النساء ٤: ٢-١٠.

فهذه المسألة لاتفلح فيها التشريعات القانونية، ولا الرقابة الظاهرية كلا. لا يفلح فيها إلّا أمر واحد وهو التقوى من الله، فهي التي تكفل الرقابة الداخلية على الضمائر. فتصبح للتشريع قيمته وأثره.

كما وقع بعد نزول هذه الآيات، إذ بلغ التحرّج من الأوصياء أن يعزلوا مال اليتيم عن أموالهم، ويعزلوا طعامهم عن طعامهم، مبالغةً في التحرّج والتوقّي من الوقوع في الذنب العظيم.

إنّ هذه الأرض لاتصلح بالتشريعات والتنظيمات مالم يكن هناك رقابة من التقوى في الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات. وهذه التقوى لاتجيش ـ تجاه التشريعات والتنظيمات ـ إلّا حين تكون صادرة من الجهة المطّلعة على السرائر، الرقيبة على الضمائر، عندئذٍ يحسّ الفرد ـ وهو يهمّ بانتهاك حرمة القانون ـ أنّه يخون الله ويعصي أمره ويصادم إرادته! وأنّ الله مطّلع على إرادته وعلى نيّته هذه وعلى فعله وعمله هذا، وعندئذٍ تتزلزل أقدامه وترتجف مفاصله وتجيش تقواه.

إنّ الله أعلم بعباده وأعرف بفطرتهم وأخبر بتكوينهم النفسي والعصبي ـ وهو خلقهم ـ ومن ثمّ جعل التشريع تشريعه والقانون قانونه والنظام نظامه والمنهج منهجه، ليكون له في القلوب وزنه وأثره ومخافته ومهابته، وقد علم سبحانه أنّه لايُطاع أبداً شرع لا يرتكن إلى هذه الجهة التي تخشاها وترجوها القلوب، وتعرف أنّها مطّلعة على خفايا السرائر وخبايا القلوب. وأنّه مهما أطاع العبيد تشريع العبيد تحت تأثير البطش والإرهاب والرقابة الظاهرية التي لاتطّلع على الأفئدة فإنّهم متفلّتون منها كلّما غافلوا الرقابة، وكلّما واتتهم الحيلة مع شعورهم دائماً بالقهر والكبت والتهيّؤ للانتقاض.

«وليخش الّذين لو تركوا من خلفهم ذرّيةً ضِعافاً خافوا عليهم فليتّقوا الله...».

وهكذا تمسّ اللمسة الأُولى شغاف القلوب، قلوب الآباء المرهفة الحسّاسة تجاه ذرّيتهم الصغار. بتصوّر ذرّيتهم الضعاف مكسوري الجناح، لا راحم لهم و لا عاصم، كي يعطفهم هذا التصوّر على اليتامى الذين وكّلت إليهم أقدارهم، بعد أن فقدوا الآباء. فهم لايدرون أن تكون ذرّيتهم غداً موكولة إلى من بعدهم من الأحياء، كما وكّلت إليهم أقدار

هؤلاء.

مع توصيتهم بتقوى الله فيمن ولّاهم الله عليهم من الصغار، لعلّ الله أن يهيّئ لصغارهم من يتولّى أمرهم بالتقوى والتحرّج والحنان.

❊ ❊ ❊

«إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلَون سعيراً».

وهذه هي اللمسة الأُخرى، صورة مفرغة، صورة النار في البطون، وصورة السعير في نهاية المطاف. إنّ هذا المال، نار، وإنّهم ليأكلون هذه النار، وإنّ مصيرهم لإلى النار. فهي النار تشوي البطون وتشوي الجلود، هي النار من باطن وظاهر، هي النار مجسّمة حتّى لتكاد تحسّها البطون والجلود، وحتّى لتكاد تراها العيون، وهي تشوي البطون والجلود.

ولقد فعلت هذه النصوص القرآنية ـ بإيحاءاتها العنيفة العميقة ـ فعلها في نفوس المسلمين، خلّصتها من رواسب الجاهلية. هزّتها هزّة عنيفة ألقت عنها هذه الرواسب، وأشاعت فيها الخوف والتحرّج والتقوى والحذر من المساس ـ أيّ مساس ـ بأموال اليتامى. كانوا يرون فيها النار التي حدّثهم الله عنها في هذه النصوص القويّة العميقة الإيحاء. فعادوا يجفلون أن يمسّوها، ويبالغون في هذا الإجفال.

قال ابن عبّاس: لمّا نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء، فيحبس له حتّى يأكله أو يفسد. فاشتدّ ذلك عليهم. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله:

«وَيَسألونَكَ عَنِ اليَتامىٰ قُل إصلاحٌ لَهُمْ خَيرٌ وَإن تُخالِطُوهُمْ فَإخوانُكُمْ وَاللهُ يَعلَمُ المُفسِدَ مِنَ المُصلِحِ وَلَوْ شاءَ اللهُ لأعنَتَكُم».[1]

فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.[2]

وكذلك رفع هذا المنهج القرآني هذه الضمائر إلى ذلك الأُفق الوضيء وطهّرها من غبش الجاهلية ذلك التطهير العجيب.

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٢٠.

٢ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٣١٧، عند تفسير الآية رقم ٢٢٠ من سورة البقرة؛ وجامع البيان للطبري، ج ٢، ص ٢١٧.

عبادات الإسلام

لقد أضاف الإسلام إلى مفاهيمه عن الوجود وعن المبدأ والمعاد واجباتٍ دينية عملية، هي فرائض وعبادات وطقوس دينية، بغية المحافظة على تلك الروح الدينية الوقّادة عند المسلمين. وأهمّ هذه الواجبات أو أركان الإسلام العبادية هي: الصلاة والصيام والحجّ والزكاة أو الصدقات بعمومها.

إنّ وعي النفس البشرية وإدراكها لوجود قوّة عظيمة شاملة، وشعور الإنسان بعجز وقصور في نفسه، إلى جنب غريزة الميل إلى الكمال، كلّ ذلك يجعل العاطفة متدفّقة من قلبه على شكل كلمات وتعابير طافحة بالحبّ والشكر ـ إن ساعده الحظّ ـ أو بالندم والحسرة على مافرّط منه، نحو تلك القدرة الكاملة ذات العطف والرحمة الشاملة.

هذه طبيعة الإنسان الجائشة بالحبّ والحنان.

وما الصلوات والأدعية والأذكار سوى صوَر مُجسّدة لتلكمُ العواطف النبيلة التي تفعم القلب البشري، وما كلّ هذه العواطف والأحاسيس إلّا نتيجة لسموٍّ أعلى. ولهذا نرى أنّ كلّ دين فيه بعض العناصر العضوية قد عرف ـ بشكل أو آخر ـ أهمّية الصلاة والدعاء وفعّاليّتهما. ويطغى العنصر اللاهوتي الغيبي على العنصر المادّي في أكثر الديانات.

فالعبادة القديمة عند الهندوس مثلاً كانت مؤلّفة من مجموعتين من الأفعال: الطهارة والقرابين، ترافقهما مجموعة معقّدة من الأدعية والاستثارات.

أمّا الزرادشتي فكان يعيش في جوّ من الأدعية الكثيرة. فالزرادشتي الورع يكون يصلّي عندما يعطس أو يقلّم أظفاره أو يقصّ شعره، وهو يتعبّد عندما يعدّ وجبات طعامه سواء في الليل أو في النهار. وعند إشعال الفوانيس... إلخ.[١]

وجاءت شريعة موسى، فكانت خلواً من كلّ حدود تتعلّق بموضوع الأدعية والصلوات. أمّا واجبات الشريعة ونواهيها فهي تخصّ ضرورة دفع الأعشار إلى الكهّان. وضرورة الرزانة والوقار أثناء تقديم نتاج الحيوان الأول للإله (أي في أول عجل تلده

---

١ ـ روح الإسلام للسيّد ميرعلي الهندي، ص ١٨٨.

البقرة وأول جدي من نتاج الشاة وغيرها). وكانت لتلك الحفلة دعاء خاصّ يتضمّن الاعتراف بمتطلّبات الناموس. وكانت التقاليد والأعراف ـ لعدم وجود أيّة تعليمات عن ذلك في الناموس ـ هي التي جعلت اليهود متأخّراً قوم صلاة ودعاء، ومن ثمّ كانت مجرّد تلفظ بعبارات فارغة لا روح فيها ولا خشوع. وكان بيع بركة الله والمتاجرة بغفرانه على أيدي الكهّان متعارفاً بين اليهود، والقرآن الكريم يوبّخ اليهود توبيخاً شديداً لأنّهم كانوا يبيعون آيات الله.[1]

وجاء المسيح عليه السلام فكانت تعاليمه تمثّل طوراً أحدث وتطوّراً في الغريزة الدينية عند الإنسان، ولذلك قدّرت طبيعة الدعاء واعترفت بالصلاة اعترافاً كاملاً. وقد كرّس جهوده على ذلك بأن جعل نفسه المثال الأول، وكان تلاميذه الأولون خضوعاً لروح معلّمهم الأكبر، يشدّدون على التعلّق بالله والاعتراف بفضله وشكره عليه. ولكن عدم وجود قاعدة محدّدة لإرشاد العامّة تركهم مع مرور الزمن يبتعدون ابتعاداً كاملاً عن هدى معلّمهم، كما جعلهم يضلّون الطريق فيما يختصّ بجميع قيم الصلوات.

ومن ثمّ تولّد من ذلك الخضوع إلى الكهّان، فاحتكر هؤلاء في أيديهم وظيفة تحديد عدد الصلوات وطول الأدعية وكلماتها. ومن هنا نتجت تلك العبادات الميكانيكية للرهبان الفاقدة للروح. كما تولّد ذلك الزحف العارم إلى الكنائس والأديرة في يوم واحد من الأُسبوع بغية المزيد من الغذاء الروحي، ولكن من غير جدوى.

❊ ❊ ❊

كلّ هذه المساوئ والمفاسد العبادية قد تراكمت بعضها فوق بعض في مطلع القرن السابع للميلاد، حين أخذ نبيّ شبه الجزيرة العربية يدعو قومه ويبشّر بدين معدّل جديد.

وقد سنّ نبيّ الإسلام الأدعية وفرض على أتباعه الصلوات بصورة نزيهة وطاهرة ومصفّية للنفوس، وبذلك نراه قد اعترف بذلك الشوق الروحي في الإنسان لكي يفيض حبّها المتدفّق وتعبّر عن امتنانه لله بأجلى الكلمات وأحلى التعابير.

---

١ ـ راجع: الآية ٤١ و ٧٩ من سورة البقرة، والآية: ٧٧ و ١٩٩ من سورة آل عمران، والتوبة ٩: ٩، والنحل ١٦: ٩٥، وغيرها.

وبجعل الإسلام الممارسة الدينية لدى المسلمين ذات فترات محدّدة نجده قد عمّق تأثير الطبيعة النظامية فيهم. وترك للمتعبّد أوسع مجال لأن يفيض عواطفه وأحاسيسه العميقة، ويظهر ذلّه وخضوعه أمام الوجود الكامل والمؤثّر الأول في الخليقة.

وقد جعل من الصلاة قيمتها كوسيلة للسموّ الأخلاقي وسبيلاً سويّاً لتطهير القلب البشري من أدرانه. وقد حظيت بتقدير كبير وحفاوة في القرآن الكريم:

«مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ حُنَفاءَ وَيُقيمُوا الصلاة...».[١]

«إنّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أكْبَر».[٢]

«أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ اللَّيلِ وَقُرآنَ الفَجرِ إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً».[٣]

«وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسىٰ أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحمُوداً».[٤]

«إنّ الصَّلاةَ كانَت عَلى الْمُؤمِنينَ كِتاباً مَوْقوتاً».[٥]

«حافِظوا عَلى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الوُسطى وَقوموا لله قانِتِين».[٦]

«وَاسْتَعينُوا بِالصَّبرِ وَالصَّلاةِ وَإنَّها لَكَبيرةٌ إلّا عَلى الخاشِعين».[٧]

«وَأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيلِ إنّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّاكِرين».[٨]

والصلاة قبل كلّ شيء طهارة للقلب من الأدران والقذارات:

قال رسول الله ﷺ: لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل في كلّ يوم منه خمس مرّات أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟... قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلّى العبد صلاةً كفّرت ما بينهما من الذنوب.[٩]

وفي الصلاة ممارسة العبودية والتذلّل لله تعالى والاعتراف بعظيم سلطانه.

---

١ ـ البيّنة ٩٨: ٥.
٢ ـ العنكبوت ٢٩: ٤٥.
٣ ـ الإسراء ١٧: ٧٨.
٤ ـ الإسراء ١٧: ٧٩.
٥ ـ النساء ٤: ١٠٣.
٦ ـ البقرة ٢: ٢٣٨.
٧ ـ البقرة ٢: ٤٥.
٨ ـ هود ١١: ١١٤.
٩ ـ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١٢ حديث ٣.

قال الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: إنّ علّة الصلاة أنّها إقرار بالربوبية لله عزّوجلّ، وخلع الأنداد، وقيام بين يدي الجبّار جلّ جلاله بالذلّ والمسكنة والخضوع والاعتراف، والطلب للإقالة من سالف الذنوب، ووضع الوجه على الأرض كلّ يوم خمس مرّات إعظاماً لله عزّوجلّ، وأن يكون ذاكراً غير ناسٍ ولا بطرٍ، ويكون خاشعاً متذلّلاً راغباً، طالباً للزيادة في الدين والدنيا، مع ما فيه من الإيجاب والمداومة على ذكر الله عزّوجلّ بالليل والنهار، لئلّا ينسى العبد سيّده ومدبّره وخالقه، فيبطر ويطغى، ويكون في ذكره لربّه وقيامه بين يديه زجراً له عن المعاصي، ومنعاً له عن أنواع الفساد.[١]

وفي ذلك يقول الإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام: ذلك أنّ الناس لو تركوا بغير تنبيه ولاتذكير للنبي صلى الله عليه وآله بأكثر من الخبر الأول وبقاء الكتاب في أيديهم فقط لكانوا على ما كان عليه الأوّلون، فإنّهم قد كانوا اتّخذوا ديناً، ووضعوا كتباً، ودعوا أُناساً إلى ما هم عليه. فدرس أمرهم وذهب حين ذهبوا، وأراد الله تعالى أن لاينسيهم ذكر محمّد صلى الله عليه وآله ففرض عليهم الصلاة، يذكرونه في كلّ يوم خمس مرّات، ينادون باسمه وتعبّدوا بالصلاة وذكر الله لكي لايغفلوا عنه فينسوه فيُدرس ذكره.[٢]

* * *

إنّ الإسلام لايعترف بطبقة الكهنوت، ولايسمح باحتكار المعرفة، وهو لا يرتضي بالقداسة الخاصّة تتوسّط في العبادة بين العبد وربّه. فروح كلّ فرد كفء لأن تناجي باريها، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. «**حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الوُسطىٰ وَقُومُوا لله قانِتين**».[٣]

إنّ الإسلام يحيل القيم العليا في عباداته متجسّدة في الروح دون الهيكل الجسدي الفارغ.

«**لَيْسَ البِرَّ أن تُوَلّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المشرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالملائِكَةِ وَالكِتاب والنَبِيّين وآتى المالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي القُربىٰ وَاليَتامىٰ وَالمَساكينَ**

---

١ ـ المصدر، ص ٩، ح ٧. ٢ ـ المصدر، حديث ٨.

٣ ـ البقرة ٢: ٢٣٨.

وَابنِ السَّبيلِ وَالسّائِلِينَ وفي الرِّقابِ وَأقامَ الصَّلاةَ وَآتى الزَّكاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدُوا وَالصّابِرينَ فِي البَأساءِ وَالضَّرّاءِ وَحينَ البَأسِ أُولئِكَ الّذينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ المُتَّقُون».[1]

وقد أعلن أنّ الصلاة دون حضور القلب لاجدوى منها، وأنّ كلمات الله التي وجّهها إلى الناس كافّة لا إلى شعب بمفرده يجب أن تتمّ دراستها بالقلب والشفتين في انسجام تامّ، وأن يصدّقه العمل الصالح في وئام. ومن ثمّ اعتبر طهارة الثوب والبدن ـإلى جنب طهارة النفس بالوضوء والاغتسال ـ والتقرّب إلى رضوانه تعالى، الأمر الذي يختلف تمام الاختلاف عن الصلوات في سائر الأديان.

***

أمّا تشريع الصيام فقد وجد بأشكال أُخر بين سائر الأُمم. بيدَ أنّه يمكن القول بأنّه طوال التاريخ القديم ظلّت فكرة الصيام تقوم على أساس الندم ومعاقبة النفس، لاعلى أساس الترفّع عن مهابط المادّة، كما في الإسلام. نعم، ظلّ الميل إلى قبول فكرة الصيام على أنّها كبت لشهوات النفس متأخّراً، وكانت طائفة من اليهود (الاسينيّون) ـ نتيجة لاتّصالهم بالفيثاغوريين، وعن طريق هؤلاء اتّصلوا بزهد الشرق الأقصى ونسكه ـ استطاعت أن تدرك العنصر الأخلاقي في مبدأ الصيام.

كما أنّ الفكرة السائدة في المسيحية فيما يتعلّق بالصيام فكرة عامّة تعود في أصلها إلى العقوبة والتكفير. وقد ظلّ التعذيب الجسدي التطوّعي يتكرّر في الكنيسة المسيحية كما هو في الكنائس الأُخرى. ولكن ميل هذا الأذى كان يتّجه دائماً نحو تحطيم الطاقات الجسدية والملكات العقلية من أجل تغذية الصوفية الحالمة والزهد الخانع الذليل.[2]

أمّا تقرير فرض الصيام في الإسلام فهو على النقيض من ذلك.

إنّ الهدف الأساسي من تشريعه هو كبح جماح الشهوات، والترفّع لفترة معيّنة من الوقت عن جميع لذائذ الحواس، وكذا توجيه حصر النشاطات البهيمية في النفس البشرية

---

١ ـ البقرة ٢: ١٧٧.

٢ ـ راجع: روح الإسلام للسيد مير علي، ص ١٩٦.

نحو تصعيد سليم. إنّ إنزال الأذى غير الضروري والّذي لاطائل تحته بالجسد مكروه في نظر الإسلام، بل إنّه محرّم، والصيام مفروض على الأصحّاء القادرين، كوسيلة لتقييد الروح بفرض حدود معيّنة للجسد.

«يا أَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى ٱلَّذينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَن كانَ مِنْكُم مَريضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذينَ يُطيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضانَ ٱلَّذي أُنْزِلَ فيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدىً لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ ٱلْهُدىٰ وَٱلْفُرْقانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كانَ مَريضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ يُريدُ ٱللهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللهَ عَلىٰ ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».[١]

فالصوم إنّما شرّع لأجل زرع فضيلة التقوى في النفوس، في أيّام معدودات، سوى المريض والمسافر، ولسوى من يبلغ غاية طاقته. نعم، الصوم تطوّع بالخير، فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له، خيرٌ لنفسه وخيرٌ لمجتمعه وخيرٌ للناس أجمع. إنّ الله لايريد عسراً بالعباد ولازجراً للنفوس، وإنّما هو تكميل لمراتب كمال النفس وتربيتها على التروّض عن مهابط اللذائذ الخسيسة، وإكبار وإعظام لمقامه تعالى، شكراً على جزيل نعمائه.

نعم، لاشكّ أنّ أُولئك الذين قد اطّلعوا على شيء من تبذّل الاغريق والرومان والفرس وعرب الجاهلية وإغراقهم في إشباع شهواتهم و تردّيهم في رذائلهم، سيقدّرون قيمة الصيام ويدركون حسن تكييفه في شريعة الإسلام. ولابدّ للمنصفين فيهم أن يعترفوا بحكمته طريقاً للحدّ من الغرائز الحيوانية عند الإنسان، الأمر الذي امتاز به الإسلام على سائر الأديان.

وليس هنالك دين قبل الإسلام في العالم، كرّس الصدقة، وإعالة اليتيم والأرملة والعاجز الضعيف، بأن شرّع مبادئه فجعل تلك الأعمال إيجابية أساسية في أركانه.

لقد كانت أعياد «الأغابي» أو ولائم الصدقة بين المسيحيين تعتمد على مشيئة الأفراد ـ كيف يقيمونها وينفقون على الضعفاء ـ ومن ثمّ كان تأثيرها غير منتظم ولاشافياً.

---

١ ـ البقرة ٢: ١٨٣-١٨٥.

وكانت قضية تحوّل هذه الأعياد غير المنتظمة إلى لاشيء ثمّ اندثارها وزوالها بعد اشتراعها بفترة وجيزة، قضية زمن لاأكثر.

وذلك على خلاف ما جاء في الإسلام، حيث يكون كلّ فرد مسلم ثريّ نسبيّاً ـ بحكم القاعدة الشرعية ـ ملزماً بأن يساهم بقدر معيّن في قسط من أمواله في مساعدة إخوانه الفقراء. هذا بالإضافة إلى ما يخرجه ربّ الأُسرة في كلّ يوم عيد الفطر من الزكاة عن أهله بقدر معيّن من الطعام والأرزاق إلى الفقراء. وهكذا الفريضة السنوية في أرباح المكاسب، وغير ذلك ممّا فرضه الله في أموال الأغنياء لمساعدة الفقراء.

قال سيّد مير عليّ الهندي: بهذا زها مجد الإسلام، حين جسّد مشاعر المسيح وكساها لحماً ودماً بأن جعلها قوانين صارمة محدّدة.[١]

***

أمّا الحكمة التي تتضمّنها تلك العادة التي أرساها الزمن ـ وهي عادة الحجّ السنوي ـ فقد ظهرت في الإسلام نوعاً من الرأفة الأخوية الحرّة في الدين، بالرغم من اختلاف الشيع والطوائف والانشقاقات. وحين تكون جميع العيون متّجهة نحو بقعة مركزية هي مكّة المكرّمة والبيت العتيق فإنّ تلك الحالة تبقى متوهّجة في فؤاد كلٍّ منهم في ظلال ذلك النور المقدّس الذي بدّد ظلمات التاريخ في ذلك القرن.

والحقّ أنّ الإسلام لم يعرف أيّة عبادة من شأنها أن تشوّش الفكر فيما يتعلّق بوحدانية الله، كما أنّه لم يعرف أي تشريع من شأنه أن يعيق تطوّر ضمير الإنسانية أو يخالف فطرته. ليس الدين نظرية غريبة، شأنها إدخال الرضا والسرور في نفوس أصحاب العقول الحالمة. إنّ الدين قانون للحياة، وهكذا ينبغي أن يكون. أمّا غرضه فهو الارتقاء بالإنسانية إلى مدارج الكمال الذي هو غاية الوجود.

ولهذا السبب فإنّ الدين الذي يقيم المبادئ الخلقية الرئيسية على أساس قواعد راسخة منظّمة، كما ينظّم العلاقات الاجتماعية ووشائج القرابة الإنسانية، والذي يقرب الإنسان أكثر فأكثر ـ عن طريق تمشّيه مع تطوّر العقل ـ نحو الإنسان الكامل، ذلك الدّين

---

١ ـ روح الإسلام، ص ١٩٨.

لاشكّ أنّه خليقٌ بأن يحظى بالتقدير والاحترام، وهو دين الإسلام.

وإنّها لطبيعة مميّزة في الإسلام ـ كما دعا إليه صاحب الشريعة ـ إنّه يضمّ في ذاته أنبل المظاهر في الديانات العقلية السماوية، وخصوصاً تلك التي تتّفق مع العقل والتهذيب الأخلاقي في الإنسان. وليس الإسلام مجرّد نظام ذي قواعد أخلاقية إيجابية تقوم على أساس الإدراك الصحيح للتقدّم البشري فحسب، بل إنّه تقرير بضعة مبادئ رفيعة، وتأكيد على أشكال سليمة من التصرّف، وترقية خيّرة لطاقة العقل التي هي الضمير الحيّ في الإنسان.

أمّا قابلية المفاهيم الإسلامية للتكيّف حسب العصور والأُمم، وانسجام تلك المفاهيم المتساوقة مع روح العقل، وانعدام القواعد الغامضة التي تلقى ظلّاً مشبوهاً على الحقائق المتضمّنة في قلب الإنسان، فكلّ ذلك يثبت أنّ الإسلام مثّل أحدث وأرقى تطوّر في الغريزة الدينية عند الإنسان.

ولا نعدو الحقيقة حين نجزم بأنّ شريعة الإسلام وحدها بين جميع الشرائع الأُخرى تجمع ما بين المفاهيم التي ساعدت على تكوين السلوك القويم في النفس البشرية في مختلف العصور، وبين قيمة النفس الإنسانية التي كانت تحظى بتقدير كبير في الفلسفات القديمة.

والحقيقة أنّ الاعتقاد بمحاسبة الإنسان على كلّ عمل يأتيه **«ما لِهٰذا الكِتابِ لايُغادِرُ صَغيرةً وَلاكَبيرةً إلّا أحصاها وَوَجَدوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلايَظلِمُ رَبُّك أحَداً»**.[1]

إن هذه العقيدة تدفع المسلم إلى الاتّزان في سلوكه، كما يعمّق في نفسه جذور العاطفة وحبّ الخير العام.

أمّا الاعتقاد بالعناية الربّانية والرحمة والحبّ وقدرة الله المطلقة فهو يؤدّي به إلى الخضوع أمام ربّه العليّ القدير، ويجعله يمارس تلك الفضائل البطولية التي نشأ عنها ما يرمي به المتعصّبون ضدّ الإسلام من أنّه دين زهد وتقشّف، وكذلك قولهم: إنّه يعتمد على الصبر والاعتزال والشدّة في تجربة النفس، والإسلام يجعل المرء يحاسب ضميره بشدّة

---

١ ـ الكهف ١٨: ٤٩.

وقلق، ويلزمه أن يدرس الدوافع التي تتحفّز في نفسه بكلّ عناية وحذر. إنّه يجعله أن لايثق في قوّته الشخصية، بل يعتمد على عون الله في الصراع الذي ينشب بين الخير والشرّ في نفسه «لاحول وَلاقُوَّةَ إلّا بِالله» «بِحَول الله وَقُوَّته أقُومُ وَأقْعُد» كلام يقوله متكرّراً في صلاته اليومية.

هكذا جاء القرآن بهكذا مفاهيم رقيقة، هي منسجمة مع فطرة الإنسان وذهنيّته عن الدين وعن شريعة السماء.

لقد كانت مفاهيم سائر الأديان ـ التي كانت رائجة ودارجة عهد نزول القرآن ـ والفروض التي نشأت عنها خالية من كلّ معقولية تجعلها قابلة للتطبيق، كما وأنّها ناقصة الاطّلاع والإحاطة بطبيعة البشر وذات فطرته الأُولى، فأدّى بها ذلك إلى أن تضمّ بين جوانحها كثيراً من حماس الحالمين وغموضهم. وكان من ذلك أن بقيت تلك المفاهيم وفروضها عديمة الجدوى في تجارب الحياة العادية وممارستها.

وإنّها لقاعدة سليمة، تلك التي تقول: إنّ الطبيعة العملية في دينٍ مّا، وتأثيره الدائم على العلاقات العامّة بين البشر وشؤون الحياة اليوميّة، وقدرته على السيطرة على الجماهير، كلّ ذلك هو المحك الصحيح للحكم فيما إذا كان ذلك الدين عالميّاً أم لا، الأمر الذي لانجده في أيّ دين من الأديان الراهنة سوى الدين الإسلامي، حسبما جاء به القرآن الكريم.

انظر إلى هذه التعابير الرقيقة التي جاءت في القرآن ـ وكم لها من نظير ـ تنسجم مع روح المثالية والإنسانية العليا في البشرية:

«وَعِبادُ ٱلرَّحْمانِ ٱلَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ ٱلْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً. وَٱلَّذينَ يَبيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقياماً. وَٱلَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا ٱصْرِفْ عَنّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً. إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً. وَٱلَّذينَ إِذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً. وَٱلَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتي حَرَّمَ ٱللهُ إِلّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثاماً. يُضاعَفْ لَهُ ٱلْعَذابُ يَوْمَ ٱلْقيامَةِ وَيَخْلُدْ فيهِ مُهاناً. إِلّا مَن تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحيماً. وَمَن تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللهِ مَتاباً. وَٱلَّذينَ لا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذا مَرُّوا

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً. وَالَّذينَ إذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وَعُمْياناً. وَالَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقينَ إماماً. أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فيها تَحِيَّةً وَسَلاماً. خالِدينَ فيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً».[١]

هذه هي الحياة السعيدة الّتي يرسمها الإسلام لافي عالم الخيال، بل منسجماً مع حبّ الفضيلة في الإنسان. إنّها الحياة التي يحبّ الإنسان أن يعيشها، وقد مهّدها له الإسلام، وبالفعل قد تحقّقت، وهي صالحة للتحقّق مهما حاول الإنسان البلوغ إليها عن جدٍّ ونشاط.

إنّه دين العمل الرشيد والتفكير الصائب والكلمة الصالحة، كلّ ذلك مقاماً على صرح الحبّ المقدّس والخير الإنساني العامّ. أمّا تاجه الرفيع فعدالة وحرّية ومساواة، إنّه مساواة الإنسان بالإنسان في نظر الخالق المتعالي.

«وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً».[٢]

❊ ❊ ❊

قال سيّد مير علي: كان نجاح الإسلام في القرن السابع من الفترة المسيحية وانتشاره السريع المذهل على سطح المعمورة يعودان في أصله إلى حقيقة بسيطة، لقد اعترف بالحاجات الضرورية لطبيعة الإنسان. فإلى عالم يمزّقه الصراع بين المذاهب والطوائف، عالم كانت الكلمة فيه أكثر أهمّيةً من الفعل، تقدّم الإسلام بأوامر إيجابية محضة. ومن بين الحطام الاجتماعي الذي ولد فيه الإسلام طلع يهدف إلى تقوية عبادة «إرادة، وذات» ليعيد الإنسانية إلى ضرورة ملاحظة واجب من شأنه وحدّه أن يقود إلى تطوّر روحي. ونجح الإسلام، وبفضل نجاحه في رفع الشعوب الدنيا إلى مستوى خلُقي رفيع، برهن ذلك الدين للعالم على حاجته إلى نظام إيجابي. لقد علم أقوامه الاعتدال والإحسان والعدل والمساواة، وقال: إنّ هذه أوامر الله. وكان تشديده على مبدأ المساواة بين المرء وأخيه

---

١ ـ الفرقان ٢٥: ٦٣-٧٦.
٢ ـ الإسراء ١٧: ٧٠.

وميوله الاعتدالية تمثّل الطور الفكري الذي تنفّس على شطئان بحيرة طبريا في الجليل.[١]

«هُوَ ٱلَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ».[٢]

«هُوَ ٱلَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِاللهِ شَهيداً».[٣]

لمحة خاطفة عن بناية التشريع الإسلامي في ضوء النظرية القرآنية[٤]

لعلّ من الواضح التأكيد على أنّ الحياة الإنسانية ـ بدون منهجٍ لائحٍ وتقنينٍ شامل ـ تقع في التخبّط والفوضى والاضطراب، ويبقيها ذلك أسيرةً للتجارب المتعثّرة والمبعثرة التي تعتمد غالباً على مايفرزه الواقع (واقع التجربة) من خطأ وصواب. وفي ذلك كما لايخفى إهدار كبيرٌ لفرص البناء الحقيقي، والنهضة والرقي، فضلاً عمّا يستلزمه (انعدام التقنين الصالح) من تضحياتٍ لامبرّرَ لها. ولقد كان في مقدّمة أسباب إخفاق التجارب البشرية ـ في هذا المجال ـ إغفالها لأهمّية العلاقة بين الروح والجسد في الحياة الإنسانية، وما استتبع ذلك من الإهمال للفعّاليّات والأنشطة الروحية ودورها في الحياة الاجتماعية.

إنَّ تشخيص حقيقة وطبيعة العلاقة بين الروح والمادّة وحلّ هذا الإعضال كان القرآن قد سبق إليها، فتصدّى إلى رسم المنهج، وتحديد أبعاده في تقنين الحياة الإنسانية آخذاً بنظر الاعتبار أبعاد الإنسان في الزمان والمكان، مراعياً طبيعته الازدواجية في تركيبه الداخلي، ليختزل بذلك المعاناة التي يتعرّض إليها المجتمع البشري عِبر تجارب الخطأ والصواب.

قال تعالى: «قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْها جَميعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ

---

١ ـ روح الإسلام، ص ٢٠٩-٢١٠.

٢ ـ التوبة ٩: ٣٣؛ الصفّ ٦١: ٩.

٣ ـ الفتح ٤٨: ٢٨.

٤ ـ مقتطفات عن كتاب «بحوث في القرآن الكريم» تأليف الدكتور عبدالجبار شرارة.

عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».[١]

ويظهر هنا أنّ القرآن الكريم قد شخّص الحقيقة الموضوعية القائلة بأنّ الإنسان بصفته خاضعاً لظروف الزمان والمكان، وينبعث دائماً في تقييماته و آرائه من نزعاته و أهوائه لذلك. فمن الطبيعي سيادة حالة التظالم والخصومات والاعتداء، كما أشار إلى ذلك القرآن قائلاً: «قالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلىٰ حِينٍ».[٢]

واستناداً إلى ذلك فالإنسان عندما يتصدّى لوضع القواعد القانونية سيكون تحت تأثير تلك النزعات و الأهواء، ومن هنا اتّجه القرآن الكريم إلى بيان الشريعة العامّة، وتكفّل بتحديد القواعد والمبادئ والأحكام العادلة والملائمة للإنسان، كما نبّه إلى ذلك في قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الّذين لايَعْلَمُون»،[٣] ولقد تضمّنت تلك القواعد والأحكام الحلول والمعالجات لإشكاليات الحياة الإنسانية، كما أنّها وفت بحاجات الإنسان الروحية والماديّة على حدٍّ سواء.

إنّ الهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن التصوّر القرآني العامّ ـ أي نظرية القرآن ـ في تقنين المجتمع، وذلك بتحديد الأُسس والمنطلقات التي تقوم عليها النظرية. ثمّ تبيّن الجوانب الأساسية فيها من القواعد الملزمة في نطاق الأُسرة، بصفتها المجتمع المصغّر، وفي ميدان الفعّاليات والعلاقات بين أفراد المجتمع.

* * *

إنّ القرآن الكريم في نظريته لتقنين المجتمع ينطلق أولاً من حقيقةٍ مفادها أنّ تغيير المجتمع الإنساني وتطويره باتّجاه الكمال والرقيّ والصلاح لايتحقّق مالم يتمّ تغيير المحتوى الداخلي للإنسان، فكراً ونفسيةً وقناعاتٍ وسلوكاً، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله «إِنَّ اللهَ لايُغَيِّرُ مابِقَومٍ حَتىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»،[٤] والتغيير هنا أشمل وأعمّ.

واستناداً إلى ذلك يتّجه القرآن الكريم في إطار تقنين المجتمع إلى وضع المنهج الشامل لضبط التفكير والفعّاليات العقلية، وهذا له أولويته في التصوّر القرآني ـ كما نعتقد ـ

---

١ ـ البقرة ٢: ٣٨.
٢ ـ الأعراف ٧: ٢٤.
٣ ـ الجاثية ٤٥: ١٨.
٤ ـ الرعد ١٣: ١١.

لمدخلية ذلك أصلاً في انضباط الإنسان داخل المجتمع بلحاظ أنّه مالم ينفتح وجدانه على القواعد القانونية لايتحقّق تفاعله الإيجابي معها. لاحظ قوله تعالى: «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».[١] فالتفكير الصحيح يقود إلى الاستنتاج الصحيح، والاستنتاج الصحيح يقود إلى الاعتقاد السليم، والاعتقاد السليم يقود إلى الانقياد إلى الحقّ، وفيه السلامة والنجاة.

ويتّجه القرآن الكريم بعد ذلك إلى ضبط الفعّاليات داخل نطاق الأُسرة بصفتها «الوحدة الاجتماعية المصغّرة»، بلحاظ أنّ الأُسرة تمثّل بيئة الإنسان ومهدِهِ وأجواء تنشئنه، وهو ينشدُّ إليها لأكثر من اعتبار.

لقد كان تدخّل القرآن الكريم في تنظيم العلاقات وتقنينها داخل نطاق الأُسرة تدخّلاً واسعاً وتفصيلياً، إذ أخضعها إليه تكويناً وصياغةً وإنشاءً، وأحكمها وفق ضوابط معيّنة، وحدَّد بدقّةٍ الحقوق والواجبات حفاظاً عليها من الانحلال، آخذاً بنظر الاعتبار طبيعة الإنسان، وما يمكن أن يحدث من إشكاليات، ومايحتمل من طوارئ بما في ذلك انحلال الزواج و ما قد ينشأ عنه من آثار تستدعي المعالجة الحاسمة، فقال تعالى مثلاً: «أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».[٢]

ثمّ نجدُ القرآن الكريم بعد إنجاز هذه المهمّة يتّجه إلى ضبط الفعّاليّات الاجتماعية المتنوّعة بتقنين العلاقات المختلفة الناشئة من الأنشطة الاقتصادية أو غيرها، وما ينشأ أيضاً من التزامات بحكم الفعل والتصرّف.

ومن هنا نجدُ العناية بالحقوق الخاصّة والعامّة، وإذا كان هذا مايمكن ملاحظته وتسجيله من خلال عملية استقراء لمقاصدَ القرآن وأهدافه وغاياته، وما يمكن تلمّسه بوضوح في مواد كثيرة ـ كما سيتّضح ـ فكلّ ذلك يُشكّل في نظرنا الملامح العامّة لاتجاهات التقنين في القرآن الكريم.

إنَّ المعالم الأساسية أو الهيكل العامّ للنظرية القرآنية يمكن تصويره كما يأتي: يبدأ

---

١ ـ آل عمران ٣: ١٩١.

٢ ـ الطلاق ٦٥: ٦.

القرآن ويهتمّ أولاً برسم المنهج السليم للتفكير، أي عملية التقنين تبدأ من تقنين الفعّالية العقلية والفكرية ثمّ يتمُّ التدرّج إلى تقنين الفعّاليات والعلاقات في داخل الأُسرة، ثمّ يتمُّ التحوّل إلى تقنين العلاقات في إطار المجتمع.

* * *

إنَّ أهمَّ مايمكن الاعتماد عليه في شمولية هذه النظرة هو ما يأتي:

أولاً: النصوص القرآنية الصريحة التي تؤكّد شمولية القرآن الكريم في معالجته لكلّ شيء، وعنايته بكلّ شيء، وعدم تفريطه بشيء من الأشياء له علاقة بالإنسان، ومن تلك الموارد والآيات قوله تعالى: «مافرَّطنا فِي الكِتابِ مِن شَيءٍ».[1] وقوله تعالى: «وَنَزَّلْنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيء».[2] وقوله تعالى: «الٓر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُن حَكيمٍ خَبير».[3] وقوله تعالى: «أَفَغَيْرَ اللهِ أبتَغي حَكَماً وَهُوَ الّذي أنزلَ إلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاتَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ».[4]

فهذه النصوص صريحة في كفالة القرآن لجميع المتطلّبات، ووفائه للحاجات الإنسانية التي من أخصّها العناية بتنظيم شؤون الحياة المختلفة.

ثانياً: التأكيدات التي وردت في القرآن الكريم على أنّه ـ أي القرآن ـ جاء ليُخرج الناس جميعاً من الظلمات إلى النور، ومن الظلم والتظالم إلى العدل والتراحم، ومن الفوضى والتداعي إلى النظام والتماسك، وفي هذا الصدد نجد مجموعة من الآيات المباركة تصرّح بذلك، وتشير إليه.

قال تعالى: «الٓر كِتابٌ أَنزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنّاسَ مِنَ ٱلظُّلُماتِ إِلَى ٱلنُّورِ».[5]

وقال تعالى: «وَمَن لَمْ يَحْكُم بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ».[6]

وقال تعالى: «تِلْكَ آياتُ ٱللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَما ٱللهُ يُريدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ».[7]

وقال تعالى: «وَهٰذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِّساناً عَرَبِيّاً لِيُنذِرَ ٱلَّذينَ ظَلَمُوا وَبُشْرىٰ

---

١ ـ الأنعام ٦: ٣٨.
٢ ـ النحل ١٦: ٨٩.
٣ ـ هود ١١: ١.
٤ ـ الأنعام ٦: ١١٤.
٥ ـ إبراهيم ١٤: ١.
٦ ـ المائدة ٥: ٤٥.
٧ ـ آل عمران ٣: ١٠٨.

لِلْمُحْسِنينَ. إِنَّ ٱلَّذينَ قالُوا رَبُّنا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».[١]

وقال تعالى: «وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ جَميعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلىٰ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنّارِ فَأَنْقَذَكُم مِنْها كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».[٢]

وإلى هذا المعنى كانت فاطمة الزهراء عليها السلام قد أشارت في خطبتها قائلةً: وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار، مُذقة الشارِب ونُهزةَ الطامع، وقُبسَةَ العَجلان، وموطئ الأقدام... أذلّةً خاسئينَ، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله بَعدَ اللتيا والتي.[٣]

ثالثاً: التحذيرات الشديدة من مخالفة الأحكام والأوامر الإلهية كما في قوله تعالى: «فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ».[٤] وقال تعالى: «وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عن بَعضِ ما أنزَلَ اللهُ إلَيك».[٥]

وكذلك نجد القرآن الكريم ينعت الذين لاينصاعون إلى أحكام الله المنزلة بالفسق مرة وبالكفر أُخرى وبالظلم ثالثة. قال تعالى: «وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ».[٦] «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الكافِرُونَ».[٧] «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ».[٨]

ولازمُ هذا أن يكون الله تعالى قد أنزلَ هذه الأحكام، وأن تكون مثل هذه الأحكام مستوعبةً كلَّ مجالات الحياة، وكلّ الشؤون التي تهمّ البشر ليصحَّ لهم عدم المخالفة باللجوء إلى الأحكام غير الإلهية، وإلّا لكانت الحجّة لهم لاعليهم وقد قال تعالى «فلِلّهِ الحُجَّةُ البالِغَة».[٩]

هذا وقد قال تعالى في هذا السياق: «أفَلا يَتَدبَّرُونَ القُرآنَ أم عَلىٰ قُلُوبٍ أقفالها».[١٠]

---

١ ـ الأحقاف ٤٦: ١٢-١٣.
٢ ـ آل عمران ٣: ١٠٣.
٣ ـ راجع الخطبة في كتاب بلاغات النساء لابن طيفور أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠)، ص ١٣.
٤ ـ النور ٢٤: ٦٣.
٥ ـ المائدة ٥: ٤٩.
٦ ـ المائدة ٥: ٤٧.
٧ ـ المائدة ٥: ٤٤.
٨ ـ المائدة ٥: ٤٥.
٩ ـ الأنعام ٦: ١٤٩.
١٠ ـ محمّد ٤٧: ٢٤.

وقال تعالى: «كِتابٌ أَنزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ».[١]

وقال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرنَا القُرآنَ لِلذِّكرِ فَهَل مِنْ مُدَّكِر».[٢]

ثمّ أوكل لرسوله الكريم نبيّنا محمّدﷺ وأهل بيته الطاهرين ـ بلحاظ أنّهم من الراسخين في العلم الذين يعلمون التنزيل، ويعلمون المحكم والمتشابه ـ أوكل إليهم البيان والإيضاح.

ومن هنا يكون قد قطع العذرَ على كلّ أحد «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً».[٣]

رابعاً: لقد نهانا الله تعالى عن الاحتكام إلى الطاغوت، أو إلى الأهواء، قال تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطّاغوتِ وَقَد أُمِروا أن يَكْفُروا بِه»،[٤] وقال تعالى: «وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِن بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظّالِمِينَ».[٥]

وقال تعالى: «وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِما أَنزَلَ ٱللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ».[٦]

والطاغوت «هو كلّ رئيس في الضلالة، وكلّ من يُعْبَد من دون الله، وكلّ شيطان، وكلّ كافر»،[٧] استناداً إلى هذه المجموعة من الآيات، فلو لم يكن القرآن الكريم قد تعهّد وتكفّل بالوفاء بكلّ ما يحتاجه البشر، ولو لم يشتمل ويتضمّن حلاًّ ومعالجةً للخصومات والنزاعات، وفق أحكام محدَّدةٍ، لما كان معنًى للنهي عن الاحتكام إلى الآخرين، بالأخصّ وأنّ الإطلاق الوارد في النهي عن الاحتكام إلى الطاغوت، ينصرف إلى مطلق الأحكام غير الإلهية، يؤيّد ذلك ما جاء عن الامام الصادق عليه السلام كما في رواية أبي بصير أنّه قال: من حَكَم في درهمين بغير ما أنزل الله عزّوجل فقد كفر بالله تعالى.[٨]

إنَّ ما استظهرناه من هذه الشمولية والاستيعاب، والأُسس التي اعتمدناها في ذلك، استفدناه أيضاً ومباشرةً ممّا نبّه إليه رسول اللهﷺ وأميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام،

---

١ ـ ص ٣٨: ٢٩.
٢ ـ القمر ٥٤: ٢٢.
٣ ـ الأنعام ٦: ١١٥.
٤ ـ النساء ٤: ٦٠.
٥ ـ البقرة ٢: ١٤٥.
٦ ـ المائدة ٥: ٤٩.
٧ ـ مجمع البحرين لفخرالدّين الطريحي، ج ١، ص ٢٧٦ باب الألف أوله طاء؛ وراجع: الكشاف للزمخشري ج ١، ص ٥٢٥.
٨ ـ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٣٣، حديث ٦، باب ٥ من أبواب صفات القاضي.

فقد جاء عن الرسول الأعظمﷺ أنّه قال عن القرآن الكريم: كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. هو الذي من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله. فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء، ولاتلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء.[١]

وجاء عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام في معرض ذمّه للاختلاف في كتاب الله. قال: تَرِدُ على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ تردُ تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد! ونبيّهم واحد! وكتابهم واحد! أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟ أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟! أم أنزل الله ديناً تامّاً فقصّرَ الرسولﷺ عن تبليغه وأدائِه؟ والله سبحانه وتعالى يقول: «ما فَرَّطنا في الكِتابِ مِن شَيء».[٢] وفيه تبيانٌ لكلّ شيء وذكر أنّ الكتاب يُصدّق بعضُه بعضاً، وأنّه لااختلاف فيه، فقال سبحانه: «وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً».[٣]

وقال عليه السلام في موضع آخر: ألا وإنَّ فيه علم ما يأتي، والحديثَ عن الماضي، ودواءَ دائكم، ونظمَ أمركم.[٤]

وهنا لابدَّ من التنبيه إلى أنّ القرآن الكريم قد خوّل النبيّ الأكرمﷺ ليس فقط وظيفة البيان والتبيين لآيات الكتاب العزيز وأحكام القرآن المجيد كما نصّ في قوله تعالى: «وَأَنزَلْنا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».[٥] وإنّما خوّله أيضاً بما أوحى إليه وبما علّمه وهداه «التشريع»، كما صرّحت الآية المباركة: «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا».[٦]

وهنا لابدَّ أن نفترض أنّ وقت النبيّ الأكرم لم يكن يسعه لبيان كلّ الأحكام والتشريعات لمجموع الناس وعامّتهم، ولذا اختصَّ بهذاالأمر من هو منه،[٧] يبلّغ عنه

---

١ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ١٦ من المقدّمة.

٢ ـ الأنعام ٦: ٣٨.

٣ ـ النساء ٤: ٨٢.

٤ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٥٨، ص ٢٢٣.

٥ ـ النحل ١٦: ٤٤.

٦ ـ الحشر ٥٩: ٧.

٧ ـ راجع: مسند الإمام أحمد بن‌حنبل، ج ١، ص ٣ (في قصة تبليغ سورة براءة)؛ والكشّاف، ج ٢، ص ٢٤٣، والرواية في صحيح الترمذي، ج ٥، ص ٢٧٥، رقم ٣٠٩٠.

ـأعني عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ لينهضَ بهذه المسؤولية، ويكمل هذا الدور.

ولدينا على الأمرِ شواهدُ وأدلّة وأرقام كثيرة نوردُ منها ما يعزّزُ هذا الرأي ويدعمه.

لقد جاء عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: كنتُ إذا سألتُ النبي صلى الله عليه وآله أعطاني، وإذا سكتُّ ابتدأني.[١]

وفي حديث طويل تحدّث الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد قائلاً: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آيةٌ إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ، فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله لي أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيتُ آيةً من كتاب الله تعالى وعلماً أملاهُ عليَّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك رسول الله علماً علّمه الله من حلالٍ ولاحرامٍ، ولا أمرٍ ولا نهي كان أو يكون إلّا علّمنيه وحفظته، ولم أنسَ حرفاً واحداً منه.[٢]

وقد أخرج أبونعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرفٌ إلّا وله ظهرٌ وبطن وإنَّ عليّ بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن.[٣]

وورد عن ابن عبّاس أنَّ النبي صلى الله عليه وآله عهد إلى علي سبعين عهداً، لم يعهد إلى غيره.[٤]

وذكر السيوطي أنّ معمر روى عن وهب بن عبدالله عن أبي الطفيل قال: شهدتُ عليّاً يخطبُ وهو يقول: سلوني، فوالله لاتسألونني عن شيءٍ إلّا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آيةٍ إلّا وأنا أعلمُ أبليل نزلت أم بنهارٍ أم في سهلٍ أم في جبلٍ.[٥]

ومن هنا يتّضح لدينا أنَّ القرآن الكريم قد تكفّل بتقديم الحلول والمعالجات لسائر الشؤون الإنسانية، وفي مختلف المجالات، وأنّ هذه تغطّي المساحة الكبيرة والأساسية للتشريع الإسلامي.

ومصدر استكشاف هذا النوع من التشريعات هو الرجوع إلى القرآن الكريم مباشرةً

---

١ ـ التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله، ج ٣، ص ٣٣٥.

٢ ـ الكافي، ج ١، ص ٦٤؛ وراجع: بحارالأنوار، ج ٩٥، ص ٩٩.

٣ ـ نقله السيوطي: في الإتقان ج ٤، ص ٢٠٥.

٤ ـ حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٨.

٥ ـ الإتقان، ج ٤، ص ٢٠٥؛ وراجع: طبقات ابن سعد، ج ٢، ص ١٠١.

أو إلى سنّة نبيّه ﷺ أو إلى خلفائه المعصومين الذين يمثّلون امتداده التشريعي.[١]

❊ ❊ ❊

وممّا لاشكّ فيه أنَّ الحاجة إلى منهج في التفكير لضبط العمليات والأنشطة العقلية المتنوّعة أمرٌ على غايةٍ من الأهمّية والخطورة، ليس على مستوى تجنيب الإنسان حالة التخبّط والفوضى والاضطراب فحسب ـ وهذا أمرٌ يُشكّل مرتكزاً مهمّا في أيّ بناءٍ حضاريّ ـ وإنّما لما لذلك المنهج من دور خطيرٍ أيضاً ينعكس على ضبط الفعّاليات الاجتماعية والأنشطة الأُخرى، وله انعكاساته الجدّية أيضاً على المسيرة العلمية والتطوّرية باتجاه الترقّي والبناء (عمارة الكون) ومن هنا كان اهتمام القرآن جدّياً وأساسياً في دعوة الإنسان إلى امتلاك منهجٍ صحيح وسليم في التفكير.

إنَّ هذا الأمر لايطرحه القرآن على أنّه موعظة، بل هو يجعل التفكير فريضةً على كلّ مُسلمٍ. فامتلاك منهج التفكير الصحيح والوصول إلى الحقائق لم يُوكله القرآن إلى نخبةٍ أو إلى طبقةٍ معيّنة ـ كما حصل مثل هذا في عملية استنباط الحكم الشرعي، إذ أوكل العملية في هذا المجال إلى المتخصّصين من الفقهاء. وفي هذا قيمة حضارية وهي احترام ذوي الاختصاص ـ وإنّما جعل مهمّة التفكير الفلسفي وامتلاك المنهج وظيفة كلّ فردٍ على التعيين. والقرآن هنا وإنْ قَرّرَ ذلك وأكّده مراراً إلّا أنّه لم يترك الإنسان نهباً للمناهج غير السليمة أو المنحرفة تتناهبه ذات اليمين وذات الشمال، بل وضع أمامَهُ المنهج المستقيم محدّداً أبعادَه ومعالمَهُ، مبيّناً عناصره وآفاقه، وكما يأتي:

(أولاً) الدعوة إلى التفكير

إنَّ الدعوة إلى التفكير وامتلاك المنهج تأخذ بُعدين في نظر القرآن الكريم:

أولهما: دعوة الإنسان إلى تدبّر آيات الكون وصفحات الوجود وآفاقه، وذلك من خلال الكشف عن حقائقه المذهلة، وعرض تجلّيات القدرة الخلّاقة، وصور الإبداع في هندسة الوجود، وهذا يعني الحثّ على التأمّل الجدّي، وتعقّل ماوراء ذلك. قال تعالى: «إنَّ

---

١ ـ مصدر التشريع للسيد الهاشمي، ص ٧٠.

فِي خَلْقِ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلافِ ٱللَّيلِ وَٱلنَّهارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ ٱلنّاسَ وَما أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِن ماءٍ فَأَحْيا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْريفِ ٱلرِّياحِ وَٱلسَّحابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».[١] فهنا دعوة إلى النظر والاستقصاء والتعقّل.

والبُعد الثاني: إنّه يحدّد وظيفة الفرد المسلم على التعيين بضرورة التفكير ويأمره صراحةً بذلك. قال تعالى: «قُلْ سيرُوا فِي الأرضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشأَةَ الآخِرَة...»،[٢] وقال تعالى: «وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً»،[٣] وقال تعالى: «قُلِ انظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ وَالأَرض».[٤]

وهنا النظر والتدبّر على سبيل الوجوب، واستناداً إلى ذلك ذهب علماء الملّة الإسلامية إلى «وجوب النظر»[٥] أي الاستدلال وتحصيل البرهان في المسائل الاعتقادية.

إنَّ القرآن الكريم عندما يعرض أمامنا صفحات الكون والوجود، ويُطلعنا على الهندسة العجيبة، وعلى آثار قدرة الله تعالى المنبثّة في كلّ شيء من حولنا، بل وفي أنفسنا «سَنُرِيهِم آياتِنا فِي الآفاق وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ...»،[٦] إنّه عندما يعرض أمامنا ذلك، فإنّما يدعونا إلى استخلاص الحقائق، واكتشاف القوانين العامّة التي تحكم الوجود، ومن هنا نفهم قول الإمام علي عليه السلام أيضاً «استدلّوه ـ أي القرآن ـ على ربّكم».[٧]

(ثانياً) طريقة التفكير وأُسلوبه

إنَّ القرآن الكريم لم يكتف بالدعوة إلى اعتماد منهجٍ سليم للتفكير، واعتبار ذلك وظيفة الفرد المسلم فحسب، بل يضع بأيدينا أيضاً الطريقة السليمة العلمية للوصول إلى الحقائق ويُعرّفنا ـ في هذاالمجال وضمن إطار الفهم العميق لأسرار الوجود ـ أساسيات

١ ـ البقرة ٢: ١٦٤.
٢ ـ العنكبوت ٢٩: ٢٠.
٣ ـ آل عمران ٣: ١٩١.
٤ ـ يونس ١٠: ١٠١.
٥ ـ راجع: عقائد الإمامية، للإمام الشيخ محمّدرضا المظفّر، المطبعة الحيدرية، النجف، انتشارات الشريف الرضي ـ قم ط ٢ سنة ١٤٠٨ هـ. وص ٣١، نشر أنصاريان ـ قم.
٦ ـ فصّلت ٤١: ٥٣.
٧ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦، ص ٢٥٢.

المنهج وأبعاده، فهو منهج يقوم أول ما يقوم على البرهان الوجداني، قال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله»،[١] وقال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله».[٢]

إذاً القرآن هنا يستحثُ الوجدان ويستنطقه، ويدعو الإنسان إلى القيام برحلة داخلية مع نفسه (حوار مع الذات) فيه الصراحة المتناهية. وإنّ هذا الحوار الداخلي هو الآخر يجب أن يتمَّ بصيغة أسئلة يحكمها المنطق، ليكون هناك اتّساق بين الوجدان والعاطفة من جهة، وبين المنطق والعقل من جهة أُخرى، أي أن يكون هناك تناغمٌ. والقرآن هنا ـ كما هو في منهجه العام ـ يحرصُ دائماً على عدم تغييب العقل والتعقّل، على الرغم من اهتمامه بالمعرفة التي مصدرها الوجدان الداخلي والإدراك الخاصّ، قال تعالى: «أَفي الله شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأرض...».[٣]

وهكذا نجدُ أنَّ القرآن عندما يفرغ من عملية استنهاض وحثّ منطق الوجدان في أيّةِ عمليةِ تأمّل نجده أيضاً في عين الوقت يدعو إلى اعتماد الأدلّة والبراهين الفلسفية والعلمية في إثبات المطالب.

إنّ القرآن يقدّم لنا أيضاً عينيّةً من هذه البراهين، ويترك مساحةً مناسبةً لحركة العقل والاستعانة بالحواس. وهذا أساس آخر من أُسس المنهج:

قال تعالى: «إِنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الألباب».[٤]

وقال تعالى: «ٱلَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِن نَباتٍ شَتّىٰ. كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي ٱلنُّهىٰ»[٥] أي لذوي العقول.

وقال تعالى: «وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ ٱلسَّماواتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً».[٦]

---

١ ـ الزخرف ٤٣: ٨٧.
٢ ـ العنكبوت ٢٩: ٦١.
٣ ـ إبراهيم ١٤: ١٠.
٤ ـ آل عمران ٣: ١٩٠.
٥ ـ طه ٢٠: ٥٣ و ٥٤.
٦ ـ آل عمران ٣: ١٩١.

إنّ القرآن الكريم من خلال ذلك كلّه يريد أن يقول لنا: إنّ البحث والتأمّل في الآفاق وفي الأنفس وفي ما حولنا يجب أن يلتزم البرهان والدليل ويتوسّل بالحسّ والتجربة كلّما أمكن ذلك، قال تعالى: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ».[١]

ولكن ماهي الخطوات التي يمكن أن تتبع للوصول إلى الحقائق وتأسيس القناعة المطلوبة فيكون المنهج الذي يحدّده القرآن ويضعه بين أيدينا منهجاً علمياً منتجاً.

إنّ القرآن الكريم يدعوا إلى عملية التأمّل أولاً، والتأمّل هنا عملية التفكير، يمكن أن تتمّ بانفراد، وهذا هو الشائع، ويمكن أن تتمّ بصورة مشتركة، وهذه التفاتة بارعة من القرآن الكريم في التنبيه إلى أهمّية البحث والتفكير المشترك، قال تعالى: «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنىٰ وَفُرادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا...».[٢]

ثمّ يتّجه القرآن الكريم إلى الدعوة لطرح الافتراضات الممكنة «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَيءٍ أم هُمُ الخالِقُونَ».[٣] ثمّ يصعد إلى مرحلة اختبار الافتراض وتقليب الوجوه في المسألة، قال تعالى: «أَفَرَأَيْتُم ماتُمْنونَ. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالِقُونَ»،[٤] وقال تعالى: «أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ».[٥]

إذاً هكذا في خطوات علمية: فرض، واختبار الفرض، واستنتاج مبنيّ على المنطق والتجربة والعقل، يرسم القرآن الكريم أبعاد المنهج، ويدعو إلى التمسّك به في سائر المجالات، قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ في ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبابِ».[٦]

وأخيراً، ولمّا كان الحوار أساساً مهمّاً سواء مع الذات أو مع الآخرين أو في عملية التفكير والبحث المشترك ـ كما دعا إليه القرآن ـ فإنّه يدلّنا (أي القرآن) على أُسلوب

---

١ ـ فصّلت ٤١: ٥٣.
٢ ـ سبأ ٣٤: ٤٦.
٣ ـ الطور ٥٢: ٣٥.
٤ ـ الواقعة ٥٦: ٥٨-٥٩.
٥ ـ الواقعة ٥٦: ٦٣-٦٤.
٦ ـ الزمر ٣٩: ٢١.

المحاورة العلمية الرصينة، فهو يُعلّمنا أن ننطلق أولاً من مُسلّمةٍ لدى الطرفين، أو من افتراض مقبول، وهو ما صرّح به القرآن قائلاً: «**وَإِنَّا أَو إِيّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَو في ضَلالٍ مُبِين**»،[١] ثمّ لتبدأ المحاورة بعد ذلك ولكن على شرط أن يقدّم كلّ واحد دليلاً على ما يقوله، قال تعالى: «**قُلْ هاتُوا بُرهانَكُمْ**»،[٢] وهو يشترط في الدليل أيضاً أن يكون علماً أي أمراً يقينيّاً، لأنَّ غير العلم لايجدي ولا ينتج المطلوب، قال تعالى: «**وَإِنَّ الظَّنَّ لايُغني مِنَ الحَقِّ شَيئاً**».[٣]

ثمّ إذا استقرّ الحقّ وثبت الأمر بالبرهان والدليل القاطع فلابدّ حينئذٍ من التصديق به واعتماده، والإقرار به، قال تعالى: «**فَماذا بَعدَ الحَقِّ إلّا الضَّلال**»،[٤] وهنا لفتةٌ بارعة في ضرورة استثمار الحقيقة والانصياع اليها.

وهكذا، فإنَّ القرآن الكريم عندما يضع بين أيدينا مثل هذا المنهج ويدعونا إلى التمسّك به فلكي ينتهي الإنسان إلى حالة الاطمئنان (الطمأنينة الداخلية) فيزيح عن نفسه وعن عقله كلَّ وهمٍ وخرافةٍ وشكٍّ، فيعيش حينئذٍ هادي البال يسهمُ في البناء والتقدّم في الحياة الإنسانية غير مضطربٍ ولامشدود الأعصاب، وعند ذاك يكون القرآن قد أرسى مرتكزاً أساسياً من مرتكزات البناء الحضاري وفي تخليص الإنسان من الهواجس والظنون من خلال التأكيد على اعتماد المنهج العلمي في التفكير، فضلاً عمّا يعنيه ذلك أيضاً من تعميم المعرفة وشموليّتها وعدم اقتصارها على قطّاع أو طائفةٍ أو طبقةٍ معيّنةٍ، وهذه قيمة حضارية كبرى وميزة عظيمة ينفرد بها القرآن الكريم في إطار نظريته في المنهجة والتقنين.

***

إنّ القرآن الكريم يتّجه فعلاً ـ وفي سبيل إثبات مصداقيّته في وفائه بالحاجات الأساسية، وتنظيم العلاقات داخل الإطار الاجتماعي ـ إلى تقديم أُطروحته فيحدّد القواعد

---

١ ـ سبأ ٣٤: ٢٤.
٢ ـ البقرة ٢: ١١١، الأنبياء ٢١: ٢٤، النمل ٢٧: ٦٤.
٣ ـ النجم ٥٣: ٢٨.
٤ ـ يونس ١٠: ٣٢.

الملزمة والمناهج العملية في هذا الإطار بشكل قوانين حقوقية أو جزائية وماشاكل.

والقاعدة القانونية باعتبارها قاعدة سلوك ونظام يتحتّم الخضوع لها. أمّا مضمون القاعدة من الناحية العملية فهو تخويل الفرد حقّاً أو فرض واجب عليه.[١]

وقد مُثّل لذلك بالقاعدة التي تقضي بأنّ العقود المنشأة على الوجه القانوني تلزم المتعاقدين.

ولتصوير هذه المسألة في القرآن فإنّنا نجد النصّ على لزوم الوفاء بالعقد المُنشأ على الوجه الشرعي. يتبيّن ذلك في قوله تعالى: «أوْفُوا بِالْعُقُود»،[٢] والآية تتضمّن صفة الإلزام. وهي بضميمة قوله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالباطِلِ»[٣] الّتي مقتضاها النهي عن الأكل بالباطل، بمعنى إجراء العقد على خلاف الشرع،[٤] فيتحصّل لدينا نصٌّ قانونيٌّ محدّد. وقد ذهب الفقهاء إلى أصالة اللزوم في العقود.

ثمّ إنّ القانون ـ في تنظيمه لسلوك الأفراد وعلاقاتهم في المجتمع ـ إنّما يفعل ذلك ببيان حقوقهم وواجباتهم. والقاعدة القانونية بلحاظ أنّها قاعدة اجتماعية تفرض نظاماً معيّناً، وهي ذاتُها التي تخوّل الحقّ فتضع بين يدي الشخص سلطة تمكّنه من أن يعمل على وجه معيّن، في علاقته بغيره، أو تفرض عليه واجباً في هذا السبيل.

وهنا يلزم التنبيه إلى أمرٍ مهم، وهو أنَّ القرآن الكريم وإن اعتنى عنايةً مباشرة بعملية التقنين والتشريع في نطاق الاُسرة والمجتمع، ولكنّه أوكل جانباً من ذلك إلى النخبة المتخصّصة (أي الفقهاء) كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: «فَلَوْ لا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ».[٥] وهي قيمة حضارية كبرى ينبّهُ إليها القرآن العظيم، وهي احترام ذوي الاختصاص وهم الفقهاء، في هذا الصدد، أي في سَنّ القوانين ليكون في مجال ما اصطلح عليه بمنطقة الفراغ.

---

١ ـ مبادئ القانون.

٢ ـ المائدة ٥: ١.

٣ ـ البقرة ٢: ١٨٨.

٤ ـ الكشاف، ج ١، ص ٢٣٣.

٥ ـ التوبة ٩: ١٢٢.

تقنين الأسرة

إنَّ الأُسرة في نظر القرآن الكريم تُعدُّ اللبنة المهمّة في البناء الاجتماعي، وعلى مدى سلامتها ومتانة العلاقات القائمة في داخلها يتوقّف سلامة البناء برمّته. ولقد أشارت الآية المباركة إلى هذه الحقيقة «يا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً وَنساءً...».[١] كما أشار القرآن إلى أمر له مدخلية في استقامة البناء الأُسري، قال تعالى: «خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أزواجاً لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...».[٢] فالسكن هنا والمودّة والرحمة عناصر أساسية في التماسك. ثمّ لفت القرآن النظر إلى أنّ الزواج ـ وفق قواعد الشرع ـ يتّسق ويتناغم مع سائر الوجودات الأُخرى التي هي من بدائع صنع الله تعالى، فقال تعالى: «سُبْحانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنبِتُ الأَرضُ وَمِن أَنْفُسِهِمْ وَمِمّا لايَعْلَمُونَ».[٣] إذ فيها تنبيه إلى أنَّ ظاهرة الزوجية تحكم الموجودات كلّها، وأنّ هذه الموجودات تجري على نواميس وقوانين لاتحيد عنها. قال تعالى: «وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالأرضَ بِالحَقّ».[٤] وقال تعالى: «وَأَنْبَتنا فيها مِن كُلِّ شَيءٍ مَوزُون».[٥] وقال تعالى: «والشَّمسُ تجري لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلِكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليم».[٦] وفي كلّ ذلك تنبيهات وإشارات واضحة إلى تحكّم القوانين في كلّ أنحاء الوجود وأجزائه.[٧] وبناءً على ذلك، فإنّ الأُسرة يجب أن تتكوّن وتتشكّل وفق قانون، وإنّها يجب أن تنضبط فعاليّاتها وفق قانون، وأن تنشأ العلاقات وتتوزّع الحقوق والواجبات أيضاً وفق قانون.

لقد جعل القرآن الكريم قيام الأُسرة على أساس المودّة والرحمة، كما أُشير في الآية المذكورة، وألزم الزوج بالمعاشرة بالمعروف كما في قوله تعالى «وعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوف».[٨] والأمر هنا ليس «وعظياً» بل هو يتضمّن صفة الإلزام،[٩] وهنا أصل عظيم

١ ـ النساء ٤: ١.
٢ ـ الروم ٣٠: ٢١.
٣ ـ يس ٣٦: ٣٦.
٤ ـ الجاثية ٤٥: ٢٢.
٥ ـ الحجر ١٥: ١٩.
٦ ـ يس ٣٦: ٣٨.
٧ ـ الميزان، ج ٥، ص ٣٠، وأيضاً ج ١٧، ص ٨٨-٩١.
٨ ـ النساء ٤: ١٩.
٩ ـ زبدة البيان للأردبيلي، ص ٦٠٧.

ومرتكز مهم في بناء الأُسرة وسلامتها. لقد أوكل القرآن الكريم إنشاء العلاقة الزوجية إلى الطرفين (الذكر والأُنثى) ونبّه إلى أن تكون هناك قناعة لكلّ واحدٍ بالآخر، ثمّ طلب إجراء العقد شكلاً وغايةً أي في الصيغة والمقصد استناداً إلى قواعد إجرائية معيّنة. وقد قال تعالى في هذا الصدد: «**فانكِحُوا ماطابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء**».[١] وقال تعالى: «**وَأَنْكِحُوا الأيامىٰ مِنكُم**...».[٢] والأيم يطلق على الرجل والمرأة غير المتزوّج. وقال تعالى: «**ولاتُمسِكُوهُنَّ ضِراراً**».[٣]

إنَّ القرآن حدّد بادي ذي بدء من يجوز للإنسان أن يقترن بها، ومن لايجوز سواء كان ذلك على سبيل التأبيد أو التأقيت[٤] فقال تعالى: «**وَلاتَنْكِحُوا مانَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءَ إلّا ما قَد سَلَفَ إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقتاً وَساءَ سَبيلاً. حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ اُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وَأَخواتُكُمْ وَعَمّاتُكُمْ وَخالاتُكُمْ وَبَناتُ الأخِ وَبَناتُ الأُختِ واُمَّهاتُكُم اللّاتي أرضَعنَكُم وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ واُمّهاتُ نِسائِكُم وَرَبائِبُكُم اللّاتي في حُجورِكُم مِن نِسائِكُم اللّاتي دَخَلتُمْ بِهِنَّ فَإن لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أبنائِكُمُ الّذينَ مِن أصلابِكُم وَأن تَجمَعُوا بَينَ الأُخْتَيْنِ إلّا ما قَد سَلَفَ إنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً. والمُحصَناتِ مِنَ النِّساء**...».[٥]

«والقاعدة الآمرة»[٦] هنا في حرمة الأصناف التي ذكرت في الآيات المباركة روعي فيها احترام إنسانية الإنسان وفطرته من وجه، واجتناب تداخل الحقوق والواجبات من وجه آخر.

وعلى أيّة حال فالقرآن يقرّر أنَّهُ إذا تمَّ عقد الزواج وفق القواعد المذكورة أخذ صفة الإلزام استناداً إلى كلّية «**أوفوا بِالعُقُود**».[٧] ويترتب الأمر الشرعي ويجب المهر بالدخول[٨] قال تعالى: «**وَآتُوا النِساءَ صدُقاتِهِنَّ نِحلة**».[٩] ثمّ يبدأ سريان الالتزامات المتقابلة. فالزوج

---

١ ـ النساء ٤: ٣.

٢ ـ النور ٢٤: ٣٢.

٣ ـ البقرة ٢: ٢٣١.

٤ ـ زبدة البيان للأردبيلي، ص ٥٢٢-٥٢٣.

٥ ـ النساء ٤: ٢٢-٢٤.

٦ ـ مبادئ القانون، ص ٥٤.

٧ ـ المائدة ٥: ١.

٨ ـ زبدة البيان: ص ٥١٠.

٩ ـ النساء ٤: ٤.

يلزمه المعاشرة بالمعروف، ويلزمه الإنفاق على الزوجة، وأداء الاستحقاقات المطلوبة. قال تعالى: «وَعَلَى المَولودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ».[١] والزوجة يلزم أن تطيع الزوج ولاتخلّ بمقتضى العقد، وبما بينها وبين زوجها قال تعالى: «وَلَهُنَّ مِثلُ الّذي عَليْهِنَّ»،[٢] وقال تعالى: «فَالصّالحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيبِ بِمْا حَفِظَ الله»،[٣] وقال تعالى: «فَإن أطَعنَكُمْ فلا تَبغُوا عَلَيْهِنَّ سَبيلاً».[٤] وعندما يحصل الإنجاب ويرزقان الولد كما أشار إليه تعالى: «يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشاءُ الذُّكور»[٥] فحينئذٍ تتّسع دائرة الالتزامات وتنشأ حقوق جديدة. فيثبت النسب، وينشأ حقّ البنوّة وحقّ الأبوّة، قال تعالى: «وَلاتَقْتُلوا أولادَكُم مِن إملاقٍ».[٦]

وفي نطاق الحقوق التي تنشأ من العلاقات بين أفراد الأُسرة الواحدة نجد القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصّاً، فيوجب على الأبناء حُسن معاملة الآباء ووجوب النفقة لهما، وعدم التضجّر منهما مهما كانت الظروف والأحوال. والقواعد هنا كلّها من قبيل «القواعد الآمرة» كما يصطلح عليها في القانون. أي لايجوز مخالفتها قال تعالى: «وَقَضى رَبُّكَ أن لاتَعْبُدوا إلّا إيّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إحْساناً إمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلاتَنْهَرهُما».[٧]

قال الأردبيلي في بيانه لمعنى الآية:

ولقد بالغ الله سبحانه وتعالى في التوصية لهما حيث شفّع الإحسان لهما بتوحيده تعالى.... ثمّ لم يرخّص في أدنى كلمة تنفلِت من المتضجّر... ثمّ أمر بالخضوع والتذلّل لهما بقوله تعالى: «وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَة».[٨] ولم يقتصر الأمر في الإحسان والمعروف في حالة كونهما مسلمين، بل حتّى لو كانا مشركين، قال تعالى: «وَوَصَّيْنا

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٣٣.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٢٨.
٣ ـ النساء ٤: ٣٤.
٤ ـ النساء ٤: ٣٤.
٥ ـ الشورى ٤٢: ٤٩.
٦ ـ الأنعام ٦: ١٥١.
٧ ـ الإسراء ١٧: ٢٣.
٨ ـ الإسراء ١٧: ٢٤.

الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسناً وَإِن جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعْهُما...».[١] وفي سورة أُخرى «وإِنْ جاهَداكَ عَلىٰ أنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً».[٢] وفي الكشّاف قال في التفسير: وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا ثمّ إليّ مرجِعُكَ ومرجعُهما فأُجازيك على إيمانك وأُجازيهما على كفرهما، علم بذلك حكم الدنيا...[٣]

ونظراً لما يتميّز به القرآن الكريم من الواقعية ومعرفة خصائص البشر وطبيعتهم، ونظراً لكونه الشريعة الخالدة لكلّ البشر في جميع الأزمان، فقد أخذ في حسابه وقوع الافتراق بين الزوجين، وأعطى هذا الأمر مشروعيةً في الحالات الموجبة، ولكنّه تدخّل في هذه المسألة، ووضع جملةً من القواعد الملزمة والإجراءات المناسبة، تقليصاً لما ينتج عنه من آثار، ورعايةً لحقّ المرأة من جهة أُخرى، قال تعالى: «إِذا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلّا أَن يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ».[٤]

والظاهر هنا كما يقول الأردبيلي: إنّه لابدّ من وقوع الطلاق في وقت خاصّ صالح للعدّة، وإنَّ ذلك واجبٌ وشرط للصحّة لأنّها واردة لبيان تعليم الطلاق،[٥] ثمّ ينتقل القرآن إلى أمر آخر يتّصل بالسابق فيقول: «وَإِذا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».[٦] ثمّ يقول لاحقاً: «وَإِذا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ».[٧] والعضل يعني الحبس والتضييق.

ثمّ يبيّن التعليمات الأُخرى فيما يتعلّق بمسألة العدّة فيقول:[٨] «يا أَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها

---

١ ـ العنكبوت ٢٩: ٨.
٢ ـ لقمان ٣١: ١٥.
٣ ـ الكشّاف، ج ٣، ص ٤٩٤.
٤ ـ الطلاق ٦٥: ١.
٥ ـ زبدة البيان، ص ٥٩١.
٦ ـ البقرة ٢: ٢٣١.
٧ ـ البقرة ٢: ٢٣٢.
٨ ـ زبدة البيان، ص ٥٨٨.

فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَميلاً».[١]

والمراد بالنكاح هنا العقد، وبالمسّ الدخول بهنَّ.[٢] أي تخلية من غير ضرار. كما قرّر في قوله تعالى: «وَلاتُمسِكُوهُنَّ ضِراراً».[٣]

ثمّ بيّن القرآن الكريم عدد التطليقات الممكنة فقال: «الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإمساكٌ بِمَعرُوفٍ أو تَسريحٌ بإحسان».[٤]

وتتضمّن الآية أيضاً «تخيير الأزواج بعد أن علّمهم كيف يطلّقوهنَّ بين أن يمسكوا النساء بحسن المعاشرة والقيام بحقّه الواجب عليهنَّ وبين أن يسرّحوهنَّ السراح الجميل الذي علّمهم.[٥] ولم يكتف القرآن بذلك التدخّل الواسع والتفصيلي في هذا الميدان، بل بيّن أيضاً أنواع انحلال عقد الزواج، فقد يتمّ الانحلال والفرقة بغير الطلاق، كما اصطلح عليه الفقهاء مثلاً بالخلع والمباراة. قال تعالى: «وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلّا أَن يَخافا أَلّا يُقيما حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلّا يُقيما حُدُودَ اللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فيما افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوها وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الظّالِمُون».[٦] وهناك ما اصطلح عليه بالظهار، وهو كما لو أقدم الإنسان على عدم مراعاة الحدود الشرعية وسمّى الأشياء بغير أسمائها كمن قال لزوجته: «أنت عليَّ كظهر أُمّي» وإليه الإشارة في قوله تعالى: «الّذين يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ».[٧] فهذا قولٌ منكرٌ وباطلٌ في نظرية القرآن الكريم، ولذا حرّم القرآن الزوجة هنا على الزوج ما لم يقدّم الكفّارة أي الغرامة.[٨]

وهناك نوع آخر من انحلال الزواج يُسمّى بالايلاء كمن حلف أن لايقرب زوجته قال تعالى: «لِلَّذينَ يُؤْلونَ مِن نِسائِهِم تَرَبُّص أربَعَةِ أشهُرٍ فَإن فاؤوا فَإنَّ الله غَفُورٌ رَحيم. وإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فإنَّ الله سَميعٌ عَليم».[٩]

---

١ ـ الأحزاب ٣٣: ٤٩.
٢ ـ زبدة البيان، ص ٥٩٧.
٣ ـ البقرة ٢: ٢٣١.
٤ ـ البقرة ٢: ٢٢٩.
٥ ـ زبدة البيان، ص ٦٠٠.
٦ ـ البقرة ٢: ٢٢٩.
٧ ـ المجادلة ٥٨: ٢.
٨ ـ زبدة البيان، ص ٦١٠.
٩ ـ البقرة ٢: ٢٢٦-٢٢٧.

ثمّ هناك الخيانة الزوجية وهي موجبة للافتراق، وأخيراً الارتداد، وإليه الإشارة في قوله تعالى: «ولاتُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوافِر».[١]

أمّا إذا انحلَّ الزواج بالموت فتنشأ هنا التزامات وحقوق من نوع آخر. فتجب على المرأة عدّة المتوفّى عنها زوجها، وإليه أشارت الآية المباركة: «وَالَّذين يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أزواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأنْفُسِهِنَّ أربَعَةَ أشهُرٍ وعَشراً».[٢]

ثمّ ذكرت الآيات المباركة أنّه «فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاجُناحَ عَلَيْكُمْ فيما فَعَلنَ في أَنْفُسِهِنَّ بِالمَعْرُوف».[٣] أي إذا انقضت عدّتهنَّ فلا مانع من التعرّض للخطبة، والخطاب بالتزويج بالوجه الذي لاينكر شرعاً.[٤]

وإذا حصل الموت فهنا يتمُّ التوارث، وتوزّع التركة وفق الموازين والأنصبة والأسهم التي تكفّلت بها منظومة المواريث، كما أشارت الآية المباركة: «لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِمّا تَرَكَ ٱلْوالِدانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمّا تَرَكَ ٱلْوالِدانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصيباً مَفْرُوضاً».[٥]

وهناك ملحظ آخر

إنَّ القرآن الكريم في سعة تدخّله بوضع اللوائح القانونية ـ أعني التفصيلات الوافية ـ في نطاق الأُسرة أخذ بضرورة وضع الاحتياطات المناسبة والضرورية في عدم ترك العلاقات بين أفراد الأُسرة الواحدة عرضة للاجتهاد، فالأحكام هنا يجب أن تكون قطعية واضحة ومحدّدة، كما لاحظناه في مسائل الطلاق ومسائل الإرث مثلاً، وأخذ الاحتياطات هنا بلحاظ أنّ المجتمع قد ينفلت من الخضوع للقواعد والأحكام التي أرادها الشرع، إذا كان فيها مجال للاجتهاد والتأويل، وكما وقع ويقع مثلاً، في نطاق التعامل التجاري والمالي، إلّا أنّ ذلك قد لايؤدّي إلى خراب شامل، لأنّ المجتمع حينئذٍ قد

---

١ ـ الممتحنة ٦٠: ١٠.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٣٤.
٣ ـ البقرة ٢: ٢٣٤.
٤ ـ زبدة البيان، ص ٦٠١.
٥ ـ النساء ٤: ٧.

يتعارف ويتواضع على أساليب وأُصول في التعامل وإنْ كانت غير مشروعة في نظر الشرع. وهذا أمرٌ لايؤدّي إلى انفراط عقد المجتمع، ولا إلى فوضى الحقوق والواجبات، وهو ربما يمكن تلافيه وإصلاحه. بينما لو قدّر أن يحدث مثل هذا الانفلات في نطاق الأُسرة لأدّى ذلك إلى الانهيار الشامل الذي لاإصلاح بعده، ولا استدراك لما يمكن أن ينشأ من جرائه. ومن هنا نلاحظ تكرار مثل قوله تعالى: «تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاتَعْتَدُوها»[١] ونحو ذلك.

الحقوق الخاصّة والحقوق العامّة

يهدف القرآن الكريم ـ في عملية تقنين المجتمع ـ إلى ضبط الفعّاليّات الاجتماعية المتنوّعة، سواء في نطاق التعامل المالي أو غيره، ويرمي أول ما يرمي إلى الحيلولة دون نشوء حالة النزاع والخصومة، وذلك بإقرار الحقوق والواجبات، كما يستفاد مثلاً من قوله تعالى: «وَلَهُنَّ مِثلُ الَّذي عَلَيْهِنّ»[٢] إذا أعطينا صفة التعميم لهذه القاعدة. وبحاكمية نفي الضرر،[٣] بمعنى أنّه ـ أي القرآن ـ في الوقت الذي يقرّ للإنسان حقّاً يفرض عليه واجباً فالإنسان في ممارساته لحقّه في التصرّف الشرعي مثلاً يلزم أن لايُلحق بالغير ضرراً، وهذا ما يستفاد مثلاً من قوله تعالى: «وَأَشْهِدُوا إذا تَبايَعْتُمْ وَلايُضارَّ كاتِبٌ ولاشَهيد».[٤] وقوله تعالى: «وَلاتُمسِكُوهُنَّ ضِراراً»،[٥] وقوله تعالى: «مِنْ بَعدِ وَصِيَّةٍ يوصىٰ بِها أو دَينٍ غَيرَ مُضارٍّ»[٦] وقوله تعالى: «لاتُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلامَولُودٌ لَهُ بِوَلَدِه».[٧]

ومع كلّ ذلك فإنّ وقوع النزاع والتخاصم أمرٌ لامفرّ منه، ولذا اتّجه القرآن في هذا الصدد إلى وضع لائحة النظام القضائي، كما سنشير إليه في محلّه.

---

١ ـ البقرة ٢: ٢٢٩.
٢ ـ البقرة ٢: ٢٢٨.
٣ ـ راجع في حاكمية قاعدة الضرر من كتاب فرائد الأُصول، ص ٢٩٦ الطبعة القديمة ـ قم، وص ٥٣٥، مؤسّسة النشر الإسلامي.
٤ ـ البقرة ٢: ٢٨٢.
٥ ـ البقرة ٢: ٢٣١.
٦ ـ النساء ٤: ١٢.
٧ ـ البقرة ٢: ٢٣٣.

(أوّلاً) الحقوق الخاصّة

أسبغنا الحديث عن حقوق الأُسرة، وهي تدخل ضمن هذا القسم أصلاً، ولكن أفردنا بالبحث لأهميّته، وهنا نتحدّث عن الحقوق المدنية أولاً، ثمّ الحقوق الجنائية ـ كما اصطلح عليها ـ.

١ ـ الحقوق المدنية

الالتزامات

أ ـ اعتبر القرآن كلَّ فعل ضارٍّ بالغير موجباً لمسؤولية الفاعل أو المتسبّب بالتعويض عن الضرر[١] ولو كان عن خطأ. قال تعالى: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤمِناً خطَأً فَتَحريرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِه».[٢]

وإذا كان عن عمدٍ وقصد فقد أوجب العقوبة. قال تعالى: «وَلَكُمْ فِي القِصاص حَياةٌ يا اُولِي الألباب».[٣] وقال تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصاصُ فِي القَتلى».[٤]

وهناك التزامات تنشأ بإرادة الفرد كالوصية مثلاً، كما أشار القرآن «إنْ تَـرَكَ خَـيراً الوَصِيَّة».[٥]

ب ـ في العقود: أقرّ القرآن في العقود الأُسس الآتية:

أولاً: العقد المشروع ملزم لعاقده دون غيره، كما أنَّ إقرار الشخص لا يسري إلّا على نفسه[٦] قال تعالى: «أوفُوا بِالعُقُود».[٧]

ثانياً: الشروط العقدية ملزمة للعاقدين[٨] إلّا ما يخالف النظام العامّ والآداب، وإليـه الإشارة في قوله تعالى: «وَأوفوا بِالعَهد».[٩] وإنّما يلزم الوفاء بالعقد وبالشرط إذا لم تخالف

---

١ ـ المدخل الفقهي العام، ج ١، ص ٣٤.

٢ ـ النساء ٤: ٩٢.

٣ ـ البقرة ٢: ١٧٩.

٤ ـ البقرة ٢: ١٧٨.

٥ ـ البقرة ٢: ١٨٠.

٦ ـ المدخل الفقهي العام، ج ١، ص ٤٢.

٧ ـ المائدة ٥: ١.

٨ ـ زبدة البيان، ص ٤٦٢؛ وراجع: الميزان، ج ٥، ص ١٦٨.

٩ ـ الإسراء ١٧: ٣٤.

أُصول الشريعة ومبادئها استناداً إلى قوله تعالى: «لاتأكُلوا أموالَكُم بَيْنَكُمْ بِالباطِلِ».[١]

ثالثاً: العقود كلّها رضائية،[٢] أي أنّها تنعقد بالتراضي، وإليه الإشارة في قوله تعالى: «إلّا أن تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُم».[٣]

رابعاً: الالتزام بحسن النيّة في العقد، ويقصد به خلوّه من الغبن والغشّ والتغرير والتدليس ونحو ذلك.[٤] وهذه الأُمور يعتبرها الشرع أكلاً للمال بالباطل، وقد جاء قوله تعالى: «لاتأكُلُوا أموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالباطِلِ».[٥]

٢ ـ الحقوق الجنائية

أ ـ كلّ فعل ممنوع يعتبر ارتكابه جريمة، وكلّ جريمة لها عقوبة. قال تعالى: «ولاتَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لايُحِبُّ المُعْتَدِينَ».[٦]

وقال تعالى: «فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فاعتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتَدىٰ عَلَيْكُم».[٧]

وقال تعالى: «وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثلُها».[٨]

ب ـ حدّدت الشريعة في القرآن الكريم جرائم معيّنة أوجبت عليها نوعاً من العقوبة، وقد أُطلق على هذه الجرائم جرائم الحدود، وهي:

ـ حدّ الزنا «الزّانِيَةُ وَالزّاني فَاجْلِدوا كُلَّ واحِدٍ مِنهُما مِأَةَ جَلدَة».[٩]

ـ ثمّ حدّ السرقة «وَالسّارِقُ وَالسّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيدِيَهُما».[١٠]

ـ ثمّ جريمة قطع الطريق والسلب وحدّها القتل. قال تعالى: «إنَّما جَزاءُ الَّذين يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَونَ فِي الأَرضِ فَساداً أن يُقَتَّلُوا...».[١١]

ـ ثمّ جريمة القذف، أي رمي المحصنات بالزنا ونحوه. قال تعالى: «وَالَّذين يَرمُونَ

---

١ ـ النساء ٤: ٢٩.

٢ ـ زبدة البيان، ص ٤٦٢.

٣ ـ النساء ٤: ٢٩.

٤ ـ المدخل الفقهي العام، ج ١، ص ٤٢.

٥ ـ النساء ٤: ٢٩.

٦ ـ البقرة ٢: ١٩٠.

٧ ـ البقرة ٢: ١٩٤.

٨ ـ الشورى ٤٢: ٤٠.

٩ ـ النور ٢٤: ٢.

١٠ ـ المائدة ٥: ٣٨.

١١ ـ المائدة ٥: ٣٣.

المُحصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأتُوا بِأربَعَةِ شُهَداءَ فَاجلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلدَةً وَلاتَقبَلُوا لَهُمْ شَهادةً أبداً».[١] إلّا أنّ القرآن هنا أجاز العفو لوليّ الدم[٢] قال تعالى: «فَمَن عُفِيَ لَهُ مِنْ أخيهِ شَيء».[٣] وقال تعالى: «وَجَزاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثلُها فَمَنْ عَفا وَأصلَحَ فَأجرُهُ عَلى الله إنَّهُ لايُحِبُّ الظّالِمين».[٤]

وقد يكون من المناسب أن نورد هنا جملة من المبادئ والقواعد القانونية في إطار القانون الجنائي، ومنها:

١ ـ لاعقوبة إلّا بنصٍّ خاصّ أو عامّ. قال تعالى: «وَما كُنّا مُعذِّبينَ حَتّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً».[٥]

٢ ـ العقوبة على الجاني فقط مباشراً أو متسبّباً. قال تعالى: «وَلاتَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ اُخرى».[٦]

٣ ـ مبدأ المعاملة بالمثل يعتبر ساري المفعول. قال تعالى: «وَجَزاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثلُها».[٧]

٤ ـ جواز الأخذ بمبدأ العفو في جريمة القتل بالنسبة لوليّ الدم. قال سبحانه: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِن أخيهِ شَيء».[٨]

(ثانياً) قسم الحقوق العامّة

١ ـ الحقوق الدستورية

أقرّت الشريعة والقرآن الكريم ثلاثة مبادئ أساسية هي:

أ ـ الحرّية التامّة للناس دون إخلال بالنظام العامّ والآداب أو التجاوز على حدود حرّية الغير، وفي هذا الصدد نجد:

قوله تعالى: «لاإكْراهَ فِي الدّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُشْدُ مِنَ الغَيّ».[٩]

---

١ ـ النور ٢٤: ٤.
٢ ـ زبدة البيان، ص ٦٦٧.
٣ ـ البقرة ٢: ١٧٨.
٤ ـ الشورى ٤٢: ٤٠.
٥ ـ الإسراء ١٧: ١٥.
٦ ـ ذكرت في خمسة مواضع.
٧ ـ الشورى ٤٢: ٤٠.
٨ ـ البقرة ٢: ١٧٨.
٩ ـ البقرة ٢: ٢٥٦.

وقوله تعالى: «أَفَأَنْتَ تُكرِهُ النّاسَ حَتّىٰ يَكُونُوا مُؤمِنِينَ».[١]

وقوله تعالى: «وَلاتَعْثَوا فِي الأرض مُفسِدين».[٢]

ب ـ المساواة أمام القانون، فلا امتياز لنسب ولا لطبقة من الناس، قال تعالى: «إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقٰاكُم».[٣] وقال تعالى: «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدةٍ».[٤]

ج ـ قيام الحكم على أساس الشورى، ونعني به إعطاء الأُمّة دور الحكم أو الرقابة والإشراف.

قال تعالى: «وأمْرُهُمْ شُورىٰ بَيۡنَهُم».[٥] وقال تعالى: «وَشاوِرْهُمْ فِي الأمر».[٦]

٢ ـ الناحية الإدارية

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنَّ لوليّ الأمر في الدولة صلاحيات إدارية تنفيذية وأنَّ في يده جميع السلطان. قال تعالى: «أطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسولِ وَأُولي الأَمْرِ مِنْكُم».[٧]

٣ ـ في الناحية المالية العامّة

حدّد القرآن أنّ الأموال في واقعها هي للأُمّة، وإنّما الحاكم له النيابة فيها.

قال: الإمام علي عليه السلام: «لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله؟».[٨]

وإليه الإشارة في قوله: «وَأنْفِقُوا مِمّا جعَلَكُمْ مُسْتَخلَفِين فيه».[٩]

وقال تعالى: «فإنَّ لله خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ولِذِي القُربى وَاليَتامى وَالمساكِين...».[١٠]

أمّا في مجال الحقوق الخارجية ـ أي في نطاق العلاقات مع المجتمعات الأُخرى ـ فقد أقرَّ القرآن المبادئ والقواعد الآتية:

---

١ ـ يونس ١٠: ٩٩.
٢ ـ البقرة ٢: ٦٠.
٣ ـ الحجرات ٤٩: ١٣.
٤ ـ الأعراف ٧: ١٨٩.
٥ ـ الشورى ٤٢: ٣٨.
٦ ـ آل عمران ٣: ١٥٩.
٧ ـ النساء ٤: ٥٩.
٨ ـ نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٢٦، ص ١٨٣.
٩ ـ الحديد ٥٧: ٧.
١٠ ـ الأنفال ٨: ٤١.

١ ـ الشعوب متساوية في الحقوق الإنسانية:

قال تعالى: «وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُمْ».[١]

٢ ـ المعاملة يجب أن تقوم على أساس العدل:

قال تعالى: «لايَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أن تَبَرّوهُمْ وَتُقسِطُوا إلَيهِم».[٢] وقال تعالى: «لايَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ عَلىٰ أن لاتَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقرَبُ لِلتَّقوىٰ».[٣]

٣ ـ المعاهدات محترمة بين الأُمم والدول وهي ملزمة:

قال تعالى: «الَّذينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلايَنْقُضُونَ الميثاق».[٤]

وقال تعالى: «وَأوْفُوا بِالعَهدِ إنَّ العَهدَ كانَ مَسْؤُولاً».[٥]

وقد ذكر العلّامة الطباطبائي أنّ الوفاء بالعهد يشمل الفردي والاجتماعي.[٦]

٤ ـ المعاملة بالمثل جائزة، ولا يجوز المحاربة بدون إنذار:

قال تعالى: «فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مااعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ».[٧]

وقال تعالى: «وَلاتَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لايُحِبُّ المُعْتَدينَ».[٨]

وقال تعالى: «وإذ أخَذنا ميثاقَكُمْ لاتَسفِكون دِماءَكُم».[٩]

وإلى هنا نكون قد بيّنا الملامح العامّة للنظرية القرآنية، في تقنين المجتمع، على سبيل الاختصار. ويشفع لنا في هذا الإيجاز أنّنا إنّما نريد أن نرسم صورة كلّية. وقد اكتفينا بهذا القدر، ونعتقد أنّ فيه كفاية إنّ شاء الله.

والحمدلله ربّ العالمين.

---

١ ـ الحجرات ٤٩: ١٣.
٢ ـ الممتحنة ٦٠: ٨.
٣ ـ المائدة ٥: ٨.
٤ ـ الرعد ١٣: ٢٠.
٥ ـ الإسراء ١٧: ٣٤.
٦ ـ راجع: الميزان، ج ٥، ص ١٦٩.
٧ ـ البقرة ٢: ١٩٤.
٨ ـ المائدة ٢: ١٩٠.
٩ ـ البقرة ٢: ٨٤.

شرائع التوراة التعنّتية

هذا ما كان من أمر التشريع الإسلامي الراقي الذي جاء مثلاً أعلى في التشريع والذي كان يوافق الفطرة السليمة والعقل الرشيد.

وإليك الآن نماذج من تشريعات جاءت في التوراة وكانت تعنّتية يرفضها العقل وتنبو بها الفطرة، ويتجافاها واقع الحياة، فهناك نفرة ومجافاة، لم يسمح بها خالق الكون ولا رسالاته السمحة السهلة المتلائمة مع واقع الإنسان.

* تشريع التوراة يفرض شريعة الحدّ على البهائم المهاجمة:

«وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأةً فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه. وأما صاحب الثور فيكون بريئاً. ولكن إن كان ثوراً نطّاحاً من قبلُ وقد أُشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلاً أو امرأةً فالثور يرجم وصاحبه أيضاً يُقتل».[1]

* إله التوارة يكره ذوي العيوب الجسدية أن يقدّموا قرباناً، فيجعل فرقاً بين السليم والسقيم في عبادته.

«وكلّم الربّ موسى قائلاً: كلّم هارون قائلاً: إذا كان رجل من نسلك في أجيالهم فيه

---

١ ـ سفر الخروج: الإصحاح ٢١، العدد ٢٨.

عيب فلا يتقدّم ليقرّب خُبزَ إلٰهه، لأنّ كلّ رجل فيه عيب لا يتقدّم، لا رجل أعمىٰ ولا أعرج ولا أفطس ولازوائدي. ولارجل فيه كسر رجلٍ أو كسر يدٍ. ولا أحدب ولاأكثم ولا من في عينه بياض ولاأجرب ولاأكلف ولا مرضوض الخُصى. كلّ رجل فيه عيب من نسل هارون الكاهن لا يتقدّم ليقرب وَقائِدَ الرب، فيه عيب لا يتقدّم ليقرب خبز إلٰهه. خبز إلٰهه من قدس الأقداس ومن القدس يأكل. لكن إلى الحجاب لا يأتي وإلى المذبح لا يقترب، لأنّ فيه عيباً، لئلّا يدنّس مقدسي. لأنّي أنا الربّ مقدسهم. فكلّم موسى هارون وبنيه وكلّ بني إسرائيل».[١]

فتشريع التوراة يحبل من ذوي العيوب الخَلقية أرجاساً وأدناساً، ويتعالى قدسه تعالى عن مقاربة هؤلاء.

تشريع التوراة يفرّق بين ولادة أُنثى وولادة ذكر، فالأُمّ الوالدة نجسة إلى أُسبوعين إذا ولدت أُنثى، وإلى أُسبوع إذا ولدت ذكراً.[٢]

شريعة التوراة تجعل من ذوي العاهات أنجاساً:

«إذا كان إنسان في جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة تصير في جلد جسده ضربة برص يؤتىٰ به إلى هارون الكاهن إلى أحد بنية الكهنة. فمتى رآه الكاهن يحكم بنجاسته».[٣]

«وإذا كان رجل أو امرأة فيه ضربة في الرأس أو في الذقن يحكم الكاهن بنجاسته، أنّها قَرَع في الرأس أو الذقن».[٤]

أحكام قاسية في التوراة

❊ من مسّ ميّتاً يكون نجساً سبعة أيّام:

---

١ ـ سفر لاويين: الإصحاح ٢١، العدد ١٦ ـ ٢٤.

٢ ـ لاويين: الإصحاح ١٢، العدد ١ ـ ٧.

٣ ـ لاويين: الإصحاح ١٣، العدد ١ ـ ٣.

٤ ـ لاويين: الإصحاح ١٣، العدد ٢٩.

«من مسّ مَيّتاً ميتة إنسانٍ مّا يكون نجساً سبعة أيّام. يتطهّر بِهِ في اليوم الثالث وفي اليوم السابع يكون طاهراً. وإن لم يتطهّر في اليوم الثالث ففي اليوم السابع لا يكون طاهراً».

«هذه هي الشريعة، إذا مات إنسان في خيمة فكلّ من دخل الخيمة وكلّ من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيّام».

«وكلّ إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنّه نجس».

«وكلّ من مسّ قتيلاً أو ميتاً أو عظم إنسان أو قبراً يكون نجساً سبعة أيّام».[١]

* المرأة الطامث نجسة ونجس كلّ ما تليه:

«وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها فسبعة أيّام تكون في طمثها، وكلّ من مسّها يكون نجساً إلى المساء، وكلّ ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكلّ ما تجلس عليه يكون نجساً، وكلّ من مسّ فراشها يغسل ثيابه ويستحمّ بماءٍ ويكون نجساً إلى المساء».

«وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيّام. وكلّ فراش يضطجع عليه يكون نجساً».[٢]

* «كلّ إنسان سبّ أباه أو اُمّه فإنّه يُقتل، قد سبّ أباه أو اُمّه دمه عليه».[٣]

* «وإذا كان في رجل أو امرأة جانٌّ أو تابعة فإنّه يُقتل، بالحجارة يرجمونه».[٤]

* الشعوبية بادية على شريعة التوراة الحاضرة:

* الجثّة (الميتة وكلّ ما ذبح على غير الطريقة الشرعية) لا يأكلها إسرائيلي، بل يدفعها إلى الأجنبي الغريب، ذلك أنّ الإسرائيلي شعب مقدّس يترفّع عن أكل الجثّ.

«لا تأكلوا جثّةً ما. تعطيها للغريب الذي في أبوابك فيأكلها أو يبيعها لأجنبي. لأنّك

---

١ ـ سفر العدد: الإصحاح ١٩، العدد ١١-١٦.

٢ ـ لاويين: الإصحاح ١٥، العدد ١٩-٣٤.

٣ ـ لاويين: الإصحاح ٢٠، العدد ٩.

٤ ـ لاويين: الإصحاح ٢٠، العدد ٢٧.

شعب مقدّس للربّ إلٰهك...».[١]

※ إذا عسر على أخيك الإسرائيلي أداء دَينه فابرأه، لكن الأجنبي تطالبه بشدّة.

«لا يُطالب صاحبه ولا أخاه، لأنّه نودي بإبراء للربّ. الأجنبي تطالب. وأمّا ما كان لك عند أخيك فتبرئه يَدَكَ منه».[٢]

※المملوك العبراني يطلق سراحه بعد ستّ سنين.[٣]

※ تحريم الزنا واللواط خاصّ بالإسرائيلي.[٤]

---

١ ـ التثنية: الإصحاح ١٤، العدد ٢١.

٢ ـ التثنية: الإصحاح ١٥، العدد ٣.

٣ ـ التثنية: الإصحاح ١٥، العدد ١٢.

٤ ـ التثنية: الإصحاح ٢٣، العدد ١٧.

القوانين الرومانية

هناك زعمٌ زعمه البعض: أنّ التشريعات الإسلامية أساسها التشريع الروماني القديم. لأنّه هو الأساس لسائر التشريعات البشرية في العالم المتمدّن، سواء في الشرق أم الغرب. ومنها التشريع الإسلامي، أيضاً مأخوذ من تشريعات الرومان، الموروثة حينذاك.

قال ول ديورانت: كان القانون أخصّ خصائص الروح الرومانية، وأبقى مظهر من مظاهرها، وكانت روما مضرب المثل في النظام... ولقد أورثتنا شرائعها وتقاليدها الإدارية لتكون هي أُسس النظام الاجتماعي، كما أورثتنا بلاد اليونان الديمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرّية الفردية. وأهمّ ما يجب على الساسة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحّدوا بينهما، ويؤلّفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغماً مؤتلفاً منسجماً.[١]

قلت: كلامه هذا وإن كان صحيحاً فيما يعود إلى بلاد أُروبا (الغرب) فإنَّ جلّ تشريعاتهم وقوانينهم متشعّبة من قوانين وأنظمة الرومان ومأخوذة منها لامحالة حيث لم يكن هناك أيّ تشريع سواها، ولم يتسّرب إليها قانون ولانظام من غير زاوية الرومان.

أمّا الشرق وبلاد آسيا ـ ولاسيّما الشرق الأوسط ـ فكان منبعث التشريعات والقوانين والأنظمة، سواء البشرية منها والسماوية.

---

١ ـ قصّة الحضارة، ج ١٠، ص ٣٥٨ باب ١٨ (القانون الروماني).

وكان الشرق الأوسط قد سبق العالم كلّه في التشريع وسنّ القوانين، ولا موجب لاستناد التشريعات الآسيوية ـ سواء البعيدة منها أو المتوسّطة ـ إلى تشريع الرومان المتأخّر، والبعيد عنها أُفقاً وثقافةً وفي سائر أبعاد الحياة.

هذا، ولاسيّما التشريع الإسلامي المترفّع كلّ الترفّع عن أيّ تشريع بشري، رومانياً كان أم غيرها. وإليك طرفاً من التشريع الروماني البعيد عن روح التشريعات الإسلامية كلّ البُعد:

***

كان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنن التي لا يكاد يستطاع عمل شيء مشروع إلّا باتّباعها، وكانوا في روماهم المستشارين القانونيين. وكانوا هم أول من يبدي الرأي القانوني في مهامّ الأُمور. وكانت القوانين تسجّل في كتبهم، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامّة. وبلغ من حرصهم عليها أن اتّهموا في بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكي تتّفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين.[١]

ومن ثمّ كانت الخطوة التي خطاها مجلس العامّة في سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محدودة مدوّنة. وعارض مجلس الشيوخ في هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة، ولكنّه وافق في آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلّفة من ثلاثة من الأشراف، لدراسة شرائع صولون وغيره من المشرّعين، وكتابة تقرير عنها. فلمّا عاد الأعضاء اختارت الجمعية عشرة رجال لوضع قانون جديد، وخوّلتهم أعلى سلطة حكومية في روما مدى سنتين. وكان رئيس اللجنة رجلاً رجعياً قويّ الشكيمة يدعى: ابيوس كلوديوس.

وكانت نتيجة أعمالها أن حوّلت قوانين روما القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الاثنتي عشرة لوحة، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدّلتها بعض التعديل، وعرضتها في السوق العامّة لمن يريد أن يقرأها.[٢]

---

١ ـ المصدر، ج ٩، ص ٦٨.

٢ ـ المصدر، ص ٥٠-٥١.

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشدّ القوانين التي شهدها التاريخ. ذلك أنّها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبويّة الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية. فكان يسمح للأب ـ بمقتضاها ـ أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله. وكلّ ما قيّد به سلطة الأب أن يحرّر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرّات.

واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق، بتحريم الزواج بين الأشراف والعامّة. وكان لدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كلّ قيد. كما كان للمُلّاك الحرّية الكاملة في أن يتصرّفوا في أملاكهم عن طريق الوصيّة. وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حدّاً يجعل السارق الذي يضبط متلبّساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه.

***

وكانت العقوبات تتفاوت، من الغرامة البسيطة إلى النفي أو الاسترقاق أو الإعدام. ومنها ما يجري بطريق القصاص. وكثيراً مّا كانت الغرامات تحدّد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه. كانت عقوبة كسر عظام الحرّ ٣٠٠ آس،[١] وكسر عظام العبد ١٥٠ آساً. وكان القذف، والرشوة، والحنث في الأيمان، وسرقة المحصولات الزراعية، وإتلاف غلّات الجار ليلاً، وخديعة المحامي للمتقاضيين، وممارسة السحر، ودسّ السمّ في الطعام، والاغتيال، والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات... كانت هذه كلّها يعاقب عليها بالإعدام، وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيسٍ ـ ومعه في بعض الأحيان ديك أو كلب أو قرد أو أفعى ـ ويلقى في النهر.[٢]

وظلّ الزنا من الجرائم الصغرى إذا ارتكبه الرجل، أمّا إذا ارتكبته المرأة فكان يعدّ من الجرائم الكبرى ضدّ أنظمة الملكية والميراث. ولكن الزوج لم يبق له وقتئذٍ حقّ قتل زوجته إذا ضبطها متلبّسة بجريمة الزنا، بل أُعطي هذا الحقّ لأبيها اسماً وللمحاكم فعلاً. وكان عقابها هو النفي.

---

١ ـ الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوّة شرائها في عام ١٩٤٢ تساوى ٦/١٠٠ من الريال الأمريكي (الدولار الأمريكي). المصدر، ص ٥٧.

٢ ـ المصدر، ص ٧٠.

وكان القانون يعترف بالتسرّي بديلاً من الزواج لامصاحباً له. ولم يكن يجيز للرجل أن تكون له خطبتان في وقت واحد. ولم يكن أبناء السرايا يعدّون أبناء شرعيين أو يجعل لهم حقّ الإرث. ومن أجل ذلك كان اتّخاذ السراري أمراً محبّباً كلّ الحبّ للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن يوصى لهم بأملاكهم.[١]

وكان القانون يحرّم على كلّ روماني يملك مائة ألف سسترس (ما يعادل ١٥٠٠٠ دولار أمريكي) أو أكثر أن يوصي بأيّ جزء من ثروته لامرأةٍ.[٢]

❊ ❊ ❊

كان الشخص الأول في القانون الروماني هو المواطن. وكان تعريفه عندهم هو الشخص الذي ضمّ إلى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبنّي أو العتق أو المنحة من قبل الحكومة.

وكان الذي ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون إلى ثلاث درجات:

١ ـ المواطنون الكاملون الذين يتمتّعون بالحقوق الأربعة: حقّ الاقتراع، وحقّ التوظّف، وحقّ الزواج من حرّة بمولدها، وحقّ الدخول في تعاقد تجاري يحميه القانون.

٢ ـ المواطنون الذين لاحقّ لهم في الاقتراع. وهم يتمتّعون بحقّ الزواج والتعاقد، لكنّهم لا حقّ لهم في الاقتراع ولافي تولّي المناصب.

٣ ـ المعاتيق الذين يتمتّعون بحقّ الاقتراع وحقّ التعاقد. ولكنّهم لاحقّ لهم في الزواج بحرّة أو في تولّي المناصب.

وكان للمواطن الكامل المواطنية ـ فضلاً عن حقوقه السالفة الذكر ـ حقوق يضمنها له القانون الشخصي ولايشاركه فيها سواه، كحقّ الأب على أبنائه، والزوج على زوجته، والمالك على مماليكه، وحقّ الرجل الحرّ على غيره إذا تعاقد معه.

وكان ثمّة نوع آخر من الحقوق، هو حقّ المواطنية الإمكانية أو حقّ الدخول في الحظيرة اللاتينية، تمنحه روما للأحرار من سكّان المدن أو المستعمرات المفضّلة، ويعطيهم حقّ التعاقد، ولكنّه لايعطيهم حقّ التزاوج بالرومانيات.[٣]

---

١ ـ المصدر، ج ١٠، ص ٣٦٩.

٢ ـ المصدر، ص ٣٧٥.

٣ ـ المصدر، ص ٣٦٦-٣٦٧.

وكان عنوان «الشخص» لايطلق على العبيد إطلاقاً، ومن ثمّ لم تكن تشملهم قوانين الأحوال الشخصية.

قال ول ديورانت: أمّا العبد فلم تكن له حقوق قانونية على الإطلاق. وكان القانون يتردّد في أن يطلق عليه لفظ الشخص، وأخيراً سمّاه إنساناً غير شخص. وكان يعدّ من قبيل المتاع، فلم يكن له حقّ أن يمتلك أو يرث أو يورّث، ولم يكن يستطيع أن يتزوّج زواجاً شرعيّاً. وكان أبناؤه كلّهم يعدّون أبناءً غير شرعيين، كما أنّ أبناء الجارية كانوا يعدّون كلّهم عبيداً، ولو كان أبوهم من الأحرار.[١]

ولم يكن في مقدور العبد أن يقاضي من يؤذيه أمام المحاكم. إنّما كان ذلك لسيّده.

وكان للسيّد أن يضرب عبيده أو يسجنهم أو يحكم عليهم أن يقاتلوا الوحوش في المجتلد، ويعرّضهم للموت جوعاً أو يقتلهم لسبب أو لغير سبب. وإذا أبق العبد ثمّ قبض عليه كان في مقدور السيّد أن يكويه بالنار أو يصلبه. وإذا ما استفزّ العبد فقتل سيّده قضى القانون بأن يقتل جميع عبيد المقتول.[٢]

وكانت القوانين تحكم على السارق الذي يُضبط بالضرب، ثمّ يجعل بعدئذٍ عبداً لمن سرق منه. فإذا كان السارق عبداً ضرب ثمّ اُلقي به من فوق صخرة.

ثمّ خفّف القانون هذه العقوبات القاسية بأن فرض عليه أن يردّ إلى المسروق منه ضعفي ما سرقه أو ثلاثة أضعافه أو أربعة أضعافه.[٣]

وكان القانون يحرّم قتل الأبناء إلّا إذا كانوا مشوّهين أو مصابين بمرضٍ مستعصٍ على العلاج. وكان عقاب من يجهض حاملاً أن ينفى من البلاد وأن تصادر أملاكه.

وكان الأبناء أيّاً كانت سنّهم يبقون تحت سلطان أبيهم إلّا إذا باعهم عبيداً ثلاث مرّات.

وكان الابن إذا تزوّج في حياة أبيه كانت ولاية أبنائه لجدّهم.[٤]

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كلّ الاندماج في أخصّ النظم الرومانية الأساسيّة وأقواها أثراً وهو نظام الأُسرة الأبويّة. وتكاد سلطة الأب في هذه الأُسرة أن تكون سلطة

١ ـ المصدر، ص ٣٧٠-٣٧١.
٢ ـ المصدر، ص ٣٧٠-٣٧١.
٣ ـ المصدر، ص ٣٧٧.
٤ ـ المصدر، ص ٣٧٠.

مطلقة من كلّ القيود، كأنّما الأُسرة قد نظّمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمة. وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأُسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأول، فهو وحده الذي كان من حقّه أن يشتري المُلك ويحتفظ به أو يبيعه، وأن يتعاقد باسمه، وحتى بائنة الزوجة كانت في ذلك العهد مُلكاً له. وإذا ما اتّهمت زوجته بجريمة اُحيلت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه، وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانته أو سرقت مفاتيح خزائن خمره.

وكان له على أبنائه حقّ الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق. وكان كلّ ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون مُلكاً خالصاً لأبيه. ولم يكن من حقّه أن يتزوّج من غير موافقة والده. وكانت البنت إذا تزوّجت بقيت تحت سلطان أبيها، إلّا إذا سمح لها أن تتزوّج زواجاً يسلّمها إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه. وكان له على عبيده سلطة لا حدّ لها، فكان هو وزوجته وأبناؤه مُلك يده.

وكان يحرم على المرأة أن تظهر في دار المحكمة ولو كانت شاهدة. وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأيّ حقّ لها في ماله، وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال. وكانت في كلّ أدوار حياتها تحت رقابة رجل ـ أبيها أو أخيها أو زوجها أو ابنها أو وصيّ عليها ـ لا تستطيع أن تتزوّج أو تتصرّف في مالها بغير رضاه.

لكنّها كان من حقّها أن ترث، وإن حُدّد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس (أي نحو ١٥٠٠٠ دولار أمريكي). أمّا التملّك فلم يكن مقيّداً بحدٍّ أقصى.[١]

***

هذا طرف من قانون الأحوال الشخصية الذي سنّه التشريع الروماني ذلك العهد. وقد عمّ أرجاء بلاد الغرب إلى وقت قريب.

غير أنّه يتنافى كلّ التنافي مع روح القوانين الإسلامية في جميع مجالات التشريع، منذ بدء تكوينه فإلى الأبد، ولنذكر نماذج منه:

---

١ ـ المصدر، ج ٩، ص ١١٩ـ١٢٠.

لاشعوبية في الإسلام

«يا أَيُّها النّاس إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ
شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ
أَتْقاكُمْ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبير».[١]

جاء الخطاب عامّاً لجميع الناس، لايخصّ أُمّةً دون أُخرى، ولاشعباً دون شعب، بل الناس كلّهم سواء في هذا النداء. وهذه السواسية جاءتهم من قبل الولادة، كلّهم من نسلٍ واحد ومن أصلٍ واحد، من ذكرٍ وأُنثى هما: آدم وحوّاء.

الناس من جهة التمثال أكفاء   أبـــوهم آدم والأُمّ حـــوّاء

وإنّما اختلفوا شعوباً وقبائل، حسب اختلاف المناطق التي ارتحلوا إليها، واختلاف عاداتهم ورسومهم، واختلاف ثقافاتهم، ومن ثمّ اختلاف ألسنتهم وبيئتهم التي يعيشونها. وإنّ هذا الاختلاف كان نتيجة رحلاتهم في أرجاء الأرض بسبب تكثّرهم وازدحام مطاليبهم في الحياة، ومن ثمّ تفرّقوا في البلاد لطلب الميرة واكتساب الأرزاق، فكانت تلك الاختلافات نتيجة تلكمُ الرحلات.

لكن هذا الاختلاف في البيئة والثقافة ومستتبعاتهما هل يستدعي اختلافاً في

---

١ ـ الحجرات ٤٩: ١٣.

النسب والأصالة الذاتية، الكائنة في كلّ أبناء آدم وحوّاء؟ كلّا ثمّ كلّا.

نعم، إنّ الذي يفيده هذا الاختلاف في المعيشة وأسبابها وسائر أنحاء الاختلاف إنّما يفيد تعارفاً وتفاهماً بين الشعوب، فتتعرّف كلّ أُمّة ما اكتسبته أمّة أُخرى من علوم ومعارف وفنون، وآداب وأخلاق وسلوك، فيختاروا أحسنها وأنسبها بالحالة التي هم عليها. «فَبَشِّر عِبادِ. الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه».[١]

فلا فضل لأُمّة على أُختها ولاشعب على آخر، إلّا بمقدار تعهّداتها في الحياة، ورعايتها للكرامة الإنسانية العليا. لاشرف إلّا بالتقوى وهو التعهّد بمبادئ الإنسانية الكريمة، على شرط أن لايفخر المتفضّل على غيره، وإنّما يترخّم عليه لينتشله ويأخذ بيده صُعداً على مدارج الكمال.

قال سيد قطب: القرآن يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردّها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأُفق السامق.

يا أيُّها الناس المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرّقون شعوباً وقبائل، إنّكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولاتتفرّقوا ولاتخاصموا ولاتذهبوا بدداً.

«يا أيّها الناس» والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم «من ذكر وأُنثى» وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم «شعوباً وقبائل» إنّها ليست التناحر والخصام، إنّما هي التعارف والوئام. فأمّا اختلاف الألسنة والألوان واختلاف الطباع والأخلاق واختلاف المواهب والاستعدادات فتنوّع لايقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للّون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنّما هناك ميزان واحد تتّحد به القيم، ويعرف به فضل الناس: «إنَّ أكرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُم». والكريم حقّاً هو الكريم عند الله، وهو يزنكم عن علم وخبرة بالقيم والموازين. «إنّ الله عليمٌ خبير».

---

١ ـ الزمر ٣٩: ١٧ ـ ١٨.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة. وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للأُلفة والتعاون: أُلوهية الله للجميع. وخلقهم من أصل واحد.

كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوىٰ في ظلّ الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبيّة للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلّها من الجاهلية وإليها، تتزيّا بشتّى الأزياء، وتسمّى بشتّى الأسماء. وكلّها جاهلية عارية من الإسلام.

وقد حارب الإسلام هذه العصبية في كلّ صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظلّ راية واحدة: راية الله، لاراية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية البيت ولا راية الجنس. فكلّها رايات زائفة لايعرفها الإسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونوا أهون على الله تعالى من الجعائل».

وقال صلى الله عليه وآله عن العصبية الجاهلية: «دعوها فإنّها منتنة».

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلّق أن تحقّق لوناً من ألوانه فتخفق، لأنّها لاتسلك إليه الطريق الواحد المستقيم، الطريق إلى الله، ولأنّها لاتقف تحت الراية الواحدة المجمعة: راية الله.[1]

❊ ❊ ❊

وروي: أنّ النبي صلى الله عليه وآله خطب الناس يوم فتح مكّة، وهو على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثمّ قال:

---

١ ـ في ضلال القرآن، المجلّد ٧، ص ٥٣٧؛ ومجمع البيان، ج ٩، ص ٥٣٧.

«أيُّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظّمها بآبائهم. فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله، ورجل فاجر شقيّ هيّن على الله تعالى. إنّ الله عزّوجلّ يقول: «يا أيُّها النّاس إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَاُنثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ». ثمّ قال: «أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم».[١]

وفي رواية اُخرى: خطبهم فقال:

«يا أيّها الناس إنّ الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهليّة وتفاخرها بآبائها. إنّ العربية ليست بأب ووالدة وإنّما هو لسان ناطق، فمن تكلّم به فهو عربيّ. ألا إنّكم من آدم، وآدم من تراب، وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم».[٢]

---

١ ـ تفسير المراغي، ج ٢٦، ص ١٤٤ والآية ١٣، من سورة الحجرات.

٢ ـ الصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٥٩٤-٥٩٥؛ وتفسير القمّي، ج ٢، ص ٣٢٢.

الإسلام يرفض الطبقية

الناس جميعاً تجاه القانون الإسلامي سواء، لافرق بين شريف ووضيع، ولا يفضل أمير على سوقي أمام المحاكم القضائية ولافي الأحوال الشخصية وغيرها في الحقوق والجزاء، فالحقوق سواء والعقوبات سواء.

وهذا النظام الطبقي الذي سنّه قانون الرومان ـوعلى غراره سائر القوانين ولا يزال ـ مرفوض في نظام الإسلام العادل. وليس لأيّ مواطن في ظلّ الحكم الإسلامي فضيلة ولارفعة على مواطن آخر، من الوجهة القانونية بوجه عام.

وقد مرّ عليك حديث: «إنّ العربيّة ليست بأبٍ ووالدة وإنّما هو لسان ناطق». قاله الرسول الأعظمﷺ يوم غلّب الإسلام كلّه على الشرك كلّه، يوم فتح مكّة المكرّمة.

فليست الرومانية ولا الفارسية ولا العربية بذات أصالة في قاموس الإسلام. لأنّ الرومانية والفارسية والعربية وغيرها من لغات الأقوام إنّما هي ألسنة ولغات، فمن تكلّم بها صار من ذويها، سواء أكانت ولادته في نفس البلاد أم في خارجها، بعد أن كانت هذه أُمور اعتبارية محضة وليست بذات أصالة.

فلا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لأبيض على أسود، إذ لا فضل للغة على لغة ولا للون على لون، لأنها اعتباريّات.

إذاً لا يعترف القانون فضلاً لأحد على آخر، من أيّ أُمّة كان وبأيّ لغة تكلّم.

كما أنّ في ظلّ الحكم الإسلامي كان الجميع سواء في الاقتراع والتزاوج والتوظّف والتجارة وسائر الشؤون الاجتماعية، السياسية والانتظامية والاقتصادية والثقافية، وغيرها.

قال رسول الله ﷺ في خطبة خطبها:

«إنّ الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المُشط، لافضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلّا بالتقوى».

قالها على أثر قولة بعض الصحابة حيث رأى من النبي والمسلمين تجليلاً بمقام سلمان فقال: مَن هذا العجميّ المتصدّر فيما بين العرب. فسمعها رسول الله ﷺ وخطب خطبته تلك.

ثمّ قال ـ تعقيباً عليها ـ: سلمان بحر لاينزف، وكنز لاينفد. سلمان منّا أهل البيت وسلسل يمنح الحكمة ويؤتى البرهان.[1]

---

١ ـ بحارالأنوار، ج ٢٢، ص ٣٤٨، رقم ٦٤ عن اختصاص المفيد، ص ٣٤١؛ ونفس الرحمان في فضائل سلمان، ص ٢٩.

الحرّية والمساواة
في ظلّ الإسلام

الإسلام يرى أنّ الناس كلّهم جميعاً خُلِقُوا أحـراراً، وليـعيشوا أحـراراً، وليـتمتّعوا بحقوق الإنسانية جميعاً سواء. قال علي عليه السلام: الناس كلّهم أحرار.[1]

لكلّ إنسان حقّ الانتخاب، وحقّ الرأي والنظر في الأُمور العامّة وكذا في الشـؤون الخاصّة، على سواء، ليس هناك سادة ولارعايا، بما تحويه هاتان الكلمتان من معنى في الأعراف القديمة، وربما لايزال.

فكلّ إنسان له حقّ وعليه حقوق، سواء الذكر والأُنثى، والسادة والسوقة، ومـا إلى ذلك من فوارق في الجنسية أو في الصنف والوصف، ممّا لا يوجب مـيزاً فـي القـانون الإسلامي بين أفراد بني الإنسان.

الإسلام يرى بني نوع الإنسان أعضاء بدن واحد وأشلاء جسد واحد «بَعْضُكُمْ مِنْ بَعضٍ».[2]

الإسلام لايفضّل حرّاً على عبد، ففي الحديث: من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج ٢٣، ص ٥٤، باب ٢٩ كتاب العتق، رقم ١.

٢ ـ النساء، ٤: ٢٥.

جدعناه، ومن أخصى عبده أخصيناه.[١] أنتم بنو آدم وآدم من تراب.[٢]

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فيما روي عنه:

ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لأعجميّ على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى.[٣]

وفي حديث: أنّه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً ركب وخلفه عبده يجري فقال له: احمله خلفك فإنّه أخوك وروحه مثل روحك.[٤]

وفي ذلك يقرّر أنّ العلاقة بين السادة والعبيد ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد، أو التسخير والتحقير، وإنّما هي علاقة القربى والأُخوّة، فالسادة أهل للجارية يستأذنون في زواجها:

«فَمِمّا مَلَكَت أيمانُكُم مِن فَتَياتِكُمُ المُؤمِناتِ وَاللهُ أعلَمُ بِإيمانِكُم بَعضُكُم مِن بَعضٍ فَانكِحوهُنَّ بِإذنِ أهلِهِنَّ وَآتوهُنَّ اُجورَهُنَّ بِالمَعروف».[٥]

ففي الحديث: لا يقل أحدكم: هذا عبدي هذه أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي.[٦]

❊❊❊

انظر إلى هذه الرأفة والشفقة بشأن العبيد والإماء ذلك العهد الذي كان يئنُّ المماليك منه تحت ضغط الموالي ولا يرون للعبيد شأناً في الحياة ولا كرامةً في الإنسانية. وقد كانت الأُمم الأُخرى كلّها تعتبر الرقيق جنساً آخر غير جنس السادة، إنّما خُلق ليُستعبد ويُستذلّ ويُستحقر، فكانوا يعاملونهم معاملة الأمتعة الرذيلة لا الثمينة. ومن ثمّ كانت ضمائرهم لا تتألّم من قتل العبيد أو تعذيبهم ـ كما مرّ عليك في قانون الرومان ـ وهكذا كان الهنود يعتقدون أنّ الرقيق خُلقوا من قدم الإله، ومن ثمّ فَهُمْ بخلقتهم حقراء مهينون،

---

١ ـ أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. راجع: شبهات حول الإسلام لسيد قطب، ص ٣٣.

٢ ـ رواه مسلم وأبو داود. راجع المصدر السابق.

٣ ـ أخرجه الطبري في آداب النفوس. راجع المصدر السابق، ص ٣٤.

٤ ـ المصدر.

٥ ـ النساء ٤: ٢٥.

٦ ـ شبهات حول الإسلام، ص ٣٤.

ولا يمكن أن يرتفعوا عن هذا الوضع المقدّر لهم.[١]

❊ ❊ ❊

أمّا مسألة الرقّيّة فلم يعترف بها الإسلام ـ منذ أوّل يومه ـ كما كانت عليه الأُمم حينذاك. كان العالم المتمدّن يومذاك يرى من اللون والجنسية دليلاً على الرقّيّة، وإنّ ذا اللون الأسود أو المتغيّر أو العائش في بلاد نائية عن الأوساط المتمدّنة إنّما خلق ليكون مملوكاً للإنسان الأبيض العائش في أوساط البلاد. فالإفريقيّ بطبعه حرّ وخُلق حرّاً وليكون سيداً مالكاً، أمّا الإفريقيّ، فهو بذاته قنّ وعبد مملوك وخُلق لخدمة الأحرار، وربما لا يستحقّ إطلاق اسم الإنسان عليه.

ومن ثمّ كانت أفواج الإفريقيّين تساق إلى بلاد حوزة البحر المتوسّط، وتباع هناك بأثمان بخس. وكان الإفريقيّون يصادون كما يصاد الحيوان الوحش لأجل الاستخدام والعرض في أسواق العالم.

هكذا كان قسط كبير من عالم الإنسان، يهان به ويعتبر أخسّ من الحيوان بل النبات والجماد، فلا يعتبر إنساناً أصلاً.

هكذا كان يفعل العالم المتمدّن يومذاك، ويسيء العمل بين نوعه، لا لشيء إلّا لقضيّة اللون والبُعد عن أوساط البلاد.

الإسلام لم يعترف بهكذا استرقاق، وبهكذا عمل وحشي ملؤه الظلم والاستكبار المقيت.

ومن ثمّ نراه ـ في كثير من مجالات الشريعة ـ فتح الباب بمصراعيه أمام تحرّر المماليك بشكل مطّرد.

❊ ❊ ❊

قام الإسلام بالتحرّر الروحي ـ في الأرقّاء ـ قبل قيامه بتحرّرهم الجسمي، فقد جعلهم متساوين مع السادة في الروح والإنسانية وسائر الحقوق، هذا أولاً. ثمّ مهّد السبيل

---

١ ـ المصدر، ص ٣٥.

لتحرّرهم الواقعي بشتّى أنحائه الممكنة يومذاك. فقد قرّر صرف قسط كبير من الصدقات في سبيل تحرير الأرقّاء:

«إِنَّمَا ٱلصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَٱلْمَساكِينِ وَٱلْعامِلِينَ عَلَيْها وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفي ٱلرِّقابِ وَٱلْغارِمينَ وَفي سَبيلِ ٱللهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبيلِ فَريضَةً مِنَ ٱللهِ وَٱللهُ عَليمٌ حَكيمٌ».[١]

كما حثّ على إعتاقهم في سبيل الله وجعله من البرّ الذي يستدعيه الايمان بالله واليوم الآخر:

«لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَومِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلائِكَةِ وَٱلْكِتابِ وَٱلنَّبِيّينَ وَآتَى ٱلْمالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْيَتامىٰ وَٱلْمَساكينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبيلِ وَٱلسّائِلينَ وَفِي ٱلرِّقابِ وَأَقامَ ٱلصَّلاةَ وَآتَى ٱلزَّكاةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَٱلصّابِرينَ في ٱلْبَأْساءِ وَٱلضَّرّاءِ وَحينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلٰئِكَ ٱلَّذينَ صَدَقُوا وَأُوْلٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ».[٢]

قال الطبرسي: قوله تعالى: «وفي الرقاب» فيه وجهان، أحدهما: عتق الرقاب بأن يشتري ويعتق، والآخر: في رقاب المكاتبين. والآية محتملة للأمرين، فينبغي أن تُحمل عليهما.[٣]

فمعنى قوله: «وفي الرقاب» هو صرف المال في سبيل الإعتاق بأيّة وسيلة كانت.

وقال تعالى: «فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ. وَما أَدْراكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعامٌ في يَوْمٍ ذي مَسْغَبَةٍ. يَتيماً ذا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكيناً ذا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كانَ مِنَ ٱلَّذينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُوْلٰئِكَ أَصْحابُ ٱلْمَيْمَنَةِ».[٤]

العقبة كناية عن ركوب الصعاب، والمراد هنا: المشقّة على النفس، وذلك ببذل المال في سبيل الله، الذي هو دليل الإيمان الصادق.

---

١ ـ التوبة ٩: ٦٠.

٢ ـ البقرة ٢: ١٧٧.

٣ ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٢٦٣.

٤ ـ البلد ٩٠: ١١-١٨.

فأول ما بدأ به فكّ الرقاب. قال العلّامة الطباطبائي: لكمال عناية الدين بفكّ الرقاب.[١]

وأيضاً فمن العناية بشأن فكّ الرقاب جعله كفّارة لبعض الآثام، كقتل الخطأ والحنث في الأيمان والإفطار في شهر رمضان ونحو ذلك، ممّا ينبؤك عن حرص الإسلام على فكّ الرقاب بأيّة وسيلة متاحة وفي أيّة فرصة ممكنة، وذلك تمهيداً للقضاء على قضية الاسترقاق نهائياً.

فممّا جاء في قتل الخطأ قوله تعالى:

«وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ ٱللهِ وَكانَ ٱللهُ عَليماً حَكِيماً».[٢]

انظر إلى هذا التأكيد والتكرار في مسألة تحرير الرقاب، وجعلها أول ما بدئ به من كفّارة القتل.

وكفّارة قتل العمد ـ ولو كان المقتول مملوكاً له أو لغيره ـ هي الجمع بين الخصال: تحرير رقبة، وصيام شهرين متتابعين، وإطعام ستين مسكيناً.[٣]

❊ ❊ ❊

حتى لقد ورد: أنّ من ضرب مملوكه ـ ولو بحقّ ـ فعليه أن يعتقه، كفّارة لذنبه الذي ارتكبه.[٤]

وفي كفّارة حنث الأيمان:

«لا يُؤاخِذُكُمُ ٱللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلٰكِن يُؤاخِذُكُم بِما عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمانَ فَكَفّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ

---

١ ـ الميزان، ج ٢٠، ص ٤٢٢.　　٢ ـ النساء ٤: ٩٢.

٣ ـ وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٣٩٨، باب ٢٨ من أبواب الكفّارات. وص ٤٠٠، باب ٢٩ منها.

٤ ـ المصدر، باب ٣٠، ص ٤٠١.

ثَلاثَةِ أَيّامٍ ذٰلِكَ كَفّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».[١]

قال الطبرسي: أي كفّارة ما عقدتم إذا حنثتم. واستغنى عن ذكره لأنّه مدلول عليه، لأنّ الأُمّة قد اجتمعت على أنّ الكفّارة لاتجب إلّا بعد الحنث، وهكذا ورد في الحديث.[٢]

وهكذا في كفّارة خلف النذر، فإنّها ككفّارة حنث اليمين.[٣]

وكذلك كفّارة شقّ الثوب في المصاب أو جزّ الشعر أو نتفه.[٤]

وفي كفّارة الظهار:

«وَٱلَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِن نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسّا ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسّا فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتّينَ مِسْكيناً ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ».[٥]

انظر إلى هذا التأكيد والإصرار في فكّ الرقاب، وقد عدل بصوم شهرين وإطعام ستين مسكيناً، فهو عدل عبادة وإسداء خدمة للخلف المحتاج.

ومن ثمّ فإن الإعتاق عبادة توجب التقرّب بها إلى الله.

ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا عتق إلّا ما أُريد به وجه الله تعالى».[٦]

***

وكذا كفّارة الإفطار عمداً وبلاعذر، في شهر رمضان. فعن كلّ يوم: عتق نسمة (أو) صيام شهرين (أو) إطعام ستّين مسكيناً.

---

١ ـ المائدة ٥: ٨٩.

٢ ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٣٨؛ وراجع: وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٣٨٩، باب ١٩ من أبواب الكفّارات.

٣ ـ وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٣٩٢، باب ٢٣ من أبواب الكفّارات.

٤ ـ المصدر، ص ٤٠٢، باب ٣١ من أبواب الكفّارات.

٥ ـ المجادلة ٥٨: ٣-٤.

٦ ـ وسائل الشيعة، ج ٢٣، ص ١٤، باب ٤ من أبواب العتق.

هكذا ورد في الحديث عن الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.[١]

❊❊❊

على أنّ هناك في الشريعة الإسلامية حثّاً بليغاً على تحرير الأرقّاء، عملاً مندوباً إليه في كثير من الأحاديث وفي كثير من المناسبات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أعتق مسلماً أعتق الله بكلّ عضوٍ منه عضواً من النار.

وفي الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام في الرجل يعتق المملوك، قال: يعتق الله عزّوجلّ بكلّ عضوٍ منه عضواً من النار.

ولقد أعتق الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ألف مملوك لوجه الله عزّوجلّ كان قد اشتراهم من كدّ يمينه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: أربع من أتىٰ بواحدة منها دخل الجنّة: من سقى هامة ظامئة، أو أشبع كبداً جائعة، أو كسا جلدة عارية. أو أعتق رقبة عانية.[٢]

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: يستحبّ للرجل أن يتقرّب إلى الله عشيّة عرفة ويوم عرفة بالعتق والصدقة.[٣]

وعنه عليه السلام أيضاً: من كان مؤمناً فقد عُتق بعد سبع سنين، أعتقه صاحبه أو لم يعتقه ولا يحلّ خدمة من كان مؤمناً بعد سبع سنين. والحديث صحيح الإسناد، وحمل على استحباب عتقه.[٤]

❊❊❊

كما أنّ هناك أسباباً قهرية للانعتاق:

منها: ما إذا ملك الإنسان أحداً من آبائه أو أولاده أو إحدى النساء المحرّمات عليه. و يستحبّ عتق ما إذا ملك أحد الأقارب غير المحرّمات.[٥] وأنّ حكم الرضاع في ذلك حكم

---

١ ـ المصدر، ج ١٠، ص ٤٦، من أبواب ما يمسك عنه الصائم، ح ٥.

٢ ـ المصدر، ج ٢٣، ص ٩-١٢، باب ١ من أبواب العتق حديث ٧ و ١ و ٦ و ٩.

٣ ـ المصدر، ص ١٢، باب ٢.

٤ ـ المصدر، ص ٥٩، باب ٣٣.

٥ ـ المصدر، ص ١٨، باب ٧ من أبواب العتق، وص ٢٨، باب ١٣ منها.

النسب.[١]

ومنها: أنّ من أعتق نصيبه في مملوك كلّف شراء باقيه وإعتاقه أجمع. فإن كان معسراً استسعى المملوك بنفسه للانعتاق.[٢]

ومنها: أنّه إذا مَثّل بعبده أو نكل به انعتق.[٣]

ومنها: أنّه إذا عمى المملوك أو أقعد أو جذم انعتق[٤] وكانت نفقته على مولاه إذا لم يجد حيلة.[٥]

ومنها: أنّ من أعتق شيئاً (النصف أو الربع أو نحو ذلك) من مملوكه، أصبح المملوك حرّاً طلقاً. قال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فيمن أعتق بعض غلامه: هو حرّ كلّه، ليس لله شريك.[٦]

ومنها: ما إذا حملت الأمة من مولاها فإنّه لايجوز له بيعها ولانقلها إلى غيره، فتبقى لتتحرّر بعد موت سيّدها من إرث ولدها.[٧]

وبعد، فقد جاء الإسلام ليردّ على الأرقّاء إنسانيّتهم المفقودة طيلة قرون وفي أوساط العالم المتمدّن يومذاك. جاء ليقول للسادة عن الأرقّاء: بعضكم من بعض، ومن قتل عبداً قتلناه، ومن جدع عبداً جدعناه، ومن لطم عبداً اقتصصنا منه مثلاً بمثل، وأن لافضل لسيّد على عبده لمجرّد أنّ هذا سيّد وهذا عبد، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، جاء ليقرّر وحدة الأصل ووحدة المنشأ والمصير.

وإنّ السادة ليسوا أصحاب فضل حين ينفقون على عبيدهم، لأنّهم جميعاً في وضع واحد، في كنف الله وتحت حمايته، وهو رازق الجميع على سواء: السادة والعبيد.

«وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ».[٨]

---

١ ـ المصدر، ص ٢٢، باب ٨ منها.

٢ ـ المصدر، ص ٣٦، باب ١٨ منها.

٣ ـ المصدر، ص ٤٣، باب ٢٢ منها.

٤ ـ المصدر، ص ٤٤، باب ٢٣ منها.

٥ ـ المصدر، ص ٣٠، باب ١٤منها.

٦ ـ المصدر، ص ١٠٠، باب ٦٤منها.

٧ ـ المصدر، ص ١٦٩، باب ١ من أبواب الاستيلاد.

٨ ـ النحل ١٦: ٧١.

وإنّ على السادة أن يحترموا مواضع العبيد لأنّهم إخوانهم في الدين ومتساوون معهم في الإنسانية، فيحترموهم كما يحترموا الوالدين والأقربين بالمعروف:

«وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْيَتامىٰ وَٱلْمَساكِينِ وَٱلْجارِ ذِي ٱلْقُرْبىٰ وَٱلْجارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ ٱللهَ لا يُحِبُّ مَن كانَ مُخْتالاً فَخُوراً».[1]

فالإحسان بالمملوك كالإحسان بالوالدين والجيران، من لوازم الإيمان الصادق. وكان التمرّد عن هذا القانون السماوي العادل انخراطاً في حزب الشيطان وخيلاءً وافتخاراً بغيضاً يبغضه الإسلام.

فقد أصبح الرقيق في ضلّ الحكم الإسلامي ـ في ذلك العهد المظلم ـ كائناً إنسانياً له كرامته يحميه القانون، ولا يجوز الاعتداء عليه بالقول ولا بالفعل.

فقد رفع الإسلام بالرقيق إلى مستوى الأُخوّة الكريمة: لا في عالم المُثُل والأحلام، بل في عالم الواقع، ومنحه إنسانيّته وكرامته التي خُلق عليها متساوياً مع السادة الأحرار.

* * *

وهذا هو التحرير النفسي للأرقّاء، قام به الإسلام خرقاً لسائر النُظم التي كانت سائدة ذلك العهد.

وهذا تمهيد في سبيل الوصول إلى تحريرهم الواقعي الذي كان يبدو ممتنعاً ذلك الوقت، غير أنّ تمهيد السبيل إليه أصبح ممكناً، وقد قام به الإسلام بكلّ جهده.

لقد كانت هذه الخطوة التي خطاها الإسلام ـ وكانت ناجحة ـ هي في الواقع كانت تحريراً روحياً للأرقّاء، يردّ إليهم الإنسانية، ويعامل معهم على أنّهم بشر لا يفترقون عن السادة من حيث الأصل والنسب الإنساني الكريم. وأنّ الرقّية كانت حصيلة ظروف وأعراف طارئة، عارضت سبيل الحرّية الخارجية للأرقّاء، ولابدّ أن تزول يوماً والإسلام من ورائه.

---

١ ـ النساء ٤: ٣٦.

والذي عمله الإسلام ذلك الوقت هو أنّه لم يكتف بذلك التحرير الروحي، بل تجاوزه إلى تحرير واقعي (خارجي) وبنى قاعدته الأساسية العظمى وهي: المساواة الكاملة بين البشر، وهو تحرير كامل لكلّ البشر. ولذلك عمل فعلاً على تحرير الأرقّاء بوسيلتين كبيرتين: هما العتق والكتابة ـ على مامرّت عليك ـ.

وبذلك كان الإسلام قد خطا خطوات فعليّة واسعة في سبيل تحرير الأرقّاء.

لكن لماذا لم يخط خطوته النهائية، ولم يقل كلمته الأخيرة حينذاك؟

ومن ثمّ قد يخطر بالبال: إذا كان الإسلام قد خطا هذه الخطوات كلّها نحو تحرير الأرقّاء، وقد سبق العالم كلّه متطوّعاً غير مضطرّ ولامضغوط عليه، فلماذا لم يخط الخطوة الحاسمة الباقية، فيعلن بصراحة كاملة إلغاء الرقّ من حيث المبدأ، وبذلك يكون قد أسدى للبشرية خدمةً كبرىٰ، فيكون هو النظام الأكمل والجدير بأن يصدر عن الله الذي كرّم بني آدم وفضّلهم على كثير ممّن خَلَق؟

لكن ينبغي قبل كلّ شيء أن نُدرك حقائق اجتماعية وحياتية وسياسية واقتصادية، كانت أحاطت بمسألة الرقّيّة في العالم المتحضّر آنذاك، وكانت سبب تأخير هذا الإعلان المرتقب بإلغائها.

يجب أن ندرك أنّ الإسلام جاء والرقّ نظام معترف به في جميع أنحاء العالم، بل كان عملة اقتصادية واجتماعية متداولة، لايستنكرها أحد، و لا يفكّر في إمكان تغييرها أحد، لذلك كان تغيير هذا النظام أو محوه أمراً يحتاج إلى تدرّج شديد وزمن طويل. وقد احتاج تحريم الخمر وإبطالها إلى بضع سنوات، في حين أنّها كانت عادة شخصية، وربما كان بعضهم يتعفّفون عنها، ويرون خبثها وقذارتها، بما لايليق بذوي النفوس العالية. والرقّ كان أعمق في كيان المجتمع ونفوس الأفراد، ولم يكن أحد يستنكره ـ كما أسلفنا ـ لذلك كان إبطاله في حاجة إلى زمن أطول بكثير، ممّا لاتتّسع له حياة الرسولﷺ، وهي الفترة التي كان ينزل فيها الوحي بالتنظيم والتشريع، والله أعلم بمن خلق وبما خلق.

فالذي قدّمه الإسلام هو تمهيد السبيل لإبطال هذا النظام رأساً، ولعلّه كان لوقت

قريب لولا عرقلة السبيل بما لايكاد يعترف به الإسلام.

لكن تلك الخطوة التي خطاها الإسلام، كانت خطوة جريئة، وانتفاضة غريبة في وجه نظام الرقّ، بحيث لم تكن البشرية تترقّبها في مثل ذلك الوقت، وخرق للنظام الحاكم على جميع أرجاء العالم.

❊ ❊ ❊

تلك إجابة أجابها بعض الكتّاب الإسلاميين، تبريراً لموقف الإسلام تجاه الرقيّة في وقته المبكّر.[1]

وإجابة أُخرى لعلّها أعمق وأقطع لجذور السؤال: وهو أنّ الإسلام قد ألغى الرقيّة من أساسها والتي كانت معهودة ذلك الوقت، كان استرقاق الأقوياء للضعفاء أمراً معهوداً ومعترفاً به ـ كما أسلفنا ـ الأمر الذي لم يعترف به الإسلام أصلاً.

الإسلام لايرى استيلاء القويّ على الضعيف سبباً للاسترقاق، كما لايرى اللون وغيره من الفوارق الطارئة سبباً. ويرى ما كان يعترف به ذلك النظام ظلماً وعدواناً على البشرية ونقضاً لدعائم الإنسانية الكريمة.

وإذا لم يكن ذلك سبباً فما هو السبب الآخر؟ وإذ ليس شيء آخر يخلف ذلك النظام الغاشم، فإنّه يصبح ملغى لامحالة.

وبالجملة فأسباب الرقّيّة التي كانت معهودة لذلك الحيّز هي بأجمعها ملغاة لدى شريعة الإسلام، ولاسبب غيرها ذلك الوقت، ولامحالة فنظام الرقّيّة ملغاة نهائياً، حسب المتعارف آنذاك.

نعم، الإسلام يرى من أسباب الرقّيّة كلّها ملغاةً سوى سبب واحد ـ وهو استرقاق المعتدي على الإنسانية، المقدّم على هتك حريمها، فاستوجب لنفسه الإعدام والمحو عن الوجود، قطعاً لجذور الفساد في الأرض ـ فالإسلام بعطوفته وسماحته السماوية ـ لأنّه

---

١ ـ راجع: شبهات حول الإسلام، ص ٣٩. وقد كتبنا مقالاً ضافياً بشأن إلغاء نظام الرّقّ رأسيّاً بصورة تدريجية تنتهي إلى هذا الإلغاء التام. (الجزء السابع من التمهيد).

جاء رحمةً للعالمين ـ أجاز الاستبدال من قتله باسترقاقه، إبقاءً لنفس بشرية ـ مهما كانت رذيلة ـ علّة يصلح ويهتدي إلى الصلاح، إذا وقع تحت التربية المباشرة وفي ظلّ نظام الإسلام الحنون.

الإسلام إنّما أجاز الاسترقاق في ميادين القتال، القتال مع الكفّار وأعداء الإنسانية والإسلام، لاسبب للاسترقاق سواه. وإذا لم يكن سبب آخر فمعناه رفض سائر الأسباب التي كانت معهودة لحدّ ذلك الوقت، والتي كانت متداولة لاسترقاق الأناسي لغير سبب معقول.

جاء في كتاب «شرائع الإسلام» لنجم الدين جعفر بن الحسن المحقّق الحلّي (٦٠٢-٦٧٦) بشأن الأُسارى:

«فالإناث يُملَكن بالسبي ـ ولو كانت الحرب قائمة ـ وكذا الذراري... والذكور البالغون يتعيّن عليهم القتل، إن كانت الحرب قائمة، ما لم يسلموا... وإن أُسروا بعد تقضّي الحرب لم يقتلوا، وكان الإمام مخيّراً بين المنّ والفداء والاسترقاق».[١]

وهذا الحكم مستند إلى عدّة أحاديث مرويّة، منها حديث طلحة بن زيد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان أبي (الإمام الباقر عليه السلام) يقول: إنَّ للحرب حكمين:

إذا كانت الحرب قائمة ولم تضع أوزارها ولم يثخن أهلها فكلّ أسير أُخذ في تلك الحالة فإنّ الإمام فيه بالخيار إن شاء ضرب عنقه أو قطع يده ورجله، حيث قال تعالى: «إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَساداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ».[٢]

قال الراوي: سألته عن النفي من الأرض. قال: ذلك الطلب، أن تطلبه الخيل حتى يهرب. فإن أخذته الخيل حكم عليه ببعض الأحكام التي وصفت لك.

قال عليه السلام: والحكم الآخر، إذا وضعت الحرب أوزارها وأُثخن أهلها فكلّ أسير أُخذ على تلك الحال فكان في أيديهم فالإمام مخيّر إن شاء منّ عليهم فأرسلهم، وإن شاء

١ ـ شرائع الإسلام، ج ١، ص ٣١٧.

٢ ـ المائدة ٥: ٣٣.

فاداهم أنفسهم، وإن شاء استعبدهم فصاروا عبيداً.[١]

قال صاحب الجواهر: وهذا الحديث قد عمل به الأصحاب، فهو الحجّة في الباب.[٢]

وإلى طرف من هذا الحكم جاءت الإشارة في الآية الكريمة: «ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبيلِ ٱللهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ. وَٱلَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ. ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْباطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْحَقَّ مِن رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ لِلنّاسِ أَمْثالَهُمْ. فَإِذا لَقيتُمُ ٱلَّذينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقابِ حَتّىٰ إِذا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثاقَ فَإِمّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمّا فِداءً حَتّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزارَها».[٣]

قال الطبرسي: فإذا أُسروا فالإمام مخيّر بين المنّ والفداء والقتل والاستعباد. وهو قول الشافعي وأبي يوسف ومحمّدبن إسحاق. وقيل: إنّ الإمام مخيّر بين المنّ والفداء والاستعباد، وليس له القتل بعد الأسر. عن الحسن. وكأنّه جعل في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثمّ قال: حتى إذا أثخنتموهم.

ثمّ ذكر المروي عن أئمّة الهدى صلوات الله عليهم بما ذكرناه.[٤]

❊ ❊ ❊

ويتلخّص حكم الأُسارى، في أنّهم إن أُخذوا وقبض عليهم في حالة كون الحرب قائمة فإنّهم حينذاك يقتلون لامناص منه. وإن أُخذوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها. فإنّ الأمر بشأنهم منوط بما يراه الإمام مصلحةً في حينه: فإمّا أن يطلق سراحهم ـ إذا لم يكن إطلاقهم خطر على المسلمين، بأن يلحقوا بمعسكر العدوّ من جديد، وإلّا لم يجز إطلاق سراحهم على حال.

أو يفاديهم، بأن يأخذ الفداء، إمّا بإبدال أسير بأسير، أو بأخذ مال يتوافق عليه

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٧١-٧٢، باب ٢٣ من أبواب جهاد العدو.

٢ ـ جواهر الكلام، ج ٢١، ص ١٢٢.

٣ ـ محمّد ٤٧: ١-٤.

٤ ـ راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ٩٧.

الفريقان.

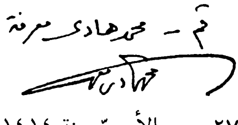
أو يستعبدهم، إذا لم يكونوا قد أسلموا من قبل.

والاستعباد هو آخر العلاج، و آخر الدواء الكيّ ـ كما قيل ـ.

فالاستعباد ـ في هذه الحالة الحاسمة ـ هو خير علاج ممكن لحلّ مشكلة الأسر، بعد أن لم تكن مصلحة في إطلاق سراحهم ولاأمكن الفداء، فلا سبيل بعدهما سوى: إمّا القتل أو الاسترقاق، والأخير خيرٌ لهم، علّهم يهتدون ويصلح بالهم، حيث عـناية المسـلمين بشأن العبيد وتربيتهم تربية صالحة، وسوف تنتهي حالتهم إلى الانعتاق إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

تلك كانت نماذج عن تشريعات إسلامية راقية فاقت سائر التشريعات الوضعية التي سبقتها، وحتى التي لحقتها على أيدي البشر القاصرة الشمول. وقد جهدنا في عرض أروع صوَر من ذلك التفوّق للتشريع الإسلامي الشامخ، وكان ذلك مبلغ وسعنا ولم نبلغ الغاية، ولعلّنا أبدينا بعض التكليف الموجّه إلينا في هذا المجال، ومن الله التوفيق و آخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمّد و آله الطاهرين.



٢٧ رجب الأصبّ سنة ١٤١٤

فهرس الآيات

الفاتحة

البقرة

آل عمران

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

الأنفال

التوبة

يونس

هود

يوسف

الرعد

إبراهيم

الحجر

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الأنبياء

الحج

المؤمنون

النور

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

الروم

لقمان

السجدة

الأحزاب

سبأ

فاطر

يس

ص

الزمر

غافر

فصّلت

الشورى

الزخرف

الجاثية

الأحقاف

محمد

الفتح

الحجرات

ق

الذاريات

الطور

النجم

القمر

الرحمان

الواقعة

الحديد

المجادلة

الحشر

الممتحنة

الصف

الجمعة

المنافقون

التغابن

الطلاق

القيامة

الإنسان

المرسلات

النبأ

العلق

البيّنة

الزلزلة

الفيل

النصر

المسد

الإخلاص